

حرب الثلاثمائة سنه

بين الجزائر و إسبانيا

1492 - 1792

أحمد توفيق المدني



دار البصائر

حرب الثلاثمائة سنة

بين

الجزائر وأسبانيا

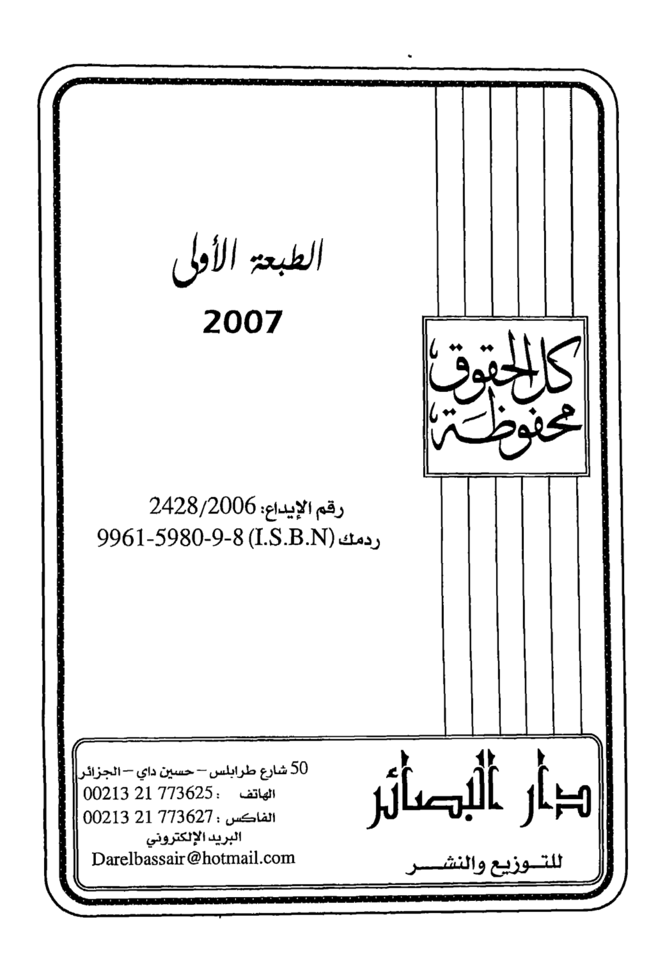
١٤٩٢-١٧٩٢

تأليف

أحمد توفيق المدني



دار البصائر

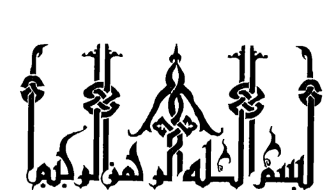


الطبعة الأولى
2007

رقم الإيداع: 2428/2006
ردمك (I.S.B.N) 9961-5980-9-8

دار البصائر
للتوزيع والنشر

50 شارع طرابلس – حسين داي – الجزائر
الهاتف : 00213 21 773625
الفاكس : 00213 21 773627
البريد الإلكتروني
Darelbassair@hotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

أقدم اليوم بين أيدي الباحثين والقراء دراسة تشمل في آنٍ واحد عصرًا معينًا ؛ هو عصر الدولة الجزائرية العثمانية، وحادثًا معينًا ؛ هو الغزو الصليبي الاستعماري الإسباني لبلادنا، وما كان لذلك الغزو من أسباب ومن نتائج، وما اقترن به طيلة ثلاثة قرون (١٤٩٢-١٧٩٢م) من ملابسات ومن تطورات، ثم أصف الوقائع -حربية كانت أو سياسية- وصفًا مسهبًا، ترى به الصورة الحقيقية واضحة التقاسيم، ناصعة الألوان، لا دخل فيها للزيف أو للخيال.

فحوادث هذه الملحمة الهائلة قد بقيت مجهولة لدينا في تفاصيلها، رغم أننا كنا أبطالها، وكنا ضحاياها، بينما اعتكف الغربيون من مختلف الآفاق على رداستها والتعمق فيها؛ فنشروا ما عثروا عليه من وثائقها، وألفوا فيها عشرات الكتب، ونشروا عنها مئات البحوث، كان أقلها السليم الذي لا يتحرى إلَّا الحق، وكان أكثرها السقيم الذي يسير مع الهوى، فاقتحمت الميدان، وجست خلال هاتيك الكتب والبحوث، مما تمكنت من الاطلاع عليه، أستخرج من بينها الحقائق الناصعة، وأحطم ما انطوت عليه من كذب وبهتان، ثم استخلصت من كل ذلك هذا الكتاب.

لقد اخترت هذا الموضوع بالذات؛ لأنه يتعلق أولًا بميلاد الدولة الجزائرية الحقيقية لأول مرة في تاريخنا، دولة ذات معالم معينة، وحدود مرسومة، فوق تراب تشكلت منه أرض الوطن، وتكونت فوقه وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية، بعد الوحدة الدينية التي كانت القاسم المشترك

الأعظم، وقامت على رأسه دولة لا تنتسب لعائلة ولا لقبيلة؛ إنما تنتسب لوطن معين، ثم اخترقت هذه الدولة في ميادين الكفاح والجهاد ثلاثة قرون ونيفًا، مرفوعة الرأس، خفاقة الأعلام، سائرة -ضمن دائرة الخلافة العثمانية- نحو استكمال السيادة المطلقة، وتحقيق الاستقلال التام.

حتى إذا ما ضربها الاستعمار الفرنسيُ، وصرعها حينًا من الدهر، اضمحلَّت شكلًا ولم تضمحل روحًا، وسارت تخترق الظلمات، تطفو تارة في قيامات شعبية عارمة، وترسب تارة أخرى تحت إرهاق الظالمين؛ إنما استمرت دائمًا عظيمة الإيمان، واثقة بالمستقبل، إلى أن انفجرت طاقات الشعب الجبار عن ثورته العارمة، فإذا به يدك صروح الظلم والظالمين، بين النيران الملتهبة والدماء الغزيرة والخرائب المتراكمة، وإذا به ينشئ بمحض إرادته وبمطلق مشيئته دولة الجزائر الجديدة، فوق نفس الأرض، وبين نفس الحدود، التي أقام فوقها في مفتتح القرن السادس عشر الدولة الجزائرية الأولى.

فهذه الدولة التي أقامها الشعب بإعانة الأتراك العثمانيين قد وُلدت بين فرث الحوادث ودم المعارك العالمية، خلال عصر تغيَّر فيه وجه الدنيا باكتشاف العالم الجديد، وتغيرت فيه موازين القوى بين الشرق والغرب، وتغيرت فيه أساليب الحياة، ونشأ فيه الصراع الاستعماري الأكبر بين الدول البحرية العظمى، واصدمت فيه الإمبراطوريات الكبرى بعضها ببعضن، ووقفت فيه المسيحية والإسلام وجهًا لوجه في معركة بقاء أو فناء، وأخذت فيه العقول تنطلق من العقال، والشعوب تفجر طاقاتها من أجل الحصول على الحرية والكرامة.

فكان انبثاق فجر دولتنا الجزائرية الأولى وليدَ ذلك التفاعل، ونتيجة حتمية لذلك الصراع العنيف، وكان -إلى جانب ذلك- عاملًا أساسيًّا من هذه

العوامل المتشعبة التي حددت أبعاد الملحمة الكبرى في الميدانين السياسي والاقتصادي، وسبرت أغوارها، واشتركت في حوادثها اشتراكًا فعليًا.

ثم اخترته ثانيًا؛ لأن هذه الدولة الجزائرية الأولى قد برزت إلى الوجود وشبت وشابت؛ نتيجة لحملة صليبية استعمارية هوجاء؛ فكانت أرض الجزائر -بعد أرض الأندلس- هدف هذه الحملة وميدان عملياتها الدامية، فالإسبان الذين تولوا كبر هذه الملحمة كانوا يمثلون المسيحية رسميًا، يعملون باسمها، ويحملون شعارها، يؤيدهم في ذلك البابا في روما، ويباركهم من أجل ذلك. أما الجزائريون، ومن جاء لنصرتهم، وجمع شملهم، وتولى قيادتهم من الأتراك، فقد كانوا يمثلون الإسلام، يجاهدون في سبيله، ويردون العادية عنه، ويتقربون إلى الله بالاستشهاد تحت لوائه، فاقترن الدفاع عن الوطن بالدفاع عن الدين، حتى إذا ما اتخذوا مدينة الجزائر عاصمة لهذه الدولة الناشئة، أطلقوا عليها اسم: «الجزائر دار الجهاد»، وظل هذا هو اسمها الرسمي من سنة (١٥١٦م) إلى سنة (١٨٣٠م).

فالتاريخ لهذه المعمعة العنيفة القاسية الطويلة -بأكثر ما يمكن من الصراحة ومن التفصيل- إنما هو واجب مفروض.

ثم إنني اخترته أخيرًا؛ لكي أصحح حسب الجُهْدِ والطاقة والاقتناع الكثير من الأوضاع، فيما يتلعق بتدخل الأتراك في هذه المعركة الحاسمة، والملابسات التي أوجدت ذلك، وفيما يتعلق بالدور العظيم الأساسي الذي قام به هذا الشعب العملاق، ساكن هذه البقعة الفسيحة من الأرض التي أصبحت بمحض إرادته ومشيئته تُدعى الوطن الجزائري، في ميادين الجهاد، والدفاع عن الدين والوطن والحرمات.

إنني خلال كتابي هذا أضع رُوحي وإحساسي وما تجيش به نفسي بعد الإيمان والاقتناع ضمن سير الحوادث، فالمؤرخ الذي لا يضع كل ذلك

ضمن تاريخه، والذي لا يبين وجهة نظره بكل أمانة وبكل نزاهة عن الحوادث وعن الأشخاص كان في تقديري من رواة القصص لا من المؤرخين.

وما التاريخ -في نظري- إلَّا عرض وتحليل، وتعليل وحكم، فالمؤرخ الحق إنما هو حاكم نزيه، حر الضمير، يدرس الوثائق والمستندات، ويستخرج الحقائق من بين النصوص، ويستمع بإمعانٍ إلى ما يقوله هؤلاء وما يقوله هؤلاء، ثم ينظر الملابسات، ويدرس المحيط، فإذا ما أسفر أمامه وجه الحق ناصعًا؛ أصدر حكمه عادلًا، لا عاطفة ولا رياء ولا محاباة.

ستراني أسلك هذا المسلك خلال هذا الكتاب، أقول الحق ما اعتقدت أنه الحق، وأمجد البطولة في شخص الأبطال، سواء أكانوا من شيعتي أم من عدوي، وأسمِّي الأشياء بأسمائها المحددة، فأقول عن الخائن أنه خائن، وأصف النذل بأنه النذل، فأنت ستراني كما أنا خلال الحوادث وخلال حكمي على الأشخاص، ثم إنك سترى مع ذلك أنني لا أخجل -سيرًا مع «المودة»- من إفساح المجال أمام العامل الإسلامي خلال هذا التاريخ؛ بل أعتبره عاملًا أساسيًّا ذا أثر فعال أولًا وأخيرًا في تاريخنا الجزائري، وأعتقد أن مَن تغافل عن ذلك العامل أو استهان به كان قد أنكر أهم مكونات الشخصية، وكان قد تعمد خيانة التاريخ.

ثم إنني لا أعتبر هذا المغرب العربي إلَّا وَحْدة واحدة لا شك ولا ريب في وحدانيتها، فشعبه شعبنا جميعًا، ورجاله رجالنا جميعًا، رغمًا عما وقع بين أجزائه في مختلف العصور، وسواء أكان بعض الرجال من الصالحين أو كانوا دون ذلك، فإذا ما أنا حملت على الواحد أو على الجماعة منهم، وكشفت إرضاء للحقيقية عن المخازي وعن السوآت، فأنا لا أفعل ذلك إلَّا على بساط مغربي عام، لا على بساط جزائري ضيق.

وهنالك أيضًا حقيقتان لا محيص عن بيانهما قبل الدخول في صلب الكتاب:

أولهما: أنني لست متعصبًا للأتراك، ولا أنا متعصب ضدهم، حسبما جرت به تقاليد الكُتَّاب العرب في العصر الحديث، إنما قصارى أمري معهم أنني أذكر الدور البطولي الذي قاموا به خلال عصر الانحلال والتدهور والغزو المسيحي في قيادة الشعب وشد أزره ضد العدو المهاجم، وما اضطلعوا به تحقيقًا لرغبة الشعب؛ من تأسيس الدولة بمعناها الوطني الحديث، ومقاومة المهاجم إلى أن أبعد نهائيًا عن أرض الوطن، وجمع الوحدة الوطنية الجزائرية الإسلامية ضمن دولة واحدة، وحول عاصمة واحدة، وتحت راية واحدة، رُغم أنف الإقطاعية الطاغية، وضد المصالح الخاصة القبلية والطائفية، فإذا ما نحن ذكرنا الدولة الجزائرية، وإذا ما نحن ذكرنا الوطن الجزائري؛ فقد ذكرنا الأتراك العثمانيين، سواء أكنا من المعترفين أو من الجاحدين.

ثم إنني لا أتدخل مع ذلك في طرائق الحكم، ولا في آثار هذه الدولة في مضمار العلم والعمران، فذلك ليس في نطاق بحثي هذا، وله مجالات أخرى، ولقد أوضحت رأيي عن ذلك صريحًا في كتابي «محمد عثمان باشا، داي الجزائر» إنما أقول بصفة عابرة مغتنمًا هذه الفرصة: إن تاريخ الدولة الجزائرية لم يدرس بعد، ولا يمكن أن يدرس الدراسة الحقة إلَّا بعد تعريب الوثائق الطائلة الموجودة الآن في خزائن الدولة التركية من جهة، وبعد تعريب كامل لـ«دفتر تشريفات» الجزائري المكتوب باللغة التركية، والذي هو من بين الوثائق المهمة العديدة التي يجب تعريبها، والتي أخذها الفرنسيون معهم عند انسحابهم النهائي من أرض الجزائر، فهذا العمل العظيم الشاق إنما هو عمل دولة لا عمل أفراد، يجب أن تتولاه لجنة مختصة من الأمناء الثقات، وبعد ذلك -وبالمقابلة مع النصوص الغربية والتي كتب أغلبها لغاية استعمارية مسيحية لا غبار عليها- يمكن أن يكتب التاريخ الحق لهذه الفترة من تاريخنا دون تجنٍّ أومحاباة.

وثانيهما: أنني لست متحاملًا على الإسبان، وأكنُّ للشعب الإسباني كل تقدير؛ بل إنما هي الحقائق التاريخية أجلوها بكل وضوح، فإذن أنا -خلال بحثي هذا- قد هاجمت المتعصبين، وسفاكي الدماء، وناكثي العهود والمواثيق منهم، فقد اعترفت بكل أمانة ونزاهة ببطولة أبطالهم وحمية مقاتليهم؛ بل أنني قد أبرزت بطولات تعمد نفس الإسبان غمط حقها، أو نكران جهودها، ولقد حملت على بني قومي ممن يستحقون حكم التاريخ الصارم، مثلما حملت على الإسبانيين الذين يستحقون ذلك، فليست القضية قضية عنصرية؛ إنما هي قضية تاريخية مجردة، يقال للمحسن فيها أنه المحسن، ويقال للمسيء فيها أنه المسيء.

وأخيرًا أقول: إن العالَمَ وَحْدَةٌ، وما من حادث وقع في جهة من جهات الأرض إلَّا وكان متأثرًا من قريب أو من بعيد بمجرى الحوادث العالمية، فدراسة أي عصر من العصور، أو أي حادث من الحوادث الكبرى، يجب أن يقترن حتمًا بدراسة الظروف والملابسات التي أحاطت به، بذلك نضع الأمر في إطاره الحقيقي، وتقودنا تلك الدراسة حتمًا إلى تصور الواقع بصفة جلية؛ وعندئذ نرى أن ما وقع إنما كان واجب الوقوع، وأن النتائج مربوطة بأسبابها، وتلك هي حتمية التاريخ.

من أجل ذلك تراني أستهل هذا الكتاب بتمهيد طويل، أجول به خلال حالة العالم -ومنه بلادنًا- في أوائل القرن السادس عشر، وسندرك -بعد الاطلاع على هذا التمهيد- أن الغزو الإسباني لبلادنا، ونشأة الدولة الجزائرية بتعاون بين الشعب وبين رجال النجدة التركية -إنما كانا ضربة لازب، وحتمية واقعية لا مناص منها.

وما توفيقي إلَّا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب.

أحمد توفيق المدني

تمهيد

١- مخلفات القرون الوسطى

نستطيع أن نؤكد أن الحروب الدينية المسعورة التي آثارتها أوربا المسيحية ضد الإسلام، والتي كانت في حقيقة أمرها حروبًا استعمارية تامة الأركان - كانت السبب الأساسي في خروج العالم من طور الجهل والظلمات إلى طور العلم والنور، ومن طور استعباد الشعوب وإذلالها، إلى طور نهضة الشعوب واسترجاعها شيئًا فشيئًا حرياتها الطبيعية، وتمكنها من المشاركة في حكم نفسها أولًا، ثم من فرض إرادتها وتوليها زمام الحكم وتصريف الأمور في بلادها أخيرًا.

ولست هنا بذاكر تفاصيل هذه الحروب الثمانية (١٠٩٥-١٢٧٠م) التي دارت فوق أديم الأرض العربية: سوريا - فلسطين - مصر - تونس، والتي انتهت باندحار التعصب الديني الوحشي، والجشع الاستعماري المادي الذي يمت إلى اللصوصية وأعمال السلب والنهب بنسب قريب؛ إنما أنا ذاكر هنا - بصفة أكثر ما تكون إيجازًا واختصارًا- بعض النتائج العظيمة التي أسفر عنها ذلك الصراع الهائل العظيم، الذي ألقى الغرب بقضه وقضيضه على الشرق الإسلامي.

ذهب الصليبيون إلى البلاد الإسلامية وهم معتقدون أنهم سيلاقون هنالك جموعًا همجية، وعصابات وحشية، ونظامًا وثنيًا يصادم تعاليم المسيح، ويتنافى مع الأخلاق الكريمة والفضيلة (على فرض أن الجماعات الوحشية الصليبية كانت تفهم معنى الفضيلة والأخلاق).

فإذا بهم -ولأول وهلة بعد المذابح الأولى- يجدون أنفسهم أمام مدنية زاهرة، وأخلاق كريمة، ودين سمح، ورجال ونساء تحلوا بالفضائل، وامتازوا بالكمال الإنساني إلى أقصى حدوده، ويرون في الشرق الإسلامي -إلى جانب ذلك- عيشًا رغدًا، ورفاهية عارمة، وخيرات دافقة، ومعالم قائمة، وقصورًا ومساجد وديار علم ما كانت تخطر لهم على بال.

كل ذلك غَيَّر من عقيدة الصليبيين في الشرق والإسلام، وهذب حواشيهم، وأدخل الكثير من مدنية الشرق وعوائده وأخلاقه عليهم، كانوا يرجعون إلى بلادهم وهم يحملون عقلية أخرى، ويفكرون تفكيرًا آخر، ويبذرون -من حيث يعلمون أو من حيث لا يعلمون- بذور انقلاب عام شمل بلادهم جميعًا: فنًّا، وعلمًا، وحضارة، وعمرانًا، وذلك بتفاعل المدنيات الإسلامية واللاتينية واليونانية.

من هنالك أشرقت أنوار عصر النهضة على أوربا.

من هنالك -كما يقول مسيو موليلي في دائرة المعارف الكبرى- فقد الصليبيون أول ما فقدوا ذلك التعصب الديني الذي كان السبب المباشر للصليبية، فقد وجدوا أنفسهم أمام رجال أكثر منهم غنى وثروة، وأكثر منهم حذقًا في معرفة أمور الحياة، يعيشون تحت سماء صافية الأديم، وأنهم -كرجال مثلهم- لا يقلون عنهم قيمة، ولا أريحية ولا فروسية . . . وأن الكثير من هؤلاء الصليبيين انغمسوا في حياة الشرق، واتخذوها لنفسهم شِرْعَةً ومنهاجًا.

هذا إلى جانب ما أخذه الصليبيون من الشرق؛ من صناعات جديدة، وعلوم، ونباتات، وما اقتبسوه من نظم، ثم ربطوا مع الشرق علاقات اقتصادية وتجارية واسعة النطاق[1].

(١) أما ما أخذه الشرق عن الجموع الصليبية مقابل ذلك فيقول عنه الفيلسوف المؤرخ غستاف لوبون: لقد رأينا من خلال أعمال الصليبيين -أينما حلوا- أنهم كانوا عبارة عن وحوش، يقتلون وينتهبون الأصدقاء والأعداء على حد سواء، فلم يستفد الشرق أي شيء من وجود هؤلاء المتوحشين الغلاظ. «مدنيات العرب» ص ٣٤٢

لكن التأثير الشعبي كان أعظم من كل ذلك وأجل خطرًا، فالحروب الصليبية التي قادها الملوك والأشراف والنبلاء؛ رغبة في استثمارها لمصلحتهم الخاصة، ولفائدة الإقطاع الإجرامي الذي كان مخيمًا على أوربا بأكملها -قد أدت على عكس ما أراده الأشراف والإقطاعيون إلى توسيع حريات الشعب، وإلى إدراكه كُنْهَ نفسه، واقتناعه بأنه في بلاده صاحب الحق المطلق؛ فانطلقت الشرارة التي فجرت طاقات التحرر في الشعوب، والتي سارت سيرها المتواصل نحو الانطلاق، تتعثر أحيانًا وتنهزم أمام الطغاة أحيانًا؛ لكنها كانت تعلم أنها بعد ذلك التعثر وبعد تلك الهزائم ستحقق أهدافها، وسيكتب لها النصر المبين.

أول ما بدأ من ذلك هو تحرر المدن من سيطرة الإقطاعية في أوربا، وكانت تلك بداية الانطلاقة؛ ذلك أن النبلاء والإقطاعيين -الذين قادوا الصليبيات- كانوا في مسيس الحاجة إلى مقادير طائلة من المال من أجل جمع الرجال، واقتناء ما يلزمهم من سلاح وعتاد، فكان أهل المدن يدفعون تلك المقادير مقابل تحررهم من ربقة الأشراف والإقطاعيين.

وهكذا تمزقت الحلقة الأولى من سلسلة الاستعباد.

وما برحت الشعوب تمعن في تمزيق الحلقات بعد ذلك، إلى أن تحررت بصفة مطلقة، بعد قرون من الجهود المتواصلة والجهاد المرير.

فلأول مرة في تاريخ العالم يرغم شعب من الشعوب حكومته على الاعتراف بحقه، وضمان حريته، وتسجيل مكاسبه في دستور مكتوب.

كان ذلك سنة (١٢١٥م) وكان الشعب شعب إنجلترا، وكان الملك الذي أُرغم على إمضاء الدستور الملك يوحنا، الذي تولى الملك بعد رتشاد قلب الأسد، الذي سجل -ببطولته وبانهزامه في الحروب الصليبية أمام صلاح الدين الأيوبي- اسْمَه على صفحات التاريخ.

كانت خيبات يوحنا متوالية، سواء في سياسته الداخلية أو في سياسته الخارجية؛ فانهزم في فرنسا -وقد كان الإنجليز يحتلون شمالها- انهزامًا شنيعًا (١٢١٤م) وانهزم أمام البابا، واضطر لإعلان تبعيته لسطان روما.

يومئذ ثار الشعب والبرجوازية، وثار معهما الأشراف والنبلاء؛ إذ أدركوا أن عهد ملوك الإطلاق لا يؤدي بالأمم إلَّا إلى الخراب والدمار، وكان من نتيجة ثورتهم أن اضطر الملك لإعلان الميثاق الأكبر (١٥ جوان ١٢١٥).

ومما يقتضيه ذلك الميثاق:

١- لا يلقى القبض على إنسان ولا يسجن، ولا تؤخذ منه ممتلكاته، ولا ينزع منه أي حق من حقوقه، أو أي حرية من حرياته، ولا يعدم إنسان بأي صفة من الصفات، إلَّا بعد محاكمته والحكم عليه، طبقًا لقوانين البلاد.

٢- لا يمكن للملك وحكومته فرض ضريبة على الشعب إلَّا بعد مصادقة مجلس ممثلي الأمة.

٣- يعترف الملك للشعب بحقه في الثورة وحمل السلاح ضد الملك والحكومة في حالة ما إذا وقعت منهما مخالفة لنص هذا الميثاق.

لكن الملك هنري الثالث (١٢١٦-١٢٧٢م) -الذي خلَّف الملك يوحنا السالف الذكر- كان خاملًا، ضعيف الإرادة، معتمدًا في إدارة مملكته على رجال من الفرنسيين والإيطاليين، وكان من نتائج سياسته الهوجاء أن مُنِيَ الجيش الإنجليزي بانهزامات كبيرة خارج البلاد.

وثارت ثائرة الشعب من جديد، وجمعت الثورة -تحت قيادة أحد كبار الإقطاعيين- الشعب والنبلاء والبورجوازية ورجال الدين، وأعلنت الثورة قيام البرلمنت سنة (١٢٣٩) وهو أول حكم نيابي منظم في العالم.

وكان أول شيء عمله «البرلمنت» هو رفض المصادقة على ما كان يطلبه الملك من مال؛ للقيام بحروبه الهوجاء ومصالحه الخاصة، واضطر الملك أخيرًا -سنة (١٢٨٥)- أن يُقسم على احترام الدستور والبرلمان الموسع.

وشاهَدَ العالم يومئذ شيئًا غريبًا، شاهد ممثلي الشعب -وخاصة منهم الأشراف والبورجوازية ورجال الدين- يجتمعون بصفة منتظمة ثلاث مرات في السنة؛ للاطلاع على حالة الدولة والنظر في شئون الأمة، ثم ينتخبون من بينهم ١٥ رجلًا، يطلقون عليهم اسم «المجلس الخاص»، يتولى الحكم مع الملك، ويراقب سير الأمور العامة.

ومنذ سنة (١٢٦٥) أخذ الشعب يوسع حرياته، فلم يبقَ المجلس ممثلًا لبعض الطبقات العليا؛ بل أصبح يمثل كامل الشعب الإنجليزي.

واقتفى الشعب الفرنسي أثر الشعب الإنجليزي في ذلك المضمار، وحاول أن يفرض إرادته، وأن ينال حقوقه شيئًا فشيئًا.

في سنة (١٣٥٦) كان ملك فرنسا يوحنا الطيب يخوض غمار تلك الحرب الضروس، التي كان هدفها إما استقلال فرنسا بنفسها، أو تبعتيها للمملكة الإنجليزية، ولكل من الفكرتين أنصار وشيعة داخل البلاد الفرنسية، ثم انهزم الملك هزيمة منكرة أمام الإنجليز وأنصارهم، وسيق أسيرًا ذليلًا إلى لندرة.

تولى يومئذ زمام الأمر ولي العهد شارل، ولم يكن لديه من مال، ولم يبقَ حوله من جندي، فالانهيار كان تامًّا، والهزيمة كانت عارمة.

أدرك يومئذ أن لا ملجأ له إلَّا الشعب، وأن هذه الجموع التي كانت تُحكم، وقيد الذل في أرجلها، وسيف الجلاد فوق أعناقها -إنما هي القاعدة الحقيقية التي لا يمكن حكم بدونها، ولا يتركز نظام إلَّا عليها، فدعا لعقد اجتماع يحضره ممثلو طبقات الأمة: الأشراف الإقطاعيون، ورجال الدين،

وعامة الشعب.

برزت -حينئذ- زعامة شعبية خلال اجتماعات المجلس، هي زعامة إتيان مرسيل -عميد تجار باريس- وأخذ المجلس يطالب بحقوق وحريات للبورجوازية، لم تكن تخطر على المالكين والأشراف والإقطاعيين ببال.

واضطر ولي العهد القائم مقام الملك -من أجل الحصول على المال والرجال لاستمرار الحرب- أن يعلن استجابة لإرادة المجلس سنة (١٣٥٧) «الميثاق الكبير» الذي يقتضي جعل المجلس العام دوريًّا، وإحداث إصلاحات عظيمة في الإدراة، وعلى الأخص أن يدخل ضمن مجلس الملك الخاص رجالٌ من الذين اختارهم ورضي عنهم الزعيم البورجوازي إتيان مرسيل.

لكن نائب الملك ما كان يومئذ إلَّا مخادعًا، فبمجرد ما تمكن من حاجته نقض العهد سنة (١٣٥٨) وأراد حرمان الشعب من بصيص الحرية الذي حصل عليه.

وكان الشعب بالمرصاد، فقام الزعيم البورجوازي إتيان مرسيل على رأس جماهير الشعب الكادحة ينادي بإعادة الحقوق، وتوسيعها وغل أيدي الملك والنبلاء، ثم هاجم الشعب وعلى رأسه الزعيم إتيان مرسيل قصر الملك، وقتل اثنين من المارشالات الذين كان الملك يعتمد على إخلاصهم، وكانا من أكثر خصوم الشعب شدة وعنادًا، وأثر هذه الثورة الشعبية اضطر نائب الملك للخروج من باريس، وأخذ يستعد للرجوع إليها من جديد على رأس جيش يعيد للمَلَكِيَّةِ ما فقدته من سلطة ومن هيبة.

يومئذ رأى إتيان مرسيل ومن معه أنه لا تمكن مقاومة الملك، ولا يمكن تحقيق المكاسب الضئيلة إلَّا بالاتجاه للشعب.

في تلك الأيام، كانت الثورة الشعبية التي يدعوها التاريخ باسم «الجاكرية»[١] قائمة على قدم وساق، وقد سئم تلك الحياة التي هي شر من حياة العبيد، وتلك المعاملة الفظة الغليظة التي كان يعامل بها من قبل الأشراف والإقطاعيين الذين حالوا بينه وبين أرضه، وسلبوه كل ما منحه الله للبشر من حقوق الحياة؛ فحمل السلاح -تحت قيادة غليوم كان- وأخذ يحارب الإقطاعيين ورجال السلطة مهما كانوا، ودامت تلك الثورة شهرًا (٢٨ ماي - ٢٤ جوان).

فمرسيل إتيان مد يده من باريس إلى هذه الثورة معينًا لها، مستعينًا بها؛ لكن المسعى قد خاب من الجانبين معًا؛ ذلك أن المدن الكبرى -في الناحية الشمالية الغربية من فرنسا- قد امتنعت عن مساعدة الثورة، وأخذ الثائرون -وكانوا قد أصبحوا تحت حكم الإقطاع المظلم أشبه بالحيون منهم بالإنسان- يرتكبون انتقامًا الجرائم والموبقات وأعمال التخريب والتحطيم والنهب والسلب ما جعل الناس -ولو كانوا يذوقون من أغلال الاستعباد الشيء العظيم- يمسكون عن مساعدتهم؛ فأخفقت الحركتان إخفاقًا ذريعًا.

فأما حركة الجاكيين فقد أخمدها الملكيون والنبلاء وسط فظائع وأهول لا يستطيع قلمٌ وصفها، وأما حركة باريس ومرسيل إتيان، فقد قضى عليها الملكيون كذلك، واغتيل الزعيم عام (١٣٥٨) وبقيت فرنسا بعد ذلك -وإلى أيام الثورة الفرنسية الكبرى- مرتعًا خصبًا للإقطاعية والظلم الأسود والاستعباد الفظيع.

واقتدت شعوب أخرى في أوربا الغربية والجنوبية -ما عدا إسبانيا التي كانت غارقة في لجج التعصب الدينين الضيق إلى الأذقان- بهذه الحركات،

---

(١) كان النبلاء والإقطاعيون يطلقون باحتقار اسم «جاك» على البدوي عامل الأرض.

وأخذت تشق لنفسها بنفسها طرق الحياة الحرة السعيدة، فكان عصر النهضة في الأدب، وكان عصر النهضة في العُمران، وكان التحرر التدريجي في أوربا من ربقة النظام الكنسي وسلطة رجال الكهنوت المظلمة، ثم كانت حركة الإصلاح الديني العظمى (اللوثرية البروتستانية)؛ فانطلقت الأفكار، وتحررت العقول، واتجهت الأنظار نحو النور الجديد.

هذه حركة شملت أوربا الغربية والوسطى والجنوبية، ما عدا إسبانيا التي كانت في صليبيتها العنيفة ضد مسلمي الأندلس بعيدة كل البعد عن هذه الحركات التحررية، سواء من ناحية الحكم الشعبي أو من ناحية النور والمدنية، ولقد كانت إسبانيا حرية بأن ترث تلك المدنية الإسلامية الشامخة الذرى، التي نشأت فوق أرضها، والتي كانت أقطابها من بين بنيها، إلَّا أنها ولسوء الحظ -حظها وحظ الإنسانية- كانت تمعن في تحطيم تلك المدنية وتراثها العظيم تحطيمًا إجراميًّا فظيعًا، تناول كل شيء: العقل، والكتاب، والجدار، والأرض.

فبينما كانت أوربا تفتح طريق الحرية والنور، كانت إسبانيا تحت قيادة رجال الكنيسة الذين تركوا رواء ظهورهم تعاليم المسيح، تتوغل في مهامه الجهالة وتتخبط في الظلام.

وتم النور في أوربا باكتشاف المطبعة الحديثة؛ ذلك أن الدنيا لم ترَ -منذ الخليقة إلى يومنا هذا- اختراعًا غيَّر حياتها، وفجر أمامها ينابيع المعرفة، وأخرجها من الظلام الدامس إلى النور الساطع، كاختراع المطبعة ذات الأحرف المنفصلة، التي حطمت احتكار العلم، وجعلت المعارف والأفكار والآداب في متناول الناس جميعًا.

وقع هذا الفتح الإنساني الأكبر في منتصف القرن الخامس عشر، وينسبه الناس وينسبه التاريخ للألماني غوطمبرغ سنة (١٤٣٦م) بمدينة سترازبورغ.

لكن الحقيقة التاريخية تقول: إن غوطمبرغ الألماني قد هذب فقط، وأصلح الطريقة الطباعية التي اخترعها الهولندي لورنت كوستر، وطبع بها أول كتاب مؤلَّف من ثماني صفحات، وكان ذلك سنة (١٤٣٣م).

لكن غموطمبرغ وشريكه فولست قد استثمرا ذلك الاكتشاف فأصبح عملًا صناعيًا منذ سنة (١٤٥٠) ونشرا عددًا من الكتب بصفة آلية مما جعلها في متناول الجميع، بينما كان الناس قبل ذلك لا يعرفون إلَّا الكتاب المخطوط الغالي الثمن العزيز المنال.

فاختراع المطبعة ذات الأحرف المتنقلة إنما هو ثورة عالمية عارمة، أثرت على مستقبل الفكر الإنساني وأخرجته من طور إلى طور، ولا تزال تسير به إلى الأمام.

ولست بصدد دراسة المطبعة والطباعة، فما ذكرتها إلَّا في نطاق الصورة المجملة التي أحاول أن أقدمها لقراء كتابي عن الحالة العامة التي كانت تسود العالم أيام قيام الدولة الجزائرية العثمانية، ووقوع الحروب الجزائرية الإسبانية، إنما واجب الإنصاف يقتضيني أن أقول كلمة موجزة عن الطباعة وتاريخها.

إن الهولندي لورانت كوستر، ثم الألماني غوطمبرغ، لم يخترعا إلَّا الأحرف الطباعية المنفصلة ليس إلَّا، واختراعا لها الآلة الميكانيكية التي تسمح باستخراج النسخ العديدة من الصفحات المكونة من تلك الأحرف.

أما نفس الطباعة -أي: إخراج نسخ عديدة من نص واحد بواسطة عملية آلية- فذلك أمر قديم، بل قديم جدًا، وقد أثبت التاريخ أن أول طباعة من هذا النوع إنما وقعت في سومر ببلاد ما بين النهرين (العراق) قبل المسيح بنحو ٢٨ قرنًا، وكان الطبع يقع يومئذ بواسطة نقش النصوص بصفة ناتئة فوق صفحة من الحجر، ثم توضع فوقها على التوالي ألواح من الطين؛ فتؤخذ الأشكال المنقوشة ثم تجفف على النار؛ فتصبح نسخًا عديدة ترسل إلى الأمكنة النائية.

وقد اكتشفت سنة (١٨٤٢) في خرائب مدينة نينوى بالعراق مكتبة كاملة للملك العراقي صرغون، كلها «مطبوعة» على هذه الطريقة.

وتفنن الصينيون بعد ذلك بما عرف ويعرف عنهم من دقة وذوق حساس سليم في تحسين وتطوير هذه الصناعة، فأصبحت الكلمات تنقش على صفحة من الخشب، وتطبع فوق الورق؛ بل تستعمل الألوان العديدة والصور الفنية المتقنة إلى جانب ذلك.

وفي مفتتح القرن السادس عشر -أيام كانت إسبانيا تجتاح سواحلنا في غزوة صليبية عارمة- ظهرت الطباعة العربية، وكان ظهورها في نفس مدينة غرناطة سنة (١٥٠٥) بأمر من الملِكين فرناندو وإيزابيلا؛ إذ كلفا خوان فالبرا بطبع كتابين يستعين بهما الرهبان لتنصير المسلمين، فطبع كتاب «وسائل تعلم قراءة اللغة العربية ومعرفتها»، ثم كتاب «معجم عربي» بأحرف قشتالية.

بل أن الحضارة الأندلسية الغرناطية قد فكرت في استعمال الطباعة بأحرف عربية منتقلة، وأن الأجل المحتوم فاجأها -وهي على أبواب الإنجاز- فأخذ فردنياندو جلاد مسلمي الأندلس الفكرة وبادر بتنفيذها؛ من أجل استعملها وسيلة من وسائل التنصير، ومحاربة العروبة والإسلام.

وإنني أعتقد أن هذا العمل لم يكن وليد وقته، ولا نتيجة تكفير ملكي، ولقد ظهرت الطباعة في إسبانيا أول ما ظهرت سنة (١٤٧٤) بمدينة بلنسية، وأخذت تطبع الكتب الدينية الكنسية، ولم يكن سبك الأحرف العربية وتركيبها بعد ذلك بالأمر العسير.

فلو أن الله مدَّ في عمر دولة الأندلس عشرين عامًا فقط؛ لكانت المطبعة العربية قد أخرجت للناس -ولا ريب- ثمرات العقول والأفكار، ووزعت على العالم العربي آلافًا مؤلفة من كتب العلوم والفنون والآداب.

٢- النهضة التجارية الكبرى والأسواق العالمية

ومن أهم -بل من أكبر ما نتج عن الحروب الصليبية السالفة الذكر- تطور الحركة التجارية ونموها في العالم، بين شرقه وغربه، وذلك يرجع إلى سببين:

أولهما: اكتشاف الأوربيين لأسلوب الحياة الشرقية الإسلامية، وما فيها من بذخ ومن ترف ومن كماليات، وتقليدهم لذلك حتى أصبحت تلك الحياة تعتبر عند الطبقة الموسرة في أوربا عنوان الكمال ودليل الرقي؛ ومن أجل ذلك كان عليها أن تستورد من الشرق الإسلامي كل المواد والبضاعة والأقمشة التي تستلزمها تلك الحياة.

وثانيهما: انتظام خطوط المواصلات بين الغرب والشرق أثناء الحروب الصليبية، والتعارف الذي تم بين الجانبين بواسطة تلك الحروب وما تخللها من فترات السلام؛ فأصبحت المعاملات التجارية مزدهرة بين الجانبين، وازدادت نموًّا وازدهارًا بعد انتهاء هذه الحروب.

واستولى الاحتكار على هذه التجارة منذ البداية؛ فتأسست الديار التجارية الكبرى، ونشأت الشركات المساهمة؛ بل أخذت الصناعة الناشئة تحاول أن تمد الأسواق التجارية بما تستطيع إنتاجه ليغنيها -ولو شيئًا ما- عن بضاعة الشرق.

أسفرت تلك النهضة التجارية الكبرى عن تكوين نظامين عظيمين في أوربا، هيمنا بصفة تكاد تكون مطلقة على الحركة التجارية بين الشرق والغرب من جهة، وبين أقطار الغرب فيما بينها من جهة أخرى.

أهم النظامين هو نظام «الهانز» المأخوذ من كلمة «هانزا» الألمانية، ومعناها الشركة، وهذا النظام يشمل الاتفاقات التجارية التي تنعقد بين المدن المختلفة؛ لكي تحتكر التجارة وتحتكر حركة النقل الكبرى.

فكان «الهانز» الجرماني يمثل اتحاد تسعين مدينة ألمانية، بين ساحلية وداخلية، وكان يحتكر التجارة في بحري الشمال والبلطيق، ويملك مستودعات ضخمة للبضائع المختلفة في كامل ألمانيا، وروسيا، وبلاد إسكاندينافيا، وإنجلترا، وكان «الهانز» يومئذ -كأكبر الشركات الرأسمالية في عصرنا الحاضر- يملي إرادته على الدول، ويُسَيِّرُ السياسة الدولية حسب مصالحه الاقتصادية.

إلى جانب ذلك، نشأت ببلاد الشمال الفرنسي وبلجيكا صناعة زاهرة غنية، أخذت تنمو وتنتشر، ولا تزال على نموها وانتشارها إلى يومنا هذا؛ هي صناعة الجوخ (الملف) والأقمشة الصوفية الرفيعة، وأصبحت مدينة «إبروج» في بلجيكا مركز صناعة وتبادل تجاري منعدم النظير، ثم زاحمتها وخلفتها في ذلك مدينة أنفرس ببلجيكا أيضًا؛ فصارت مركز التجارة العالمي الأول، ولها نفوذ سياسي عظيم.

إنما التجارة مع الشرق كانت مركزة في المدن الساحلية الأوربية على البحر المتوسط؛ كمدينة فينيسيا (البندقية)، وجنوة الإيطالية، وكانت لهما معًا تجارة واسعة مع السواحل العربية الإفريقية وخاصة الإسكندرية وبجاية، وأصبحت مدينة جنوة لا تملك أسطولًا تجاريًا فحسب؛ بل أصبحت من أجل تجارتها ومبادلاتها تملك مستعمرات عديدة؛ كجزيرة قبرص، وجزر في الأرخبيل اليوناني، وجزيرة أقريطش، ومدن ومراكز على ساحل البحر الأسود، وملكت -كما سيمر بك- مدينة جيجل على الساحل الجزائري مدة من الزمن.

وكانت التجارة الإسلامية العربية زاهرة غنية في ذلك الحين، لها السلطان المطلق على البحار الجنوبية والشرقية القصوى، فتنقل إلى الشرق أهم وأغلى ما تنتجه الصين وجاوى والهند وما إليها، ثم من الشرق وعلى طريق الإسكندرية ينقل ذلك إلى أوربا.

فكانت البندقية يومئذ مدينة عالمية ضخمة، تجد فيها أجناس البشر من كل صقع ومن كل دينٍ، يتبادلون أهم ما تنتجه بلاد الدنيا قاطبة، وكانت أهم صادرات الشرق الإسلامي يومئذ للبندقية وللشركات التجارية الكبرى: القطن، والحرير، والعطور، والتوابل، والحجارة الكريمة، وأدوات الترف والزينة من ذهب وفضة. كما كانت أهم صادرات المغرب الإسلامي: الحبوب، والصوف، والمرجان، والجلود.

واستمرت الرأسمالية المحتكرة في أوربا توالي محاولاتها التوسعية، وتريد فرض سلطانها المالي والتجاري على العالم، وأدى بها ذلك إلى أمرين عظيمين، كان لهما الأثر الفعال في تطور حياة العالم، وتغير موازين القوى فيه:

أولهما: الاكتشافات البحرية الكبرى.

وثانيهما: فتح عهد الاستعمار الكبير، واستعباد الشعوب.

٣- الاكتشافات البحرية الواسعة

الأمر الذي أثبته التاريخ هو أن هذه الاكتشافات العالمية الكبرى، التي قام بها المكتشفون المغامرون الأقوياء خلال القرن الخامس عشر -إنما كانت موجهة أصالة ضد العرب وضد الإسلام.

أما إنها ضد العرب بصفة خاصة، فذلك من أجل القضاء على تجارتهم الواسعة فيما وراء البحار، وقد رأيت -في الفصل السالف- أن العرب كانوا ينقلون عبر بلادهم أهم ما تنتجه بلاد أقصى الشرق وبلاد الجنوب، ومن المدن الساحلية العربية كانت الشركات الأوربية الكبرى تنقل ذلك إلى بلادها.

فعندما تضخمت هذه الشركات الرأسمالية وقوي ساعدها إلى أن أصبحت أقوى من الدول، أرادت أن تغزو الأسواق في البحار النائية، وأن تحل محل التُّجار والبحارين العرب في نقل تلك البضائع النفيسة، والاستحواذ عليها بثمن زهيد؛ ومن ثم وجب اكتشاف طرق بحرية جديدة تمكن هؤلاء المحتكرين من غشيان تلك الأقطار النائية من غير واسطة العرب؛ بل بتحطيم حركة النقل التجاري العربية التي كانت تموِّن أوربا كلها بجميع ما هي في حاجة إليه من المواد السالفة الذِّكْر.

وأما إنها ضد الإسلام والمسلمين عمومًا، فإن الفكرة التي دفعت بالمغامرين إلى اكتشاف البلاد فيما وراء البحار المعروفة كانت فكرة صليبية حقيقية، تريد أن تأخذ بلاد المسلمين من الخلف؛ لاستعمارها ولاستثمارها وتنصير أهلها.

وكان من غايات هذه الحركة الواسعة النطاق -التي تولى كبرها الإسبان والبرتغاليون وهم في غمرة تحطيم الدولة الإسلامية والمدنية الإسلامية في بلاد الأندلس- البحث عن شخصية خيالية أسطورية تدعى «الراهب يوحنا»، وقد

ثبت يومئذ في الأذهان، وشاع وذاع أن هذا الراهب يوحنا المسيحي يملك بلادًا شاسعة مسيحية، مفرطة الغنى، عظيمة الموارد، وأن بلاده هذه تقع على الأرجح جنوب بلاد المغرب العربي.

فليقع البحث إذن عنه وعن دولته، وليعقد الاتفاق معه على أن يهاجم بلاد المغرب العربي من الجنوب، بينما يهاجمها فرسان المسيحية الإسبان والبرتغاليون من الشمال؛ فتتكون في إفريقية الشمالية الغربية والوسطى دولة مسيحية عظمى، تقضي على الإسلام، وتستولي على موارد البلاد الضخمة من معادن وحجارة كريمة، ومن توابل ومواد عطرية تستنزف منها أوربا المقادير الهائلة، وكان الذي تولى كبر هذه الدعوة هو الملك البرتغالي هنري الملاح (١٣٩٤-١٤٦٠) الذي كان يمعن في محاربة المغرب الأقصى.

هذه هي الفكرة الأساسية.

كان المطبعة قد أذاعت على الناس منذ عهد اختراعها الحديث الكتب العلمية القيمة، ومنها الكتب الجغرافية اليونانية؛ ككتاب بطليموس الذي يثبت بحجج قاطعة كروية الأرض، وآمن الناس بهذا المبدأ، واستنتجوا منه أن الإنسان إذا ما خرج من نقطة ما، وسار على خط مستقيم؛ فإنه راجع لا محالة لتلك النقطة التي ابتدأ منها السير، وهكذا فُتح عصر المغامرات البحرية والاكتشافات الكبرى.

ولم يدرِ البحار العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد، الذي كان أعلم علماء زمانه في فن الملاحة، والذي ألف من بين كتبه الثلاثين في علم البحر كتاب «الفوائد في أصول علم البحر والقواعد»، لم يدرِ حين اجتمع بالبحار البرتغالي فاسكو دي غاما سنة (١٤٩٨) في شرقي إفريقيا، وقاده في الطريق التي يجهلها يومئذ كل أوربي على الإطلاق، إلى مدينة كالاكوت في الجنوب الغربي من بلاد الهند، أنه كان يقود أول حركة استعمارية أوربية مسيحية لتحطيم العرب وإذلال المسلمين...

وقد خرج البرتغالي فاسكو دي غاما يوم (٨ جويليت ١٤٩٧) والتقى بابن ماجد في مرسى مدينة ميلاند على الساحل الإفريقي الشرقي، فاستأجره لقيادة أسطوله نحو الهند، ووصل كالاكوت يوم (٢٠ ماي ١٤٩٨) ولا يذكر اليوم ابن ماجد أي إنسان؛ بل يذكر كل الناس فاسكو دي غاما.

وفي نفس السنة التي أذاق الله فيها مسلمي الأندلس نتيجة التفرقة والتخاذل والشقاق الداخلي أمام العدو سنة (١٤٩٢) التي دخل فيها فردنياند الكاثوليكي ملك إسبانيا، وإيزابيلا الكاثوليكية زوجه مدينة غرناطة الزاهرة اللامعة، خرج كريستوفر كولومبس المغامر الجنوي؛ لحساب ملكي إسبانيا، يحاول الوصول إلى الهند -مصدر الغنى والثروة والأرباح الطائلة- سائرًا من الشرق إلى الغرب، فاكتشف البلاد الأمريكية، وهو يعتقد أنه قد وضع رحاله ببلاد الهند الشرقية، وأطلق على سكانها اسم الهنود (٣ أوت ١٤٩٢).

وخلال سفرات متتالية فيما بين سنوات (١٤٩٣-١٥٠٤) اكتشف سواحل أمريكا الجنوبية (التي اكتشفها القرطاجنيون الكنعانيون قبله بنحو ١٦ قرنًا) وابتدأت يومئذ عمليات النهب والسلف والإجرام، وتحطيم مدنية كانت من أرقى مدنيات العالم في ذلك الحين.

وفي سنة (١٥٠٧) اكتشف البحار الإيطالي أميريك فيزبوس أن هذه الأرض المكتشفة ليست بلاد الهند؛ بل هي عالم جديد، وهكذا أطلقوا على هذه القارة اسم «أمريكا».

ثم كانت رحلة ماجلان البرتغالي حول الأرض لحساب إسبانيا، وتمت هذه الرحلة خلال ثلاثة أعوام (١٥١٩-١٥٢٢).

وهكذا عرفت كل البحار، واكتشفت جميع الأقطار، ولم يبقَ في العالم من مجهول إلَّا المقدار القليل.

٤- نتائج الاكتشافات العالمية

كان الإسبانيون والبرتغاليون -كما رأيت- هم الذين تولوا أكبر هذه الاكتشافات البحرية العالمية، ومن الطبيعي أن يكونوا أول المستفيدين منها، ولقد كانت النتائج عظيمة جدًّا:

١- الاستيلاء على طريق البهارات والتوابل: بادر البرتغاليون بإعلان حرب قاسية عنيفة فوق متن البحار ضد البحارة العرب أولًا، وضد الأسطول البندقي أخيرًا، وتمكنت البرتغال بعد قهر الأولين وكسر شوكة الثانين من الاستيلاء على طريق البهارات، واحتكار هذه التجارة الرابحة؛ بل واحتلال الكثير من الأرض التي تنبت هذه المواد.

ولقد قاوم المسلمون هذه الغزوة الرأسمالية الاستعمارية مقاومة عنيفة -برًّا وبحرًا- وأدركت دولة المماليك التي كانت تحكم مصر وبلاد العرب هدف المعركة وخطورتها؛ فلبت دعوة سلطان المسلمين في بلاد الهند، وأنجدته بأسطول عربي كبير، تحت قيادة حسن مشرف، يحمل جيشًا كانت أغلبيته -كما يقول المؤرخ الكبير ابن إياس- مؤلفة من المغاربة (سكان شمال إفريقيا) ومن التركمان.

وغادرت القوة مرسى السويس في شهر نوفمبر (١٥٠٥ جمادى الثانية ٩١١هـ) فطهرت البحر الأحمر من قرصان البرتغال وحصنت مدينة جُدَّة، وأقامت قلاعًا على الساحل العربي، ثم تقدمت لمصارعة الاستعماريين فوق عباب المحيط الهندي، واستمرت هذه النجدات تترى إلى ما بعد استيلاء العثمانيين على مصر، وقد سارت آخر قوة لدحر البرتغاليين يوم (٢٨ رمضان ٩٢٥-سبتمبر ١٥١٩) تحت قيادة حسين خوجة العثماني.

٢- نشأة الاستعمار الرسمي: كانت إسبانيا والبرتغال وحدهما فوق المسرح العالمي الفسيح، قبل أن يتألق نور الهلال العثماني في سماء أوربا،

فباكتشاف أمريكا من جهة، وبالاستيلاء على طريق التوابل ومصادرها بالشرق الأقصى؛ أصحبت كل من إسبانيا والبرتغال تفكران في الاستيلاء على العالم.

وكاد يقع الصدام بني الدولتين الصاعدتين لولا تدخل البابا في الموضوع، وعقد معاهدة تورد سيلاس سنة (١٤٩٥) التي تقسم العالم شطرين يفصل بينهما خط الطول الذي يمر بجزائر آسور في المحيط الأطلسي، فكل ما هو واقع شرقي ذلك الخط يعتبر منطقة نفوذ إسباني، لإسبانيا أن تفعل فيه ما تشاء، بينما كل الأقطار الموجودة غرب ذلك الخط تعتبر منطقة نفوذ برتغالي، تفعل البرتغال فيها ما تريد.

وانطلقت أيدي اللصوصية والسلب والنهب والتحطيم تعمل عملها دون ضمير رادع، ولا خشية مَن تدخل أحد.

وهكذا ابتدأ الاستعمار العالمي بأبشع صوره وأقذر وسائله، وتغيرت الوضعية الناجمة عن معاهدة (تورد سيلاس) الآنفة الذكر، فعقدت إسبانيا والبرتغال معاهدة جديدة عام (١٥٠٩) في مدنية فيلا فرنكا، فكانت تقتضي أن يكون المغرب الأقصى للبرتغال ولإسبانيا المغرب الأوسط (الجزائر)، ثم انطلقتا تفتكان بالإنسانية فتكا ذريعًا في أمريكا وفي آسيا وفي إفريقيا.

٣- تحطيم مدنيات إنسانية عالية: حطم الإسبان في أمريكا دولة المكسيك التي كانت مهد مدنية رفيعة؛ حيث كان يعيش شعبان كبيران محتضران عاملان، هما شعب الأزتيك والكيشواش، وكانا من الشعوب التي تباشر الزراعة بصفة علمية عالية، معتمدة على الري وعلى السدود، وكان الشعبان يجيدان الصناعة من تعدين الذهب والنحاس، وحياكة الأنسجة القطنية، وكانت لهما مدن ضخمة كمكسيكو، ومعالم رفيعة، وحياة اجتماعية منظمة.

حطم الإسبان كذلك بصفة وحشية قاهرة مدنية شعب الأنكاس في البيرو، وكان هذا الشعب يعبد الشمس، وله في بلاده شبكة من الطرق الممهدة،

وكانت الأرض عندهم مؤممة بصفة مطلقة، فكل عشيرة وكل عائلة لها ما يكفيها من الأرض لأجل معاشها؛ لكنها لم تكن تستطيع بيع الأرض أو التصرف فيها، فهي ملك جميع الشعب، وكانت لها قوانين مدققة لتوزيع العمل وتنظيم الحياة الاجتماعية.

حطم الإسبان هنالك -كما حطموا في المكسيك- كل شيء، لا من معالم تلك الحضارة فحسب؛ بل حطموا أيضًا نفس الحياة البشرية، فكان السكان المساكين الذين وقع استعبادهم يهلكون بالملايين، إلى أن انقرضوا تحت وقر البأساء والأعمال الشاقة التي كانت مفروضة عليهم من سن ١٨ إلى سن ٥٠ سنة.

٤- **استعباد الزنوج**: من أجل استثمار خيرات البلاد، وتعويض اليد العاملة المحلية التي أخذت في الانقراض والفناء، عمد الإسبان إلى السواحل الإفريقية المختلفة؛ حيث نظموا تجارة النخاسة المرذولة، وأصبحوا يسوقون إلى الأعمال الشاقة في البلاد الأمريكية المستعمرة الآلاف العديدة من الزنوج المستعبدين -رجالًا ونساء وأطفالًا- وراجت تلك التجارة وذاعت، وهي سبب وجود الزنوج السود في البلاد الأمريكية؛ حيث لا يزالون إلى يومنا هذا في الولايات المتحدة يقاسون أشنع أنواع الميز العنصري، ويعاملون معاملة تشمئز منها النفس الإنسانية.

٥- **الانهيار الاقتصادي الأسباني**: الاستعمار شر كله، فالأسبان الذين تكالبوا على الاستعمار وسرقة ذهب المكسيك والبيرو، والذين حطموا مدينة العرب في بلادهم، وأخرجوا منها ملايين الأيدي القوية العاملة التي جعلت من بلاد الأندلس الإسلامية جنة الدنيا علمًا وعملًا -قد أصبحت حياتهم حياة كسل وخمول لا يعملون عملًا، ولا يباشرون حرفة، يعتمدون من جهة على السلاح يحاربون به أقطار أوربا المغرب العربي من أجل التوسع

والسلب والنهب واكتساب الشهرة والجاه، ويعتمدون من جهة أخرى على الأسلاب والغنائم المسروقة من أهل أمريكا؛ فانحطت الأخلاق، وبارت الأرض، واندثر العمران، وكسدت التجارة، وأصاب إسبانيا انهيار اقتصادي لم تقم له بعد قائمة، رغم محاولاتها الأوربية والأمريكية، وخاصة محاولاتها في بلادنا الجزائرية.

ثم حذت دول أخرى وشركات رأسمالية عظمى حذو الإسبان والبرتغاليين في استعمار أقاليم أخرى، وانتهاب خيراتها، وكانت لهم كذلك صحف سوداء قاتمة، ليس هذا مجال ذكرها.

٥- إسبانيا والعرب الأندلسيون وأوربا

والآن علينا أن نلقي نظرة موجزة على إسبانيا، لا لكي ندرس تاريخها بصفة تفصيلية، ولا لنرى كيف كانت قبل الفتح الإسلامي الرحيم؛ بل لنعلم في إيجاز كيف كان تاريخ المسلمين فيها، وكيف نشأت الدولة الإسبانية الحديثة على أنقاض المسلمين، وكيف عامل الإسبان بقايا المسلمين المنكوبين في تلك البلاد التي أحيوها بعملهم، وأضاءوا أرجاءها بحضارتهم، وسقوا أرضها بعرقهم، وأغدقوا منها أنوار المعرفة والعلم والفن على أوربا الغارقة في لجج الجهل والاستعباد والظلمات، والتي أضاعوها بعد ذلك بخلافاتهم وتخاذلهم وتنازعهم على الملك الواهي والتيجان الزائفة، ثم ما كان لكل ذلك من أثر في حياة المغرب العربي، وما نتج عنه من محاولة الإسبان لاستعمار أرضنا، وتنصير قومنا، وتسليط سيف الاستعباد فوق رقابنا، ثم قيام دولتنا الجزائرية التي كسرت ذلك السيف، ومحقت تلك المحاولات، وركزت حكم العروبة والإسلام في أرضنا إلى الأبد.

١ - فتح العرب لإسبانيا

في حماس عظيم وجرأة نادرة اندفع المسلمون من مغربنا العربي، تحت راية طارق بن زياد الشهير، يفتحون بلاد إسبانيا؛ استجابة لرغبة المظلومين المنكوبين من أهلها.

ولقد كانت شبه الجزيرة الإسبانية خاضعة لسلطة شعب الفيزيكوت الذي تسلط عليها بعد شعب الوندال، وأصبحت دولة موحدة عاصمتها طليطلة، ولرجال الدين في حكمها اليد الطولى والكلمة العالية.

مات مِلِكها يامبا سنة (٦٨٧م) فسادت بعده الفوضى واختل النظام، وتطلع إلى عرش المملكة مغتصب اسمه رودريك، ودام الحال كذلك في ظلمات بعضها فوق بعض إلى سنة (٧١٠م) حيث طلب مستحق العرش الشرعي آسيلا نجدة المسلمين، فكانت انطلاقة طارق بن زياد المشهورة.

بعد معارك عديدة توطد أمر المسلمين بالبلاد؛ بل غامروا تحت قيادة عبد الرحمن الغافقي، وحاولوا بسط سلطان المسلمين شمال إسبانيا، وكانت وقعة بلاط الشهداء (بواتي ٧٣٢م) ثم رجوعهم إلى إسبانيا، بعد أن تركوا في البلاد الشمالية جاليات عديدة كان لها شأن عظيم.

واستمر توارد الولاة على الأندلس من قبل بني أمية طيلة مدة هذه الدولة بدمشق، وقد كثر عدد المسلمين بالبلاد، وجاءتها القبائل العربية[1] والبربرية من كل صوب في أعداد قليلة، ثم تكاثر عدد المولدين الذين هم أبناء مسلمين وإسبانيات، فتكوَّن في إسبانيا خليط عجيب من الناس، تمكن تحت راية العروبة والإسلام من إنشاء تلك الحضارة العربية الأندلسية التي لا تزال حديث الدهر وأعجوبة الدنيا.

أول ما يسترعي النظر في تاريخ إسبانيا العربية، هو تلك الحرية الدينية الواسعة النطاق التي تُركت للرعايا من المسيحيين عملًا بآية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ فتعاقبت أجيالهم وتسلسلت في المسيحية دون أي عائق، وكانت تلك المسيحية تحمل تحت طياتها حنينًا طبيعيًّا إلى الحكم المسيحية، ورغبة في إرجاع الدولة للمسيحيين، وكانت تلك هي الجرثومة التي نخرت جسم الدولة شيئًا فشيئًا، إلى أن كانت النهاية الفاجعة.

---

(١) يقول العلامة المختص الدكتور حسين مؤنس: إنه لم يدخل الأندلس طيلة مدة الحكم الإسلامي أكثر من ٢٠ ألفًا من العرب. «مجلة العربي» (جانفي ١٩٦٦).

وهنالك ملاحظة أخرى عن تاريخ العرب في إسبانيا؛ ألا وهي تغافل المسلمين عن نشأة وعن نمو الدول المسيحية في شمال البلاد الإسبانية، وإفساح المجال أمامها للتوسع والانتشار، بما كان فيه المسلمون من خلافات وفتن وحروب داخلية، وكان الواجب يقضي بتوحيد كامل البلاد إلى حدودها الطبيعية -أي: جبال البريني- وكان ذلك ميسورًا في أول الأمر، وكان ذلك يعود أيضًا بالخير العميم على العرب وعلى أهل البلاد معًا.

كان عصر الولاة مزيجًا من الحروب بين المسلمين والنصارى، وبين المسلمين أنفسهم، وكان في الحقيقة عصر مخاض وُلد في أثنائه المجتمع الأندلسي، واستعد للقيام بدوره الإنساني العظيم.

أطاحت دولة بني العباس في الشرق بدولة الأمويين، وجاء الأندلس صقر قريش عبد الرحمن الداخل الأموي سنة (١٣٨ هـ) يحمل بين جنبيه عزيمة البطل، فإذا به يؤسس دولة بني أمية بالأندلس على قواعد متينة سليمة، وتألق نجم مملكة الأندلس الكبرى حول العاصمة قرطبة تألقًا ربما لا يضاهيه نظير، واستمر ذلك النمو والازدهار طيلة إمارة بني أمية، ثم رأى عبد الرحمن الثالث أن يجعل الإمارة خلافة تامة الأركان، وطالت أيامه (٩١٢-٩٦٤م) وكانت أسعد وأزهر أيام المسلمين بالأندلس، بلغت فيها المدنية والحضارة أوجها، وانتشرت فيها العلوم والآداب انتشارًا منقطع النظير، ثم كانت أيام ابنه الحكم الثاني (٩٦١-٩٧٦) استمرارًا لنمو وامتداد المدنية الإسلامية رغمًا عمًّا تخلل ذلك العهد من حروب داخلية، وفتن لا أول لها ولا لآخر، وقلاقل مستمرة بين القبائل المختلفة، وحروب دامية مع الدول النصرانية الإسبانية.

هذه في الحقيقة ظاهرة جديرة بالدراسة وإمعان النظر في تاريخ المدنية العربية في بلاد الأندلس، وأكاد أقول: في كل مكان.

ترى القلاقل والفتن والثورات والدماء في الداخل، ممتزجة مع الحروب ضد النصارى خارج حدود المملكة، فنقول: إنه يستحيل قيام أية مدنية وأي عمران وسط هذه الحالة الغريبة التي لا أمن فيها ولا اطمئنان.

لكنك - من أعجب العجب- ترى إلى جانب ذلك مدنية وعمرانًا وعلمًا وأدبًا وفلسفة واختراعًا وتعمقًا في الفن، فتقول: إن البلاد التي أنتجت كل هذا لم تعرف شقاقًا، ولم تقدم على فتنة، ولم تكتوِ بنار حرب أهلية ولا حرب خارجية.

فالتاريخ الأندلسي كالتاريخ الإسلامي عامة، يؤلف بصفة واقعية مجردة تاريخين اثنين، لا تجانس بينها أبدًا: تاريخ الحروب والسياسة والدسائس والشقاق والفتن والتكالب الأعمى على العروش والسلطان، والتاريخ الآخر الذي يقع خلال ذلك؛ وهو تاريخ تلك المدنية الشامخة الذرى التي كانت نعمة من عند الله على الإنسانية، والتي كانت منبع نور وهداية في كل الميادين لكل شعوب العالم المعروفة.

أخذ العقد ينفرط سنة (٣٩٩هـ-١٠٠٨م) وابتدأ عهد الانهيار بعد أيام الحاجب المنصور (٩٧٦هـ-١٠٠٢م).

يقول الأستاذ لوسيور في دائرة المعارف الفرنسية: «ابتدأ عهد الانهيار حين أخذ أدعياء الملك يتزاحمون على الخلافة، وأخذ أمراء المقاطعات وحكام المدن يدعون الاستقلال، وآلَ أمر خلافة قرطبة إلى فوضى متواصلة، مكنت الأفارقة البربر من الانتصاب بإسبانيا من جهة، ومكنت المسيحيين الشماليين من استرجاع البلاد شيئًا فشيئًا.

وخلال القرن الحادي عشر بلغت الفوضى أقصى مداها، وأعلن الأمراء استقلالهم في: قرطبة - رندة - الجزيرة - غزلونة - قرمونة - بطليوس - مورون - إشبيلية - مالقة - طليطلة - المرية - بلنسية - دانية - مرسية - . . . إلخ . . . إلخ

كان هذا العهد عهد انقلابات في القصور، وقلاقل وفتن يقوم بها الجند، ومعارك محتدمة الأوار بين الأمراء وبين مختلف القبائل فيما بينها، ودامت هذه الحالة قرنًا ضاعت معها حيلة التاريخ.

لقد كان ملوك النصارى مختلفين أيضًا، وكانوا يتدخلون في هذه المعارك؛ لكنهم جمعوا أمرهم -أخيرًا- واتحدوا ضد المسلمين من أجل أبعادهم عن أرض إسبانيا، وأخذ الفونسو السادس ملك غاليسيا وقشتالة يهدد نفس بلاد الأندلس». اهـ.

ذلك أنه بينما كان عقد الخلافة قد تناثر، وتفرقت البلاد مع ملوك الطوائف، كان ملوك النصارى قد جمعوا أمرهم؛ فانضمت ممالك: أستوريا - وليون - وغاليسيا - وقشتالة لبعضها، وأصبحت تدعى: مملكة قشتالة.

النجدة المغربية

أمام هذا الخطر الذي يهدد مملكة الأندلس -أو بقاياها- بالانهيار، دعا المسلمون لنجدتهم بطل المغرب العربي والإسلام يوسف بن تاشفين رأس دولة المرابطين، فلبى الطلب وقام على رأس مغاوير المغرب للجهاد؛ فنال النصر الأعظم في واقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ-١٠٨٢م).

ثم رجع إلى الأندلس بعد ذلك فاتحًا قاضيًا على الفتن والخلافات سنة (١٠٩٠م) وقضى على ملوك الطوائف الذين مزقوا البلاد، ثم رجع للأندلس التي أصبحت ولاية مرابطية سنة (١٠٩٧) ثم سنة (١١٠٣) وأوصى أن تكون بلاد الأندلس لابنه «علي» من بعده.

وما كان سلطان المرابطين يسقط تحت ضربات المهدي محمد بن تومرت والبطل عبد المؤمن بن علي، اللذين أسسا على أنقاضه مملكة الموحدين

حتى أخذ أمنُ الأندلس يختل، وأخذ ملوك النصارى يتحفزون لإعادة فتح البلاد؛ بينما ظهرت من جديد رءوس فتنة «ملوك الطوائف».

واستنجد الأندلسيون من جديد برجال المغرب العربي ودولته الفتية الجديدة دولة الموحدين؛ فلبت الطلب وأسرعت للجهاد.

أرسل عبد المؤمن جيشه إلى الأندلس سنة (١١٤٦م) فتمكن منها، ثم سار إليها بنفسه سنة (١١٦٠) ودحر جموع النصارى الطامعين في الاسترجاع، وجمع شمل البلاد في قبضة ابنه يوسف (١١٦٣-١١٨٤م).

ثم انتصر خلفه أبو يعقوب المنصور على النصارى نصره الأكبر في معركة الأرقص (١١٩٥) ووقف تقدم ملكي قشتالة وأرغون مؤقتًا؛ لكنهما أعادا الكَرَّة بصفة عظيمة، وانتصرا على المسلمين الانتصار الحاسم، في الموقعة المسماة بالعقاب «لاس نافاس» التي وقعت أواخر صفر (٦٠٩هـ-١٢١٢ م).

قال شكيب أرسلان[١]: فجمع «محمد الناصر بن أبي يعقوب المنصور» جموعًا لأجل الجهاد، قيل نحو ستمائة ألف مقاتل[٢]، والتقى بالإفرنج وفيهم ابن إذفونس (الفونس) وصاحب برشلونة، فكانت الواقعة المسماة بالعقاب، ولم يقم بعدها للمسلمين في تلك البلاد قائمة تُحمد، وهلك فيها أكثر المجاهدين، وبالغ بعض المرخين فقال: إنه لم ينجُ منهم غير الألف، وهو بعيد عن التصديق.

ولمع في هذه المعركة الحاسمة اسم الفونسو الثامن ملك قشتالة، فتوجهت إليه وإلى مملكته أنظار وعواطف وسواعد الذين يريدون -وما أكثرهم- تحرير الأندلس من المسلمين.

---

(١) آخر بني سراج وخلاصة تاريخ الأندلس.

(٢) مبالغة في العدد غير معقولة.

أما المسلمون، فقد عادوا بعد حين إلى خلافهم، وإلى ملوك طوائفهم، وأخذت ممالكهم بعد حين تقسط شيئًا فشيئًا بين يدي ملوك الأسباب، ولقد كانت تسقط في الكثير من الأحياء بإعانة وبمساعي المسلمين الناقمين.

مملكة غرناطة

أما أمير أرجونة، فقد أسس في غرناطة مملكة بني نصر (ينتسبون إلى سعد بن عبادة زعيم الأنصار) واعترف به أهل الجنوب ملِكًا سنة (٦٣٣هـ-١٢٣٥م) وأصبحت هذه المملكة بعد نوائب وويلات هي الدولة الإسلامية الوحيدة التي بقيت قائمة ما يزيد على القرنين والنصف قرن (١٢٣٥-١٤٩٢) وفتحت عصرًا جديدًا -وسط القلاقل والفتن والدماء- من الحضارة والمدنية، ورفعت منار العلم والمعرفة والأدب والفن، وتألقت وهي تسير نحو الاضمحلال والتلاشي تألقًا غريبًا، وكثرت فيها الثروة والأموال، ونشطت فيها الزراعة نشاطًا غريبًا، ونالت صناعتها شهرة ذائعة، إلى أن كانت النتيجة المحتومة لكل أمة انشقت على نفسها، وجعلت إلهها هواها، وانغمست في البذخ والرفاهية، وتركت الحديد إلى الحرير.

فكانت معركة السنوات العشر (١٤٨٢-١٤٩٢) التي شنها الملك فرديناندو الكاثوليكي والملكة إيزابيلا، صاحبا عرش مملكتي قشتالة وأرغون، تؤيدهما بالمال والسلاح والرجال كل المسيحية في أوربا؛ إطاعة للأمر الصادر من البابا الذي فرض على المسيحيين ضريبة دعاها «ضريبة الصليب»، وبعد حروب ووقائع كانت سجالًا، تغلبت العزيمة الإسبانية والقوة المسيحية على عوامل الانهيار والاضمحلال التي سادت المسلمين، وما أغنى عنهم في آخر أيامهم جهاد القائد البطل الذي نسجل اسمه على صفحات التاريخ موسى بن أبي الغسان، الذي وقف ضد الاستسلام قائلًا: أي باعث بنا إلى إلياس، فإن دم الأبطال من عرب الأندلس فاتحي هذه الديار يجري في عروقنا، وعندنا قوة وافرة، وجيوش معودة مجربة في الوقائع، لا نرتاب في إقدامها، ولدينا

عشرون ألف شاب يمكنهم أن يدافعوا عن دورهم وأسوارهم أعظم قوة وأكثف جيش . . . إلخ.

ذلك أن مملكة غرناطة لم تستسلم -كما قلنا- دون مقاومة وجلاد، يقول عن ذلك المؤرخ الإنجليزي الكبير واشنطون أرفن: «إن هذه الحرب (حرب تحطيم مملكة غرناطة) حقبة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر، بما تخللها من باهر الثبات والإصرار، فإن النكبات توالت فيها على المغاربة (أهل الأندلس) مدة عشر سنوات بدون انقطاع، فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الأخرى، وفنيت رجالاتهم قتلًا وأسرًا، وقاتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج -بل عن كل صخرة- كأنما هم ينتظرون الفتح، ولم يجدوا مكانًا تثبت فيه أقدامهم، ولا جدارًا يمكنهم رمي السهام من ورائه إلَّا واعتصموا به ينازعون العدو وطنهم المحبوب حتى لم يبقَ لهم إلَّا عاصمتهم مقطوعًا عنها كل مدد، غير طامعة في أدنى غوث، تنزل على أسوارها أمة بقضها وقضيضها لم يزالوا يدافعون عنها، كأنما هم يترقبون معجزة يرسلها الله في حقهم».

وضاق عليهم الحصار، وبنى فرديناندو وإيزابيلا مدينة كاملة تجاه مدينتهم؛ إشعارًا لهم بأنهم لن يرجعوا عنها أبدًا، وبدأ للشبان والمجاهدين تحت زعامة موسى بن أبي الغسان الثبات والموت إلى آخر رجل تحت سنابك الخيل؛ إذ لم يبقَ هنالك إلَّا أحد أمرين: الاستسلام أو الهلاك المحقق في معركة إنقاذ الشرف.

لكن أهل غرناطة (٥٠٠٠٠٠ نسمة) خافوا فضيحة النساء وانتهاك حرمة البنات، وتشتيت الشمل، وفقد المال؛ فقرروا الاستسلام بعد مقاومة بطولية للإسبان، ورضوا أن يكونوا من رعايا الدولة الإسبانية مقابل اعترافها بحرية دينهم، واحترام عقائدهم وعوائدهم، والمحافظة على أموالهم وممتلكاتهم، وحرية من أراد منهم الانتقال بماله وأهله إلى بلاد المغرب العربي، وهكذا

استسلمت آخر دولة أندلسية، وخرج ملكها أبو عبد الله يبكي وينوح، وأمه عائشة الحرة تقول له: ابكِ مثل النساء ملكًا لم تدافع عنه دفاع الرجال!

فالإسبان الذين تمكنوا أخيرًا من تحطيم مملكة ومدنية الأندلس الشامخة، التي شغلت من التاريخ ٧٨٢ سنة، بقوا يتذكرون -ولم ينسوا أبدًا- **ثلاثة أمور**:

١- أن جنود الفتح الإسلام لإسبانيا قَدِمَتْ من بلاد المغرب العربي.

٢- عندما كادت الممالك الإسلامية الأندلسية تنهار تحت ضربات الإسبان الفتاكة، وتحت عوامل الفتنة والانقسام، جاءتها النجدة فيما يشبه الفتح الجديد، من بلاد المغرب العربي أيضًا، في شخص يوسف بن تاشفين والمرابطين، وفي شخص عبد المؤمن بن علي والموحدين.

٣- إن المسلمين الذين اضطرتهم الانتصارات الإسبانية إلى ترك أوطانهم وأموالهم وممتلكاتهم، إنما لجئوا إلى بلاد المغرب العربي المختلفة، يستثيرون أهلها، ويبثون في صفوفهم دعوة الجهاد المقدس، ووجوب إرجاع بلاد الإسلام إلى الإسلام.

فكانت هذه الأمور -علاوة على الأمور الأخرى التي سوف نعرض لها في مجال البحث- من جملة الأسباب التي وجهت أنظار الإسبان المنتشين بلذة الفوز والانتصار إلى ربوع مغربنا العربي، كما سنرى.

المدنية العربية

إتمامًا لهذه الصورة الوجيزة عن بلاد الأندلس، نريد أن نأتي بلمحة خاطفة عن مدنية العرب الشامخة الذرى بالأندلس، مما له علاقة ببحثنا هذا.

يقول الأستاذ لوسيور السالف الذكر: إن ملوك وأمراء الأندلس كانوا يحكمون البلاد طبقًا لتعاليم الدين الإسلامي.

أما المغلوبون -سواء كانوا من النصارى أو من اليهود- فلم تغتصب منهم أرضهم، ولم تنتهك حرمة منازلهم، فكانوا جماعة أهل الجزية يدفعونها من إيرادهم، وكانوا يتكلمون في آنٍ واحد اللغة العربية واللغة الإسبانية.

ولقد نشطت أعمال الزراعة نشاطًا عظيمًا وخاصة بمقاطعات بلنسية ومرسية والأندلس؛ حيث لا نزال إلى يومنا هذا نعجب بالسدود البديعة التي شادها العرب هناك، وحيث يبدو أن الفاتحين هم الذين أدخلوا إلى البلاد غراسة التوت، وتربية دود القز، وشجر اللوز، وقصب السكر.

أما الصناعة، فقد كانت مزدهرة في عدد عظيم من المدن؛ فقد كان في مدينة جيان ستمائة مصنع للحرير، وكان يوجد بمدينة المرية ستة آلاف منسج لصناعة الجوخ (الملف) والحرير المطرز وأقمشة القطن.

وفي مدينة بايزا كانت تُصنع الزرابي.

وفي مالقة مصانع البللور.

وفي قرطبة مصانع الجلود المزركشة.

أما الأسلحة والحلي، فقد كانت تصنع في قرطبة ومرسية وطليطلة وسرقسطة، وكانت كل هذه البضاعة تطلب بشغف في إفريقيا وأوربا.

أما الورق، فقد كان يصدر من سنة (١٠٠٩) من مدينة شاطبة بكميات وافرة.

وكانت المناجم والمعادن تستثمر في الحمة، ووادي القنال، ومرسية.

والخلاصة: أن الازدهار المادي كان عظيمًا في المدن الغنية، وفي البادية الآهلة، وإذا كنا لا نستطيع تصديق المؤلفين العرب الذين يقولون: إنه كانت توجد على ضفتي الوادي الكبير ١٤ ألف قرية، فالأمر المحقق هو أن هذه الناحية كانت على ازدهار عظيم.

ولقد اعتكف العرب في إسبانيا على الآداب والعلوم والفنون، فكانت لهم مدنية، وإن لم تكن مبتكرة، إلَّا أنها كانت ذات لمعان شديد.

وأما عدد العلماء من كل نوع الذين ذكرهم المؤرخون فهو لا يكاد يصدق، ولنذكر منهم -على سبيل المثال- علماء الدين كأبي علي القالي[(١)]، والفلاسفة كابن رشد[(٢)]، وعلماء الرياضيات كابن زلطى وابن جابر، والأطباء الذين ذاع صيتهم حتى بين المسيحيين.

والمؤرخ ابن حيان (١٠٧٦) وابن الخطيب (١٣٧٤) وابن بشكوال (١١٨٢) والجغرافي الإدريسي[(٣)] (١١٥٤) وابن جبير (١٢١٥) وجمهرة غفيرة من الشعراء من بينهم عدد كبير من النساء.

ومن بين الآثار العمرانية نذكر:

---

(١) إسماعيل البغدادي، ولد بالعراق، واشتهر بقربطة؛ حيث استقر وعلم، وتوفي (٩٠١ - ٩٦٧) اشتهر بالأدب وعلم اللغة.

(٢) أبو العيد محمد بن أحمد القرطبي (١١٢٦-١١٩٨) شارح كتب أرسطو، شهرته عالمية، وفق بين الدين والفلسفة.

(٣) رحالة جغرافي، ولد بالمغرب الأقصى، واستقر بالأندلس عالمًا ومعلمًا، وذاع صيته، ثم صحب الملك رجار في صقلية، وأحرز شهرة عالمية بتأليفه كتاب «نزهة المشتاق» ونقشه لصورة الأرض المعروف يومئذ فوق كرة من الفضة.

- مسجد قرطبة الأعظم (٧٨٦-٧٩٦).
- وقصر الزهراء الذي خرب من سوء الحظ (٩٦٥).
- وباب الشمس في طليطلة (١٠٩٥).
- والقصر والخيرالدا في إشبيلية (١١٧١-١١٩٦).
- وجنة العريف (١٣٥٠).
- وحدائق قصر إشبيلية (١٤٦٦).

إسبانيا الحديثة

ميلاد إسبانيا الحديثة الموحدة يرجع إلى (١٤٦٩) بالمصاهرة السعيدة على الوحدة الإسبانية، التي تمت بين فردينالد ملك أراغون، وبين إيزابيلا وارثة عرش قشتالة، التي مات أخوها الملك، فورثت عنه العرش، وهكذا تكونت سنة (١٤٧٤) إسبانية المسيحية الموحدة.

وتم تحطيم مملكة غرناطة كما رأيت، لكن إسبانيا كانت كما يقول أغلب المؤرخين قد فقدت روحها وقوتها العلمية والمدنية والحضارية؛ بتحطيم دولة العرب، وبإبعاد العرب والمستعربين بعد ذلك عن البلاد.

لكنها كانت يومئذ في غمرة النصرين العظيمين: النصر على المسلمين واكتشاف أمريكا، تسعى جهدها لتوحيد السلطة بين أيدي الملك، والضرب بصرامة على أيدي الإقطاعيين والنبلاء؛ خوفًا من تشتت شمل المملكة كما تشتت أيام العرب، فوقع الحد من نفوذ النبلاء؛ بل إنهم كانوا يبعدون إما إلى إفريقيا أو إلى ميادين الحروب، وأصبح الملك سلطانًا مطلقًا لا معارض لقوله، ولا راد لإرادته.

ثم ساد إسبانيا بعد قليل عصر من الظلمات والإرهاق، وتحكم فيها الجَهَلَةُ من الرهبان حكمًا كانوا لا يريدون منه إلَّا محق كل أثر لدين آخر -إسلامي

أو يهودي- فسنت بدعة محاكم التفتيش الرهيبة التي هي سبة في وجه الإنسانية، ووصمة عار وشنار في وجه المسيحية، والمسيح وتعاليم دين الإنجيل بعيدة عن ذلك كل البعد؛ وهي التي تتلخص في قول المسيح: «المجد لله في الأعالي، وللناس المحبة، وللأرض السلام» فأصبحت مدن وقرى إسبانيا كلها محارق فظيعة تستحيل فوقها رمادًا بقايا المسلمين واليهود، ومن يتهمون بأنهم أعداء الكاثوليكية والملك.

أشنع الخيانة وأفظع الغدر:

قبل أبو عبد الله -كما رأينا- تسليم مملكة غرناطة للإسبان، والانسحاب إلى جبال البشرات مقابل تلك المعاهدة التي عقدها مع الإسبان والتي قال هو بنفسه عنها في رسالته لسلطان فاس: «ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها، وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بإيمانه» ما يقنع النفوس ويكفيها... إلخ.

لكن القضية كلها كانت من سوء حظ إسبانيا وسوء حظ المسلمين معًا كذبًا ونفاقًا، وما كانت العهود والمواثيق والأيمان الفاجرة إلَّا مكرًا وخديعة؛ إذ ما كاد الملك الأندلسي يغادر غرناطة ومن معه من الرجال والنساء الأحرار، حتى قلب الإسبان للمسلمين ظهر المجن، وأخذوا يظهرون ما كانوا يبيتون؛ فأسلمت المدينة إلى حكم الرهبان فعلًا، فمنهم من كان في أول الأمر يمسح المسلمين بواسطة الضغط والأماني، ويحذرهم سوء العاقبة، حتى قالوا: إن الراهب هرناندو نصَّر في يوم واحد ثلاثة آلاف من سوقة المسلمين، بدعوى أن آباءهم كانوا من النصارى؛ لكن المتنطعين من رجال الكهنوت، وخاصة الكاردنال خيمينين الذي سنصطدم به وجهًا لوجه عما قريب بوهران، أقنع الملك والملكة بنقض العهد الذي بواسطته استسلمت غرناطة دون قتال.

فوقعت الوصمة التاريخية التي انغمس فيها الملك والملكة، وخانا اليمين، ونكثا العهد، وأعلنا أنه يجب على مسلمي غرناطة وما حواليها: إما اعتناق المسيحية، أو مغادرة البلاد، فخرج الناس رجالًا ونساء وأطفالًا هائمين على وجوههم، لا يحملون من متاعهم إلّا النزر القليل، يلتجئون إلى جبال البشرات التي بقيت في أيدي المسلمين (معترفة بسلطان الإسبان) أو يغتنمون فرصة وجود أي مركب ينقلهم إلى بلاد الإسلام.

وهنا -وبهذه المناسبة السوداء الرهيبة- يلتقي تاريخنا لأول مرة بالبطلين العملاقين التركيين: عروج وخير الدين، على رأس عمارة القرصان التي كانت تقاتل الدول النصرانية المحاربة للإسلام؛ فأنقذا من تلك المحنة القاتلة ما يزيد عن العشرة آلاف نسمة، لكن المستضعفين من الرجال والنساء في غرناطة، بقوا في دوامة تلك المحنة؛ فأُجبروا على التنصر وقلبهم مطمئن بالإيمان، وأُقفلت مساجد المسلمين أو حولت إلى كنائس، وتناولت يد الوحشية القاسية كتب المسلمين التي هي ثمرات العلم والمدنية خلال سبعة قرون؛ فأُحرقت وأتلفت، وأغلقت وهدمت الحمامات؛ بل كان الذي يرتاد الحمام يعتبر مسلمًا ويحاكم ويحرق، وهكذا بادت غرناطة المسلمة العربية، التي أبى أهلها الدفاع عنها؛ خشية أن ينالهم الأذى وأن يفتنوا.

أما «الموريسكو» أي: بقايا العرب والمسلمين في الأندلس، والذين بقوا على ساحل البلاد الجنوبي أو الذين هاجروا إليهم من بعد، فلم يسلموا من ذلك الأذى، وذاقوا من عذاب الهون ألوانًا لم يشهد التاريخ مثلها إلّا أيام جنكيز خان وهولاكو، وطالت الحروب بينهم وبين الإسبان وكانت سجالًا، لكن المآل كان محتومًا، واستصرخوا ملوك وأمراء المسلمين، فلم تستمع لهم أذن، ولم تحرك لنصرتهم يد، إلّا من هذه العاصمة الجزائرية التي أصبحت في ذلك الوقت دولة مرهوبة الجانب؛ فجهزت أيام البطل العظيم «قلش علي» حملة لإعانتهم، وأمدتهم -وهي تحت الخطر العظيم-

استطاعت من سلاح وعتاد ورجال، مما ستراه بحول الله مفصلًا في مكانه من هذا الكتاب.

واستمرت المحنة ما يزيد عن قرن (١٤٩٣-١٦١٠) وتوالت هجرات الأندلسيين إلى بلاد المغرب العربي والمشرق الإسلامي خلال تلك الأيام السوداء كلها، ناقلة معها في أول الأمر علمها وفنها وأدبها واختصاصها، وناقلة في آخر الأمر بؤسها وشقاءها وألمها وضغينتها، فكان جملة من خرج من إسبانيا من المسلمين خلال قرن ونيف، يبلغ الثلاثة ملايين من الرجال، ويقدر عدد من تمكن من الخروج الأخير، بنحو نصف مليون نسمة، كما يثبته المؤرخ بيتانلي لامبول في كتابه «الإسلام في إسبانيا» ولقد كان من بينهم -لا محالة- جواسيس وأعوان لإسبانيا، مهما قل عددهم.

هذه هي المحنة الدهماء التي كانت تقف بالمرصاد لمغربنا العربي، لو قدر للمخطط الإسباني النجاح إثر غزوته الصليبية التي شنَّها على بلادنا منذ تحطيمه مملكة غرناطة، والتي لم تنته إلَّا بعد حروب دامت ثلاثمائة سنة -هي موضوع كتابنا هذا.

يقول الأستاذ ل. لوسيور -المذكور آنفًا- في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى: «عندما رجع من نابولي الملك فرديناندو الثاني لكي يستعيد الوصاية للمرة الثانية على حفيده، لم يبذل جهدًا عظيمًا من أجل إرجاع الأمن إلى نصابه، وترك زمام السلطة بيد وزيره (الكاردنال) خيمينيس.

فهذا الوزير الماهر، الذي باشر الحكم من سنة (١٥٠٨) إلى سنة (١٥٠٧) بادر بإرسال حملات على إفريقية الشمالية، على نية حمل أهلها المغاربة على اعتناق الدين المسيحي قسرًا». اهـ.

وكان يعيش في إسبانيا تحت رحمة الإسلام وعدله نحو المليونين من اليهود، كانت بأيديهم -كما هي العادة- التجارة الواسعة، وأعمال النقود والمبادلة،

فصدر الأمر من ديوان التفتيش سنة (١٤٩٢) بإبعادهم عن إسبانيا، فهاجر منهم نحو مليون وثمانمائة ألف تفرقوا بين إفريقية الشمالية وبلاد الدولة العثمانية الشرقية، وقُتل منهم بعد التعذيب والتنكيل زهاء المائتي ألف (وكان سكان إسبانيا ذلك الوقت ٨ ملايين نسمة).

التوسع الإسباني وأوربا

إن إسبانيا التي خسرت بهذه الصفة أهمَّ عناصر الإنتاج والزراعة والتجارة والعلم أصبحت بلادًا بائسة تتخبط في ديجور الظلام يكتنفها من كل جانب، وقد خربت الأرض، وغاضت الترع والقنوات المعدَّة للري، وسادت البطالة، واعتمد الناس على ما يرد عليهم من أمريكا المنكوبة، من ذهب وفضة وخيرات. ولقد أصبحت الجندية حرفة وطنية، فما كان في الاستطاعة تسريح الجيوش؛ لأنها لن تجد أمامها عملًا تقوم به، وأخذت مئات الآلاف من الناس -رجالًا ونساء- تهاجر إلى بلاد أمريكا الوسطى والجنوبية؛ لقتل أهلها والاستمتاع بخيراتهم وأرضهم.

ثم رنت دولة إسبانيا بعين الطمع إلى أوربا، محاولة بطرق ملتوية الاستيلاء عليها أو على أكبر جزء منها. وكانت أوربا يومئذ مستعدة لعصر النهضة الذي عرَّف الإنسان بنفسه وبمحيطه، وبأصول المدنيات وفروعها نتيجة حتمية لما تدفق على أهل أوربا من علم العرب، ومدنياتهم المتسربة إليهم منذ أمد بعيد، من صقلية والأندلس أيام الحكم الإسلامي، ثم من تأثير الحروب الصليبية المباشر، وما أدخلته على المجتمع الأوربي من تطور عظيم -كما رأينا في فصل سابق- في ميادين العلم والأخلاق والسياسة والعمران.

يمكننا أن نقول -دون محاولة استنقاص إسبانيا التي استرجعت وحدتها السياسية والجغرافية، واستعادت استقلالها القومي بعد حروب دامت زهاء ثمانية قرون، ببسالة وإقدام وتصميم-: إن إسبانيا يومئذ كانت تمثل الجهل

والفاقة والظلام، والحكم التعسفي الجائر البشع؛ بينما كانت أوربا تستعد لعهد النهضة الكبرى.

فلم تكن بلادنا في المغرب العربي فحسب ضحية العدوان الإسباني؛ بل ذاقت أوربا من ذلك الشيء الكثير أواخر القرن الخامس عشر وإلى السبعينات من القرن السادس عشر؛ أي: قبل وأثناء العدوان الإسباني على بلادنا، وإننا لنرى وجوب تقديم صورة مصغرة لذلك -بغاية الإيجاز- حتى نعرف من هي إسبانيا التي كانت تقاتلنا وكنا نقالتها، وحتى نعلم جيد العلم ما هي الظروف التي أحاطت بذلك القتال المرير.

كانت البلاد الإيطالية خلال ذلك العهد -وهي تستعد لعصر النهضة- مقسمة سياسيًّا إلى دويلات وإمارات تكاد تكون الحرب فيما بينها صناعتها القومية.

وكانت إسبانيا تملك في تلك الساعة جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا (مملكة الصقليتين) ومدينة نابولي. وقد تسلم تاج هذه المملكة ملك إسبانيا، وهو مقيم بمدنية القل بشرقي الجزائر، في أول محاولة إسبانية توسعية خلال القرن الثالث عشر، كما سيأتيك مفصلًا في استطراد عند كلامنا عن ملحمة مدينة القل.

وكان الشعب متذمرًا من الحكم الإسباني، يحاول الثورة؛ بل يثور أحيانًا، ولا يجد إلى التحرر من سبيل.

كان ملك فرنسا يومئذ، شار الثامن، يدعى استحقاق عرش نابولي من إرث ملكي، فاحتدمت من أجل ذلك نيران الحرب بين الإسبان والفرنسيين، وهي المعروفة بحرب الستين سنة، وصارت فرنسا في أثناءها تطالب أيضًا بملكية ميلانو الإيطالية، وكان الإيطاليون يتدخلون -وهم في أرضهم- لفائدة هذا أو لفائدة ذلك، وتغلب الجانب الإسباني على الجانب الفرنسي فلحقت به الهزائم المنكرة.

وكان يحكم ألمانيا في ذلك العصر الإمبراطور الكبير مكسيمليان دي هابسبورغ (العائلة المالكة التي استمرت تحكم النمسا والمجر إلى سنة ١٩١٨) وكان الإمبراطور لا يرى بعين الرضا هذا التوسع الإسباني الفرنسي على حساب البلاد الطليانية التي كان بعضها (دوقة ميلانو) تابعة له.

فما عتمت الحرب أن انقلبت حربًا أوربية عامة، كانت فرنسا تقف فيها وحدها أمام إسبانيا وألمانيا، وانضمت لهما إنجلترا وسويسرا وجمهورية البندقية، وعقد البابا الذي كان يشرف على محاربة الفرنسيين يوليوس الثاني بين كل هؤلاء ما أسموه «العصبة المقدسة» وكانت نتيجة هذه الحروب المتوالية انهزام فرنسا، واشتداد ساعد إسبانيا.

عاصرت هذه الحروب الأوربية الأولى حقبة العدوان الإسباني على البلاد الجزائرية خاصة، وبقية بلاد المغرب، وتطورت سنة (١٥٢٠) إلى قيام إمبراطورية عظمى في التاريخ الأوربي؛ هي إمبراطورية شارل كنتوس (أي: شارل الخامس) أو شرلكان كما ندعوه في تاريخنا.

وقد جمع بن يديه، بواسطة وارثات ملكية متعددة: إسبانيا، والنمسا، وبلجيكا، وهولندا، وصقلية، وسردينيا، ونابولي، وجزءًا من ألمانيا، وأغلب البلاد الأمريكية المعروفة.

ومات الإمبراطور مكسيمليان، فعيَّن الأمراء والملوك شرلكان خلفًا له، وأصبح -باسم إمبراطوريته العظيمة ورجالها الأشداء- يقف وجهًا لوجه أمام فرنسا، والإمبراطورية العثمانية، ودولة الجزائر التي ذاق فوق أرضها مرارة الاندحار الفادح، ثم انهار تمامًا تحت ضربات الأتراك العثمانيين الفتاكة، الذين تحالف معهم ملك فرنسا فرنسو الأول زمنًا ما ضد العدو المشترك شرلكان.

سجل التاريخ في صفحة شرلكان أسوأ وأفظع حادثين في ذلك العصر: احتلال روما عاصمة البابا سنة (١٥٢٥) بعد حصار مرير وانتهابها، وانتهاك

حرماتها بواسطة جنوده من ألمان وإسبان، وذبح أهلها ذبحًا ذريعًا. ثم احتلال تونس ونهبها، وانتهاك حرمة سكانها بواسطة ذلك الجيش سنة (١٥٣٥).

٦ - الدولة العثمانية

عندما كانت النكبة العارمة تحل بالمسلمين في الأندلس -على الصفة التي ذكرنا- وعندما كان نجم المسلمين يأفِلُ ببلاد المغرب الإسلامي الأوربي، كان هناك نجم إسلامي ساطع يتألق نوره ببلاد المشرق الإسلامي؛ هو نجم الدولة التركية العثمانية، التي نمت في أوربا بلاد الأناضول، ثم تدفقت سيلًا إسلاميًا عارمًا على ما يليها من أقطار أوربا وإفريقيا وآسيا.

ليس الأتراك بغرباء عن العالم الإسلامي، فهم أمة من آسيا الوسطى، يرتبطون بقبائل الهون والمغول بأوشاج وثيقة، وتناولت بلادهم منذ نشأة الدولة الإسلامية دعوة الإسلام، فدخل أكثرهم في دين الله أفواجًا، وقربهم خلفاء بني العباس، واتخذوا منهم البطانة والحاشية والقادة والجند.

فتكاثر عددهم حتى أصبحوا ذوي حول وقوة في عراق العباسيين وما حواليه، وصار لهم الملك والدولة في بغداد -تحت سلطة الخليفة الاسمية- منذ اليوم الذي قلد فيه الخليفة الواثق تاج الملك في نفس بغداد زعيم الجند التركي، وأعطاه لقب السلطان سنة (٢٣٠هـ-٨٤٤م) بينما كان الخليفة المعتصم قد أدخل قبله ١٨ ألفًا من الأتراك في الدواوين الحكومية، وكلف جيشًا مؤلفًا من خمسين ألفًا من الأتراك بحماية الثغور سنة (٢١٥هـ).

وأصبحت الدولة في العراق العباسي وفي المقاطعات الإسلامية الآسيوية تحت سلطة بني بويه الأتراك، التي نقشت اسم سلاطينها فوق الدنانير، ثم حلت محل دولة بني بويه بعد ملك وراثي دام ١٢٩ سنة، دولة الأتراك السلجوقيين سنة (٤٢٢ هـ-١٠٣٠م) التي حكمت العراق تحت اسم الخلافة العباسية، وحكمت مختلف الجهات الإسلامية الآسيوية طيلة ١٦٨ سنة، وتلقت هذه الدولة صدمة الصليبيين ثم صدمة المغول.

يقول ابن خلدون عن هؤلاء الترك مصورًا الواقع أدق تصوير: «حتى إذا استغرقت الدولة العربية في الحضارة والترف، ولبست أثواب البلاء والعجز، ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسي الخلافة، وطمسوا رونق البلاد، وأدالو بالكفر من الإيمان بما أخذ أهلها عند الاستغراق في التنعم، والتشاغل في الملذات، والاسترسال في الترف؛ من تكاسل الهمم، والقعود عن المناصرة، والانسلاخ من جلدة البأس وشعار الرجولية، فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الإيمان بإحياء رمقه، وتلافي شمل المسلمين بالبلاد المصرية بحفظ نظامه، وحماية سياجه؛ بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها الغزيرة المتوافرة أمراء حامية وأنصارًا متوافرة... يدخلون في الدين بعزائم إيمانية، وأخلاق بدوية، لم يدنسها لؤم الطباع، ولا خالطتها أقذار اللذات، ولا دنستها عوائد الحضارة، ولا كسر من سورتها غزارة الترف».

ويقول عن دولتهم في الإسلام: «وكان مبدأ ذلك واقعة المتوكل، وما حصل بعدها... من تغلب الموالي واستبدادهم بالأمر والسلطان، ونهج السلف منهم في ذلك السبيل للخلف، واقتدى الآخر بالأول، فكانت لهم دول في الإسلام متعددة، تعقب غالبًا دولة أهل العصبية وشوكة النسب؛ كمثل دولة بني سامان وراء النهر، وبني سبكتين بعدهم، وبني طولون بمصر، وبني طغج، وما كان بعد الدولة السلجوقية من دولتهم مثل بني خوارزم شاه بما وراء النهر، وبني طغر لتكين بدمشق، وبني أرتق بمادرين، وبني زنكي بالموصل والشام، وغير ذلك من دولهم»[1].

وهكذا تحت ستار الدولة العباسية -ومنذ القرن الثلاث الهجري- فقد العرب الملك والسلطان، وأصبحوا يذعنون بصفة فعلية للحكم الإسلامي التركي؛ نظرًا للأمراض الاجتماعية التي أصابت العرب، ونظرًا للصلابة وشدة المراس والبداوة التي كانت عند الأتراك.

---

(١) «تاريخ ابن خلدون» طبع بيروت، ج٥، ص ٧٩٨ وما يليها.

ولقد أسفرت الحروب الصليبية في المشرق العربي عن **نتيجتين عظميتين**:

أولاهما: أن قهر الحملات الصليبية، وكسر شوكتها، والإلقاء بها إلى البحر، قد تم بواسطة الجهاد الإسلامي الأكبر الذي قاده الأتراك أولًا تحت سلطان السلجوقيين، ثم قادوه ثانيًا تحت راية صلاح الدين وأبطال الأيوبيين، ثم قادوه أخيرًا تحت راية سلاطين المماليك.

أما النتيجة الثانية الحتمية، فقد كانت تمكن الأتراك من قيادة الدولة الإسلامية بواسطة دولة المماليك الأتراك التي نشأت بمصر، والتي حكمت الشرق العربي (مصر والشام وجزيرة العرب وما إليها) حكمًا قويًا، حفظ دولة الإسلام، وأنجب من الملوك العباقرة أمثال الظاهر بيبرس قاهر الصليبيين، وأمثال قطز منقذ البلاد الإسلامية من كارثة المغول (معركة عين جالوت سنة ٦٥٩ هـ-١٢٦٠م).

وهكذا، آل حكم بلاد المشرق العربي -ما عدا العراق الذي كان يحكمه المغول ثم الفرس، بعد تنكيل المغول به أشنع وأبشع تنكيل- إلى سلطنة المماليك الأتراك بمصر، الذين حفظوا الدولة وحفظوا الجماعة، وتداركوا بقايا المدنية العربية، وعمروا البلاد على مقدار عظيم، إلى أن أدرك دولتهم الهرم، وأخذت ترسب في مهاوي الاضطراب والفتن.

في ذلك الحين -بالذات- برزت للعالم دولة تركية فتية يانعة قوية جريئة؛ هي دولة بني عثمان، التي سيكون لنا معها على مسرح التاريخ شأن وأي شأن:

ففي سنة (٦٩٩هـ-١٣٠٠م) وضع الأمير التركي عثمان بن أرطغول -سليل إحدى العشائر التركمانية القوية التي نزحت من بلاد تركستان إلى هضبة الأناضول- أُسُسَ الدولة الإسلامية الجديدة، على أنقاض إحدى الإمارات السلجوقية التي انقرضت في نفس تلك السنة؛ لموت سلطانها علاء الدين،

تحت ضربات غارة مغولية، فشتت عثمان شمل الغارة المغولية، وفتح مدينة بورصة واتخذها عاصمة لهذا الملك الناشئ.

ثم أخذت الفتوحات المدهشة تتوسع بصفة غريبة، وأخذت الممالك والإمارات النصرانية تسقط تحت ضربات الفاتح العثماني، واستفاقت المسيحية فإذا بها تقف أمام خطر جِد عظيم يهدد كيانها في الشرق الأوربي، بينما كانت تبذل الجهود للتخلص من دولة الإسلام في الغرب الأوربي -دولة الأندلس-.

تداول السلطنة خلال الفترة ما بين (١٣٠٠ و١٥١٦م) تسعة سلاطين، وجهوا جهودًا تكاد تكون فوق طاقة البشر لنشر الدولة الإسلامية فوق ربوع أوربا الشرقية، وأنشئوا من أجل ذلك جيشًا كان يعتبر أحسن جيوش العالم وأشدها قوة واقتدارًا، وهو جيش «اليني تشري» أو الانكشارية، كما أنشئوا العمارة البحرية الحربية التي حملت لواءهم المنصور فوق عباب كل البحار؛ فسادت أمام انتصاراتهم الباهرة وانتشارهم السريع في أوربا فكرة أنهم مردة في البر وشياطين في البحر، وأنهم لا يُغلبون.

كانت الفكرة الأساسية عند الدولة العثمانية -خلال القرون الوسطى وما بعدها إلى عهد التنظيمات- هي أن الإسلام كله في حالة حرب مستمرة مع المسيحية كلها، لا يستثني من ذلك إلَّا الأمم والدول الداخلة تحت الطاعة والتي تدفع الجزية، أو الدول التي ترتبط مع الدولة الإسلامية بمعاهدة إلى أجل معين، فإذا ما انتهى الأجل ولم تتجدد المعاهدة؛ أصبحت حالة الحرب سائدة من جديد بين الجانبين.

وكانت هذه هي القاعدة التي سارت عليها الدولة الجزائرية منذ نشأتها سنة (١٥١٦) إلى أخريات أيامها سنة (١٨٣٠).

فالسلاطين العثمانيون وجهوا كل جُهْدهم -كما قلنا- لفتح أوربا، ونشر لواء الإسلام وفقها، وتمكنوا خلال القرنين الأولين من احتلال بلاد البلقان وبلاد المجر، والكثير من بلاد النمسا، وجنوب البلاد الروسية حول البحر الأسود، ووقفوا أمام جدران مدينة فينا وأسوار مدينة البندقية.

ولولا نقمة الله التي انصبت على المسلمين من جديد، متقمصة شخص الطاغية السفاح المخرب تيمورلنك، سليل جنكيز خان وهولاكو، على رأس الوحوش من قبائل المغول، ومحاربته وقهره للسلطان بايزيد (٢٠ يوليو ١٤٠٣) ولولا ما عقب ذلك من فترة خلل عطلت سير الفتوحات الإسلامية خمسين سنة، لبلغت الدولة العثمانية مبلغًا عظيمًا، قبل أن توحِّد أوربا جهودها، وقبل أن تستعد للمقاومة المستميتة.

لكن هجمة المغول المخربة ضد العثمانيين (وضد المماليك في سوريا؛ حيث وقعت نكبة حلب ودمشق الأليمة الفاجعة) لم تمنع الأتراك العثمانيين من جَمْعِ شملهم، وتوحيد دولتهم من جديد، والمحافظة على كل ممتلكاتهم الشاسعة في أوربا؛ بل اقتحموا بعد ذلك بقليل (سنة ١٤٥٣) تحت قيادة السلطان البطل محمد الثاني الفاتح مدينة القسطنطينية العظمى عاصمة مملكة الروم الشرقية ودعاها «إسلام بول» أي: مدينة الإسلام، وحرفت الكلمة إلى إستانبول وأصبحت عاصمة دول الإسلام إلى سنة (١٩٢٢).

وقد أحدث هذا الفتح العظيم دويًّا عالميًّا منقطع النظير، واعتبره المؤمنون في كل جهات الأرض انتصارًا إسلاميًّا هائلًا؛ بل بعثًا جديدًا للإسلام، بينما اعتبره المسيحيون نكبة دهماء أصابتهم في الصميم، فهناك السرور والابتهاج، وهنا الحزن العميق والأسى.

ويقابل هذا تمامًا -بصفة عكسية- ذلك الحادث الجلل الذي وقع بإسبانيا، بعد أربعين سنة من ذلك؛ وهو سقوط مدينة غرناطة بأيدي

المسيحيين؛ فعم الفرح والجذل كل بلاد الصليب، واشتركت كل بلاد الإسلام في اللوعة والأسى.

لم يتعرض الأتراك العثمانيون إلى ذلك الحين للبلاد العربية التي كانت -كما رأينا- تحت سلطان الأتراك المماليك؛ بل اكتفوا بمحاربة الفرس الإيرانيين الشيعيين الذين أخذوا يحاربونهم على أطراف السلطنة في المشرق، وغلبوهم مرارًا، واستخلصوا من أيديهم كامل «ديار بكر» وبعض بلاد «الجزيرة»، ثم استأنفوا محاربتهم بعد ذلك، إلى أن استخلصوا من بين أيديهم بغداد وكامل بلاد العراق.

لكن سلطان دولة المماليك -الذي كان يحكم مصر والشام وفلسطين والحجاز واليمن، وشرقي ليبيا- الملك الأشرف السلطان قانصوه الغوري، كان يخاف يومًا تتحول فيه أنظار العثمانيين إليه؛ فتحالف مع الشاه إسماعيل سلطان فارس، واتفقا على محاربة الدولة العثمانية[(١)].

فما كاد السلطان سليم ياوز (القاطع) العثماني ينتهي من محاربة الفرس، واستخلاص ديار بكر والجزيرة من بين أيديهم حتى أمر جيشه بالوجه لمحاربة المماليك؛ فهزم السلطان الغوري في معركة مرج دابق؛ حيث قتل تحت سنابك الخيل، واحتل العثمانيون كامل بلاد الشام، ووصلوا حدود مصر (أوت وسبتمبر ١٥١٦) ثم هاجموا مصر التي تولى طومان بك مِلِكًا عليها؛ فاحتلوها بعد أن أبلى المماليك والمصريون بلاء حسنًا في الدفاع عنها (٢٢ جوان ١٥١٧).

وعندئذ خضعت كامل البلاد العربية للسلطان العثماني، وتسلم ياوز سليم الأول لقب الخلافة من يد آخر الخلفاء العباسيين بالاسم، وخُطب باسمه

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» محمد فريد بك.

على كل منابر المسلمين بالشرق والغرب إلى حدود المملكة الحفصية، وأصبحت الإمبراطورية العثمانية تمتد من مدينتي فيينا وبودابيست (عاصمتي النمسا والمجر) في قلب أوربا، إلى مدينة طرابلس الغرب، وأحيطت أوربا بالخطر الأكبر، واستعدت لمقاومة جيوش الإسلام المكتسحة، وهنا وقف العثمانيون وجهًا لوجه أمام دولة إسبانيا التي كانت مهيمنة على أوربا الجنوبية الغربية والوسطى.

هكذا كانت حالة أوربا، وحالة المسلمين، وحالة بلاد الأندلس البائسة عند وقوع العدوان الإسباني واشتداد خطبه على بلادنا الجزائرية، وبقية بلاد المغرب العربي.

بقي علينا أن نلقي نظرة فاحصة سريعة على حالة المغرب العربي تُجاه هذه التيارات العالمية المتشاكسة، وأمام هاتين القوتين الرهيبتين الصاعدتين: قوة الإمبراطورية الإسلامية العثمانية شرقًا، وقوة الإمبراطورية الإسبانية المسيحية غربًا.

٧- المغرب العربي أوائل القرن السادس عشر

تقهقر وفوضى وانحلال

تلك هي الكلمات التي تلخص لنا -دون حاجة إلى إطناب وتفصيل- حالة بلاد المغرب العربي المؤلمة في مفتتح القرن السادس عشر، وهي تجابه الأحداث الجسام، وتشهد خروج العالم من عصوره الوسطى المظلمة إلى العصر الحديث.

فبينما كانت إسبانيا قد حطمت آخر ممالك المسلمين ببلاد الأندلس، وبينما كان نجم الدولة الإسلامية العثمانية يعلو وينمو ويجر الذيل فوق ميادين القارات الثلاث: أوربا وآسيا وإفريقيا، وبينما كان السلطان المسيحي يجمع صفَّه، ويوحد قواه، ويستعد للمعركة الحاسمة ضد الإسلام والمسلمين، وبينما كانت أوربا قد أخذت -وراثة عن المسلمين- تضع الأسس المتينة لحضارة جديدة، ونهضة اقتصادية عظيمة، وتكتشف الاكتشافات العالمية التي غيرت وجه التاريخ -كان المغرب العربي مقسمًا -نظريًا- إلى ثلاث دول، ورثت أمجادًا عظيمة، وتمتعت خلال تاريخها الحافل بجلائل الأعمال؛ بنهضة عالية في ميداني العلم والعمران، وعلى بساط الأدب والفن، هي الدول التي قامت على أنقاض دولة الموحدين:

١- دولة بني حفص بتونس (وطرابلس والشرق الجزائري).

٢- ودولة بني زيان (بالوسط والغرب من أرض الجزائر).

٣- ودولة بني مرين (بالمغرب الأقصى).

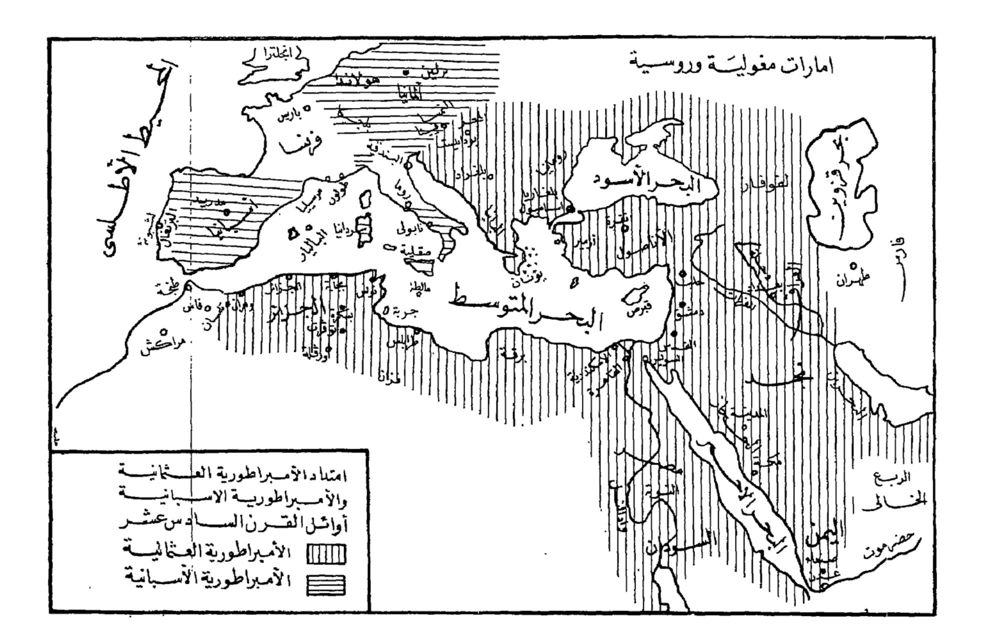
لكن ازدهار هذه الدول قد أخذ يذبل شيئًا فشيئًا، وسقطت كلها في وهدة الانقسامات والحروب الداخلية الهوجاء، فحروب داخل كل دولة بين

الطامعين في العرش، وما يجره ذلك من المحن والبلايا، وحروب بين الدول الإسلامية تقود الحفصيين تارة إلى فاس، وتقود المرينيين تارة أخرى إلى تونس، ودولة بني زيان بين شقي الرَّحَى، تنتمي مرة لهذا وتنتمي مرة أخرى لذلك، وتلعن وجوب التخلص منهما معًا.

وهكذا انقضى القرن الخامس عشر كله في مد وجزر، واستقلت الجهات العديدة في أطراف وفي وسط المغرب العربي بنفسها، مؤلفة إمارات إقطاعية أو ملوك طوائف واهين يطفون كالفقاقيع فوق سطح الماء ثم يرسبون بسرعة، فلا تكاد تعرف خلال فترة الانحطاط والتدهور حدودًا معروفة لدولة، ولا تخومًا مرسومة لإمارة، وذاق الشعب من جراء هذه الجرائم التي لا يغفرها الله ولا يستسيغها التاريخ أهوالًا وخطوبًا لا يستطيع القلم وصفها، مع أن المغرب العربي كان عامرًا بالرجال، مزدانًا في كل جهاته بالعلماء والأدباء، لم ينضب فيه إلى جانب تلك الحروب معين المعرفة والفن.

وكان جديرًا بأن يؤلف وَحْدة سياسية واقتصادية واجتماعية تجعل منه دولة عزيزة الجانب قوية السلطان على غرار دولة الموحدين، ولعل ذلك كان مقصد بني حفص -ورثة الموحدين- من جهة، وكان كذلك هدف بني مرين من رواء هذه الحروب والفتن المتواصلة؛ لكن لم تكن لأي من الدولتين المقدرة ولا الاستعداد لتحقيق هذا المطمح العظيم، رغم أن أبا فارس عزوز الحفصي كان من تحقيق الوحدة قاب قوسين أو أدنى (١٤٢٥).

وهنا يجب علينا أن نبدي ملاحظة -إنصافًا للحقيقة والتاريخ- وهي أن دولة بني زيان التلمسانية قد ذهبت ضحية محاولات الحفصيين ومحاولات المرينيين معًا، فكل من الجانبين كان يرى -إلَّا في فترات قليلة- وجوب محقها، والاستيلاء على أرضها؛ تحقيقًا للهدف الذي كان يجري وراءه، فاستنزف ذلك قواها المادية والمعنوية، وعجل بها إلى مهاوي الانحطاط ثم الاضمحلال.


امارات مغولية وروسية
انجلترا
برلين
هولاندا
ألمانيا
باريس
فرنسا
البندقية
روما
نابولي
صقلية
مالطا
سردانيا
البليار
مدريد
المحيط الأطلسي
البحر الأسود
القوقاز
بحر قزوين
طهران
فارس
الأناضول
أنقرة
قبرص
دمشق
البحر المتوسط
جربة
طرابلس
برقة
فزان
تونس
الجزائر
بجاية
وهران
فاس
طنجة
مراكش
ورقلة
الاسكندرية
القاهرة
السويس
السودان
البحر الأحمر
المدينة
مكة
نجد
الربع الخالي
اليمن
عدن
حضرموت
امتداد الأمبراطورية العثمانية
والأمبراطورية الاسبانية
أوائل القرن السادس عشر
الأمبراطورية العثمانية
الأمبراطورية الاسبانية

وأعجب العجب، هو أن يد الاستعمار المسيحي الأوربي قد أخذت تطرق أبواب المغرب بشدة منكرة، وتنذره بالويل والثبور منذ بداية القرن الخامس عشر، حين تطاولت أيدي الإسبان إلى مدينة تيطوان سنة (١٤٠٠) فأخذته وحطمتها، وقتلت النصف من سكانها، وساقت الباقين من رجالها ونسائها أسرى وسبايا إلى إسبانيا، في حين كان ملك المغرب أبو سعيد عثمان يحارب مملكة بني زيان بتلمسان من أجل إرغامها على التبعية لبني مرين، فاحتل تلمسان وطرد ملكها أبا زيان، ونصب مكانه أبا محمد عبد الله.

وتطاولت بعدها يد البرتغال على مدينة سبتة سنة (١٤١٥) فاحتلها الملك خوان بنفسه، بينما كان أبو سعيد يحارب أبا حسون من أجل تلمسان أيضًا!

اجتمع المسلمون في المغرب الأقصى على مقاتلة البرتغال من أجل استرجاع سبتة، وأعانهم على ذلك أهل الأندلس؛ لكنهم أخفقوا سنة (١٤١٩) وقُتل السلطان عبد الحق المريني بيد الشعب الثائر الساخط على تمكين اليهود من زمام السلطة بأمر السلطان.

وهكذا انتهت دولة بني مرين (١١٩٦-١٤٢٨) وخلَّفها فرع منهم كان يحكم سلا؛ هو فرع بني وطاس.

وتستمر الحالة هكذا -ويا للأسف- طيلة قرن ونيف، كأنما هي حالة جنون جماعي قد أصابت القوم كلهم، من بني حفص وبني مرين وبني زيان، ولو أردت أن أدمي قلبك كما يقطر قلبي دمًا وأنا أدرس هذه الحقبة من تاريخنا خلال هذا القرن المظلم؛ لسردت عليك مئات الوقائع من مثل هذه وأعظم منها، ودماء المسلمين تسيل غزيرة بأيدي المسلمين، والإخوان ينتهكون حرمة الإخوان، كما قال ابن حمديس الصقلي:

ولم ترحم الأرحام منهم أقارب تروي سيوفًا من دماء الأقارب

ويلخص هذه الحالة المؤلمة المؤرخ العسكري الفرنسي بيشو، فيقول في الجزء الثالث من كتابه «تاريخ إفريقيا الشمالية» ما تعريبه:

«إن العائلات المالكة الحفصية والزيانية والمرينية، التي كانت قبل ذلك تلمع لمعانًا منيرًا، قد انغمست في حروب طويلة مزمنة، ورويت أرض هذه البلاد (المغرب العربي) بالدماء، ثم سقطت في مهاوي الانحطاط، فطوال قرن كامل لم يبقَ لأمراء هذه العائلات المالكة من السلطة إلَّا اسمها، وكان الملوك لا يفكرون إلَّا في إحباط المؤامرات والفتن التي يثيرها ضدهم أفراد من عائلاتهم من أجل الاستيلاء على العرش، أو في إخماد الثورات التي تقوم بها قبائل سئمت حكم العجز والطغيان، ولقد ضربت الفوضى أطنابها في كل مكان، فسكان الولايات القسنطينية وسكان مدينة الجزائر وأهل الشرق الوهراني لم يبقوا معترفين بسلطة أحد عليهم.

أما بالمغرب الأقصى، فإن أمراء عائلة بني مرين قد اقتطع كل واحد منهم لنفسه إمارة صغيرة لم يكن في وسعه الدفاع عنها ضد مطامع جيرانه، فهذه الفوضى قد سهلت بصفة غريبة مهمة البرتغاليين والإسبانيين، سواء في احتلال البلاد أو في توسيع منطقة نفوذهم فيها».

صدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

ويقول المؤرخ ف. أبروديل في بحثه القيم الثري المنشور بالمجلة الإفريقية (١٩٢٨) عن وصف حالة مغربنا العربي في مفتتح القرن السادس عشر ما خلاصته:

«لقد كان الشمال الإفريقي مستودع الرجال الذين كانوا يهبون دومًا لنجدة مسلمي الأندلس ضد الإسبان، وذلك لغاية سنة (١٤١٥).

وبعد انهيار مملكة غرناطة، طلب عم الملك (أبي عبد الله) أن ينسحب مع ذويه إلى بلاد المغرب، فتحرج فردنيادو وإيزابيلا من ذلك حرجًا كبيرًا؛ خشية أن يطلب عم الملك مددًا من الشمال الإفريقي يأتي به لنجدة المسلمين، إنما تمكن الراهب خمنيس بعد من إقناعهما بأن لا خطر ألبتة من وراء هذا الانسحاب إلى المغرب؛ لأن حالة الخلاف والشقاق المستحكمة الحلقات بالبلاد الإفريقية الشمالية لن تسمح لأهلها ألبتة بالإقدام على مثل هذا العمل».

ويقول في موضع آخر: «إن جاسوسًا من الجواسيس الذين أرسل بهم فرديناندو إلى بلاد المغرب العربي، قد أرسل إلى ملكه تقريرًا مفصلًا جاء فيه: إن كامل بلاد شمال إفريقيا يجتاز فترة انهيار نفسي يظهر معها أن الله قد أراد أن يجعل هذه البلاد ملكًا لصاحبي الجلالة المسيحية».

ثم يقول: «في نهاية القرن الخامس عشر كانت الفوضى السياسية والاضطرابات، وتداخل الممالك بعضها ببعض، قد بلغت في الشمال الإفريقي مبلغًا لا يمكن أن نلخصه في صفحات، وأن الإنسان ليصاب بنوع من الذهول وهو يتلو قائمة الممالك والإمارات التي اقتسمت رُقعة هذا الشمال الإفريقي، والتي وصفها ليون الإفريقي وصفًا مدققًا في كتابه: وصف إفريقيا»[1].

ويقول: «كانت وهران تبدو أواخر القرن الخامس عشر وهي تحت السلطة الاسمية لبني زيان في صورة جمهورية تجارية حقيقية مستقلة.

أما مدينة بجاية، فقد كان في نفس ذلك العصر تكتسب ثروة طائلة وبصفة مستقلة من التجارة الواسعة التي كانت تتعاطاها مع البلاد الطليانية ومن القرصنة...

كانت مملكة تلمسان تشمل بصفة غير محددة الغرب الجزائري الحالي، وكان رجال الدولة (أواخر القرن الخامس عشر) قد تحرروا من السلطة

(١) ليون الإفريقي: الحسن بن الوزان الفاسي، وليد غرناطة، سيأتي ذكره فيما بعد.

المركزية، فكان أدعياء الملك لا يجدون صعوبة في جمع الأنصار لمحاربة السلطان القائم، وكان الأبناء يثورون ويخلعون آباءهم، كما كان الأبناء يحاربون بعضهم بعضًا لاقتسام ملك أبيهم.

ونفس الفوضى كانت موجودة بالبلاد التونسية؛ حيث آل أمر بني حفص إلى العجز التام، فكان الملك لا يملك حق التصرف ولا في نفس العاصمة تونس؛ حيث كان يحتمي بحرس من المرتزقة المسيحيين، وكان جبل الرصاص على مقربة من مدينة تونس خارجًا عن طاعة السلطة المركزية، بينما كانت أكثر القبائل التونسية مستقلة فعلًا».

أما مؤرخونا الجزائريون فيقولون عن هذه الحالة البائسة ما يزيد هذه الصورة بشاعة وشناعة.

يقول المؤرخ الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي[1]: «لقد أخذ صرح بني عبد الواد يتساقط منذ أن ركن ملوك هذه الدولة من بني زيان إلى التواكل والتخاذل، وإخلادهم إلى الدعة، واستمهادهم الراحة، وتثاقلهم عن القيام بالمصالح العامة، وانهماكهم في التهالك على الرئاسة، وقصر اشتغالهم على أنفسهم شخصيًّا؛ فانمحت يومئذ هيبتهم عن نفس الرعية، وانتشرت الفوضى بين الناس في كل ميادين السياسة والاجتماع، واستبد الولاة ورؤساء القبائل والشيوخ وعمال الجهات وولاة النواحي وقادة الجيش بما اتصل بأيديهم من أسباب الولاية والحكم... وملوك الإسبان يومئذ يترصدون مثل هذه الأمور خلسة، ويترقبون الظروف المواتية للقضاء على دولة الإسلام بهذا الشمال الإفريقي».

ويقول أخي المرحوم مبارك الميلي في كتابه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»[2]: «فإنها (الدولة الزيانية) منذ نشأتها لم تزل تصطلي بنار

(١) «تاريخ الجزائر العام» (٢/ ١٨١).

(٢) (٢/ ٣٨٣) بيروت.

الحروب الداخلية والخارجية، فمن غارة مرينية إلى حرب حفصية، ومن مناهضة مغراوية أو توجينية إلى منافسة زيانية، ومن دسيسة سويدية (أي: من قبائل سويد) إلى مشاقة عامرية (أي: من بني عامر)... إلخ».

على أن الإسبانيين والبرتغاليين قد استهلوا -كما رأيت- عدوانهم ضد مغربنا العربي، مبتدئين بالمغرب الأقصى، وقد كان في القسمة من حصة البرتغال.

فعند بداية القرن السادس عشر كانت دولة البرتغال تملك في المغرب الأقصى مدن: سبتة - طانجة - أصيلا - أزمور - الصويرة - أسفى - مع كامل مقاطعة دكالة، الممتدة بين مصب نهري أم الربيعة وتنسيفت على المحيط الأطلنطي، فكل الساحل المغربي على البحر المحيط كان قد سقط أيام الفوضى والاختلال المريني تحت سيطرة البرتغال، بعد حروب ومعارك قاسية عنيفة، أبلى فيها المجاهدون المغاربة البلاء الحسن، بما عرف عنهم من قوة إيمان وشدة مراس، لكن الشعب مهما كان قوي العزيمة فهو لا يستطيع أن يعمل عملًا منظمًا متواصلًا دون قيادة حكيمة ماهرة، ولم تكن له من سوء الحظ تلك القيادة.

أما الإسبان، فقد ملكوا البلاد المغربية صخرة باديس (فاليس) الحربية، ومدينة مليلة التي لا تزال بأيديهم -مع مدينة سبتة وبلدة إيفني- إلى يومنا هذا.

واتقاء لخطر إسلامي موسع في إفريقيا ضد الصليبية الإسبانية، فقد أرسل الملك فرديناندو عام (١٥٠١) -بعيد سقوط غرناطة وأثناء اشتداد المحنة الدهماء على مسلمي الأندلس- وفدًا إلى مدينة القاهرة عاصمة دولة المماليك، يرأسه بطرس مارتير دانقريرا، فتمكن هنالك من عقد معاهدة صداقة وحسن تعامل بين الإسبان ودولة المماليك، وكان سلطان مصر يومئذ هو قانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك بمصر، وقد كان مواليًا القسم الكبير من عنايته لمقاومة الغزو البرتغالي في المحيط الهندي وما حواليه -كما رأينا آنفًا- وله في ذلك آثار محمودة.

٨- القرصنة

هنالك قبل كل شيء بون شاسع بين لصوصية البحر، التي يقوم بها مغامرون من أجل السلب والنهب والسبي، والتي تُدعى بالفرنسية PIRATERIE وبين القرصنة COURSE التي هي نوع من أنواع الحروب البحرية التي تقع بين الدول المتعادية، والتي كانت الغاية منها ضرب اقتصاديات العدو؛ بالاستيلاء على البضائع الصادرة منه أو الواردة عليه، وأَسْرِ من يعمل فوق ظهر تلك السفن المعادية.

فهذه القرصنة ذات نظم وقوانين، ولها تقاليد معروفة لا تحيد الدول ولا يحيد القراصنة عنها.

جاء في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى: «كانت الحكومات -فيما سلف- تسلم أوراقًا رسمية للقراصنة، فتكسبهم بذلك صبغة مشروعة، تميزهم عن لصوص البحر، وتجعلهم شبه جنود متطوعين أحرارًا يعملون فوق البحر.

ومعلوم أن لصوص البحر يباشرون مهنتهم باستمرار؛ بينما القراصنة لا يعملون إلَّا مدة الحروب فحسب.

ولقد انتشرت القرصنة انتشارًا هائلًا إثر اكتشاف الدنيا الجديدة، فقد كانت السفن الإسبانية التي تحمل الذهب إلى إسبانيا فريسة طيبة تستثير الطمع في النفوس؛ فانهال عليها القراصنة المغامرون من الإنجليز والهولنديين، وكان نجاحهم منشطًا لغيرهم على الاقتداء بهم.

وقد سلَّحت فرنسا نفسها عددًا جسيمًا من سفن القراصنة؛ لأن حب المغامرة -الذي هو من طباعنا- يتفق كل الاتفاق مع هذه الغزوات الخطرة، وفي هذه المدرسة القاسية العنيفة نشأ القراصنة من أمثال: جون بار،

وسيركوف، ودوكي تروان، ولقد اشتهرت أعمال سيركوف بصفة أخص في خليج البنغال (ناحية الهند) وفي مدخل مضيق السند، وذاع صيتها.

ومن أجل القيام بهذه الأعمال يجب أن يكون الرجال من أصحاب العزيمة والشدة، ولم نفقد أبدًا أمثال هؤلاء الرجال.

فمن سنة (١٧٩٣) إلى سنة (١٨١٥) ضبط القرصان الفرنسيون (١٠٨٧١) سفينة تجارية إنجليزية، منها (٩٤٩) سفينة في سنة واحدة، هي سنة ١٧٩٧».

ولقد نشطت القرصنة الإسلامية داخل القيود وفي نطاق القرصنة العالمية في ناحيتين:

أولاهما: ناحية الشرق؛ حيث كانت السلطنة العثمانية -أيام عنفوان قوتها ومَنَعَتِهَا- تحارب جل الدول الأوربية الواقعة على ضفاف البحر المتوسط، فإلى جانب أسطولها الضخم العتيد الذي كان يدوخ البحر، ويحتل الجزر والمواني، وينقل الجند والعتاد، أنشأ المجاهدون الأتراك أسطولًا للقرصنة النظامية، يحارب من حارب سلطانهم، ويسالم من سالمه، وعَظُمَ شأن هذه القرصنة فأصابت تجارة الدول المعادية وأرزاقها في الصميم، واشتهرت من قراصنتها أبطال عمالقة لعبوا في التاريخ الإسلامي أدوارًا سجلت أسماءهم في سجل الخالدين؛ أمثال: عروج وشقيقه خير الدين، وأمثال: قالش علي، وطور غود، وسنان وأضرابهم.

وثانيهما: بلاد المغرب العربي؛ حيث نشأت القرصنة الإسلامية أول ما نشأت ببلاد الأندلس، وكانت مدينة المرية مركزها الأكبر، فكانت بأعمالها الواسعة في البحر المتوسط وفي المحيط وفي مضيق جبل طارق تشارك في ذلك الصراع الإسلامي المسيحي الرهيب، وتتصدى لسفن الإسبان وحلفائهم.

ذلك بينما كان للإسبان وللبرتغال قراصنة -في ذلك الحين- من أولي القوة ومن أولي البأس الشديد، يعترضون في كل البحار سير السفن الإسلامية، وخاصة على سواحل المغرب العربي، وازدادت هذه القرصنة على السواحل المغربية جرأة وعدوانًا، عندما حم القضاء بمسلمي الأندلس، وأخذت بقاياهم وفلولهم تخترق البحر، فارَّة بدينها وشرفها وبقايا متاعها وأموالها إلى سواحل الشمال الإفريقي، فكانت سفن القراصنة الإسبانية والبرتغالية تستحوذ على السفن الإسلامي، وتسبي مَن فيها من رجال ونساء، وتأخذها مع ما فيها من متاع.

إنما اشتد عضد المسلمين في المغرب العربي بمن جاءهم من مهاجري الأندلس الثغريين، العارفين بالملاحة وفنونها، الماهرين في صناعة السفن، فأخذت المدن الساحلية المغربية تنشئ سفن القرصنة دفاعًا، وتقابل العدوان بالمثل، وصارت سفن المسلمين تخرج من سلا، ووهران، وشرشال، والجزائر، ودلس، وبجاية، وجيجل، تخرج جريئة إلى سواحل إسبانيا تقابل فيها العدوان بمثله، فتخرِّب معالم العدو، وتأخذ ما استطاعت أخذه من خيراته وأرزاقه، وتسبي ما استطاعت سبيه من رجاله ونسائه، وتمد يد الإعانة والمساندة للمنكوبين البائسين من رجال الأندلس.

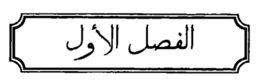
ولقد كان لمدينة وهران في مستهل القرن السادس عشر ١٢ سفينة قرصان من نوع بركنتي BRIGANTINS، بلغ من قوتها ومن جرأتها أنها هاجمت سواحل ألشي واليكانتي وأخذت منها الغنائم والأسلاب، ثم سارت ست منها إلى مرسى مدينة مالقة الإسبانية، فدخلتها وأحرقت داخلها كل السفن المعادية التي كانت بها.

يقول الأستاذ ف. أبروديل في بحثه عن الإسبان والمغرب العربي «المجلة الإفريقية» (١٩٢٨):

«إن القرصنة لم تكن في غرب البحر المتوسط بالشيء الجديد، فمنذ قرون عديدة كان المسلمون وكان المسيحيون يقومون بأعمال القرصنة في البحر، ولا يحق لنا أن نغالط التاريخ، فإن القراصنة المسيحيين كان عددهم كبيرًا جدًا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر بهذا البحر المتوسط، ثم خفت وطأة القرصنة المسيحية بعد ذلك[1]؛ لكن القرصنة الإسلامية ازدادت ضراوة في الشمال الإفريقي، بعد إبعاد مسلمي إسبانيا واضطرارهم إلى الالتجاء لهذا الشمال».

---

(١) لأنها نقلت ميدان أعمالها إلى المحيط الأطلسي بعد اكتشاف أمريكا.



صبغة العدوان الإسباني وأسبابه المباشرة

صبغة العدوان صليبية

علينا قبل أن نلج باب التفاصيل الحربية والسياسية -الذي هو الهدف الأساسي من عملنا هذا- أن ندرس بصفة مجملة صبغة هذا العدوان الإسباني الذي استمر طيلة ثلاثة قرون، وما هو الشعار التي كانت تحمله إسبانيا، وهي تبعث على سواحلنا الفيالق المؤلفة من أقوى الجنود، والعمارات البحرية التي تشمل أضخم سفن القتال.

لقد كتب الباحثون الأوربيون كثيرًا حول هذا الموضوع. ولهم فيه دراسات ممتعة. والفكرة الأساسية التي تجلى من خلال هذه الدراسات تؤيد تأييدًا تامًّا ما كنا ولا نزال نؤكد من أن هذه الحملات كانت تكتسي صبغة صليبية دينية لا شِيَةَ فيها، وأن التعصب المسيحي الضيق الحوصلة، والذي هو أبعد شيء عن دين المسيح عليه السلام -كان هو الذي تولى كبرها، وباشر تنظيمها، وأشرف على معاركها.

إن الدولة الإسبانية التي نشأت وترعرعت أثناء قيام دولة المسلمين بالأندلس، والتي استمرت تقاتل المسلمين طيلة قرون عدة، قد قامت على أسس دينية صرفة، بين جدران الكنائس والمعابد المختلفة، وقد أشعل رجال الدين من قساوسة ورهبان جذوة الحماس الصليبي في الجموع الإسبانية المختلفة، سواء الخاضع منها لسلطان المسلمين أو المنضوي منها تحت الدول الناشئة، وجمعوا الشعب مستعملين كل وسائل الترغيب والترهيب حول هذه الدول، مقابل أنهم تسلموا فيها زمام السلطة، وأشرفوا فيها على سير الأمور.

ولا يجب أن ننسى ذلك الدور الأساسي الذي قام به البابا في مدينة روما؛ من أجل حمل البلاد المسيحية قاطبة على وضع كل إمكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك إسبانيا من أجل أبعاد المسلمين عن بلاد الأندلس

أولًا، ومن أجل إخضاع بلاد الشمال الإفريقي للحكم المسيحي وللدين المسيحي أخيرًا.

فالبابا رأس المسيحية قد أصدر أمره السامي لكل المسيحيين بأن يستمروا على دفع الضريبة الصليبية CRUSADA لملوك إسبانيا من أجل الحرب الإفريقية، وجَمَعَ القساوسة والرهبان أموالًا باهظة في ذلك السبيل؛ بل إنهم باعوا ذخائر الكنائس وكنوزها الثمينة لكي يزودوا الجيوش المسيحية بالمال والعتاد.

والملكة المناضلة إيزابيلا المجاهدة في سبيل المسيحية جهادًا عظيمًا، والتي كان لها أكبر الأثر في تحطيم دولة المسلمين في الأندلس، واحتلال غرناطة -تركت عند موتها وصية لم يتولون الملك بعدها؛ بأن يحققوا الأمنية الغالية على قلبها، والتي كانت تود لو أنها قد حققتها بنفسها لو طال بها الأجل؛ ألا وهي فتح إفريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار. اهـ.

وعندما جهزت إسبانيا -تحت ضغط الكنيسة واستفزازات الراهب خيمينس- أسقف طيلطلة جيشها وأسطولها لغزو المغرب العربي، بادر الباب بنشر قرار يعطي به الولاية لملكي إسبانيا على كامل الأرض التي يفتحانها بهذا المغرب.

وكان نفس البابا إسكندر الرابع (بورجيا الشهير) قد أصدر سنة (١٤٩٤) -عندما ابتدأ التفكير الجدي في احتلال المغرب العربي- عهدًا يبارك به الصليبية الإسبانية بإفريقيا.

يقول المؤرخ الأستاذ أبروديل في كتابه الآنف الذكر:

إن التعصب الديني، والرغبة الجامحة في محاولة تنصير المسلمين، وإرادة إبعاد حدود الإسلام، كل ذلك مجتمعًا قد حدا بالإسبانيين -أواخر القرن

الخامس عشر، وطوال القرن السادس عشر- إلى التدخل بالغزو في البلاد الإسلامية بالشمال الإفريقي، والكلمة التي نجدها معبرة عن هذا المعنى، والتي لا نجد مندوحة عن استعمالها؛ هي كلمة «الصليبية».

ثم يقول: إن الحروب الإسبانية في إفريقيا قد أخذت صبغة الصليبية الحقيقية؛ وذلك نظرًا للدور الممتاز الذي قام بأدائه رجال الكنيسة والكهنوت من أجلها؛ فالكنيسة بإسبانيا قد اهتمت -بجميع ما لديها من الحماس ومن الجرأة- بهذه المعركة ضد الإفريقيين؛ بل إن الكنيسة قد أرادت في الكثير من الأحيان اعتبار هذه المعركة معركة خاصة بها.

إن خيمينس قد قدم من ماله الخاص في هذه الصليبية التي قام بها في إفريقيا المقادير التي أمكن بها تجهيز العمارة البحرية، ثم إنه من أجل إنجاز العملية قد استنجد كرم الكنائس في إسبانيا؛ فبعثت إليه -كما يقول مرسولي MARSOLLIER- بمقادير طائلة من المال؛ بل إن كثيرًا من القساوسة والرهبان قد باعوا ماعونهم الفضي؛ من أجل المشاركة في الحملة ضد السواحل الإفريقية.

لهذا نستطيع أن نقول بأن حملة خيمينس كانت صليبية، وأنه يستحق من أجل ذلك أن يُدعى بـ«آخر عظماء الصليبين».

ويقول الأستاذ أ. كات في كتابه:

«ولم يكن للإسبان من هم إلَّا نقل الحرب إلى إفريقيا، بعد أن كانت نفس البلاد الإسبانية مسرحًا لهذه الحرب طيلة قرون، وإرغام العرب من أهل إفريقيا على اعتناق دين المسيح بواسطة السلاح».

وأصرح من ذلك ما يقوله المؤرخ الشهير بربروجر في كتابه عن صخرة مدينة الجزائر: «إن الراهب خيمينس يستحق كل تقدير؛ من أجل تفكيره على

الأقل في إنقاذ شمال إفريقيا من الوحشية الإسلامية؛ لكي تنتصر فيها المسيحية والحضارة».

ويكفينا هذا المقدار مما نقلنا لك؛ لاستجلاء الصورة الصليبية الواضحة لهذا العدوان الإسباني.

ولكي أكون منصفًا -ولكي تكون منصفًا معي- يجب علي أن أذكر بهذه المناسبة أن فتحنا لإسبانيا قبل العدوان الإسباني على بلادنا بنحو ثمانية قرون، إنما كان جهادًا في سبيل الله، وكان حملة دينية إسلامية لا شك فيها، وأن نتيجتها العملية كانت إقامة حكم الإسلام في تلك البلاد، بواسطة دول إسلامية عديدة، وأن الملايين من المسيحيين الإسبان قد دخلوا في دين الله من جراء ذلك أفواجًا، إنما الفارق بيننا وبينهم -في هذا المد والجزر من الحروب الدينية- هو أن فتحنا الإسلامي قد كون مدنيَّةً وحضارة، وتفجرت بواسطته ينابيع العلم والمعرفة والفن والأدب على ربوع أوربا، وأننا لم نرغم أحدًا -أيَّ أحد- على اعتناق الدين الإسلامي، لا بواسطة الضغط، ولا بواسطة محاكم التفتيش، ولا بواسطة المحارق والعذاب المهين.

أسباب حربية

إلى جانب هذه الصبغة الدينية الحادة توجد أسباب أخرى سنذكرها، أهمها الأسباب الحربية.

فالإسبانيون لم يستطيعوا التخلص من احتلال العرب لبلادهم إلَّا بعد كفاح قاسٍ عنيف، ذاقوا خلاله الأمرَّين، دام زهاء الثمانية قرون.

ومهما أطنبنا في ذكر مزايا الفتح الإسلامي، ومهما قال عنه وعن آثاره العمرانية والعلمية كُتَّابُ العالم والمنصوفون من مؤرخيه -على اختلاف أزمنتهم وأوطانهم- فإن تلك القرون الوضاءة اللامعة، ما كانت في نظر

الوطنيين الإسبان -وخاصة منهم الأمراء ورجال الدين- إلَّا عهد احتلال أجنبي بغيض، جعل الدخيل حاكمًا في الأصيل، وجعل راية الإسلام مرفوعة وراية المسيحية منكسة، ولا توجد نفس بشرية في مشارق الأرض ولا في مغاربها تستسيغ حكمًا أجنبيًّا يخالفها جنسًا ولغةً ودينًا، وعاداتٍ وأخلاقًا، مهما كانت مزايا هذا الحكم، ومهما كانت آثاره، ومهما طالت مدته.

ألم نتحمل -نحن هاهنا في الشمال الإفريقي، وقبل انبلاج النور المحمدي الهادي- أعباءَ الاحتلال الروماني طيلة قرون سبعة، فناصبناه طيلة تلك المدة العداء، وأرهقناه بثَوَرَاتِنَا المتوالية، وما زلنا نتربص به الدوائر، حتى قضينا عليه القضاء المبرم بإعانة قوم الوندال؟

كذلك كانت أعمال الوطنيين الإسبان مستمرة طيلة القرون الثمانية، تشتد ساعة ضعف المسلمين، وتضعف ساعة قوتهم، إلى أن ابتلانا الله بداء الشقاق الأكبر -كما رأينا في فصول التمهيد لكتابنا هذا- فيومئذ اشتد ساعدُ الإسبانية المسيحية، وانتظم شملها، وتوحدت قيادتها، واستلمت مقاليدَ أمورها الأيدي القوية والعزائم الشديدة؛ فقادتها من نصر إلى نصر إلى أن وقعت الكارثة، وانهارت آخر دولة من دول الإسلام بهاتيك الديار.

فالإسبانيون يومئذ -وقد ثملوا بخمرة النصر- كانوا يخشون قبل كل شيء رد الفعل الإفريقي، كانوا يعلمون من أمرنا أكثر مما نعلم، وكانوا يعرفون أننا -ذلك الحين- كنا نجتاز فترة انهيار، وكنا نموج بين أحضان الفتن والشقاق والحروب الداخلية؛ لكنهم كانوا يعلمون أيضًا أن المغربي هو المغربي؛ في إيمانه، وفي شدة شكيمته، وصلابته، بله وبطولته في الحرب، وفي تضحياته التي لا تقف عند حد، ويعلمون أن ما أصابنا يومئذ لم يكن إلَّا نتيجة اختلاف الملوك والقادة والزعماء، وأن هذا الشمال الإفريقي سوف يتغلب على هذه المآسي؛ فتجتمع كلمته مرة أخرى، وذلك أخشى ما كانوا يخشونه تحت

زعامة دولة قوية، أو تحت قيادة عصامي مغامر، وعندئذ يتغير وجه التاريخ من جديد.

كانوا يعلمون أن الأمة التي أخرجت من أحشائها أمثال طارق بن زياد، ويوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن بن علي، ستنجب لا محالة أمثالهم، إذا ما هي بقيت حرة مستقلة، متمتعة بسلطانها القومي، ليس لها فرق أديم أرضها من محتل غاصب يكبح جماحها.

كان الأسبان يخافون أن يعيد عليهم المسلمون الكَرَّة من جديد، وعلى الأخص كانوا يخافون أن تمتد الأيدي المساعدة الإسلامية من هذا الشمال الإفريقي لأولئك الأبطال المقاومين الذين قوض الإسبان سلطانهم، فالتجئوا إلى جبال «البشرات» بدينهم وإيمانهم وعزائمهم، يذودون عن بقايا حياضهم بسلاحهم حتى الموت.

فالقاعدة الحربية التي تتبع باستمرار -في مثل هذه الحالة- هي حمل الحرب إلى أرض العدو، ووضعه في وضع المدافع عن عقر داره، حتى لا يفكر في مداهمة دار جاره.

وليس نزول الإسبانيين هو الأول من نوعه في مغربنا العربي هذا؛ بل لقد كان -لنفس الأسباب التي ذكرنا- هو الثالث من نوعه.

فالرومانيون عندما ضيق عليهم بطل الدنيا في عالم الحروب -حنبعل القرطاجني- الخناقَ، ووطئ في القطر الطلياني أكنافهم؛ رأوا -وحقًّا ما رأوا- أن خلاصهم من ذلك الخطر الداهم، لا يكون إلَّا بنقل الحرب إلى نفس البلاد الإفريقية التي جاء حنبعل يفتح إيطاليا لحسابها، وتم لهم الأمر؛ فاضطر حنبعل وجنده الإفريقي الكنعاني إلى الانسحاب من إيطاليا، ثم لحقت به الهزيمة فوق أرض وطنه يوم وقعة زاما، فكانت هذه العملية هي السبب المباشر في تقويض أركان الدولة القرطاجنية.

أما في عهدنا الإسلامي، فنذكر اعتداء ملوك النرمان بعد أن حطموا ملك المسلمين بجزيرة صقلية -على سواحلنا وعلى مدائننا المغربية- بنفس طريقة الاعتداء الإسباني، ولنفس الأسباب الحربية.

فملوك النرمان كانوا يخافون -كما خاف الإسبان من بعدهم- أن يعيد المسلمون الأفارقة عليهم الكرة، وأن يحاولوا من جديد استرجاع الجزيرة التي فتحها أبطال بني الأغلب على يد الفقيه القاضي أسد بن الفرات، وكانت -كما كانت بلاد الأندلس- درة لامعة في تاج المدنية الإسلامية، وكان لها أعظم الأثر في بث أنوار العلم والفن والمعرفة ببلاد إيطاليا وأوربا الوسطى، فجاء ملوك النرمان يشقون عباب البحر بخيلهم ورَجْلِهم، واحتلوا أهم المدن الساحلية بمغربنا العربي على ضفاف البحر المتوسط الغربي وخربوها تخريبًا، وحطموا إماراتها الواهية، ثم كان أخيرًا العدوان الإسباني على بلادنا.

أسباب سياسية

إن ملوك إسبانيا الذين تمكنوا من توحيد الدولة في البلاد الإسبانية قد استولوا على زمام الأمور بيد من حديد، تحمل السيف والإنجيل في آنٍ واحد، وأصبحوا يطمعون -وداء الغرور قاتل فتاك- في سيادة الدنيا، ويلقون بأنظار الجشع والطمع على القارة الأوربية والقارة الإفريقية، كما ألقوها من قبل على القارة الأمريكية التي قاست من جراء ذلك أقسى المحن وشر أنواع البلايا.

لقد أصبح ملوك إسبانيا يضربون شمالًا وجنوبًا وغربًا الضربات القاسية الفتاكة، فذاقت منهم أوربا الأمرَّين، وكانوا يحاولون إعادة أمجاد وممتلكات الإمبراطورية القديمة، وصاروا لا يتحملون رؤية دولة أخرى تنازعهم السيادة والسلطان شرقًا أو غربًا، وتقتسم وإياهم خيرات البر وتجارة البحر، فهذا المد الاستعماري الجشع كان من جملة الأسباب التي ألقت بهم على سواحلنا.

أعانهم على ذلك ما كانوا يعلمونه من حالة التفكك والانحلال التي أصبحت عليها بلادنا، وذلك الفراغ العظيم الذي حل بساحة الحكم فيها؛ فظنوا أنهم -مع تحقيق الأهداف السالفة، وتحت شعار المسيحية المنتصرة- يستطيعون بكل سهولة تعمير هذا الفراغ.

على أنهم كانوا يعلمون أن سماء الشرق الإسلامي قد أطلعت هلالًا جديدًا منيرًا؛ هو الهلال العثماني، وإن هذا الهلال قد أخذ ينمو ويزدهر وينتشر بصفة لا نظير لها، وأنه سيلقي بأنظاره -ولو بعد حين- إلى هذه الأصقاع الإسلامية المغربية التي اختل نظامُها، وتشتت شملُها، فلا ريب أن الإسبان كانوا يعتقدون أنهم إن لم يسبقوا الأتراك العثمانيين إلى هذه الربوع، فإن الأتراك العثمانيين الذين أصبح خطرهم في البحر عظيمًا، سيسبقونهم إليها، وسيكون لهم يومئذ مع الإسبان شأن عظيم، لا في بلاد المغرب فحسب؛ بل في نفس إسبانيا أيضًا.

أسباب اقتصادية

وتوجد إلى جانب كل ذلك أسباب اقتصادية لا يستهان بها.

إن تقويض دولة الأندلس الإسلامية، وانهيار النظامين الاجتماعي الاقتصادي الإسلاميين في بلاد إسبانيا، ثم تشتيت شمل المسلمين وإبعادهم عن البلاد، وقد كانوا دعامة الاقتصاد وخلايا العمل، كل ذلك قد وضع إسبانيا أمام مشكل اقتصادي رهيب؛ فالإنتاج قد تعطل بصفة تامة، وانعدمت وسائل التصنيع، وأصبحت التجارة الخارجية بين تصدير واستيراد كلمة لا مدلول لها. أما المعاملات المالية والقروض وما إليها، فقد أصبحت أثرًا بعد عين، منذ إبعاد اليهود وإحراق من بقي منهم على قيد الحياة.

أمام هذه الحالة لم يبقَ للإسبان من سبيل لكسب المعيشة إلَّا ذلك النوع من اللصوصية المسلحة العدوانية التي تُدعى الاستعمار، فاندفعوا في غزوات

ومغامرات لا نهاية لها خلال أوربا وخلال أمريكا، يستحوذون فيها على كل شيء ظلما وعدوانًا، بواسطة بذر الموت والخراب، ثم يأتون بذلك إلى إسبانيا غنيمة سخنة.

أما الرجال الأشداء، فقد أخذوا يهاجرون أفواجًا إلى بلاد العالم الجديد، يستعمرونه ويستقرون به، دون أمل في الرجوع.

فكيف يعيش الإسبانيون إذن؟ ومن أين يأتون بقُوتهم اليومي، إذا علمنا أن الغنائم والأسلاب التي يؤتى بها من أمريكا ومن غيرها إنما هي للأغنياء والنبلاء وللمغامرين دون سواهم؟

إن اكتساح المغرب العربي وإخضاعه للحكم الإسباني يضع حلًّا لهذه الأزمة الخانقة، فالمغرب العربي قد اشتهر يومئذ -ومن أزمان طويلة- بأنه مهد الخيرات، ومنبع الثروات: مزارع غنية، وغابات كثيفة، ومروج خضراء لا يدرك البصر نهايتها، وثروة حيوانية تكاد تكون خيالية، وسواحل غنية بالمَرْجان، وصناعة جلود وصوف وحرير تمتعت بسمعة عالمية، كل هذا مع ما كان ينتاب هذا المغرب من حروب وفتن وقلاقل وعدم استقرار الحكم في أي مكان.

فالمغرب العربي مستعمرًا يمكن أن يُزوِّد إسبانيا بما هي في مسيس الحاجة إليه؛ ومن أجل احتلاله وإرغام أهله على قبول التبعية الإسبانية والدخول ضمن دائرة الدين المسيحي، يجب استعمال جند كثيف، يعيش على البلاد المحتلة، فيخفف عن إسبانيا بذلك غائلة الخصاصة.

ومن المغرب العربي يقع الاتصال برًّا بإفريقيا الوسطى، وقد شاع يومئذ، وذاع عنها أنها بلاد التبر، وأن خيراتها لا ينضب لها معين.

زد على كل ذلك، أن الاستيلاء على سواحل المغرب العربي يقضي القضاء المبرم على القرصنة الإسلامية التي نشأت على ضفافه، والتي كانت

تقابل العدوان بالعدوان، وتستعيد لهؤلاء المنكوبين من مسلمي الأندلس نزرًا مما أُخذ منهم ظلمًا وعدوانًا.

ثم إن التمكن من احتلال المغرب العربي يجعل الحوض الغربي من البحر المتوسط بحرًا إسبانيًا بحتًا، إذا علمت أن إسبانيا كانت تملك الساحل الجنوبي الغربي من إيطاليا، وتملك كل الجزر التي به: صقلية، سردينيا، كورسيكا، الباليار، فهي بذلك تستطيع تشكيل وَحْدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال البحر المتوسط وجنوبه، في الحوض الغربي منه، وتحيي بذلك سياسة «بحرنا» الرومانية.

فإذا كانت إسبانيا لم تستطع تحقيق أي شيء من هذه الغايات، ولم تتمكن من احتلال المغرب العربي ولا من إرضاخه، فما كان ذلك من أجل انهماكها في الحروب الأوربية، كما يقول بعض الذين يريدون الدفاع عاطفيًا عن القضايا الخاسرة، وما كان ذلك أيضًا من أجل أنها قررت من عند نفسها الاكتفاء باحتلال المدن الساحلية، وعدم التوغل في داخل البلاد. كلا إنما كان ذلك نتيجة لهذه المقاومة الصُّلبة العنيفة التي قابل بها شعبنا المجاهد الأبيّ هذه الغزوة الصليبية الاستعمارية، سواء قبل أن يأتيه المدد العثماني، أو بعدما جاءه هذه المدد، وذلك رغمًا عن خيانة الخائنين، وأعمال المتعاونين، فالشعب هو الذي قاوم، والشعب هو الذي ضحى، والشعب هو الذي انتصر، والشعب هو الذي حطم آمال الاستعمار الإسباني وأعماله، كما حطم مَن قبلها وكما حطم بعدها آمال كل المستعمرين وأعمالهم.

فالمجد والفوز والخلود للشعب المجاهد البطل!

الفصل الثاني

العدوان الإسباني قبل النجدة التركية

(١٥٠٥-١٥٢١)

الحكومات ومواطن القبائل يوم الغزو الإسباني

كان المغرب العربي يشمل -كما رأينا- منطقتين متباينتين: منطقة تخضع للحكومات الواهية التي كانت تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة: بنو حفص بتونس، يحكمون -نظريًّا- البلاد التونسية وطرابلس، ومنهم فرع يحكم شرق البلاد الجزائرية: بجاية وقسنطينة والزاب، وبنو مرين الوطاسيون يحكمون المغرب الأقصى إلى مدينة وجدة، وبنو زيان التلمسانيون يحكمون -نظريًّا- ما بين ذلك. إنما لا يحكمون عمليًّا إلَّا تلمسان وضواحيها وساحل البحر إلى مقربة من مدينة الجزائر. أما بقية البلاد الوسطى والجنوبية، فكانت مقر إمارات قبلية عديدة، تشمل مشيخة مدينة الجزائر، و(سلطنة) كوكو التي يحكمها ابن القاضي، وهي القسم الغربي من جبال القبائل الكبرى.

أما القسم الشرقي من تلك الجبال، فتحت إمرة الأمير عبدالعزيز الحفصي، يحكمها من عاصمته: قلعة بني عباس، وكانت المزاحمة على أشُدِّها بين كوكو وقلعة بني عباس، وإمارات أخرى واهية تقتسم الرقعة الوسطى، لا تدين في الغالب بالولاء لأحد، ومنها:

إمارة بني المهلهل التي استبدت بأمور القيروان وما إليها، وفصلتها عن الدولة الحفصية بتونس.

وإمارة عائلة بوعكاز المعتمدة على عصبية العرب الذواودة، وقد نصبت سلطانها على الزاب والحضنة وبعض جهات الصحراء.

أما القبائل الكبرى العربية والأمازيغية (البربرية) التي كانت تقتسم رُقعة المغرب الأوسط (البلاد الجزائرية فيما بعد) فأهمها[1]:

---

(١) انظر التفاصيل والأصول والفروع في «كتاب الجزائر» للمؤلف، ط القاهرة.

القبائل العربية

١- الثعالبة: فرع من المعاقيل، يستوطنون متيجة وضواحي مدينة الجزائر.

٢- الضحاك وعياد: يستوطنون جهة حمزة، ويتصلون شرقًا بالذواودة.

٣-يزيد: يكتنفون قبائل صنهاجة البربرية في السهول والوهاد الشرقية، ويحيطون بها في الجبال.

٤- حسين: من مضارب وبقاع يزيد في الشرق إلى هضاب تيطري.

٥- عطاف: في الوهاد والسهول الواقعة غربي مدينة مليانة.

٦- سويد: هضاب وسهول السرسو إلى وادي مينا.

٧- مالك: يستوطنون البقاع التي حوالي مدينة وهران ومرساها الكبير.

٨- ديالم: يسكنون أواسط جبال الونشريس شرقي وادي الشلف.

٩- عروة: يسكنون شرق وجنوب جبال عمور.

١٠- عمور: قسم منهم يسكن جنوب وهران، وقسم آخر جنوب تلمسان.

١١- بنو عبيد الله: من المعاقيل، يسكنون السهول ووهاد غربي تلمسان.

١٢- زغبة: تسكن أشهر بطونها: الأثبج، ومحايا، وحميان، جنوب مدينة تلمسان.

القبائل البربرية

١- زواوة: تسكن بكاملها جبال جرجرة.

٢- صنهاجة: الجبال التي تقع جنوب جرجرة، وتمتد إلى متيجة.

٣- مغراوة: جبال مليانة وتنس إلى مصب نهر الشلف.

٤- توجين: جبال الونشريس، ويجتمعون هنالك مع بقايا لواتة وهوارة.

٥-فطين: شمال تلمسان.

٦- بنو عبد الواد: تملسان وسوادها.

٧- بنو ميزاب: ببلاد الشبكة، وهم من بقايا بني واسين.

٨-راشد: جنوب بجال عمور، وهم من بقايا بني واسين.

٩- مغراوة: الواحات الجنوبية.

احتلال المرسى الكبير

عندما صح العزم من الملك فرديناندو الكاثوليكي -جلاد مسلمي الأندلس- على الشروع في فتح سواحل المغرب الأوسط -بلاد الجزائر فيما بعد- لم تكن الخزينة الإسبانية تسمح بتجهيز الجيش ولا جمع وتزويد الأسطول، فالكنيسة وحدها هي التي مكنت الدولة الإسبانية من الإقدام على هذا العمل، وفتح أول ثغرة في جدار المغرب الأوسط الساحلي[1].

فالكادرينال الوزير خيمينس تطوع يومئذ من ماله الخاص بما جهز الأسطول، وأعانته الكنيسة بأموالها، فأمكن جمع الحملة والإقدام على الغزو الذي استمر بعد ذلك نحوًا من ثلاثمائة سنة.

وإليك الوقائع -كما أثبتها تقرير إسباني- نقله إلى الفرنسية المؤرخ بيليسي:

غادر الأسطول الإسباني مدينة مالقة يوم (٢٩ أوت ١٥٠٥) وكان يقوده دون رايموند دي قرطبة، ويمتطي صهوة الأسطول جيش قوامه خمسة آلاف رجل تحت إمرة القائد دون ديقو فرناند يزدي قرطبة.

وصل الأسطول بعد أن اعترضته رياح معاكسة أمام «المرسى الكبير» يوم ١١ سبتمبر، وكان هذا التأخر مفيدًا للإسبانيين؛ لأن جماعة المسلمين الذين جاءوا من كل حَدَب تلبية لداعي الجهاد، عندما بلغهم نبأ إقلاع الأسطول الإسباني، قد ملوا الانتظار، وقلت لديهم المؤن؛ فرجع أكثرهم إلى دياره، تاركين في المرسى الكبير عددًا قليلًا منهم من أجل المراقبة والاستطلاع،

(١) وإن كان الإسبان قد احتلوا مرفأ عنابة من سنة (٨٦٧هـ-١٤٦٣م).

حتى إذا ما تبين أمرُ العدو، استصرخوا قومهم فرجعوا إلى الميدان. أما حامية المرسى الكبير المرابطة من أجل الدفاع عن الموقع الحربي البحري العظيم، فلم يكن عددها يتجاوز الخمسمائة من المجاهدين.

وصل الأسطول، فلم تكن الحامية الصغيرة تستطيع صد الجند عن النزول إلى البر، رغم المقاومة العنيفة القاسية التي قام بها رجال تلك الحامية، واستمرت هذه المعركة الغير متكافئة ثلاثة أيام متواصلة، خمسمائة مجاهد يقفون في وجه خمسة آلاف قرم إسباني مجهز أحسن تجهيز، واستشهد خلال المعركة قائد الحامية الباسل؛ فاحتل الإسبان القلعة وتحصنوا فيها.

عندئذ اجتمع أهل المدينة وأصحاب الرأي فيها في دار المزوار، وتشاوروا في الأمر، فمنهم من رأى وجوب تنظيم المقاومة الشعبية، والدفاع عن المدينة شبرًا شبرًا، ومنهم وهم الكثرة -كما يقول صاحب التقرير- رأوا أن هذه المقاومة لن تغني عنهم في واقع الأمر شيئًا؛ نظرًا لكثرة عدد الإسبان، وقوة سلاحهم، وأنهم قد احتلوا قلعة الساحل، فالمقاومة التي يتلوها الانهيار سيكون مآلها أن يأتي السيف عليهم جميعًا، علاوة على فضيحة النساء وانتهاك الحرمات.

وقف الشاب المجاهد موسى بن علي يلهب حماس الناس، ويستفز الشعور من أجل المقاومة اليائسة؛ لكن أغلبية القوم لم تكن معه، فقرروا عقد اتفاقية مع الإسبان تضمن لهم الحياة وحرية الانسحاب من المدينة، وهكذا تم الأمر، وهم تحت طائلة الحصار الضيق.

وقد أعطى القائد العام الإسباني أَجَلً ثلاث ساعات للمسلمين؛ كي يخلوا المدينة وبقية الحصون، وينسحبوا عن آخرهم؛ من التاسعة صباحًا إلى الظهر، على شرط ألا يأخذوا معهم أي شيء من الزاد والمؤن، ولا من حيوانات الجر، ولا من الأسلحة؛ أي: أنهم لم يأخذوا معه إلَّا ثيابهم وما خف من أموالهم.

وقد أخلى المسلمون المدينة أول الأمر من النساء، ثم تبعهم الرجال، وعندما تم انسحاب المسلمين دخل الإسبان المدينة، ورفعوا فوقها أعلامهم، وأقاموا صلاة الشكر لله.

وقد ذهب المركيز القائد الأعلى توًّا إلى مسجد المدينة الأعظم، فأمر حالًا بتحويله كنيسة للنصارى، وكرَّسه وباركه، وأطلق عليه اسم «كنية القديس ميكائيل»، وأقيم به القداس صبيحة الأربعاء ١٥ جويلية.

وقد وجد الإسبانيون بالمدينة -تنفيذًا لشروط الاستسلام- ٣٥ أسيرًا مسيحيًّا، من بينهم سبعة نساء، أكثرهم من بقايا الحملة الخائبة التي قام بها البرتغاليون ضد المدينة سنة (١٥٠١).

وبلغ رجال الشعب في الداخل أمر الإسبان، فجاءوا راكضين نحو المدينة للمشاركة في الدفاع؛ لكنهم وجدوا الأمر قد انقضى، فاكتفوا بتبادل بعض الطلقات مع المحتلين.

ورغم الأمر الصارم الذي أصدره القائد العام بعدم تحطيم شيء في المدينة، أو القيام بأعمال حفر فيها، وقد كانت إسبانيا تريد الاحتفاظ بها كمركز لعملياتها المقبلة، فإن الجيش الإسباني قد اندفع محطمًا ومنقبًا من أجل التفتيش عن الأموال والذخائر التي يكون المسلمون قد تركوها وراءهم.

هذا تفصيل الوقائع كما يرويها التقرير الإسباني.

ويؤكد المؤرخون أن حصار الإسبان للمرسى الكبير قد استمر ٥٠ يومًا، وأن المدينة لم تستسلم إلَّا بعد أن لم يبقَ من سبيل للمقاومة.

ويطنب مؤرخو الإفرنج في ذكر معركة المرسى الكبير، ويشيدون بالدفاع المجيد الذي قام به المجاهدون ضد تلك الحملة القوية، وقد لخص كل ذلك المؤرخ الفرنسي قرامون(١) فيقول ما خلاصته:

«إن السفن الإسبانية كانت تضع على مقدماتها أكياس الصوف؛ حتى لا تصيبها قذائف المسلمين، وإنها منذ اقترابها من الساحل تبادلت طلقات المدفعية النارية؛ لكن كان لتلك لطلقات من الدوي أكثر مما كان لها من المفعول.

ولقد قاوم المسلمون عملية النزول مقاومة يائسة عنيفة، ورغمًا عمًّا أبدوه من شجاعة وحمية، فإن المدفعية الإسبانية قد اضطرتهم لترك مراكز الدفاع، والانسحاب إلى الداخل، رغمًا عن زوبعة شديدة وأمطار غزيرة، فإن المعركة استمرت بعنف غريب إلى منتصف الليل.

ثم استؤنفت المعركة من الغد، وكان يوم جمعة، واستمرت عنيفة قاسية كامل النهار، ثم ازدادت شدة وعنفًا عندما جاء المجاهدون من الداخل بعدما بلغهم نبأ نزول الإسبان في حمية جنونية، بينما كانت مدفعية الحصون الإسلامية ترمي الأسطول الإسباني بقذائف من الحجارة تزن ٤٠ رطلًا.

واستمرت المعركة إلى الليل، رغم استشهاد قائد الموقع الذي أصابته قذيفة مدفع إسباني.

أثناء الليل تشاور المسلمون فيما بينهم -انظر التقرير الإسباني السالف الذكر- وكانت خسائرهم عظيمة جدًّا، ولم يبقَ منهم إلَّا أربعمائة رجل، وعندئذ قرروا الاستسلام وتم الأمر، وفي الغد -يوم السبت- وصل

(١) DE GRAMMONT: HISTOIRE D, ALGER SOUS LES TURCS.

المجاهدون وجيش ملك تلمسان، وكان عددهم ٢٢ ألفًا من الرجال، وألفين من الفرسان، وكان الإسبان قد تحصنوا بالمدينة ونصبوا عليها مدافعهم فور تسلمهم لها، وبادر المسلمون بمهاجمة المدينة بواسطة الفرسان».

يقول قونز الزدي أخورا GONZAL EZ DE AJORA وكان حاضر المعركة:

«لم أرَ في حياتي إطلاقًا أبدع من هذه الفرقة المؤلفة من ثلاثمائة من الفرسان العرب التي كان يقودها القائد ابن دالي، ولا أرهف سلاحًا، سواء من حيث خيولها المطهمة البالغة منتهى الجمال، أو من حيث ذلك الجهاز الفاخر المطرز الذي كان يكسوها».

لن هذا الهجوم الصادق العنيف لم يستطع أن يزحزح الإسبان عن المدينة.

وقد أرانا التاريخ هذه المعركة الأولى سنة (١٥٠٥) كما أرانا تاريخ المعركة الأخيرة سنة (١٧٩٢) وما بينهما من معارك حادة عنيفة.

إن الجندي الإسباني إذا ما هو تحصن واتخذ مراكزه للقتال وراء الجدران، أصبح كأنه قطعة من جلمود، أو قطعة من حديد، يموت ولا يستسلم إلَّا نادرًا.

فهذه المعركة الأولى كانت أشبه شيء بمعركة استطلاع عرف فيها كل من الإسبان ومن العرب مدى قوة الخصم، ومدى استعداده، وطريقته في القتال، واستماتته في الدفاع.

والحقيقة أن خيبتنا -في هذه المعركة الأولى- كانت قبل كل شيء نتيجة الاستهانة بشأن المخابرات وتنظيم الاتصال بين مختلف فرق الجهاد.

فلقد كانت المعركة تنقلب إلى انتصار إسلامي حاسم أكيد، لو أن الجيش الإسلامي الكبير الذي وصل مدد اللمدينة يوم السبت، أخبر المدافعين

بواسطة رجال الاتصالات عن قرب وصوله، إذن لتابعوا كفاحهم المضني يومًا آخر -يومًا واحدًا فقط- إلى حين وصول النجدة، وما كانوا يسلمون المدينة يوم الجمعة، لو أنهم علموا أن جيش النجدة يصل يوم السبت.

وما كاد خبر الاستيلاء على المرسى الكبير يصل مسامع إسبانيا حتى غمرتها موجة من الفرح والابتهاج، وأعلن فيها العيد لمدة أسبوع؛ لأنها رأت في هذا الفوز بشائر النصر المقبل وتحقيق آمالها التي شرحناها فيما سلف.

وبمجرد تمركز الإسبان بالمرسى الكبير، وخيبة حماة الإنقاذ الإسلامية، فتح الأسبان سوقًا تجارية إلى جانب المدينة؛ من أجل تزويد حاميتها بما يلزمها من المواد الغذائية الوافرة، مقابل ما عند الإسبان من ذهب وفضة، وهكذا نشأ منذ الوهلة الأولى أول تعاون مع العدو.

لكن جماعة المسلمين -كما يؤكد قرامون- قد اعتبرت أولئك المتعاونين خونة مارقين، وعاملتهم معاملة الأعداء، وأخذت توالي غاراتها عليهم، وعلى سوق التعاون دون انقطاع، إلى أن احتل الإسبان مدينة وهران -كما سيأتيك تفصيله- فاتسعت دائرة الاحتلال الإسباني، واتسعت دائرة الجهاد الإسلامي، واتسعت أيضًا دائرة التعاون الإجرامي مع العدو.

جاء الأمر من قِبَلِ ملك إسبانيا بتعيين القائد فرديناندر حاكمًا على المدينة، ومدينة المرسى الكبير هذه كانت خلال القرن الثاني عشر الميلادي مركزًا للعمارة البحرية الضخمة، التي أنشأها بطل المغرب والإسلام عبد المؤمن بن عليٍّ رأس الدولة الموحدية.

وفي القرن الخامس عشر الميلادي، عندما تدفق سيل المهاجرين الأندلسيين على سواحلنا، أعان ملوك بني زيان على بناء بلدة بالمرسى الكبير، سكنها المهاجرون الأندلسيون إلى جانب العرب من أهل تلك

الناحية، وأصبحت البلدة ومرساها مركزًا من أهم مراكز القرصنة الإسلامية ضد السفن المسيحية التابعة للأعداء.

وخلال حرب القرصنة البحرية الطويلة المدى، احتل البرتغاليون مدينة المرسى الكبير من سنة (١٤١٥) إلى سنة (١٤٣٧) ثم أُبعدوا عنها.

وعادوا إليها مرة أخرى، وتمكنوا من احتلالها، ولبثوا فيها هذه المرة ستة أعوام، من سنة (١٤٧١) إلى سنة (١٤٧٧) حيث أُبعدوا عنها نهائيًا، إلى أن احتلها الإسبان كما رأينا، ونصبوا فوقها راياتهم يوم (٢٣ أكتوبر سنة ١٥٠٥).

والمدينة لا تبعد عن وهران إلّا مسافة ٨ كيلو مترات فقط، وهي واقعة على نفس الخليج التي تجثم فيه مدينة وهران.

انتصار الإسلام العظيم في مسرغين

في السهل الممتد شمالي بحيرة وهران الكبرى، والذي تفصله عن الساحل جبال وعرة وإن كانت قليلة الارتفاع -توجد قرية مسرغين، والتي لم تكن - أيام وقائعنا هذه- إلَّا مضارب قبائل عربية، ذات حول وطَوْل، وذات ثروة وغنًى تدعى «دوار الغرابة».

ولقد مل القائد الإسباني دون دياقو المقام محصورًا بين جدران المرسى الكبير التي أصبحت عبارة عن معقل عسكري ضخم، فأراد أن يجرب حظَّه في معركة سافرة مع المسلمين، لا يحول بينهما جدار، ولا يختفي أحدهما وراء معقل، وكان موقنًا من النصر، مؤمنًا بأنه سيرجع إلى المرسى الكبير بغنائم وأسلاب وأسرى من الرجال والنساء، يباشر الرجال منهم شاق الأعمال، وتستعمل النسوة الحرائر لمآرب أخرى، على أن الغاية لم تكن فحسب إرادة الغزو والرجوع بالأسلاب؛ بل كانت استطلاعًا لمدى قوة المسلمين ومدى استعدادهم، فيما يلي المرسي الكبير ووهران، وكانت أيضًا من أجل معرفة المسالك التي تؤدي إلى مدينة تلمسان.

هذا هو أصل غزوة مسرغين، التي تبعد ثلاث مراحل عن المرسى الكبير، وكان القائد الإسباني -وهو يستعد لهذه الحملة المفاجئة- قد اصطنع -ويا للعار- رجالًا من قبيلة جيزة المرابطة حول المرسى الكبير ووهران، فاتخذ من بينهم أدلةً وحرسًا مرتزقًا.

ولم يكن يصل المرسى الكبير بمسرغين إلَّا الطريق السهل الذي يمر تحت حصون وجدران مدينة وهران الإسلامية، فهذا طريق لا يمكن سلوكه من أجل غزوة مفاجئة؛ لأن حامية وهران سترده لا محالة على أعقابه، وهكذا عزم على مهاجمة مسرغين بسلوك شِعَاب الجبال وأوديتها، فيضمن للجيش السلامة في ذهابه وفي إيابه، يقوده مرتزقة جيزة.

ففي يوم (٦ جوان ١٥٠٧) غادر دون دياقو المرسى الكبير على الساعة التاسعة ليلًا، يجر وراءه كامل الحامية الإسبانية؛ حيث لم يترك لحراسة المدينة إلَّا جمعًا قليل العدد فوق الأسوار، ودخلوا وراء الأدلة في شِعاب الجبال يسيرون سيرًا مضنيًا شاقًّا، يقتفي الواحد منهم أثر الآخر على الطريقة المعروفة بالسلك الهندي، ولم يُحدثوا أي ضوضاء أثناء تسربهم هذا، فما كاد يطلع الفجر حتى كانوا قد أتموا قطع المسافة، وأحاطوا بالدوار العربي من كل جهة، وبادروه بالهجوم.

ذهل العرب أولًا من هذا الهجوم القوي المفاجئ؛ لكنهم -كما يقول المؤرخون الإفرنج أنفسهم- قد استرجعوا حالًا ثباتهم، وقابلوا الهجوم بمقاومة عنيفة صارمة؛ لكن الإسبان كانوا مستفيدين من المبادأة، وكانوا مستفيدين أكثر من ذلك من وفرة عددهم، فاستشهد كل المسلمين الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح، وسيق الأحياء من رجال ونساء وأطفال في طريق الاستعباد، وقد جمع الإسبان بين كل اثنين منهم في قيد واحد، وعبأ الإسبان غنائمهم من السائمة وحيوان الجر، ونظموا سيرهم، وأخذوا يعبرون المسالك الجبلية من أجل الرجوع.

هكذا انتهت المرحلة الأولى من هذه المعركة التاريخية الكبرى، لكن المرحلة الثانية قد ابتدأت حالًا؛ إذ إن رجال الشعب من أهل الدواوير القريبة من المكان، والذين بلغتهم أنباء النكبة التي حلت بإخوانهم «الغرابة»، وذلك بواسطة الذين تمكنوا من مغادرة أرض المعركة، من أجل طلب النجدة -قد هبت فيهم روح الحمية؛ فامتشقوا الحسان، ولبوا داعي الجهاد، واندفعوا لا يلوون على شيء لينقذوا إخوانهم من الأسر والهوان، وليصونوا شرف نساء وبنات العرب، من أن يلحقه على يد الإسبان العار والشنار.

وما هي إلَّا ساعة من نهار، حتى أحدق المجاهدون بالقافلة الإسبانية التي تسوق أمامها غنائمها وأسلابها وأسراها، والتحمت بين الجانبين معركة

قاسية عنيفة، ويقول مؤرخو الإفرنج: إن الضباب كان سائدًا على أرض المعركة، فلم يستطع الإسبان استعمال أسلحتهم، ولم يتمكنوا من رؤية أعدائهم، وقد أدخلت صيحات العرب الوحشية الفزع والهلع إلى قلوبهم؛ فاختل نظامهم، وفقدوا الأمل في النجاة.

هنا يبدأ الدور الثالث من المعركة، فإن النذير قد وصل إلى مدينة وهران، وبلغت أنباء المعركة وتطوراتها قيادة المعقل الإسلامي، فبادر بإخراج الحامية نجدة المجاهدين، ووصل الجيش إلى ميدان المعركة المتسع خلال الفجاج العميقة وشعاب الجبال؛ فتعالت أصوات التهليل والتكبير من كل جانب، واستبشر المؤمنون بهذه النجدة القوية فازدادت حميتهم.

وانهالوا في هجوم مركز على الطليعة التي فيها الغنائم والأسرى، والتي يقودها خونة جيزة، فقضت عليها قضاء مبرمًا، وفكت قيود الأسر من رجال ونساء، واسترجعت كل الغنائم والأسلاب، فازداد بذلك رعب الإسبان وانهيارهم، وانهال عليهم العرب من كل جانب يُعملون في رقابهم السيف، فكادوا يقتلون عن آخرهم، لولا أن مناديًا من أهل الأندلس المدجنين الذين خضعوا لإسبانيا وتنصروا نادى المسلمين باللسان العربي: أن ائسروهم ولا تقتلوهم، فإنكم ستكسبون مالًا كثيرًا عندما يبعث لكم أهلهم بفديتهم، وهكذا مال بعض المسلمين عن قتل الإسبان إلى أسرهم، فأسروا بعض المئات، وجندلوا من الإسبان ثلاثة آلاف قتيل.

وانهزم أحد ضباط الإسبان إلى المؤخَّرة، يُعلم القائد بالكارثة السوداء التي أصابت جنوده، فلم يعد يفكر إلَّا في فتح طريق الرجوع إلى المرسى الكبير، على رأس قلة من فلول جيشه بقيت إلى جانبه، وتقدم وقاوم رغم شيخوخته ببسالة تدعو إلى الإعجاب، إلى أن قتل تحته فرسه، وكاد يفقد روحه في المعركة، لولا أن بعض الفرسان الذين بقوا حوله قد أثروا حياته

على حياتهم، ورضوا لأنفسهم الموت مقابل نجاة قائدهم، فسلمه أحدهم جواده، وتمكن من مغادرة أرض المعركة بهذه التضحية، صحبه خمسة من رجاله، واختبئوا في شعاب الجبال بقية اليوم، والعرب يلحون في طلبهم، إلى أن جنَّ الليل، فشقوا طريقهم حتى وصلوا أسوار المرسى الكبير.

لكن مصيبتهم لم تنتهِ عند هذا الحد، فالأوامر الصارمة التي تركها القائد للحامية الحارسة على الأسوار كانت تقتضي ألا تفتح الأبواب مطلقًا، وبأي حال من الأحوال، لأي أحد كائنًا من كان، قبل مطلع الشمس.

فتنفيذًا لهذه التعليمات التي أعطاها القائد، والتي كان هو بنفسه ضحيتها، امتنع الحرس عن فتح الأبواب، وبقي القائد منبوذًا بالعراء مع البقية الباقية من رجاله، حتى مطلع الشمس، فدخل المدينة مقهورًا مندحرًا، وهو إلى الموت أقرب منه إلى الحياة، وما كادت تزول عنه آثار المحنة، حتى ذهب إلى إسبانيا يقص على رجالها ما رأى وما سمع، ويطلب منها المبادرة بالنجدة، والقيام بالأعمال الحاسمة قبل فوات الأوان.

وبعد الهزيمة بأيام قليلة، حلت بساحة المرسى الكبير نجدة إسبانية مؤلفة من خمسمائة رجل من المقاتلين المدربين.

ولقد حاولت حامية وهران استثمار هذا النصر، واسترجاع المرسى الكبير، إلَّا أن مدافع الحصون الإسبانية المسددة الطلقات قد صدتهم عن ذلك، فرجعوا إلى وهران، واعتصموا بها، منتظرين الحملة الإسبانية التي كان الكردينال خيما ينديس يبذل النفس والنفيس في سبيل جمعها والإرسال بها؛ لتحقيق النصر في هذه الصليبية التي تولى كِبَرَهَا.

مأساة تنس

بعد الانتصار الإسباني بالمرسى الكبير، وتحصنهم به تحصنًا يتحدى القوى العربية حواليه، وبعد انتصار المسلمين انتصارًا باهرًا بمسرغين انتصارًا كاد يقطع على الإسبانيين أمل التوغل في البلاد، لم يبقَ من شك يخامر أي نفس في هذا المغرب العربي في أن الإسبان يستعدون لأمر جَلَلٍ، ويتحفزون لاستعباد ولإذلال هذا الجزء الغربي الذي يليهم من العالم الإسلامي.

ولقد طارت أنباء هزيمة المرسى الكبير، كما طارت أنباء انتصار مسرغين إلى مختلف الجهات المغربية، وفهم الناس مغزاها، وأخذوا يستعدون للجهاد الأكبر؛ حماية لأوطانهم، وفداء لدينهم.

لكن -ويا للفضيحة- وُجدت هنالك -أثناء هذه الفترة المظلمة القائمة- أنفس مسلمة رأت الإفادة من هذا الوضع الجديد، والاستعانة بهذه القوة الدخيلة المسيحية؛ شفاء لما في صدورها من إحن ضد إخوتها وبني عمومتها، وإرضاءً لمطامح ومطامع في تبوؤ عرش بتلمسان، قد تداعى بنيانه وانهارت أركانه، فلم تبقَ منه إلَّا صورة مشوهة تدعو إلى البعد عنه، ولا تدعو إلى الاقتراب منه، لو تغلب العقل على الهوى.

لم يضع الحاكم الإسباني للمرسى الكبير وقته سدى؛ بل كان أثناء المدة القصيرة التي كان يمثل فيها وحده -في مكان ضيق- كل آمال إسبانيا وكل مطامعها، يوالي جهوده بواسطة جماعة اصطفاهم من أنذال الخونة المارقين من الأعراب المحيطين بالمرسى الكبير، وهم الذين أطلقت عليهم جماعة من المسلمين في ذلك العصر لقب «المغطسين»[١]، كما أطلقت جماعة

(١) الكلمة الإسبانية: MOGATEZES.

المسلمين على أمثالهم من أشباه الرجال أثناء حكم الاستعمار الفرنسي ببلادنا، لقب «البياعين» لعنهم الله أجمعين، في الأولين وفي الآخرين.

وكانت تلك الجهود التي يوالي الحاكم الإسباني بذلها، ترمي إلى بث بذور الفتنة والشقاق بين المسلمين، والوعد ببذل الإعانات والمساعدات مادية وأدبية، لمن يشاق الله ورسوله منهم، كما كانت من جهة أخرى تهيئ لاحتلال مدينة وهران، وقد نجحت مساعيه في الحالتين كما سترى.

في سنة (٩٠٩هـ-١٥٠٣م) تولى عرش بني زيان في تلمسان السلطان أبو زيان الثالث الملقب بالمسعود؛ لكن عمه أبا حمو المعروف بـ«بوكلمون» ثار عليه، وأخذ منه العرش وسجنه، واحتل في التاريخ الجزائري حقبة مضطربة، تحت اسم «أبي حمو الثالث»، وسيأتيك من أنبائه ما يثير الشجون، فبعد عامين من ولايته وقعت نكبة المرسى الكبير.

وبعد عامين من هذه النكبة، وحين كانت إسبانيا تستعد للضربة الحاسمة في وهران، والمسلمون من رجال الشعب يستعدون للجهاد، تنجح مساعي الحاكم الإسباني، فيعلن يحيى الثابتي شقيق الملك المخلوع السجين أبي زيان السعيد الثورةَ على عمه، ويتغلب على مدينة تنس بإعانة وتأييد من إسبان المرسى الكبير، وتحت حمايتهم.

وهكذا أخذت قطرة الزيت الإسبانية تنتشر شيئًا فشيئًا، بواسطة السيف والنار تارة، وبواسطة الدسائس والفتن تارة أخرى، فوق أديم هذه الرقعة الجزائرية، فالمسلمون الذين كانوا يستعدون لخوض غمرات الجهاد، والذين كانوا يحاولون جمع صفوفهم لتلقي صدمة الإسبان بوهران -قد انغمسوا بعد ذلك في مستنقع فتنة داخلية مشوهة، وجهز أبو حمو الثالث جيشه لقتال ابن أخيه بتنس، كما جهز يحيى جيشه لقتال عمه، واستعرت بينهما نار المعارك تترى، كانت فيها هامات المسلمين تتساقط تحت ضربات سيوف المسلمين،

وكانت المعارك الأولى نصرًا للسلطان على ابن أخيه؛ لكن جيش تلمسان رفض بعد ذلك الاستمرار على القتال، فثبت ابن العم الثائر في تنس، ورجعت جموع أبي حمو إلى تلمسان.

لم يقل التاريخ: لماذا رفض جنود تلمسان استمرار القتال ضد الثائر في تنس؟ أتراهم أرادوا حقن دمائهم في فتنة داخلية؛ استعدادًا لما سيأتي من القتال مع الإسبان؟

نكبة وهران

أتم الكاردينال الإسباني الجسور خيمينس تجهيز حملته الكبرى ضد مدينة وهران، وكانت هي الهدف الأول من جهاده المرير في سبيل القضاء على الإسلام في المغرب العربي.

أبحرت الحملة من مرسى قرطاجنة الإسبانية يوم (١٦ ماي ١٥٠٩) وكانت تشمل خمسة عشر ألفًا من أشداء المقاتلين، يتولى قيادتهم بطرس النفاري Pedro Navarro وقد أسعفتها ريح طيبة، فكانت أمام المرسى الكبير يوم ١٧ ماي، ونزلت بكل سرعة إلى البر دون أدنى عائق، ضرورة أن إسبانيا كانت تملك المرسى الكبير، وقد هيأ حاكم المرسى كل الوسائل والأسباب من أجل نصر سريع، وانضم رجال الأسطول البحارة إلى الجيش، وبادروا وهران بالقتال.

لم يكن المسلمون المجاهدون في وهران أقل حمية ولا أقل عزيمة من الإسبان، فخرجوا للقاء العدو مستبسلين خارج أسوار المدينة، إنما كانوا أقل منه عددًا وأقل منه عُدة، فاضطروا تحت ضغط الإسبان وكثافة عددهم إلى الرجوع حالًا إلى وهران، والاحتماء بحصونها وأسوارها المنيعة؛ فوقفت كل فرقة على السور الموضوع تحت حمايتها، أو وراء أبواب المدينة المكلفة بالدفاع عنها، واستعدوا لخوض المعركة.

إنما حاكم المرسى الكبير كان قد هيأ المعركة على طريقة أخرى، كان قد اشترى بذهب وفير، وبوعود جمة لا حد لها، ذمةَ اليهودي أشطورا من مهاجري الأندلس، من الذين أنقذتهم نفس مدينة وهران وأهلها من المحارق الإسبانية، وقد كان أشطورا هذا قابض المكوس العام لمدينة وهران، واشترى هو -بنفس الوسيلة وبنفس الطريقة- ذمة اثنين من قابضي المكوس

الذين يعملون تحت إدارته، وهما القائد الخائن عيسى العريبي، والقائد الخائن ابن قانص.

فبينما كان المسلمون على الأسوار ووراء الأبواب يستعدون للحملة الكبرى، تجمعت الجموع الإسبانية حوالي باب من أبواب المدينة وقع الاتفاق من قبل عليه، وفي الساعة المعينة، فتح أشطورا والخونة الذين معه ذلك الباب[١]، فتدفق الإسبان إلى داخل المدينة وكأنهم السيل الجارف يصرخون ويقتلون كل من وجوده أمامهم، دون اعتبار لجنس أو لسن، فذهل المسلمون من هول المفاجأة الفاجعة، وأفلت زمام الموقف من بين أيديهم، ثم إن المدافعين عن الأسوار والحصون ارتدوا إلى داخل المدينة عندما رأوا تدفق سيل الإسبان؛ وذلك من أجل الدفاع عن ديارهم وعن حريمهم، فاقتحم الإسبان بقية الأبواب، وولجوا المدينة من كل جهة، يذبحون ويقتلون ويدمرون، فامتلأت الطرقات بجثث القتلى، وكان عددهم يزيد عن الأربعة آلاف مسلم ومسلمة، حتى ليقال إن الكاردينال خيمينس نفسه -وكان يراقب المعركة عن كثب- لم يستطع ضبط دموعه، وهو يشاهد بشاعة ذلك المنظر وشناعته.

ولم يترك المسلمون رغم هول الفاجعة دفاعهم عن حماهم وعن شرفهم؛ فألجأت فلولهم إلى «حي الفقيه» حول المسجد الأعظم، وتحصنوا في الدور، واستمروا يقاومون مقاومة يائسة خمسة أيام بلياليها إلى أن قتلوا أو أُخذوا أسرى، ونُهبت المدينة نهبًا فاحشًا، وانتهكت كل الحرمات.

فكان عدد القتلى من المسلمين يزيد عن الأربعة آلاف، وكان عدد الأسرى الذين استعبدهم الإسبان يزيد عن الثمانية آلاف، سير بهم في طريق الذل والعبودية إلى إسبانيا.

---

(١) وهو الذي أقيم في مكانه اسم «لامونا».

وأحصى الإسبان غنائمهم بوهران، وكان كل ما في وهران غنيمة لهم، فكانت تقدر بـ٤٨ مليون دينار جزائري، اقتسمها الجند فيما بينهم.

بادر الكاردينال المنتصر بتحويل مساجد وهران إلى كنائس؛ فأصبح المسجد الأعظم كاتدرائية، وقد احتفظ الكاردينال لنفسه بأعلام المسلمين والأسلحة الثمينة التي كانوا يحملونها، والكتب الفنية النفيسة، ومصباح المسجد الأعظم، وهي كلها محفوظة الآن في مكتبة جامعة مدريد.

يقول الإسبان: إن قتلاهم في ذلك اليوم لم يكونوا إلَّا ثلاثين رجلًا، وهذه -ولا ريب- مبالغة من الإسبان ومن تبعهم من مؤرخي الإفرنج، يقصد منها إضفاء صبغة من القداسة على ذلك النصر العظيم، ومهما كانت المبالغة ظاهرة، فالأمر المحقق هو أن قتلى الإسبان كانوا قليلين جدًّا؛ لأن احتلال وهران لم يكن -نظرًا لعنصر المفاجأة الذي عقب الخيانة وفتح الباب غدرًا- معركة بالمعنى الصحيح؛ إنما كان مذبحة عامة فظيعة.

وربما نقول نحن من باب تخفيف اللوعة: إنه كان يومًا بيوم مسرغين، والحرب سجال، يوم لك ويوم عليك.

كان من نتائج هذا اليوم الأسود المكفهر أن الإسبان تمكنوا من احتلال النقطة الأساسية في بلاد المغرب الأوسط، ووسعوها، وحصونها، وثبتوا فيها رغم كل المحاولات الإسلامية مدى قرنين إلى سنة (١٧٩٢) حيث استرجعتها إرادة الشعب الجزائري في معمعة رهيبة ستأتيك أخبارها مفصلةً تفصيلًا.

كان من نتائج هذا اليوم والرعب الذي أدخله في النفوس أن ذلت دولة بني زيان، ونكست رأسها؛ فاعترف أبو حمو الثالث بنوع من التبعية لإسبانيا، وتعهد بأن يدفع لها سنويًّا جزية مقدارها اثنا عشر ألف دوقة[١]، واثنا عشر فرسًا من جياد الخيل، وستة من طيور الباز الجارحة.

---

(١) الدوقة: نقد ذهبي إسباني يساوي نحو ٢٤ دينارًا جزائريًّا، فتكون الجزية السنوية نحو ٢٨٨ ألف دينار جزائري.

ولقد فك الإسبان في ذلك اليوم من ربقة الأسر ثلاثمائة من الأسرى المسيحيين كانوا بمدينة وهران.

كما كان من نتيجة ذلك اليوم النحس، أن معظم رجال قبائل بني عامر، وغيرهم من الأعراب الواقعين ضمن دائرة وهران الإسبانية، قد خضعوا وخنعوا وأسلموا قيادهم للإسبان، وأصبحوا لهم أعوانًا وجنودًا وعيونًا، لم يحاول الإسبان يومئذ التوغل المسلح في داخل البلاد، واكتفوا بذلك النصر المزدوج -السياسي والحربي- لأنهم كانوا يرون وجوب إخضاع المغرب العربي الأوسط على مرحلتين:

المرحلة الأولى: هي احتلال المدن الساحلية، وحصر المسلمين داخل البلاد.

والمرحلة الثانية تأتي بعد ذلك: وهي الزحف من المراكز الساحلية المحصنة على البلاد الداخلية وإخضاعها.

وقد نجحوا في تنفيذ مرحلتهم الأولى -كما رأيت وكما سترى- أما مرحلتهم الثانية، فقد حال المسلمون بينهم وبين تنفيذها كما كانوا يريدون، وذلك بعد قدوم النجدة التركية، وبتأسيس الدولة الجزائرية العثمانية، التي طهرت بواسطة كفاح الشعب أرض الجزائر من السرطان.

شيء عن وهران

تقع مدينة وهران داخل الخليج الذي يحمل اسمها، على خط العرض الشمالي ٤٣، ٣٠، وعلى خط الزوال ٥٩، ٢ (جرينتش) ويبلغ عرض خليجها ٢١ كيلو مترًا.

وتحيط بالمدينة جبال لا يتجاوز ارتفاعها ٥٨٩ مترًا، والمدينة العربية التي احتلها الإسبان مبنية على جانبي فج وادي الرحى (وهو يسيل الآن تحت نفق

في الأرض، ويتصاعد البناء فوق التلال المحيط بالفج، وتشغل مساحة ٧٢ هكتارًا).

ولقد أحصيت الديار عند الاحتلال الإسباني فكانت ستة آلاف دار (أي: نحو ثلاثين ألفًا من السكان، باعتبار معدل خمسة أنفار لكل مسكن، أما عدد الحوانيت التجارية فكانت ١٥٠٠ دكان).

ولا يُثبت التاريخ القديم شيئًا كبيرًا عن مدينة وهران ذاتها، وربما كانت مستعمرة رومانية تُدعى كيزة QUIZA إنما المحقق هو أن مرساها الكبير كان في التاريخ القديم يتمتع بشهرة واسعة، وكان يُدعى المرسى الإلهي PORTUS DIVENUS.

لكن الثابت هو أن مسلمي بلاد الأندلس -أيام عنفوان دولتهم- كانوا مؤسسي مدينة وهران، وذلك سنة (٣٩٠ هـ-٩٠٢ ميلادي) على يد القائد خضر، أيام الأمير عبد الله الأموي، والد الخليفة عبد الرحمن الثالث، فوق أرض كانت من ممتلكات قبيلتي مغراوة ونغزاوة، وكان خضر -كما يقول الشيخ أبو راس المعكسري- عاملًا بالمغرب الأوسط لبني أمية الأندلسيين، وتبحرت -كما يقول- في العمران وعدت من أمصار المغرب التي لا تُدافع، ومن أحسن معاقله التي لا تُنازع، وقصدها العلماء والتجار وأرباب الصنائع، إلى أن يقول: دخلها ابن خميس أحد العلماء الكبار في أواخر القرن الرابع، فوقعت منه كل موقع بعدما دخل مدينة الجزائر، وكانت الجزائر إذ ذاك قريبة عهد البناء، فقال: أعجبني بالمغرب مدينتان بثغرين: وهران خذر، وجزائر بلكين.

يقول أبو راس: ومن علمائها ومحدثيها: أبو القاسم الوهراني، أحد شيوخ أبي عمر بن عبد البر النمري القرطبي، وأبو عبد الله محمد الوهراني الملقب بركن الدين، كان دخل مصر في حدود السبعين والخمسمائة، وإشتهر فيها بالعلم والأدب وحسن الفهم.

يقول: إلى أن استولى أبو عبد الله الشبعي على إفريقيا سنة (٢٩٦) فجهز عروبة بن يوسف الكتامي لحرب أهل المغرب (دولة بني رستم) فأناخ على تاهرت، وملوكها يومئذ بنو عبد الرحمن بن رستم من الخوارج الأباضية، فدارت بينهم حروب طوال، غلبهم في آخرها، وانقرض أمرهم بها، ولما أراد الرحيل عنها عقد عليها لأبي حميد بن داوس بن صولات الكتامي سنة (٢٩٨) فاتصلت حروبه مع لماية شيعة بني رستم، وكان هذا الحي من لماية متوطنين السرسو، تبلغ خيلهم ثلاثين ألفًا أو تزيد، فأثخن فيهم داوس وفرقهم، فبعضهم انتقل إلى جبل مصاب (ميزاب) وبعضهم لجبل راشد . . . وأخذ وهران من الخير بن محمد بن خذر، وولى عليها محمد بن عون، فعمت الرافضة (الشيعة) المغرب الأوسط.

ثم إن الناصر الأموي أَوْلَى يعلي الإفريني المغرب الأوسط، وعقد له على حرب الأرفاض، فزحف إلى وهران، وحاصر بها محمد بن عون، و(قبائل) أزديجة؛ لأنهم صاروا مع محمد يدًا واحدة، وطالت الحروب حتى تغلب عليهم وفرق جماعتهم سنة (٣٤٣) وافتتح وهران عَنْوَةً، وأضرمها نارًا . . . وبقيت خرابًا إلى أن بناها يعلى الإفريني السابق الذكر، وانتقل إليها من أفكان بأهله وولده.

اليهودي الخائن يحكم المسلمين

يقول أبو راس: ولما ملكوا المدينة أنزلوا اليهودي بهذا البرج -برج المرسى- وفوضوا له التصرف في الخراجات البرية والبحرية، وتوارثها عنه بنوه من سنة (٩١٥ إلى سنة ٩٨٠) ثم جرت بينه وبين نصارى وهران منافسة، فبعثوا إلى طاغيتهم أن اليهودي يريد تمليك البلاد للمسلمين، فجاء المكتوب بنفيه وإخراجه إلى عدوتهم.

وكان العامل من يهود هذا المرسى يخرج إلى مطالب بني عامر وخراجاتهم في زي الملوك، يخدم من أسرى المسلمين، فينزل بفسطاطه،

ويحكم بين أهل الإسلام في شكاياتهم ويأمر وينهى، ويصفد ويقتل ويضرب، وهذا أكبر المصائب وأفظع المعائب، وكانت لهذا اليهودي جوارٍ من أحسن بنات الإسلام.

الأدب يستفز الشعب

لم يتحمل المسلمون هذه السلسلة من المذلات: ذل الانكسار، وذل حكم اليهودي الخائن، وذل تمكينه من بنات المسلمين سبايا يفعل بهن الأفاعيل، وذل استكانة بني عامر للإسبان إلى أن أصبحوا أعوانهم وسندهم، فتنادوا بالصيحات، ورفعوا العقيرة باستفزاز كوامن الشعور، وقد حفظ لنا التاريخ قصيدًا يعتبر نموذجًا من هذا الأدب الذي يعبر أصدق تعبير عن عاطفة الشعب المتأججة، هو من نظم العالم الأديب الشيخ أحمد بن القاضي، شيخ الشيخ عبد الله أبي علي المساوري، شيخ العلامة سيدي سعيد قدورة الجزائري، وفي القصيد بعض الخلل، ناشئ عن جهل الناسخين:

فمن مبلغ عني قبائل عامر ... ولا سيما ممن ثوى تحت كافر
وكل كمي من صناديد راشد ... بتيجانهم مع رأسها عبد قادر
وجيرانهم في الغرب من كل ماجد ... طويل القنا أهل الوفا والمغافر
وطلحة والأحلاف في غرب هبرة ... وشيخ سويد بل وكل مفاخر
وشيخ بني يعقوب الحامي الحمى ... بكل قبيل مولع بالعساكر
ويا معشر الإسلام في كل موطن ... وفي كل ناد سالف ومعاصر
ويا معشر الأتراك يا كل عالم ... وكل ولي حافظ للأوامر
ويا سادة العربان من آل هاشم ... وغيرهم بالله ما صبر صابر؟!
أناشدكم بالله ما عذر جمعكم ... لدى الله في وهران ذات الخنازر
أذلكم الجبار! كيف رضيتمو ... بسبي العذارى من بنات الأكابر
فصرتم من جور البغات كأنكم ... يهود الجزا تعطونها بالأصاغر

فلا همة تعلو بكم عن دنية ولا غيرة تدعوكمو للمآثر

ولا ذمة ترعونها في نبيكم ولا حرمة تحمونها بالبواتر

عليكم لحاف الذل! أين فحولكم؟ أما أبصروا في السبي خير الحرائر؟

وتحت اليهودي غادة عربية يعاليها الخنزير فوق الهزابر

وما منكم إلا خصي أذلة بميمه النصراني يا آل عامر

أضيم ملوك أم تغلب ظالم عليكم رماكم في جوار الكوافر؟

نكبة إسلامية عامة

احتلال بجاية

كانت إسبانيا تسير في معركتها الإفريقية حسب خطة مرسومة مدققة وبرنامج مُحكم.

فما كادت تثبت أقدامها بالناحية الغربية، حتى وجهت أنظارها إلى الناحية الشرقية، وأخذت تستعد بحرارة وبإيمان؛ لإنزال الضربة القاصمة بمدينة بجاية، فتحطم تلك المدينة التي كانت -ولم تزل إلى ذلك اليوم- مركز إشعاع حضاري وعلمي، لم تستطع الفتن ولا الدسائس حول العرش إخماده، وتعدم بذلك جرثومة الحياة في هذه الدولة التي كانت تلفظ -كدولة بني زيان- أنفاسها الأخيرة؛ أعني بها: دولة الحفصيين البجائيين، وتأخذ بعد ذلك في اكتساح الساحل من طرفين، بعد أن تأمن على مؤخّرتها من الناحيتين.

وإنه لمن العجب أن تكون بجاية ذلك الحين مصابة بنفس المرض الذي كان ملمًّا بدولة بني زيان بتلمسان عندما فاجأها الغزو الإسباني، ونكبها ماديًّا وأدبيًّا في وهران نكبة لم تقم لها من بعدها قائمة، كانت مصابة بداء «العرشية»! فكان عبد الرحمن الحفصي قد ثار على ابن أخيه عبد الله، وتولى «العرش» مكانه، وزجَّ به في السجن، بعد أن اعتقد أنه قد أفقده البصر.

وإسبانيا لم تكن تجهل شيئًا مما يجري في البلاد، فاستعدت للحملة أيما استعداد، وبذل الكاردينال خيمينس من الهمة والجهد في تجهيز الحملة نفس ما بذله في تجهيز حملتي وهران والمرسى الكبير.

أسند القيادة إلى بطرس النفاري «بدرو نافرو» فاتح وهران وجلادها الفظيع، فأخذ يستعد تحت طي الكتمان، حتى لا تتسرب أنباء المسيرة إلى

بجاية، وامتطى صهوة أسطوله بالمرسى الكبير يوم (٣٠ نوفمبر ١٥٠٩) مدعيًا العودة إلى إسبانيا، واتخذ طريقه فعلًا صوب الشمال. إنما أرسى على جزائر الباليار الإسبانية، فقضى بها شهر ديسمبر القاسي ذا الرياح المتقلبة، وجاءه المدد من إسبانيا إلى هنالك؛ فنظم الحملة ورتب تفاصيلها، ووضع على الأسطول الأميرال خيرو نيمو فيانلي.

يوم غرة جانفي (١٥١٠) أقلع الأسطول، يشمل ٢٠ سفينة كبيرة تحمل على متنها عشرة آلاف رجل من صفوة الجيش، تعززهم مدفعية ضخمة وآلات عديدة وسلاح وفير.

وكانوا أمام مدينة بجاية يوم ٥ جانفي، عندئذ رأى المسلمون الخطر، وكانت قد بلغتهم -ولا ريب- مأساة وهران، فتنادوا للجهاد، واستعدوا للدفاع عن مدينتهم وعن دينهم وعن ميراثهم الحضاري التالد العظيم.

تسلقت فرقة منهم تقدر بنحو العشرة آلاف رجل مرتفعات جبال القورايا؛ لكي تمنع الإسبان من النزول إلى البر، وأخذت المدفعيتان البجائية والإسبانية تتبادلان رمي القذائف؛ لكن البون كان شاسعًا جدًّا بين مدفعية مهاجمة، تابعة لدولة نامية متحدة، ذات قيادة حديدية، وبين قوة مدفعية تابعة لدولة متخاذلة، منهارة، تحكمها -إن صح التعبير- يد شلاء وفكر شريد، فما هو إلَّا أمد قليل حتى تمكن الإسبان من مد أخشابهم المهيأة للنزول فيما بين السفن والساحل، في ذلك المكان البديع الحسن، الخلاب المنظر، المعروف إلى اليوم «أيقواد».

كانت المعركة -والحق يقال- معركة شعب لا معركة حكومة، فالشعب البجائي البطل هو الذي تولى كبر المقاومة، وهو الذي استعد لكل تضحية، فلم يفقد عزيمته، ولا هو فقد ثباته، عندما رأى الجيش الإسباني الجريء ينزل إلى الأرض بقضه وقضيضه؛ بل أخذ يستعد للدفاع اليائس عن مدينة

الناصر، فكان الناس يومئذ مثلهم كمثل خلية النحل، يقوم كل فرد فيها بعمل لفائدة الدفاع، والذي يدل على تصميمهم وعزمهم على الدفاع اليائس هو مبادرتهم بإخراج النساء والصبيان من المدينة المهددة، والإرسال بهم إلى مدينة جيجل.

في تلك الساعة، وأمام ما كان باديًا من هذا التصميم، قسم القائد دون بدرو الإسباني جيشه إلى أربع فرق، وجعل كل فرقتين منها فيلقًا، ثم أصدر أمره للفيلق الأول بأن يتسلق مرتفعات قورايا؛ ليشرف على المدينة من أعلاها، ولكي يمنع وصول المدد والنجدات إليها.

أما الفيلق الثاني، فقد أسندت إليه مهمة مهاجمة المدينة مما يلي الساحل، والاقتراب منها شيئًا فشيئًا، حتى تقع ضمن منطقة حصار حديدية.

التحمت المعركة أولًا بين المجاهدين المسلمين وبين الإسبان الذين أخذوا يتسلقون الجبل تنفيذًا للخطة، واشتدت المعركة؛ لكن الإسبان تمكنوا -رغم ذلك الدفاع- من الوصول إلى أعلى المدينة، واحتلوا أرباضها المترفعة.

في نفس الوقت، كان الفيلق الثاني يسير صوب المدينة محاذيًا البحر، إلى أن وصل المدينة ودخل أرباضها السفلى، وهي المدينة العتيقة التي أُفرغت من أغلب سكانها دون مقاومة تذكر، وفي وسط بجاية العتيقة التقى الفيلقان، وانتهى الأمر.

كان المسلمون قد اعتصموا بالديار، وأرادوا المقاومة اليائسة حتى الموت، لكنهم سرعان ما رأوا وجوب الانسحاب وراء بجاية؛ من أجل استمرار المعركة وصد الإسبان عن التوغل في البلاد.

وهكذا غادروا المدينة بعد معارك لم يكتب لهم فيها النجاح، استبسل فيها الشعب الذي لم تكن له قيادة حكمية مدركة، وكان على رأسهم في الانسحاب

الملك عبد الرحمن! ودفع الشعب ثمن الهزيمة غاليًا جدًّا؛ إذ ما كاد الجيش الإسباني يحتل البلدة حتى أعمل السيف في رقاب مَن وجدهم مِن أهلها والمدافعين عنها، وأسرف في القتل، كما أسرف من قبل في وهران؛ فانجلت المذبحة الفظيعة عن مصرع أربعة آلاف ومائة من الشهداء.

وأمعن الإسبان في بجاية تخريبًا ونهبًا، على غرار ما وقع بوهران، واستحوذوا على نفائس بجاية وثروتها التالدة والطريفة، فنقلوها غنيمة إلى إسبانيا على متن ثلاثين سفينة، ابتلع البحر أكثرها قبل وصولها إلى المراسي الإسبانية.

وتناولت يد التخريب والتحطيم بعد ذلك معالم المدينة التي كانت غرة في وجه الفن المعماري العربي، فمنار قصر الجوهرة الذي كان ارتفاعه سبعين ذراعًا لم يبقَ منه إلا اسمه، والمسجد الأعظم لم يبقَ منه إلا رسمه، والويل لمن غلب.

هذا، ويقول المؤرخ العربي أبو علي إبراهيم المريني، الذي كتب عن هذه المصيبة بعد أمد طويل: إن المقاومة الإسلامية قد كانت عارمة، وإنها كبدت الإسبان خسائر عظيمة، وقد كانت قصته هذه موجودة بخزائن الولاية العامة الجزائرية قبل الاستقلال، ثم أخذها الفرنسيون عند انسحابهم، مع جملة ما أخذوه من ثروتنا التاريخية العارمة[1] ونقلوه إلى بعض المدن الفرنسية.

لكن الحقيقة المؤلمة كانت غير ذلك، ويا للأسف!

---

(١) أعلم من تحرياتي الخاصة أن الفرنسيين قد نقلوا الوثائق التاريخية المتعلقة بالبلاد الجزائرية قديمًا وحديثًا، فيما بين شهري نوفمبر (١٩٦١) وجوليت (١٩٦٢) إلى فرنسا، ووضعوها ضمن ٤٢٦٩ كيسًا، يزن كل كيس ٢٠ كيلو، فالصناديق التي تحمل ورقة حمراء وجهوا بها إلى مدينة أيكس أن بروفانس، والصناديق التي تحمل ورقة خضراء وجهوا بها إلى مدينة أيكس ليبان؛ فيكون الوزن: (٤٢٦٩ ط ٢٠ = ٨٥٣٨٠ ك).

فالإسبان لم يتكبدوا في بجاية إلا خسائر طفيفة، والقائد الظافر بدرو نفارو قد أرسل إلى الملك تقريره عن الوقائع، يقول: إن احتلال المدينة كان سهلًا، وإن العملية كانت ميسورة مع أن أسوار المدينة كانت عالية قوية، والمواقع الجبلية كانت حصينة، وعدد المجاهدين المسلمين كان كبيرًا، والمؤن والذخيرة كانت موجودة، فالمقاومة الطويلة الناجحة كانت ميسورة.

يقول الباحث بول ونتر في فصل قيم ثمين نشره بمجلة الجمعية الجغرافية لشمال إفريقيا (عدد ١٢٠) في تعليل ذلك: إن المسلمين ربما كانوا يعتقدون أن الإسبان ما جاءوا إلا من أجل السلب والنهب، وأنهم متى أدركوا غايتهم، وبلغوا هدفهم، فإنهم سوف يغادرون البلاد مع الأسلاب.

الذي يؤكده التاريخ، هو أن نكبة بجاية، وتخريب معالمها، وذبح أربعة آلاف ومائة مسلم فيها، لم يكلف الإسبان خسارة تُذكر، فذهبت المدينة وذهب أهلها ضحية الخلاف والشقاق، وفقد الروح المعنوية، وانعدام القيادة الحكمية الواعية. أما الشعب فقد قام بواجبه، ودافع كما استطاع أن يدافع، ومات كما لم يكن يجب أن يموت.

شيء عن بجاية

لا يستطيع المرء مهما أوتي من حذق ومن مهارة أن يلخص تاريخ هذه المدينة العجيبة في مغربنا العربي، ولا أن يوجز ذِكْرَ ما طفحت بوصفه أمهات الكتب عن علو شأن بجاية الحمادية، التي اختطها الملك الحمادي الناصر سنة (٤٦٩هـ-١٠٧٦م) واتخذها عاصمة لمملكة بني حماد، إلى أن تسلمها منهم الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي سنة (٥٤٧هـ١١٥٢م) واتساع عمرانها، وارتفاع معالمها ومساجدها وقصورها ومدارسها، وما كانت تعج به من كبار العلماء الأعلام، ومن الأدباء والشعراء، ومن كبار الباحثين الضاربين في كل فن، ومن تجارة واسعة عريضة ربطتها مع أغلب بلاد البحر

المتوسط، ثم إنها بقيت -رغم ضياع ملكها، ووقوعها ضمن الدائرة الموحدية الواسعة، ثم ضمن الدائرة الحفصية الضيقة- مدينة علم وعمل، ومركز إشعاع حضاري عظيم، إلى أن حلت بها النكبة السوداء.

جاء في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى: «من جملة أسباب ثروة بجاية علاقتها الواسعة المتصلة مع بيزا (إيطاليا) وجنوة، ومالفي، ومرسيليا، وبرشلونة (إسبانيا) ورغمًا عن أعمال القرصنة التي كان المسلمون والمسيحيون يقومون بها، فالحركة التجارية قد استمرت بها واسعة جدًّا، فكانت بجاية تصدِّر الحبوب والزيت والصوف والشمع والجلود، وكثير من مدن أوربا -كالجمهوريات الطليانية ومرسيليا- قد عقدت مع بجاية معاهدات سلام وتجارة، وكانت لها قنصليات بالمدينة». اهـ.

وكانت عند أيام النكبة تشمل ثمانية آلاف من الدور؛ أي: نحو الأربعين ألفًا من السكان، ولقد وصفها ليون الإفريقي (الحسن بن محمد الوزان الفاسي)(١) أجمل وصف؛ إذ قال: إنها كانت محاطة بأسوار عالية، وتشمل ثمانية آلاف أسرة، وديارها جميلة البناء حسنة المنظر، وأنها كانت زاخرة بالمساجد والمدارس التي يتعاطى الطلاب والشيوخ فيها دروس علوم الدين والرياضيات المختلفة، كما كان بها عدد من البيمارستانات لمعالجة المرضى، وفنادق عديدة لإيواء التجار والمسافرين.

ويقول: إنها كانت معقلًا دينيًّا قبل كل شيء يدعونها مكة الصغيرة.

وتقع المدينة على خط الزوال ٤٥، ٢ (جرينتش) وخط العرض ٤٥، ٣٦ وسط خليج ذي جمال خلاب، تكتنفه جبال قورايا التي يبلغ ارتفاعها ٦٠٠ متر.

---

(١) ولد بقرطبة حوالي (١٤٨٣) وتوفي حوالي (١٥٣٠) أسره النصارى في البحر فتظاهر بالتمسح، ألف كتاب «وصف إفريقيا» الشهير.

أما عرض خليج بجاية فهو ٢٨ ميلًا، وينحصر بين رأسين بارزين في البحر، ويبلغ عمقه ٨ أمتار، وهذا ما جعل بجاية ذات مرسى من أحسن مراسي البحر المتوسط، وأكثرها ضمانًا لراحة السفن، وبعدًا عن زوابع الشمال والغرب؛ من أجل ذلك اختط الكنعانيون مدينتهم الشهيرة «صلدة» داخل ذلك الخليج، ثم أصبحت «صلدايي» عند الاحتلال الروماني، وصارت أخيرًا بجاية، وهو اسم القبيلة الأمازيغية التي تسكن رقعتها.

وتقع المدينة -وهذا مهم جدًّا لما سيأتي تفصيله من وقائعها المقبلة- على مجرى وادي الصمام، الذي يخترق الجبال القبائلية تحت اسم «وادي الصمام» عند مدينة أقبو.

بعد النصر الإسباني استكانة سلطان تونس الحفصي

يقول المؤرخون الإسبان والإفرنج: إنه ما كادت أنباء النصر في بجاية تبلغ مسامع إسبانيا وبلاد المسيحية، حتى غمرتها موجة من الابتهاج، وأُعلنت الأعياد العامة، وتوارد الناس على الكنائس يقدِّمون الشكر لله على ما منحه من نصر لجيوش الصليبية.

أما في البلاد الإسلامية، فقد أحدثت هذه النكبة رجة أسى عميق، وخاصة لقرب العهد بينها وبين نكبة وهران، وساد القسم الشرقي من البلاد نوعٌ من الهلع في القلوب، سواء بالبلاد الحفصية التونسية أو البلاد الحفصية القسنطينية، فبادر السلطان الحفصي بتونس أبو عبد الله -عم المتوكل- باسترضاء الملك الإسباني، والتقرب إليه، بله إعلان شيء من التبعية له -تمامًا كما فعل ملك تلمسان بعد نكبة وهران- وتعهد بدفع جزية سنوية للملِك الإسباني، مع فرسين من جياد الخيل وأربعة من طير الباز، دليل خضوع ورضوخ، وهو يعتقد -أمام نكبة بجاية وكارثة وهران وتنمر الإسبان- أن ذلك هو أخف الضررين.

رضوخ مدينة الجزائر

كذلك ساد الهلع مدينة الجزائر، وكانت كما علمت مشيخة مستقلة تابعة نظريًّا لمملكة بجاية، يتولى حكم الجماعة فيها الشيخ «سالم بن التومي» وعلمت أنها ستكون الضحية المقبلة للإسبان، بعد أخذ الطرفين الشرقي والغربي: وهران وبجاية، فاجتمع أهلها وتشاوروا، وقر قرارُهم على وجوب استرضاء الإسبان، وعقد اتفاق معهم، يصون لهم حياتهم، ويضمن لهم بقاءهم.

فخلال شهر جانفي من السنة المذكورة (١٥١٠م) أي: بعد أيام معدودات من نكبة بجاية الدامية، غادر مدينة الجزائر وفد أعيانها، يرأسه شيخُها سالم التومي[١] متوجها إلى بجاية؛ حيث اجتمع ببيدرو نفارو، واتفق الطرفان على أن يُعقد السلام بين المدينة وبين الإسبان، وأن يتعهد الجزائريون بإطلاق سراح مَن بأيديهم من أسرى المسيحين، وألا يتصدى الجزائريون بشرٍّ لسفن الإسبان، وأن يسافر وفد منهم لإسبانيا لعقد اتفاقية نهائية مع حكومة الملك، وأن يدفع الجزائريون لحاكم بجاية الإسباني نفس المقدار من المال الذي كانوا يدفعونه لملك بجاية؛ اعترافًا بالتبعية، وذلك مقابل ألا يتعرض الإسبان لمدينة الجزائر، ولا يحاربونها، ولا يعتدون عليها.

وفي سنة (١٥١١) سار الوفد الجزائري إلى إسبانيا، وتفاوض مع مجلس سرقسطة SARAGOSSA، واتفق الجانبان على أن يسلم الجزائريون أكبر جزرهم الصخرية التي يدعوها البكري «إسطفلة» للإسبان؛ لكي يقيموا عليها معقلًا، يحرس تجارتهم ويضمن حرية مواصلتهم البحرية، ويجعل مدينة الجزائر نفسها تحت رحمة مدافعهم، إلى أن يباشروا تنفيذ خطتهم الثانية، التي هي التوغل داخل البلاد مرتكزين على البلاد الساحلية التي يحتلونها.

---

(١) يقول بعض المؤرخين: إن سالم التومي أرسل وفدًا ولم يكن فيه.

وبمجرد إمضاء الاتفاق، أرسل الإسبان أحد المهرة من مهندسيهم العسكريين مرتينودي رنتيريا، فأشرف على بناء القلعة البحرية التي أصبحت تُدعى «صخرة الجزائر» PENONDARGELعلى أنقاض منار إسلامي قديم، كان قائمًا هنالك من أجل هداية السفن وإرشادها للتجمع، وهكذا دفعت مدينة الجزائر عن نفسها شر الغزو والعدوان، وأصبحت راضخة للإسبان، تعيش تحت رحمة مدافع «صخرة الجزائر» وتتحمل الضيق والمذلة على مضض إلى حين.

احتلال وملكان وشعب

بينما كان الإسبان يجوسون خلال الديار في بجاية، يذبحون بقايا الرجال وينهبون الأموال، وبينما كان المقاتلون من أهل بجاية ينسحبون وراء المدينة، بشيء من أسلحتهم وبقية من عزيمتهم؛ من أجل استمرار المقاومة وصد العدو إذا ما حاول التوغل داخل البلاد، وأثناء ذلك الهرج والمرج، تمكن «الملك» عبد الله ملك بجاية الشرعي المخلوع المسلوب البصر من مغادرة سجنه، وسار به البعض إلى مكان فيه جماعة من أنصاره.

ففي يوم عيد الفصح من تلك السنة الرهيبة، وقف على أسوار المدينة المنكوبة وفد من العرب، يحمل راية بيضاء، ويتقدمه شاب أعمى، يطلب المثول بين يدي القائد بيدرو.

علم بيدرو أن ذلك الشاب الأعمى، إنما هو الملك المخلوع عبد الله، ولا أسميه كما يسميه التاريخ، ولا كما يدعوه أنصاره «مولاي عبد الله»، فمولانا هو الله وحده، فأحسن استقباله واستمع إلى قصته البائسة الحزينة، وعرضه حالًا على طبيب الأسطول الإسباني الذي قرر بعد فحصه، أنه لم يفقد نور بصره، وأن النار التي وضعت أمام عينه لم تؤثر على القرنية، ولم تتلف العصب البصري، بل أصابت الأهداب فقط، فالتحمت، وبقيت العين وراءها سليمة.

وبعملية جراحية بسيطة، فصل ما بين الأهداب؛ فارتد الملك بصيرًا وأعلن الولاء لإسبانيا، والخضوع لها، والعمل تحت رايتها، وتحقيق مآربها، متى ما استرد عرشه.

قرر بدرو نفارو المبادرة من الإفادة بهذا المدد الذي جاءه من السجن، ورأى أنه يستطيع بواسطة هذا الملك أن يقسم المجاهدين إلى نصفين، وأن يحارب الواحد بالآخر، فبادر باحتضان عبد الله، ومكَّنه من سكنى بعض أرباض بجاية الخربة، صحبة عائلته وأهله، وراسل ملك إسبانيا يبين له أهمية الأمر، ومدى الفائدة المادية والمعنوية التي تعود عليها من هذه العملية.

الخروج للحرب

لم ينتظر بدرو نفارو جواب الملك، بل بادر بتجهيز الجيش، وعزم على مهاجمة المجاهدين في المعاقل التي التجئوا إليها، قبل أن يشتد ساعدهم، وقبل أن يتلقوا المدد من جهات البلاد.

غادر بجاية الخربة الدامية يوم ١٣ إبريل، ومعه ١٥٠٠ من الجيش الإسباني و«الملك» عبد الله وجماعة من رجاله وفرسانه، فاخترقوا الجبل المحيط ببجاية، وجاسوا خلال السهل، ووجدوا خيام «الملك» عبد الرحمن المهزوم، وفلول جيشه، ولم يكونوا مستعدين للدفاع، فبعد معركة قصيرة انهزم عبد الرحمن ورجاله، تاركين خيامهم ومتاعهم غنيمة للإسبان.

ولا ريب لدينا أن وجود عبد الله مع الإسبان صحبة أنصاره وأعوانه، قد أحدث ما كان يرجوه الإسبان من البلبلة في صفوف المسلمين، وفيهم -بدون شك- من كان يعطف على الملك الشاب المظلوم، وكان ذلك من أسباب سرعة الهزيمة التي مُني بها عبد الرحمن وبقايا رجاله.

لكن بدرو نفارو لم يكتفِ بذلك، بل تتبع عبد الرحمن إلى أن أدركه بعد حين، وشبت نيران معركة جديدة قاسية كان العرب أثناءها يوجهون ضرباتهم

إلى صدور أعدائهم من بني دينهم ووطنهم من أنصار أحد الملكين أكثر مما كانوا يوجهونها للإسبان، وأسفرت المعركة المؤلمة عن انكسار إسلامي شنيع فادح، واستشهد خلال المعركة ثلاثمائة شهيد، من بينهم امرأة «الملك» عبد الرحمن وابنته، وانهزم هو مع فلول جيشه لا يلوي على شيء، وعسكر بعيدًا عن الإسبان.

كانت غنائم الإسبان -هذه المرة- عظيمة الشأن، عالية القيمة؛ إذ تمكنوا من ضبط كل الأموال والذخائر الثمينة التي كان عبد الرحمن قد أخرجها معه حين انسحابه من بجاية، وكانت تشمل كميات عظيمة من الذهب والفضة والحجارة الكريمة، والأقمشة الحريرية، زيادة عما وضعوا عليه أيديهم من أغنام وأبقار وخيل وأسلاب، حملها تسعمائة بعير.

يقول الإسبان -ومبالغتهم هاهنا واضحة فاضحة-: إنهم لم يخسروا خلال هذه العملية إلا قتيلًا واحدًا لا غير، ولا يهمني من الأمر عدد قتلى الإسبان، إنما يهمني أمر هذه الهاوية السحيقة التي انحدر إليها المسلمون من جراء هذا التخاذل، وهذه المنازعات الإجرامية حول عروش أفضل منها النعوش، ومن أجل ملك أفضل منه مملكة النحل أو مملكة النمل.

عبد الله ملكًا

وأخيرًا، جاء رد الملك فرديناندو من إسبانيا على مقترحات الحاكم العام دون بدرو والمتعلقة باستعمال «الملك» عبد الله دمية يحكم بواسطتها أشلاء مملكة بجاية القديمة، التابعة اسمًا لمملكة قسنطينة، التي هي تابعة اسمًا لمملكة تونس الحفصية.

والرسالة الملكية الإسبانية كانت آية في الدقة، آية في التعبير عن آمال إسبانيا الدينية والسياسية، ومنهاجها في العمل.

لهذا، فأنا أذكر هاهنا نصها بصفة تكاد تكون حرفية، حسب الوثيقة الأصلية الإسبانية المحفوظة بخزينة أوراق قلعة سيما نكاس[١].

(مايو ١٥١٠)

لتكن المعاهدة مع مولاي عبد الله مبنية على الواقع الحاصل، ولتكن ذات مفعول دائم.

وبما أن بجاية قد أصبحت ضمن ممتلكاتنا؛ تنفيذًا للقرار الصادر بذلك من الكنيسة الرومانية، فلا يمكن أن يعطى لمولاي عبد الله لقب «ملك بجاية» بل ليكن ملكًا على أي مكان يختاره، فيما عدا البلاد الساحلية؛ إذ إن مدينة بجاية، وملحقاتها، ومداخلها، وتولي الأحكام فيها، وكذلك كل البلاد الأخرى والمدن والقرى الموجودة على ساحل البحر، يجب أن تكون لنا وحدنا خالصة بصفة تامة مطلقة، ولا يحق لمولاي عبد الله أن يدعي أيَّ حق له عليها، أو أي حكم على سكانها من النصارى أو المسلمين.

وبما أن البلاد المذكورة، ومدنها وقراها، هي من ممتلكاتنا الخاصة، فإننا نعترف لمولاي عبد الله بالملك على بقية البلاد الداخلية من المملكة، مع مداخلها وأحكامها، إنما نحتفظ لأنفسنا بالحق الأعلى في الإشراف على القضاء الذي هو من حق السيادة.

كما أن الملك يجب أن يلتزم بدفع جزية سنوية -نترك لك حرية تقديرها- كما يسمح لعبد الله، ومائة من أعوانه، أن يسكنوا مؤقتًا ربض بجاية، إلى أن يجد عاصمة لمُلْكه، على شريطة ألا يبني بذلك الربض مسجدًا. اهـ.

---

(١) قلعة عتيقة بإسبانيا في مقاطعة «بلدة الوليد» بالشمال الغربي، بناها الكردينال خيماناس على أطلال قلعة عربية؛ لتكون خزينة عامة لأوراق ووثائق الدولة، وهي تشمل ٣٣ مليون وثيقة، مقسمة على ٨٨ ألف ملف، بديعة النظم والتنسيق، ولها فهارس محكمة الوضع في عدد كبير من المجلدات المطبوعة في «بلد الوليد»، وقد قضيت بها يومًا من أمتع الأيام، وتمكنت من نقل وتصوير عدد من الوثائق مما تجده في هذا الكتاب، وقد سهل لي المهمة مديرها وموظفوها، فأسجل لهم شكري.

اللعب على الحبلين، واستثمار «الملكين»

في شهر جوان من نفس تلك السنة، أسندت ولاية بجاية -وما إليها من البلاد التي احتلتها إسبانيا- إلى دون أنطونيو دي رافانيدا، وغادر دون بدرو نفارو بجاية يوم ٧ من الشهر المذكور.

وأرسلت إلى دون أنطونيو تعليمات ملكية جديدة، تدل دلالة قاطعة على أن المحاولة مع «الملك» عبد الله لم تلقَ أدنى نجاح، رغم محاولة إسبانيا استثماره إلى الحد الأقصى.

فالملك فرديناندو يبعث للوالي الجديد رسالة مؤرخة بيوم (٢٣ أكتوبر ١٥١١) يخول له فيها حق التعاقد مع أيٍّ من الملِكين: عبد الله أو عبد الرحمن، لكنه يفضِّلُ أن يكون عبد الله، على شرط أن يكون التعاقد مع من يعطي أكثر الضمانات لإسبانيا ومن يكون أحفظ لمصالحها.

فأما «الملك» عبد الرحمن، الذي لا يزال على رأس القوة من المجاهدين يصد تقدم الإسبان نحو داخل البلاد، فيجب أن يُعامل معاملة «النِّد». وأما «الملك» عبد الله، القابع في بجاية منتظرًا أن يخلق له الإسبان مُلكًا، فيجب أن يعامل أثناء المفاوضات وحين عقد المعاهدة معاملة «التابع».

معاهدة البؤس والشقاء

لم يستطع دون أنطونيو أن يفاضل بين الملِكين، فكلاهما -سواء منهما الخاضع أو المتظاهر بالمقاومة- كان يريد التعاقد مع إسبانيا بما يرضي مصالحها ويحقق آمالها، مقابل أن تعترف به ملكًا، وأن تحميه وتوطد له مُلْكه.

ولم تكن لإسبانيا رغبة حقيقة في التورط في حرب داخل البلاد قبل الأوان، فإذا ما هي نصرت أحد الملِكين على الآخر، وتعاقدت معه، كان عليها أن تنصره عسكريًّا، وأن تحارب خصمه، إلى أن تقضي عليه إن استطاعت.

فأمام ما وجده دون أنطونيو من حسن استعداد عند الجانبين، تمكن من أن يفرض عليهما معًا معاهدة تبعية لإسبانيا توطد السلام بين الجانبين «الملكيين» من جهة، وتجعلهما في ركاب إسبانيا من جهة أخرى.

ونستطيع أن نلخص معاهدة الخزي في النقط التالية نقلًا عن نصها الرسمي:

بين الملك فيرناندو، وملك إسبانيا والصقليتين

وبين مولاي عبد الرحمن ملك جبال البربر

وبين مولاي عبد الله حفيده

انعقدت معاهدة على **القواعد والأسس** التالية:

أولًا: انعقد بهذه المعاهدة صلح دفاعي هجومي في سبيل مصلحة إسبانيا، بين الملك عبد الرحمن والملك عبد الله، كما انعقد بينهما معًا من جهة، وبين الملك فرديناندو من جهة أخرى حلف دائم المفعول.

ثانيًا: يستمر «مولاي» عبد الرحمن ملكًا على جبال القبائل.

ثالثًا: يعترف عبد الرحمن علنًا بامتلاك إسبانيا لمدينة بجاية، وصخرة الجزائر، وتادلس، وكل المراسي التي على البحر، وما يتبعها (ولم يأتِ هنا ذكر مدن وسواحل الناحية الغربية؛ لأنها داخلة ضمن نطاق التعاقد مع بني زيان في تلمسان).

رابعًا: إرجاع كامل الأسرى المسيحيين إلى الإسبان دون أدنى مقابضة.

خامسًا: العمل على إصلاح كل القلاع والمعاقل الموجودة في المملكة.

سادسًا: يبعث الملك عبد الرحمن بولده محمد رهينة عند الإسبان، كما يبعث الملك عبد الله بولده البكر[1] رهينة أيضًا؛ وذلك لضمان تنفيذ المعاهدة.

سابعًا: يتعهد العرب بأن يزودوا مدينة بجاية الإسبانية سنويًا بالمواد والمقادير الآتية:

٣٦٠٠ فنيق من القمح (الفنيق نحو ٣٦، ٥٠ ك).

١٠٠ فنيق من الشعير.

٥٠ فنيق من الفول.

١٠٠٠ رأس من الغنم.

٥٠ بقرة.

١٠٠٠ حمل من الحطب.

فأما أحمال الحطب فتسلم مجانًا لحامية بجاية.

وأما بقية المواد، فإن الموردين يتقاضون ثمنها.

وهكذا زُين للملك فرديناندو أنه أصبح -نظريًا- يملك من وراء الملك عبد الرحمن جبال القبائل، وخُيل إليه أنه أصبح سيد البلاد الشرقية من قطرنا هذا دون منازع، إنما نسي أن الشعب كان بالمرصاد.

---

(١) لهذا الولد مأساة محزنة، فقد سلمه أبوه للإسبان رهينة وهو صغير السن، وسلمه هؤلاء للرهبان؛ كي يتولوا تعليمه وتثقيفه وتعميده، فنشأ وشب وهو لا يعرف غير النصرانية دينًا، وأطلقوا عليه اسم فيرناندو، ومنحه ملك إسبانيا لقب «إنفانت» الذي لا يطلق إلا على أبناء العائلة الملكية، ومات مسيحيًا في إسبانيا.

غرور لا يعرف حدًا

يقول الأستاذ بول فانتر -سالف الذكر- في مجلة الجمعية الجغرافية لإفريقيا الشمالية:

«إن الملك فرديناندو قد أصبح بعد هذا النصر، يعلن جهارًا عن فكرته في وجوب تعميم المعركة الصليبية، ويجاهر أنه سوف يتعقب الكفار (المسلمين) إلى أن يسترجع من بين أيديهم بيت المقدس، ثم عزم في حميته المسيحية على أن يسير بنفسه على رأس جيشه إلى إفريقيا، وأن يضع يده في يد فرسان جزيرة رودس من أجل الاستيلاء على مصر، وكان احتلال بدرو نفارو مدينة طرابلس (الغرب) نقطة أساسية من نقط هذا البرنامج».

بجاية تحت النير والاستعباد

أصبحت مدينة بجاية الخالية من سكانها المسلمين، والتي لا يقطنها إلا رجال الحامية الإسبانية، ومن تبعث بهم إسبانيا من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، والمبعدين والغير المرغوب فيهم، إلى جانب الملك الحثالة عبد الله الذي لا يملك من الملك إلا اللقب، ومائة من رجاله التابعين لإسبانيا أكثر مما هم تابعون له، أصبحت عاصمة بني حماد وبني حفص ولاية إسبانية، يتولى أمرها الحاكم العام، وهو ذو سلطة مطلقة داخل المدينة وخارجها.

وإلى جانب الحاكم العام يوجد ممثل العدالة، وهو القاضي الإسباني L'ALCADE وكان أشبه شيء بمعاون للحاكم العام، لكن الإسباني المستوطن الذي كان يركب رأسه في أكثر الأحايين، لم يكن معترفًا بسلطته، ولا مطيعًا في أكثر الوقت لأوامره، وكانت الفوضى ضاربة أطنابها في المدينة وضواحيها بصورة غريبة.

أما المشرف على الإدارة المحلية، ويدعونه الفيدور ALVUDORفقد كان من أهم وظائفه تسلم الخمس من الغنائم والأسلاب التي تؤخذ أثناء الغارات على المسلمين، والإرسال بها إلى التاج الإسباني، وهذا مما أخذته إسبانيا عن نظام الغنائم في الإسلام.

أما من حيث الحالة الاقتصادية، فقد أعلن الملك فرديناندو سنة (١٥١٠) حمايته للتجارة الإسبانية مع بجاية، فرض ضريبة مقدارها ٥٠ بالمائة على الأقمشة الصوفية المستوردة من بجاية إذا لم تكن صادرة إلى مرسى برشلونة رأسًا.

وكان لبرشلونة في القديم امتياز منذ سنة (١٣٠٩م) مع بجاية في شأن التبادل التجاري، فرأى الملك فرناندو وجوب احترامه لفائدة المدينة الإسبانية الكبرى.

وكانت بجاية في هذه الفترة تستورد من أجل الجنود والسكان -وبالأخص من أجل التجارة مع المسلمين في الداخل- الأقمشة من الحرير الملون والطيب، والعطور كالمسك والعنبر والعود، وذلك من مدينة البندقية التي كانت لا تزال محافظة على مركزها التجاري كواسطة بين الشرق والغرب.

وكانت بجاية تصدر مقابل ذلك ما تنتجه البلاد الجبلية؛ من أخشاب وتين ولوز، وما تنتجه المعامل اليدوية حوالي بجاية من أقمشة حريرية بديعة كانت من أهم ما يرغب فيه المترفون الأوربيون، كما تبعث بالمرجان الذي يخرج من بحارها، والحلي الذي يصنع -ولا يزال يصنع إلى اليوم- بالبلاد القبائلية، وترسل لإسبانيا كميات ضخمة من الصوف ومن الجلود التي تنتجها القلعة.

وأما من حيث المالية، فقد كان الملك فرديناندو أعلن أن بجاية يجب أن تكتفي بمواردها المالية، وذلك سنة (١٥١٠) بحيث أن بجاية لا تتلقى أي إعانة مالية من إسبانيا، سواء لدفع أجور الجيش، أو لدفع جرايات الموظفين، أو للقيام بالأعمال الواجب القيام بها.

فكانت تلك الموارد عبارة عن الجزية والإتاوات التي فرضها الإسبان الغالبون على شيوخ وأمراء المسلمين المغلوبين، ولقد كانت تلك المقادير تكفي -بصفة نظرية بحتة- لقيام الإدارة المحلية بما هو مطلوب منها، إنما الأمر كان مخالفًا لذلك تمام المخالفة من الناحية العملية. فالمسلمون لم يكونوا يقبلون التعهد بدفع الجزية أو المغارم إلا من أجل التخلص من الضيق أو لكسب الوقت، لكنهم لم يكونوا يدفعون ذلك إلا نادرًا وبصفة مؤقتة، فاشتدت الضائقة بالمدينة وبأهلها إلى درجة فادحة.

يقول الأستاذ فنتر: كان من جراء انسحاب المسلمين من بجاية وانحصار الإسبانيين بها أن اشتدت الضائقة بالإسبانيين إلى درجة أنهم كانوا يضطرون لأكل القطط واليرابيع، وجثث الخيل، مدة شهر كامل، إلى أن أتتهم أول سفينة تحمل الأقوات من إسبانيا.

وكان الجندي الإسباني كالموظف الإسباني، يتقاضى في أغلب الأحيان مرتبه مواد عينية بأسعار دون سعر السوق، وكان عليه أن يتولى مبادلتها مع السكان من أجل الحصول على النقد، وكثيرًا ما كانت هذه المقايضات تتسرب إلى خارج بجاية، فيقع التعامل مع المسلمين، وأصبح الإسباني لا يبيع المواد التي يحصل عليها فحسب، بل يبيع أيضًا سلاحه وذخيرته للمسلمين.

حدود المدينة الإسبانية ببجاية

كانت مدينة بجاية الإسلامية ممتدة الأطراف، فسيحة الأرجاء، عالية الأسوار.

لكن الإسبان عندما عمروا المدينة بعد خروج وإخراج سكانها المسلمين، لم يكن لهم من العُدد ولا من الاستعداد ما يمكنهم من الدفاع عنها، فرأوا وجوب اختصارها، والاكتفاء بما به الحاجة منها، مما يمكن الدفاع عنه؛ فأنشئوا من أجل ذلك أسوارًا جديدة، تبتدئ عند ساحل البحر، ثم ترتفع إلى القصبة، مخترقة جنان رافع، ثم تنحدر نحو البحر محاذية لمسجد الشيخ عبد الله الشريف، وتشق قصر الجوهرة الملكي البديع الذي حطموه وتركوه ركامًا، وتصل إلى البحر جنوب مرجة المرجاني، وهكذا أنشئت بجاية الإسبانية الصغيرة الكئيبة، وفوق إحدى قلاع هذا السور الجديد نُقشت العبارة الآتية باللغة الإسبانية:

«فرناندو الخامس ملك إسبانيا
افتك هذه المدينة بقوة السلاح
من أبناء هاجر اللئام
سنة (١٥٠٩)»

فمن أجل إنشاء هذه المدينة الصغرى، وقع تقويض وتحطيم نصف المدينة القديمة الزاهرة، فحطمت دورها وقصورها، وأتلفت مساجدها ومدارسها، وطمست أغلب معالمها.

السياسة الجديدة

لكن فردناندو -أمام خراب المدينة والضائقة الكبرى التي وقعت فيها- راجع سياسته بعد حين، وأرسل إلى الوالي العام أنطونيو دي رافانيدا رسالة مؤرخة بيوم (١٣ أكتوبر ١٥١١) يقول فيها ما خلاصته:

عليك أن تعمل ما يمكن عمله؛ من أجل إرجاع السكان المسلمين إلى مدينة بجاية، وإذا ما هم طلبوا الضمانات من أجل عدم إرغامهم على اعتناق الدين المسيحي، فأعطهم ما يطلبون من تأكيدات.

وخذ إلى قلعة بجاية قبل رجوع المسلمين كل الصلبان، وأثاث الكنائس الموجودة ببجاية -وكانت كلها كما رأيت مساجد للمسلمين- ولا تترك بها إلا الجدران والسقوف، والأبواب والنوافذ، وأوصد أبوابها بعد إخلائها؛ لكيلا يدخلها العرب مرة أخرى، حتى نجدها على حالها، عندما يهيئ الله الأسباب وتسمح مشيئتُه بأن يعمر المسيحيون المدينة كلها، وتفتح الكنائسُ أبوابها من جديد.

وأعلن الحاكم هذه السياسة الجديدة، ورغَّب المسلمين في الرجوع إلى ديارهم -أو بعض ديارهم على الأصح- فرجعوا وتسلموا أقسام المدينة الواقعة بين السورين القديم والجديد، وكانت بهذا القسم من بقايا المدينة الإسلامية خمسة صهاريج تجمع من ماء المطر نحو مائتي ألف لتر.

وعاد الانتعاش للمدينة بعد رجوع الكثير من المسلمين إلى هذا القسم منها.

المقاومة الشعبية

لكن رغمًا عن خنوع واستسلام الملِكين السالفي الذكر، ورغمًا عن كل الأساليب الفظيعة التي استعملها الإسبان لإخماد شوكة المسلمين حوالي البلدة الأسيرة، فإن الشعب الأبيّ المجاهد لم يستسلم لليأس، ولم يترك فترة من الوقت تمر، دون أن يعمد خلالها إلى أعمال المقاومة وحرب الكمين.

لم يعترف سكان زواوة من رجال القبائل الأمجاد بسلطة «الملك» عبد الرحمن كما أرادت إسبانيا، وتنادوا بوجوب الجهاد ضد المحتل

الغاصب، واعترفوا بإمارة الأمير أبي بكر، الذي كان يحكم قسنطينة باسم الحفصيين، وأخذوا يوحدون صفوفهم، والتف حولهم المجاهدون من أهل التل ومن سكان الهضاب العليا، واتخذ الأمير أبو بكر مقرًّا لقيادته بلدة زيانية، وأخذ يناوش باستمرار جيش الإسبان، بل إنه هاجم مرة بجاية، واحتل المجاهدون بابًا من أبوابها، مما يلي جهة المسلمين الخاضعين للحكم الإسباني، لكن المجاهدين اضطروا للرجوع إلى مراكزهم، وآب أبو بكر إلى مقر ولايته بقسنطينة، وبقي المجاهدون في صياصي جبالهم ينتظرون الزعيم الذي يقودهم نحو النصر والحرية، ولم يطل بهم الانتظار.

احتلال عنابة والمدن الساحلية

أصبحت إسبانيا إثر هذه العمليات سيدة الموقف دون منازع، فيما بين بجاية شرقًا ووهران غربًا، وصخرة الجزائرة وسطًا.

ثم إن القيادة الإسبانية المحكمة، التي كانت تنفذ برنامجًا دقيقًا من أجل احتلال البلاد الساحلية -كما أسلفنا- قد أصبحت تضيق الدائرة، وتقطف المدن الساحلية كأنها تقتطف ثمارًا ناضجة من حديقة نام عنها حارسُها، وهكذا احتلت إسبانيا مدينة عنابة الجميلة المتحضرة، بعد مقاومة لا تكاد تذكر، وسلك فيها جندُها ما كان يسلكه باستمرار في المدن التي يحتلها، سلب ونهب وانتهاك حرمات، ثم ترك بها حامية لحراستها، وكان ذلك سنة (١٥١٠) إثر احتلال بجاية.

كان الشعب كله في هذه البلاد -التي أصبحت تُدعى فيما بعد بالبلاد الجزائرية- يضطرم غيضًا، وينطوي على كمد جريح، ويريد أن ينفجر كالإعصار في جهاد يسترجع به بلاده، وينقذ به أمته ودينه وشرفه.

لكن هيهات! لم تكن لديه القيادة التي تسوقه في طريق النصر، ولم يكن بين يديه السلاح الذي يحقق الأمل، وأخذ ينتظر في صلابته وفي عزيمته

وتصميمه فرجًا من الله، يأتيه في صورة بطل زعيم موحِّد، يجمع الكلمة، ويرفع راية الجهاد.

المغرب الجديد، والجهاد الصادق

تمكن الإسبان كما رأيت فيما بين سنتي (١٥٠٥، ١٥١١) أي خلال ستة أعوام فقط- من الاستقرار بالساحل الشمالي من هذا المغرب العربي، تاركين الساحل الغربي منه -على المحيط الأطلسي- نهبًا للبرتغاليين، يعبثون بمدنه وقراه ويعيثون فسادًا فيما تمكنوا من احتلاله من البلاد؛ أي: كامل الساحل وما عليه من مدن ومقاطعة دوكالة كاملة.

وما كان الشعب هنالك -وهو منا وإلينا روحًا ودمًا وإحساسا وشعورًا- إلا كالشعب هنا: يرغب رغبة صادقة في الجهاد، ويريد أن يموت فداء دينه ووطنه، لكن أين القائد الجامع، وأين السلاح الدافع؟ فدولة بني مرين الوطاسية أصبحت -وهي على آخر رمق- كالقلب العليل لا يستطيع أن يرسل دمًا نقيًّا إلى أعضاء الجسد، إلا أن الشعب هنالك قد غير المنكر بيده، وأقام على أنقاض هذه الدولة -التي فقدت وسائل الحياة وانهارت تحت مفعول سموم الانحلال- دولة جديدة فتية، بايعها الشعب وأيدها ونصرها، على أن توحد شمله وترتق فتقه وتحسن تعبئته من أجل الجهاد الأكبر، وتطهر البلاد من الغاصبين، وهكذا نشأت بالفعل دولة الأشراف السعديين سنة ١٥٠٩/ ٩١٦هـ على يد الشريف أبي عبد الله القائم، وولديه أبي العباس أحمد الأعرج، ومحمد المهدي، فتغيرت بذلك صفحة التاريخ في القسم الغربي من مغربنا العربي الكبير، كما ستراه إن شاء الله فيما يلي من صفحات هذا الكتاب.

آخر مراحل المد الإسباني «مدينة طرابلس»

ولم تكن مطامع الإسبان لتقف عند حد عنابة وما حواليها من المدن الساحلية، بل كانت تريد أن تمتد إلى ما وراء ذلك، إلى نفس مملكة بني حفص، وكانت تريد احتلال الساحل الشرقي كما احتلت الساحل الشمالي.

فسار بدرو نفارو بعد توطد أمر الاحتلال الإسباني إلى حين بمدينة بجاية وما حواليها، على رأس أسطول يحمل طائفة من قدماء الجنود الإسبان المجربين يرتاد الساحل الشرقي التونسي لكي يجد نقط الضعف التي تمكنه من النزول والتي يتخذ منها مراكز لعملياته المقبلة.

لكن رجال الشعب في القسم الشرقي من وطننا المشترك سكان مملكة بني حفص التونسية كانوا قد اتعظوا بما وقع للبلاد الساحلية الجزائرية، وهالتهم نكبات وهران وبجاية وما إليها، فتقدموا للثغور يعمرونها وللسواحل يحرسونها، وما تركوا من ثغرة يستطيع عدو أن ينال منها منالا؛ ذلك رغما عن عجز الدولة الحفصية وعن وهنها، وعما كانت تعانيه من آلام النزع الأخير، وكان ملكها يومئذ هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد المسعود ١٤٩٣م/ ٨٩٩هـ.

فبدرو نفارو سيرا مع الخطة المحكمة التي سهلت له احتلال الساحل الشمالي، وهي الأحداق بالمنطقة من طرفيها، ثم تضييق الدائرة شيئًا فشيئًا حول الوسط- رأى أن يفاجئ مدينة طرابلس الغرب، وأن يتمكن منها، ثم يتقدم نحو الشمال الذي يكون واقعًا بين طرفي الكلابة القوية.

وهكذا سار نفارو إلى مدينة طرابلس وهي يومئذ آخر حدود الدولة الحفصية التونسية جنوبًا، فأرسى على ساحلها أسطوله -رغم مقاومة عنيفة- وبادرها القتال.

وكان أهل طرابلس الزاهرة الغنية أهل شهامة وكفاح، يمتازون بالصلابة وصعوبة المراس في الجهاد، على مقدار امتيازهم بالكرم ولين الجانب ودماثة الخلق الكريم زمن السلام، فتنادوا للجهاد، وبرزوا للعدو أسودًا، والتحمت نيران معركة قاسية عنيفة، يقول الإسبان: إنهم قد خسروا في أثنائها ثلاثمائة رجل، بينما هم قد ألحقوا بواسطة سلاحهم الجديد ومدافع

أسطولهم خسائر فادحة بالكرام المجاهدين، يقول الإسبان: إنها كانت تبلغ الستة آلاف شهيد، ثم اقتحموا المدينة المكافحة، متخطين جثث شهدائها الأبرار، فاحتلوها وفتكوا بأهلها فتكًا ذريعًا، وارتكبوا ما كان سبق أن ارتكبوه في غيرها، مما سلف ذكره ٩١٦هـ/ ١٥١٠م.

الموجة الإسبانية تتحطم في جربة

من طرابلس أخذ بدرو نفارو ينفذ خطته، فسار في أسطوله نحو الشمال الغربي جاعلًا جزيرة جربة اليانعة وجهة نظره، ووصلها، وكانت جربة مستعدة الاستعداد كله للقاء العدو؛ إذ علموا أنه ما تغدى بمدينة طرابلس إلا لكي يتعشى بهم، فشكلوا الكتائب ونظموا الصفوف، وبايعوا الله على الموت في سبيل الدين والشرف.

كانت المناوشات آخر جويلية ١٥١٠ على ساحل البحر ضعيفة، فتمكن بدرو نفارو من إنزال جنده دون كبير عناء، وأصحب جنده عتاده، واستعد لاحتلال الجزيرة، لكنه لم يتمتع بهذا النصر كثيرًا، فصيحات التهليل والتكبير قد تعالت من مختلف الجهات، كأنها رعود قاصفة تفجرت من قلوب المؤمنين، وانهالت كتائب المجاهدين تترى، تصادم الإسبانيين في حملات صادقة لا تعرف إلا النصر أو الاستشهاد، وكانت النتيجة باهرة، وكان نصر الله عظيمًا، فالإسبانيون لم يستطيعوا الثبات أمام الأبطال المدافعين، فانسحبوا إلى أسطولهم، يحملون بقايا رجالهم، وبقايا عتادهم، بعد أن تركوا فوق أرض الجزيرة ثلاثة آلاف من القتلى، ورجعوا إلى مركزهم بمدينة طرابلس يحاولون الكرة من جديد مرات عديدة، على جربة الأبية الظافرة، لكن زوابع الخريف حطمت أثناء العمليات أغلب سفنهم.

محاولة خائبة عند قرفنة

رغم كل ذلك أرادت القيادة الإسبانية -وهي كما علمت ذات عزم وتصميم- أن تحتل مكانًا على الساحل الشرقي التونسي كلفها الأمر ما كلفها، فصعدت نحو الشمال، وخالت أن جزائر قرفنة يمكن أن تكون صيدًا ميسورًا، فأنزلت بها خمسمائة من جنودها المدربين، لكن أهل قرفنة لم يكونوا دون أهل جربة استعدادًا وتصميمًا، فما كاد المقام يستقر بالإسبانيين المهاجمين حتى كر عليهم أهل جزائر قرفنة في حملة قوية جريئة، والتحمت نيران معركة قاسية كان النصر فيها للمجاهدين، فقضوا على كامل رجال الحملة الإسبانية، ولم يبقوا منهم رجلًا واحدًا على قيد الحياة، ورجع بدرو نفارو إلى مدينة بجاية يجر ذيول الخيبة من هذه الحملة التونسية، وذلك في شهر فيفري ١٥١١، ثم عزله الإسبان عن ولايته بعد خيباته، فغادر بجاية نهائيًا يوم ٧ جوان ١٥١١ كما رأيت فيما مضى.

استعباد مدينة مستغانم

لم تشأ مستغانم أن تقع فريسة للإسبان بعد معركة غير متكافئة، فاتصلت بهم، كما اتصل بهم سليم التومي إثر احتلالهم لبجاية، وعقدت بين الجانبين المستغانمي والإسباني اتفاقية، حفظ التاريخ لنا نصها الإسباني في خزينة أوراق سيمانكاس الآنفة الذكر، وهذا تعريبها:

٢٦ ماي ١٥١١

إن قائد ومرابطي وشيوخ مستغانم ومازغران وكذلك جميع السكان من عرب ويهود- يلتزمون بخدمة جلالة ملك وجلالة ملكة قشتالة بأمانة وإخلاص، ويدفعون لهما كل المكوس والضرائب والإتاوات التي كانوا

يدفعونها من قبل، برًّا وبحرًا، لملك تلمسان، ويكون الدفع غرة شهر جوان من كل سنة، بين يدي قابض مدينة وهران...

ويطلق أهل مستغانم ومازغران سراح كل الأسرى المسيحيين الذين هم تحت أيديهم...

ويحق للسنيور دون دياقو فرنانديز دي قرطبة القاضي ALCADE والقائد العام لمملكة تلمسان Capitaine general أن يحتل قلاع وحصون المدينتين إذا طلب منه صاحبا الجلالة ذلك، كما يحق له أن يبني غيرها دون أي اعتراض من أهل المدينتين على ذلك، بل إن أهل المدينتين -على العكس من ذلك- ملتزمون بتسليمه كل ما يحتاج إليه من حيوانات نقل ومن مواد بناء، وذلك بأسعار محددة مدققة...

كذلك يلتزم أهل المدينتين بتموين مدينتي وهران والمرسى الكبير، ولا يسمحون مطلقًا بتعمير أو تفريغ أي سفينة بمرسى مستغانم إلا بإذن من جلالة الملكين.

وعلى سكان المدينتين إعلام القائد العام المذكور بكل ما يهم جلالتيهما الاطلاع عليه، وبكل ما يتعلق بسلامة وهران والمرسى الكبير، وعليهم الامتثال لكل أمر يلقى إليهم من أجل الحرب والسلام.

القائد والمرابطون والشيوخ والسكان العرب واليهود ملزمون بتنفيذ هذه الشروط المقررة، وعلى صاحبي الجلالة مقابل ذلك الدفاع عنهم ضد أي عدو يأتيهم من البر أو من البحر.

ولا يرغم أهل المدينتين على اعتناق الدين المسيحي، ويسمح لهم الملكان بأن يستمروا على العيش وعلى حكم أنفسهم حسب شريعتهم، وتبقى لهم ديارهم وممتلكاتهم. اهـ.

وأخذ الإسبان إثر إمضاء المعاهدة يحملون الناس في كل من المدينتين على إمضاء «شواهد إخلاص» أمام القاضي، تسجل قبولهم للمعاهدة والتزامهم بخدمة ملكي إسبانيا، كما نرى في الوثيقتين المكتوبتين بلغة عامية سوقية، تدل على أن الذين كتبوها وأمضوها لم يكونوا من العلماء ولا من الطلبة، ولا من الرجال المرموقين في ذلك العهد.

وقد جاء في الوثيقة الأولى بالنص:

«الحمد لله، أشهدو على أنفسهم كافة أهل مستغانيم وتمزغران خاصة وعامة وفرهم الله وقرئي عليهم ما كتبه إليهم الفارسان المعظمان المحترمان المقربان القايد رتديلش والقائد غومس أعزهما الله، وفهموا ما فيه كبارًا وصغارًا ورضوا بما سمعوا وقالوا كلهم سمعًا وطاعة بأمر السلطان والسلطانة، وخدمتهم ونحنالهم رعية وعلى ذمتهم نعمر أرضنا وهم ضيافنا بعهد الله وميثاقه لا تبديل ولا تغيير وأمرنا إلى الله ثم السلطان والسلطانة وهم بحال صحة وطوع وجواز الأمر بتاريخ أو اخر شهر الله مايي وبذلك شهد محمد بن عبد الرحمن البصلي وسعيد بن بو بكر ولحسن بن عبد الرحمن ومحمد بن عبد الحق بن الزلاط والحاج سالم ومحمد بن موسى وعيسى بن القايد وعلي بن قاسم والحاج محمد بن تام وعلي بن خلفة بن الشنديخ وأحمد بن بشير وعثمان العمانة وعبد الله الهواري وحميد القاضي وعلي بن معرف وأحمد الدهو ومحمد بن الرفيس وعبد الله التازي الحاج عبد الرحمن المركك والحاج على القشاع وبلقاسم بن الهواري ومحمد بن كنيز ومحمد بن قلالي وعبد الله بن ماصوص وعبد الرحمن بن بو عجاج والحاج براهيم سليمان بن علي ظيفل بن المرو وعلي بن بوعنقة والحاج الرماش ومنصور بن الجنون (إمضاء محمد بن عبد الرحمن؟) لطف الله به.

علم بتبوته عن قاضي مستغانم (إمضاء: يحيى بن عبد . . . الخطيب لطف الله به) اهـ.

الحمد لله اشهدوا على انفسهم كافة اهل سنغاي وتنبكت
وجاهدوا وعاهدوه وهم [illegible] الله وتقوى [illegible] عليهم ما كتب اليهم [illegible]
[illegible] العفو [illegible] مال العرب [illegible] الله [illegible] ولشروط التايد
[illegible] اعز الله [illegible] ما بيه كبار او صغار او رجع
[illegible] بالسمع والطاعة بامر السلطان [illegible]
وخدمته [illegible] وعلى خدمته [illegible]
بعهد الله [illegible] الغير [illegible] الله [illegible]
والسلطان [illegible]
الله [illegible] الشهد محمد بن عبد الرحمن [illegible] وسعيد بن [illegible]
ومحمد بن عبد الرحمن ومحمد بن محمد [illegible] والحاج [illegible]
ومحمد بن [illegible] وعيسى [illegible] وعلي [illegible]
والحاج محمد بن [illegible] وعلي بن [illegible] الشريف
واحمد بن [illegible] وسعيد [illegible] وسعيد القاضي
وعلي بن [illegible] واحمد [illegible] ومحمد بن الحاج بكر وعبد الله [illegible]
[illegible] الحاج عبد الرحمن [illegible] والحاج علي [illegible] وبلقاسم بن
[illegible] ومحمد بن [illegible] ومحمد بن [illegible] وعبد الله [illegible]
وعبد الرحمن بن [illegible] الحاج [illegible] [illegible] بن [illegible]
[illegible] وعلي بن [illegible] والحاج [illegible]
ومنصور بن [illegible]
[illegible]

أما الوثيقة الثانية وهي أعمق في العامية والسوقية، فتقول بالنص، قد اضطررت لبيان بعض كلماتها بين قوسين -والدليل القاطع على إملائها هو أنها محررة بالتاريخ الفرنجي الذي يجهله كل الناس إذ ذاك في بلادنا:

«نهر الجمع (نهار الجمعة) ثلاثين من ماي عام ألف وخمس ماية وحد عشر عام الحج عبد الله البحي ويسف (يوسف) العبد الواد وحمد بن بزين والحج أحمد بن حنين والعباس بن الغزال وصالح بن لندلس ومحمد بن الوعات وعمر بن كركيش وعلي بن حسين (وهو الكاتب فيما يظهر) فلن حن حلفن بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهاد والطالب الغلب الله وعلى هذا الرهط حلف أهل مستغانم وتمزغران قدم (قدام) القاضي أنهم نحن نحرز ونوفق ونحبس ونجعل يتحبس ويتحرر كل ما هو في العقد وكل شيء كف (كيف، مثل) نس (ناس) أجواد امن رعى لدى السلطان والسلطانة ضيافن لدب ولا لقدام منكسر ولا نوافق على كسير ونخدم للسلطان والسلطانة صيافن مصواب وعلى حق كف (كيف، مثل) يعمل رعية أجواد ونحن التزمن بهذا أقو وصحيح كف التزام أهل مستغانم وتزغران قدم (قدام) القاضي وبش (باش، لكي) يكون هذا صحيح وحق أرقين خط يدين (أيدينا) في هذا العقد الحج عبد الله البحي ويوسف العبد الواد حمد بن بزنين أحمد بن حنين العباس الغزال صلح بن لندلس ومحمد بن الوعات وعمر بن كرديش و(إمضاء) علي بن حسين بن عمر» اهـ.

عمر. اهـ».

[illegible]

صورة الوثيقة الثانية

بهذه الوسائل السخيفة الصبيانية اعتقد الإسبان أنهم تمكنوا نهائيًّا من ناصية مستغانم وتمزغران، وأنهم وضعوا فيما بين وهران ومدينة الجزائر منطقة سلام وأمن لهم.

لكن الرجال الأحرار الصناديد وشباب الشعب الفدائي البطل كانوا في كل من المدينتين يستعدون للوثبة الكبرى، وتحطيم أغلال المذلة والاستعباد، إلى أن كانت نكبة الإسبان الحاسمة في نفس المدينتين، وفيما بينهما، حسبما سيأتيك به البيان.

وقد كان أهل مستغانم ذوي قوة قبل ذلك في البحر، وكانت لديهم سنة (١٥٠٥) عمارة مؤلفة من ١٢ سفينة قرصنة، يركبها مهاجرو الأندلس الثغريون، ولقد هاجموا انتقامًا من الإسبان مدن بلنسية، والشي، واليكانتي، وغنموا منها.

الفصل الثالث

العدوان الإسباني بعد النجدة التركية
إلى استشهاد البطل عروج

(١٥١٢-١٥١٨)

بطلان مسلمان في ميدان النضال والشرف
عروج وخير الدين

الأصل والنشأة

لا نتعرض ههنا لأصل ومنشأ البطلين المجاهدين اللذين أنشآ تحقيقا هذه الدولة الجزائرية، العزيزة الجانب، المرفوعة الرأس -إلا قليلا- بإعانة الشعب، وغيّرا مجرى التاريخ في بلادنا، استجابة لرغبته، من أجل إنقاذه وتوحيده.

لأن الذي يهمنا من أمرهما إنما هو هذه الصفحة البيضاء النقية التي رسماها بالسيف وبالقلم، في سجل التاريخ الجزائري، منذ ذلك اليوم الأغر الذي تقدما فيه، متطوعين في سبيل الله لإنقاذ مدينة بجاية من الرجس والإرهاق.

إلى اليوم الذي نال فيه أولهما فضل الشهادة في ميدان البطولة والشرف.

وغادر فيه ثانيهما أرض الجزائر بعد أن أقام الدولة وألف الجماعة، وأنقذ البلاد، وقهر العدو.

إن حياتهما قد أضحت أسطورة من الأساطير العالمية، أُلفت فيها الكتب، وكثرت فيها الأقوال، واختلفت حولها الآراء، فلم تتفق إلا حول أمر واحد، ألا وهو أنهما من أشداء الصناديد، ومن عظماء الأبطال، ومن أولي العزم الذين سمت بهم عصاميتهم فبوأتهم أعلى المقاعد وحققت لهم وبهم أغلى الآمال.

امتدت الدولة العثمانية، كما رأينا في التمهيد السالف الذكر، أواخر القرن الخامس عشر، فشملت كامل بلاد البلقان، والجنوب الغربي من أوربا،

واحتلت جزر بحر الأرخبيل، وتركت في كل قطر من الأقطار التي فتحتها نخبة صالحة من كرام المسلمين الأتراك، يحكمون البلاد وينشرون الدين، فمن أبنائهم وأبناء الذين شرح الله صدورهم للإسلام على أيديهم لا تزال توجد الآن، بعد خمسة قرون، هذه الملايين من المسلمين في ألبانيا، ويوغوسلافيا، واليونان الشرقية، وغيرها.

ففي جزيرة مدللي من بحر الأرخبيل عاش تركي من بقايا الفاتحين المجاهدين، اسمه يعقوب بن يوسف، كان متزوجا من سيدة أندلسية، وولدت له أولاده الأربعة: إسحاق، وعروج، وخسرف، ومحمد إلياس.

ولقد انشغل المؤرخون كثيرًا بهذا النسب، وادعوا فيه مختلف الأقاويل، فمنهم من يقول: إن السيد يعقوب كان مسيحيًا وأسلم، ومنهم من يقول: إن زوجه كانت أرملة راهب يوناني، إلى غير ذلك مما لا يهمنا أمره كثيرًا ولا قليلًا، إنما الذي نستطيع أن نؤكده بناء على ما بين أيدينا من وثائق هو أن السيد يعقوب بن يوسف كان تركيا مسلما، كما سنرى بعد قليل عند تصحيحنا لاسم ابنه البطل عروج.

أما أبناؤه فقد نشئوا نشأة إسلامية صلبة، وترعرعوا في حجر الجهاد الإسلامي العنيف، يوم كانت الملحمة عامة عارمة، بحرًا وبرًا، بين المسيحية والإسلام، فإذا كان ابنه محمد إلياس قد اختار طريق العلم والتبحر في دراسة القرآن والفقه، فإن الآخرين قد اندفعوا في طريق الجهاد منذ نعومة أظفارهم، واختاروا البحر مجالا لجلادهم، وإذا كان الدم الأندلسي يجري في عروقهم عن طريق والدتهم فإن نداء الدم قادهم للجهاد في الحوض الغربي من البحر المتوسط؛ حيث كانت دولة المسلمين تذل وتهان وتنقرض بالبلاد الإسبانية، وحيث كان المستضعفون من الرجال والنساء يحاولون الفرار بدينهم وبشرفهم من ذلك الجحيم الأليم، فيقعون غالبًا بين أيدي القراصنة الإسبان الذين يستعبدونهم ويغذون بهم أسواق الرقيق.

عروج: يقول التاريخ إنه هو الذي فتح أمام أخوته أبواب المغامرة في سبيل الله على أمواج البحر، وأنه اندفع في ذلك الميدان ولم يكد يعدو السنة العاشرة إلا قليلا، وذاق من البحر حلوه وذاق من البحر مره.

وتمكن من تجهيز مركب جهادي وتولى قيادته وهو في مقتبل الشباب، وأسره الأعداء في بحار الشرق، فعمل في المجاذيف والقيد في رجله مدة سنتين، لكنه تمكن من الفرار إذ ألقى بنفسه في البحر وهو على مقربة من سواحل مصر الكريمة، فنجاه الله، ومن هناك ركب البحر عائدا إلى جزيرة مدلى، حيث أبوه وإخوته، لكنه كاد يسقط من جديد أسيرًا بين أيدي الأعداء، فألقى بنفسه من جديد بين أحضان حبيبه البحر.

وكان على مقربة من سواحل قرمان التركية فأكرم كوركود ابن السلطان بيازيد -وكان يتولى إمارة قرمان- مثواه، ورأى فيه مثال الجندي المغامر ذي البأس الشديد، فجهز له سفينة قرصنة، وبعث به غازيًا في بحار إيطاليا، حيث كانت الحرب ضد الإسلام والمسلمين على أشدها، فاقتنص سفينتين محملتين بضائع ثمينة، تابعتين لدولة البابا، واقتنص سفنا أخرى إيطالية، وآوى إلى مرسى الإسكندرية بعد أن دفع الخمس من الغنائم لبيت مال المسلمين، ثم ركب البحر من جديد، على رأس عمارته، وقد أصبحت له عمارة صغيرة مما غنمه.

وانضوى تحت لوائه جماعة من المجاهدين الأقوياء، وعزم على أن يلقي بثقله في الميدان الغربي، وبجهة الأندلس موطن أمه بصفة أخص، واختار جربة مركزًا لأعماله، وهناك جاءه أخوه خسرف، وقد أصبح مثله على رأس سفينة قرصنة حربية، وانطلقا من هناك إلى ناحية الأندلس ينصران الإسلام، وينقذان اللاجئين الأندلسيين إلى العدوة المغربية ويمعنان في أسطول النصارى تقويضًا وأسرًا.

هنالك أطلق النصارى لقب «بربروس» أي: ذي اللحية الشقراء، على كل من الأخوين الذين أصبحا مصدر الرعب والفزع في البلاد النصرانية المتاخمة، وفي بحارها.

وهناك اقترح فضلاء الأندلسيين والمغاربة على خسرف أن يغير اسمه، وأطلقوا عليه منذ تلك الساعة اسم «خير الدين» وكانت العناية الإلهية قد اختارته للقيام بدور بطولي في بلادنا الجزائرية، غيَّر الله به حالها إلى أحسن حال.

وفي حوالي سنة (١٥١٠) (رأى السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد - وكان لا يزال في الدولة الحفصية رمق- أن يستعين بهذين البطلين لحماية الدين والدولة، وأن يجعل مما يدفعانه من خمس الغنائم موردًا ثريًا لخزانة الدولة التي لم تكن مزدهرة، فأقطعهما مرفأ «حلق الوادي» يتخذان منه قاعدة لمحاربة من يحارب الإسلام.

خرج الأخوان البربروسان من مقرهما الجديد غازيين في سبيل الله على رأس عمارة مؤلفة من ثلاث سفن قرصنة، فالتقيا في عرض البحر بسفينة حربية كبيرة تنقل من نابولي إلى برشلونة ثلاثمائة جندي إسباني، وكانت السفينة النابولية أقوى بحجمها وبنيران مدفعيتها من مجموعة العمارة الإسلامية، لكن نيران الجهاد المتقدة في نفسيهما، وحب الانتقام من هؤلاء الإسبان الذين لا تزال أيديهم محمرة من دم المسلمين، فاندفع الأخوان يحاولان أسر السفينة، وهاجماها -في مناورات بحرية غريبة- سبع مرات، وهي تلقى بمقذوفاتها الضخمة عليهم، فلا تصيبهم إلا قليلا.

فلما كانت المرة الثامنة مكنهما الله منها وأصيب البطل عروج بجرح بليغ من قذيفة، فتولى خير الدين القيادة، وحاذى السفينة المعادية فالتصق بها، وألقى

بنفسه على ظهرها وتبعه الكرام المجاهدون، فاستولوا عليها بعد معركة عنيفة، وأسروا كل من بها، ودخلوا بها إلى مرسى حلق الوادي وهي تحمل رايتها.

واعترافًا بجميل السلطان أبي عبد الله محمد فقد ساقا إليه في أبهة تفوق الوصف هدايا فاخرة مما غنماه، زيادة عن الخمس الشرعي، تشمل عددًا من كبار وكبيرات الأسرى، واشتد إعجاب السلطان بهما والتقدير لهما، واستمر على أعمال الغزو والجهاد، ونقه عروج من جرحه، فاسترجع مركز قيادته، يشد أزره شقيقه خير الدين إلى أن كانت ستة (١٥١٢) وابتدأ نجمهما يلمع في سماء المغرب الأوسط، مما هو مجال بحثنا هذا.

تصحيح اسم عروج

تذكر كتب التاريخ الغربية -كما تذكر كتب التاريخ العربية- اسم عروج بفتح العين، وتشديد الراء، وهذا غلط سببه عدم التعمق في دراسة الوثائق، ليس إلا.

فالاسم الحقيقي لهذا البطل الإسلامي العظيم مؤسس دولة الجزائر إنما هو عروج (بضم العين وضم الراء) وهي عربية صميمة، معناها: الارتفاع والصعود ودخلت التركية عن طريق ذكرى حادث عظيم في حياة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، هو حادث «الإسراء والمعراج».

ولا أكاد أرتاب في أن البطل المتحدث عنه وُلد ليلة المعراج، فدعاه أبوه «عروج» تيمنا بذلك الحادث العظيم، كما يطلق الأتراك كثيرًا أسماء «رجب وشعبان ورمضان ومحرم» على مواليدهم الذين يولدون خلال تلك الأشهر الحرم.

وإخواننا الترك لا ينطقون حرف العين، بل يقلبونها ألفا يندمج مع ما بعده، فمدينتا عشاق وعين أونى مثلا وهما في بلادهم تلفظان حسب نطقهم: أوشك، وأين أونى، وكلمة «عروج» ينطقون بها «أوروج».

هذا هو الاسم الذي اشتهر به بطلنا شرقًا وغربًا، وقبل أن يرجع الجزائريون هذا الاسم إلى أصله العربي، ويعيدون له عينه نطقًا- كانوا في مستهل الفتح يكتبونه على الطريقة التركية «أوروج» يدل على ذلك أثران قديمان، لا يزالان موجودين إلى اليوم؛ أحدهما: الرخامة المنقوشة التي كانت موضوعة على باب حصن شرشال، وثانيهما: الرخامة المنقوشة التي كانت على باب مسجد الشواش بالعاصمة الجزائرية، فرخامة شرشال قد نقش عليها (وهي بمتحف شرشال):

«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله، هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي، في خلافة الأمير القائم بأمر الله المجاهد في سبيل الله، أوروج بن يعقوب باذنه، بتاريخ أربع وعشرين بعد تسعمائة «أي سنة ١٥١٨».

أما رخامة مسجد الشواش الذي هدمه الفرنسيون، والذي كان على مقربة ساحة الشهداء في الجزائر، فهي تحمل اسم أوروج بن أبي يوسف يعقوب التركي.

ومن هذا نستخلص أيضًا إن والد البطلين المنقذين كان تركيًا صميما، خلافًا لما يدعيه كثير من مؤرخي الإفرنج، ونزيد على ذلك، لتصحيح هذا النسب وإضفاء نور جديد عليه، هذه الرخامة الموجودة بمتحف مدينة الجزائر، والتي كانت موضوعة فوق باب المسجد الذي أمر ببنائه في الحضرة الجزائرية «السلطان» خير الدين، وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾

أمر ببناء هذا المسجد المبارك السلطان المجاهد في سبيل رب العالمين مولانا خير الدين بن الأمير الشهير المجاهد أبي يوسف يعقوب التركي بلغه الله أقصى سؤله وأعانه على جهاد عدو الله ورسوله، بتاريخ أوايل جمادى الأولى من عام ستة وعشرين وتسعمائة.

أي (أفريل سنة ١٥٢٠).

الاستصراخ لإنقاذ بجاية

تركنا بجاية وهي تحت الأسر والاستعباد، وقد سمح الإسبان لسكانها بالعودة إليها تحت شروط، وعقدوا معاهدة مع «الملكين» المتنازعين: عبد الله وعبد الرحمن، وظنوا أنهم قد أمنوا بطش المجاهدين في هذه الناحية، وقد أسلفنا أن أبا بكر سلطان قسنطينة قد رجع إلى مقر حكمه تاركًا الحرب إلى حين، وأن المجاهدين الذين أووا إلى صياصي جبالهم لم تفتر فيهم عزيمة الجهاد، وأصبحوا ينتظرون الزعيم الذي يقودهم نحو النصر والتحرر، ولم يطل بهم الانتظار...

فأخبار عروج وخير الدين قد شاعت وذاعت وملأت أقطار المغرب العربي وبلاد الأندلس وأصبحا في مدينة (حلق الوادي يمثلان قوة إسلامية عظيمة تتوجه نحوها الأنظار).

ورأى المجاهدون في بجاية وحواليها، وفي جبال القبائل، وفي قسنطينة أن هذه هي الفرصة التي هيأتها العناية الإلهية للمسلمين بهذا المغرب الأوسط، لمساعدته على الخلاص من بين براثن الاستثمار الصليبي الإسباني، فأرسل

إليهما «الملك» أبو بكر الحفصي من قسنطينة، كما أرسل إليهما، حسبما يرويه العلامة المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف «العلماء والأعيان من أهل بجاية، يستصرخونه في إنقاذهما من يد العدو».

جمع عروج وخير الدين رجالهما، وتشاوروا في الأمر، وقرروا المبادرة بتلبية هذا النداء، وأيقنوا أن هذا الجهاد لإنقاذ ثغور الإسلام بالمغرب الأوسط إنما هو الجهاد الحق، فتوكلا على الله، وأعلما جماعات المجاهدين حوالي بجاية، وبالبلاد القبائلية أنهما قادمان توا، وتواعد الجانبان على الالتقاء في ساحة الجهاد، عند أسوار بجاية، في ساعة محددة.

أول ظهور الأتراك بالمغرب الأوسط

مناوشة بجاية الأولى

أخذت وفود المجاهدين تتوارد حوالي المدينة، ونزل من جبال زوواة الأبية جماعات من رجالها الأحرار، وكان الكل على موعد مع بابا عروج وخير الدين، وكان على رأس المجاهدين القائد: الموفق، في نحو الثلاثة آلاف رجل.

غادرت العمارة التركية مرسى حلق الوادي، وكانت تشمل خمسا من السفن، تحمل السلاح والمدافع والرجال، وأمت ساحة بجاية؛ حيث وصلتها في الموعد المحدد سنة (١٥١٢).

لكن عمارة إسبانية مؤلفة من ١٥ سفينة كانت مخيمة على مرسى بجاية، قادمة من إسبانيا، قد اعترضت طريق أسطول المسلمين أمام المدينة ولم يكن في استطاعته مهاجمتها، نظرًا لتفوقها العظيم.

وفكر الزعيمان في الأمر، فأعملا الحيلة، وتظاهرا بالانسحاب فرارًا أمام الأسطول الإسباني، فانطلت الحيلة على الأسطول، وأخذ يتتبع العمارة الإسلامية، إلى أن أصبح تحت مرمى مدفعيتها، وعندئذ كرت عليه في حركة بحرية بديعة، وهاجمته بعنف وصرامة، فاستولت على إحدى السفن الإسبانية، وأرسلت بسفينة أخرى إلى الأعماق، وانهزمت بقية السفن على كثرتها.

وهنا اختلف رأي القائدين عروج وخير الدين، فهذا كان يرى وجوب محاصرة المدينة بحرًا، وقطع كل مدد عنها، بينما يشدد المسلمون عليها نطاق الحصار برًّا، إلى أن تستعد للاستسلام.

أما عروج فقد كان يرى وجوب النزول إلى البر، ومهاجمة المدينة من جهة، بينما يكون المجاهدون من أهل البلاد يهاجمونها من الجهة المقابلة، وكان هو القائد، فأخذ برأيه.

وهكذا نزل عروج من سفنه، صحبة خمسين رجلا من رجاله الأتراك الأشداء، وتقدم مستطلعا نحو أسوار المدينة وحصونها، والإسبان ينظرون إليهم من فوق الشرفات، إلى أن أصبحوا على مرمى بنادق المدافعين، فانهالت عليهم طلقات الإسبان، وأصابت رصاصة بندقية ذراع القائد بابا عروج فكسرتها، ولم تدم المعركة طويلًا، وقد كانت في الحقيقة عملية استطلاع واكتشاف لمعرفة طريقة التحصين والاطلاع على حالة الأسوار، واختيار أحسن المواقع لمنازلة المدينة.

يقول الأستاذ م. س. بوليفة في كتابه القيم «الجرجرة عبر التاريخ» ما تعريبه:

«هذه المعركة -رغما عن خيبتها- قد مكنت رجال القبائل الجبليين من الاطلاع على حقيقة تلك القيمة الحربية التي يتصف بها جيش الإنكشارية،

ولقد أعجب الجبليون لأول مرة بهذه الشجاعة وهذه الحمية التي يتحلى بها الأتراك، وفقد قائدهم لذراعه أثناء المعركة، ولم يسعهم تجاه ذلك إلا منحهم كامل مودتهم».

واضطر بابا عروج للرجوع الفوري إلى تونس، من أجل معالجة ذراعه، ولم يجد الأطباء يومئذ لها من علاج إلا بترها، ففصلت عن الجسد، لكن عروج لم يواصل طريقه إلى تونس مسالمًا متألما من الكسر الذي ألم به، بل لقي وهو في طريقه الساحلي سفينة معادية، تابعة لمدينة جنوة الطليانية المعادية فهاجمها، وأسرها، وغنم ما فيها، ثم رجع بها إلى تونس ضمن عمارته.

الاستعداد الإسباني

كانت هذه العملية نذيرًا مبينًا للإسبان، وقد علموا أن البربروسين ما جاءا مدينة بجاية على رأس عمارتهما عابثين، وأنهما لا شك راجعان بقوة كبيرة وأن حالة المعركة ستتغير بهذا التدخل غير المنتظر، وأن المجاهدين ستقوى عزائمهم ويشتد بهذه النجدة ساعدهم؛ لذلك بادر الإسبان بطلب النجدة والإعانة من إسبانيا من جهة، كما بادروا بفتح مساومات مع رجال القلعة، وراء بجاية.

ورغم المحاولات الأكيدة التي بذلها أحرار زواوة الأباة فإن زعماء «القلعة» الذين أقنعتهم حجة الذهب الأصفر الكثير قد تعاقدوا مع الإسبان، وأمدوهم بالمؤن والأقوات، فازداد بذلك ثباتهم وقويت بذلك عزائمهم.

إنقاذ مدينة جيجل

فقد البطل عروج ذراعه، لكنه لم يفقد عزيمته وصلابته، ورأى أن محاصرة بجاية واحتلالها ليس بالأمر الهين الميسور، كما رأى أن وجوده بتونس يبعده

عن أرض المعركة المقبلة، فصمم على فتح مدينة جيجل التي تقع على بعد ١٠٢ كيلو مترا غربي بجاية، وإنقاذها من يد الاستعمار الجديد، الذي ارتكز فيها على قواعد استعمار قديم، وذلك لكي يتخذ منها نقطة انطلاق نحو بجاية، ويجمع بها رجاله وسلاحه ويجعلها مركز تجمع للمجاهدين.

كانت مدينة جنوة الطليانية قد استقرت بمدينة جيجل منذ سنة (١٢٦٠)، ووضعت بها حامية، واتخذت منها مركزًا للتبادل التجاري بين إيطاليا وإفريقيا، ثم تضاءل أمر المركز التجاري شيئًا فشيئًا، وتغلب الأحرار من هذه البلاد على الحماية.

لكن الأميرال أندريادوريا الشهير -الذي سوف نجده أمامنا باستمرار خلال بحثنا هذا- قد خيم على المدينة بأسطوله وقد كان يومئذ في خدمة فرنسا، واحتل جيجل بعد معركة حامية، وأخرج منها سكانها المسلمين، ووضع بها حامية لحساب مدينة جنوة، حتى تعيد للمركز التجاري سيرته الأولى، وكان ذلك إثر إخفاق المحاولة الأولى التي قام بها عروج على رأس المجاهدين ضد بجاية أي سنة (١٥١٣).

واستنجد أهلها المشردون بعروج، وأعلموه أنهم أصحاب قوة ونجدة، وأنهم سيكونون في الساعة المعينة أبطال حومة الوغى، وتم الاتفاق على هذا، واستعد الجانبان للمعركة، ثم جاء عروج على رأس عمارته البحرية ورجاله، يصحبه أخوته وعلى رأسهم خير الدين، والتحمت المعركة حالا بين قوى المجاهدين وبين حامية جيجل.

فعروج والذين جاءوا معه تمكنوا من النزول إلى البر، وتم الاتصال بينهم وبين جماعات المجاهدين من أهل البلاد المشردين ومن جاء من أجل النجدة والإنقاذ.

وانتهت المعركة بفتح المجاهدين المدينة، ومقتل كل رجال حاميتها، ورجع أهل البلدة إلى ديارهم آمنين، بعد أن اقتسم المجاهدون بينهم على السواء كل الخيرات والبضاعات التي كان المركز التجاري عامرًا بها، وذلك سنة (١٥١٤).

وتم لعروج هدفه المزدوج: إنقاذ بلدة إسلامية من يد العدو، وكانت أول بلدة ينقذها على ساحل البلاد التي أصبحت فيما بعد تدعى البلاد الجزائرية، والاستقرار بمركز منيع، برًّا وبحرًا، يسمح له ولرجاله الأبرار بحرية المناورة من أجل تطهير البلاد من الاحتلال الأجنبي.

وهكذا استقر عروج مبجلا مكرما بين جماعة المسلمين في بلدة جيجل، وكثرت الاتصالات هنالك بينه وبين مختلف وفود المسلمين من هذا المغرب الأوسط، واستمر يعالج في مقره الجديد ذلك الجرح البليغ الذي أصابه من جراء بتر يده، فسلم مقاليد القيادة البحرية لشقيقه البطل خير الدين، وأخذ يستعد للضربات الحاسمة.

إنقاذ مسلمي الأندلس

أما خير الدين فقد سار على رأس عمارته وما أمكن جمعه من السفن، ملبيًّا بالاتفاق مع شقيقه أصوات الاستغاثة اليائسة التي جاءت من قِبل بلاد الأندلس؛ حيث المستضعفون من الرجال والنساء والولدان، الذي نكث الإسبان معهم العهود وتنكروا للمواثيق، وأصبحوا يرغمونهم بين الحديد والنار على اعتناق المسيحية، وهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

أنقذ خير الدين ما أمكن إنقاذه، لكن الأسطول الإسباني كان له بالمرصاد، فلم يستطع أن يعمل الشيء الكثير هذه المرة، وانقض على جزائر الباليار الإسبانية، واحتل مينورقة، وأخذ أهلها أسرى، وخيراتها غنيمة، ثم آب إلى المركز العام الذي هو مدينة جيجل.

المحاولة الثانية لإنقاذ بجاية

كان المسلمون في جهة جيجل والجبال المحيطة بها، وأغلبهم من قبائل كتامة- قد التفوا حول عروج ورأوا من إيمانه ومن أخلاقه ومن قوة شخصيته ما جعلهم يبايعونه «أميرا» ويعاهدونه على السير وراءه إلى ميادين الجهاد، من أجل إنقاذ المدن الإسلامية.

وهكذا تمكن عروج من إنشاء جيش منظم، وأحسن تشكيله في كتائب متعددة، وعوده على استعمال الأسلحة الجديدة للرماية، وقد وعده الشيخ أحمد بن القاضي، شيخ بلاد زواوة الغربية «كوكو» بالإعانة والتأييد، وأخذ رجال الدين والعلماء يستنفرون الناس إلى الجهاد في سبيل الله، وعمت الدعوة وانتشرت.

نهض عروج إلى بجاية في شهر أوت سنة (١٥١٤) يقود جيشًا مؤلفًا من عشرين ألفًا من المجاهدين، وأحاط بمدينة بجاية، واشتبك مع حامياتها في معارك قاسية شديدة، وكان في نفس الوقت يوالي دراسة «الموقع» ويحاول اكتشاف نقطة الضعف فيه، وبعد محاولات دامت زهاء الثلاثة أشهر تبين له أن الحصون لا تقتحم على الطريقة التقليدية، وأن الإسباني الصنديد المدافع عن حصن يغدو قطعة من حصنه، لا يمكن أن يفرق بينهما إلا الموت، فرجع عروج وجيشه إلى مركزه بمدينة جيجل خلال شهر نوفمبر؛ لكي يقضي فيه فصل الشتاء ويعيد ترتيب جيشه وتزويده.

المحاولة الثالثة لإنقاذ بجاية

وتحرك في ربيع سنة (١٥١٥) يقود جيشه برًّا نحو بجاية التي كانت حاميتها الإسبانية تنتظره في عزيمة وتصميم جديرين بكل تقدير، اعتزم عروج مهاجمة المدينة حسب خطة جديدة هداه إليها تفكيره، فجاء بالعمارة البحرية للمشاركة في العملية، واقتحمت سفن الأسطول مصب نهر الصمام، ودخلت محاذية للمدينة وكانت مياه الوادي يومئذ غزيرة، وأنزل جيشه وراء الحصون المواجهة للوادي، ونصب الحصار بصفة محكمة حول المدينة.

وجه أول الأمر قوة مدفعيته صوب معقل «القصر الصغير» وأخذ يقصفه بقوة وعنف، إلى أن نسفه نسفًا، وتركه ركامًا، ومات أكثر المدافعين عنه، أما الذين بقوا منهم على قيد الحياة فإنهم تسللوا إلى معقل «القصر الكبير» يعززون حاميته.

وظن عروج أنه يستطيع مهاجمة البلدة، من وراء أنقاض القصر الصغير، لكن خط الحصون كان متينا، ومراكز الدفاع كانت قوية، فلم يستطع الجيش الإسلامي اقتحام البلدة من ناحية البحر؛ حيث خرائب القصر الصغير، فولى وجهه شطر «القصر الكبير» وأخذ يقصفه بمدافعه، ويحاول تحطيمه، وقد تقدمت نحو هذا القصر جموع المجاهدين في حمية قوية، واستعملوا ضده الألغام، وأتلفوا الخندق المحيط به.

وأمر عروج رجاله بأن يشيدوا فوق المرتفع -الذي يعلو بجاية- برجًا عاليًا، أخذ يراقب من بين شرفاته سير المعركة ويباشر منه ضرب الأسوار بما رفعه إليه من مدافع، وعزم على مهاجمة المدينة هجومًا عامًّا، من كل الجهات، وكانت الصدمة هائلة ألقى المجاهدون بأنفسهم خلالها على الموت كأنهم لا يريدون سواه، واستبسل الإسبان خلالها في سبيل الدفاع استبسالا منعدم النظير، شارك فيه المدنيون إلى جانب العسكريين، وشاركت

فيه المرأة والصبي إلى جانب الرجل، فكان المدنيون من نساء ورجال يقفون وراء الأسوار، يرممون كل ثلمة تحدثها مدافع المسلمين بمجرد وقوعها، والوالي الإسباني دون رامون كاروز يتخطى الصفوف في كل مكان، وكأنه الأسد الهائج، يحرض الناس على المقاومة إلى الموت.

كان الهجوم الإسلامي محيطًا بالمدينة، مركزًا على خمس نقط، كيلا يترك للمدافعين فرصة التجمع في مكان واحد، وكان عروج ينزل بنفسه لإدارة المعركة ويباشر بنفسه عمليات الحرب، مستعملا يده الباقية، مستعينا بيد مصنوعة من الحديد، أهداها له جنده، لتقوم مقام الذراع المبتورة.

وهنا، ولا ريب تقع الحادثة المؤلمة التي رواها المؤرخ الكبير ابن أبي الضياف، نقلًا عن المصادر الصحيحة؛ إذ يقول ما نصه: «وضيق عليها الحصار، ولما أشرف على الفتح نفذ ما عنده من البارود، فكاتب السلطان الحفصي بتونس، وهو محمد بن الحسن يستمد منه البارود فتغافل عنه، تخوفًا على ملكه المشرف على الانقراض، والتقدير وراء التدابير».

وخلال هذه المعركة استشهد القائد محمد إلياس، شقيق عروج وخير الدين، وكان من كبار الطلبة، حافظًا القرآن مشاركا في علوم الدين.

أدرك عروج، وشقيقه، والأركان المحيطة بهما- أن الجهود العنيفة المبذولة لن تأتي بنتيجة تذكر، وأن الخسارة في الأرواح التي أصابت جموع المسلمين تجعل من الصعب الاستمرار على مهاجمة الحصون والمعاقل التي لا تزال على حالها قوة ومنعة، يضاف إلى ذلك فقد البارود الذي استنزفت الألغام والمقذوفات كل مدخراته، فقرروا آسفين وجوب فك الحصار مؤقتا، والرجوع إلى لمركز العام في جيجل، والاستعداد للمعركة من جديد، فكما كان تصميم الإسبان على الدفاع قويًا كذلك كان تصميم المسلمين على احتلال المدينة وإنقاذها قويًا، عنيفًا، جارفًا.

وفك الحصار بعد أن استشهد في المعركة من الأتراك ثلاثة أرباعهم، وقد كانوا بالنسبة لجموع المجاهدين أشبه شيء بالضباط مديري الحركات.

وكان وادي الصمام أثناء ذلك قد جفت مياهه فلم تبقَ للسفن من استطاعة على السير فوق سطحه من أجل بلوغ البحر؛ حيث كانت السفن الإسبانية القوية، واقفة بالمرصاد، ولكيلا يترك المسلمون سفنهم بين يدي الإسبان باشروا إحراقها، ثم نصبوا على الوادي جسرًا من الأخشاب والقوارب اجتازوه ببقايا قوتهم، ومعهم ستمائة أير إسباني، راجعين إلى مركزهم بجيجل، العاصمة المؤقتة للدولة الفتية التي كانت في دور المخاض.

فاتحة العلاقات مع الدولة العثمانية

كان من عبقرية عروج وخير الدين، ومن حسن سياستهما الإسلامية، وانقيادهما المنعدم النظير للمبادئ الإسلامية السامية التي خرجا مجاهدين في سبيل الله من أجل تحقيقها- أنهما ما كادا يفتحان مدينة جيجل، ويستحوذان فيها على النفائس ومختلف البضاعات التي وضعها فيها أهل مدينة جنوة المعادية للمسلمين، حتى بادرا بإرسال هدية فاخرة للسلطان سليم العثماني في إستانبول، أخذاها من نصيبهما الخاص من تلك الغنائم، وشرحا للسلطان العثماني ما هما عليه من جهاد مرير في سبيل إنقاذ وطن الإسلام من بين براثن الصليبية الإسبانية التي توشك أن تقضي عليه رغم استبسال أهله في الدفاع غير المنظم، وحاجتهم الأكيدة للعون والتأكيد.

تقبل السلطان سليم هذه الهدية الرمزية قبولا حسنا، وقرر أن يمدد الإعانة لهذين المجاهدين في سبيل الإسلام.

وجاءت هدية السلطان للبطلين التركيين، ردا على هديتهما، فكانت بردا وسلاما على قلوب المؤمنين: كانت تشمل ١٤ سفينة قرصنة، تحمل رجالا من أشداء المقاتلين، مع كميات من الأسلحة والعتاد الحربي، وهكذا

ابتدأت العلاقات الودية الجهادية الهادفة بين الجانبين العثماني والجزائري، والتي كتب الله لها فيما بعد أن تغدو أسسًا متينة قامت عليها الدولة الجزائرية الموحدة، المجاهدة، القوية، التي اخترقت في الماضي القرون العديدة، والتي ستخترق بمشيئة الله ثم بإرادة الشعب قرونا جديدة سعيدة.

الاستقرار بمدينة الجزائر

التاريخ يوشك أن يحدث حدثًا جللا من تلك الأحداث، التي لا يعرف أسرارها إلا هو وإذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه.

كان الإخوان عروج وخير الدين إثر خيبتهما المريرة الجديدة أمام بجاية، يهيئان في مدينة جيجل عاصمة الجهاد بالمغرب الأوسط حملة جديدة ضد بجاية، وكانا يريدان وتريد معهما جماعة المسلمين أن تكون القاضية على الاحتلال الإسباني نهائيًا في هاتيك الربوع، فجمعت السفن العديدة، والمدافع الضخمة، والزاد الوافر، والأسلحة والذخيرة التي تكفي لحملة طويلة مريرة، لا يكون من ورائها إلا نصرٌ من الله وفتح قريب.

وأنهم لكذلك إذ بوفد من مدينة «جزائر بني مزغنة» يحل بساحة جيجل يشكو ما لحق بمدينة بولكين بن زيري من عنت وإرهاق، ويؤكد إخلاص شيخها «سالم التومي» واستعداده لمد اليد إلى الأتراك إذا ما تقدموا لإنقاذ البلدة من الخطر الإسباني المخيم عليها من حصن الصخرة «البنيون» الذي اضطر الجزائريون لتسليمه إلى الإسبان سنة (١٥١٠/٩١٦هـ) أثر تمكن هؤلاء من الاستقرار في مدينة بجاية.

قلَّب عروج وخير الدين الأمر على مختلف وجوهه ورأوا أن الإسبان يستطيعون من معقل الصخرة احتلال مدينة الجزائر متى شاءوا دون أي مشقة أو عناء؛ ضرروة أنها موضوعة منذ سنة (١٥١٠) تحت رحمة مدافعهم، وأن احتلال الإسبان لهذه المدينة التاريخية الهامة سيمكنهم من مركز ممتاز

يجعلهم، إلى جانب مركزهم ببجاية ومركزهم بوهران والمرسى الكبير- أكثر ضراوة وأكثر قدرة على منازلة المقاومة الإسلامية الناشئة.

كما أن انتصاب الأتراك بمدينة الجزائر من جهة أخرى، وهي ذات مركز ممتاز على البحر، وفي نقطة وسط ما بين بجاية وبين وهران- يسهل على الجيش الإسلامي مهمة إنقاذ البلاد، ويجعله يستطيع المناورة بسهولة، مواليا ضرباته نحو اليمين، حيث بجاية وما إليها من المدن الساحلية الواقعة تحت الأسر الإسباني.

وهكذا قرر عروج بكل سرعة الاستجابة للنداء الحار الصادر إليه من مدينة جزائر بني مزغنة، وقرر السير إليها برًّا، وأن يسير نحوها خير الدين بحرا، فخرج عروج على رأس قوة مؤلفة من ثماثمائة من الأتراك، وثلاثة آلاف من مجاهدي الجبال القبائلية، بينما أبحر خير الدين على ظهر عمارته المؤلفة من ١٨ سفينة «قاليرة» و٣ سفن «بركنتي» تحمل ألفًا وخمسمائة رجل من مجاهدي الشرق الإسلامي، فوصل عروج أولا، ولحق به خير الدين، واستقبلتهما المدينة -كما أجمع عليه المؤرخون- استقبال الفاتحين المنقذين.

ثم سار عروج توا إلى مدينة شرشال، فاستخلصها ورجع إلى مدينة الجزائر، حيث اجتمع أهل العقد والحل، وأسندوا إليه خطة «أمير الجهاد» وما دروا تلك الساعة أنهم قد أقاموا بعملهم هذا -وبصفة فعلية- صرح الدولة الجزائرية الجديدة، وكان ذلك سنة (١٥١٦)، نفس السنة التي مات فيها فرديناندو الكاثوليكي ملك إسبانيا وجلاد المسلمين فيها.

أما شيخ البلدة السابق، سالم التومي، الذي كان يحكم المدينة حكمًا استبداديًّا على رأس عشيرته من بني سالم فقد أخذ يحاول استرجاع سلطته، واستعادة نفوذه المطلق، بينما كان عروج يقيم حصنًا مقابلًا لحصن الصخرة الإسباني، ويأخذ في قصفه برمي المدافع.

نهاية سالم التومي

إلى أي مدى وصل سالم التومي في دسائسه ومحاولاته تقويض سلطة «أمير الجهاد» عروج؟

وهل وصل إلى درجة الاتصال بالإسبان، والاستعانة بهم ضد مواطنيه من أهل المدينة والقوة الإسلامية التي جاءتهم إعانة على الجهاد والإنقاذ؟

الأمر المحقق هو أن عروج لم يتحمل هذه الدسائس وهذه المحاولات التي تقع حواليه، وهو في أشد ساعات الجهاد جرحًا، فأمر بقتل سالم التومي والتخلص من دسائسه، ومن المؤرخين من يزعم أنه قد نفذ فيه حكم الإعدام بيده، وأصبح صاحب السلطة الوحيدة في مدينة الجزائر، ورفع فوق أسوارها وقلاعها راياته المؤلفة من ثلاثة ألوان: الأخضر، والأصفر، والأحمر، ونشر سلطانه بعد أمد وجيز على كامل السهول المحيطة بمدينة الجزائر، وبادر بسك النقود تحمل شعاره كتب عليها: ضرب في الجزائر.

توجد لدينا وثيقة تدين سالم التومي، وتقول عنه أنه قتل من أجل الإسبان، وهذه الوثيقة موجودة بين الوثائق الإسبانية المحفوظة في سيمانكاس والتي تكلمنا عنها ولا نزال نذكرها، ونستعمل أوراقها، فيما يأتي من بحوث كتابنا.

هذه الوثيقة عبارة عن رسالة مكتوبة باللهجة العامية، ومرسلها هو أحد هؤلاء الإقطاعيين من شيوخ العشائر الذين رأوا أن تأسيس دولة إسلامية قوية متينة الأسس يقضي على مصالحهم ويقوِّض نفوذهم الواهي، فتراموا على أعتاب الإسبان يستنصرونهم على المسلمين، ويرجون من ورائهم حماية مصالحهم واستعادة نفوذهم.

تقول هذه الرسالة الموجهة إلى الكاردينال خمينيس:

«الحمد لله، إلى مدبر المملكة القشتلية وكبيرها وخليفة سلطانها قرض نال (كردينال) بعد سلامنا عليكم، فالذي نعرفكم به هو أن ابن سلطان تنس هو ابنكم ومتعلق بكم، ومحسوب عليكم، وكذا ابن التومي صاحبكم في الجزائر انذبح عليكم وعلى خدمتكم، وغفتلم عليه وعلى ابن السلطان في (تنس) وعلى جميع من عاملكم، حاشاكم من هذا، فإن كنتم تعملون على همتكم أعزموا للجزيرة (الجزائر) قبل ما تجي عمارة التركي فيستولي على هذا البر الكل، ونحن عرفناك ولو يكون هذا الخبر عندكم، وأيضًا ابن سلطان تنس كان عنده خاله الشيخ المنتصر ينغر عليه (أي يدافع عنه) واليوم مات، ما بقالو أحد إلا الله وأنتم، إذا ما عزمتم إليه ينفسد ويفسد الحال عليكم كثيرًا في هذا البر، والقائد مرتين ادرغوت عارف بكل شيء، وهو يكون عرفك بكل مقصد، وكتب لكم من مدينة مستغانم».

يصل إلى يد الفاضل الشهير

قرضنال

أما ابن سالم التومي، المدعو يحيى، فقد سار بعد مصرع أبيه إلى وهران يستنجد الإسبان ويبين لهم خطر استقرار الأتراك بمدينة الجزائر، ويستعديهم عليهم بكل سرعة، حتى ترجع له مشيخة أبيه على مدينة الجزائر، بعد إبعاد الأتراك عنها.

الفصل الرابع

رد الفعل العنيف

معركة باب الواد والانتصار الجزائري الكبير

إن استقرار عروج بمدينة الجزائر، وبيعة أهلها له أميرا على الجهاد- لم يلق الروع فقط في قلوب الأنانيين والإقطاعيين الذين كانوا يعيشون كالحشرات من دم الشعب، بل ألقى الرعب والفزع كذلك -وأكثر من ذلك- في قلب الاستعمار الصليبي الإسباني، الذي رأى أن آماله توشك أن تنهار، وأن برامجه توشك أن تتحطم، وأن المخطط الذي وضعه من أجل الاستحواذ على بلدان المغرب العربي توشك أن تقضي عليه هذه القوة الجديدة الناشئة الضارية، التي ذاق منها الأمَرين أثناء معارك بجاية، والتي أدرك أنها لم تقُل بعد كلمتها الأخيرة.

وخشي فوق كل ذلك أن ينفرط عقد أنصاره الإقطاعيين وحلفائه النفعيين الأنانيين إذا ما تغير ميزان القوى، ورجحت الكفة لجانب هؤلاء الذين جاءوا يوحدون البلاد في ميدان الجهاد، ويقودون الشعب البطل الكريم، الذي كان لا ينتظر إلا قائدًا حكيمًا يسير وراءه من أجل استرجاع أرضه، ومن أجل توحيد صفوفه.

لذلك رأى الإسبان ورأى الإقطاعيون وجوب إنزال ضربة حاسمة، قاصمة سريعة بهذه العصبة التي لا تزال صغيرة، والتي اتخذت مدينة الجزائر عاصمة لكي تجعل منها منطلقًا لتحرير البلاد وأهلها من الاستعمار ونوائبه، فاتفقت غاياتهم، وصور لهم الهوى والغرض أن مجرد نزول جيش إسباني على مقربة من مدينة الجزائر سيوحد بين القوى المختلفة التي تخاف النظام الجديد وتخشاه، وتعمل على تقويضه لغايات مختلفة ومآرب شتى.

وهكذا عزمت إسبانيا بالاتفاق مع الحثالة من عملائها على شن غارة على مدينة الجزائر، تشارك فيها إلى جانب الفيالق العسكرية الجديدة- القوة المستقرة في حصن الصخرة، وقوات «سلطان» تنس المحتمي بالإسبان، وقوات «الناقمين»

من أشياع ابن التومي بنفس مدينة الجزائر، وجموع الأعراب من بني سالم المحيطين بالمدينة، والذي ينتظرون -حسب تقدير المستعمرين وأنصارهم- أول فرصة للانقضاض على المدينة والمشاركة في تقويض النظام الجديد والفوز بشيء من أسلابه.

والكاردينال خيمينس، الذي تعرفنا عليه أثناء مذابح وهران، والذي عرفناه قبل ذلك جلادًا وحشيًا ولغ في دماء مسلمي الأندلس وشرب منها حتى الثمالة، بعد أن حمل الملك حملا على نقض العهود ونكث المواثيق هو الذي أشرف على تجهيز الحملة الجديدة ضد مدينة الجزائر، ووضع على رأسها قائدًا من أهم رجال الحرب الذين بين يديه، هو دياقو دي فيرا.

ففي أواخر شهر سبتمبر (١٥١٦) أبحرت نحو مدينة الجزائر عمارة إسبانية مؤلفة من ٣٥ سفينة، تحمل ثمانية آلاف رجل، مع ما يلزم من سلاح ومدافع وذخيرة، واختارت لنزولها السهل الذي يقع عليه اليوم ربض «باب الواد»؛ حيث كان يصب وادي المغاسل في البحر.

وكان عروج وأبطال المجاهدين الملتفين حوله واثقين من أنفسهم، مقدرين قيمة الشعب وشدة شكيمته وإيمانه وتصميمه حق قدرها، فكان برنامجهم الحربي يقتضي:

أولا: ترك العدو ينزل، دون كبير مقاومة إلى البر.

ثانيًا: ترك معظم القوى الإسلامية ضمن حصون وأسوار المدينة، من أجل استعمالها عند الحاجة.

ثالثًا: الاشتباك مع العدو في معارك أشبه بحرب الكمين حوالي المدينة، إلى أن ينال منه الجهد والإعياء، وعندئذ تُبرز القيادة معظم قوتها الضاربة إلى الميدان.

أما المخطط الإسباني فكان يقتضي:

أولًا: النزول إلى الساحل، وتنظيم معسكر يشمل الرجال والعتاد.

ثانيًا: تسلق المرتفعات المحيطة بالجزائر فيما يلي الأسوار، واحتلال مرتفع القصبة والإشراف منه على المدينة وقصفها بالمدافع.

ثالثًا: انتظار الجيش القادم من قبل «سلطان» تنس، ومهاجمة المدينة بعنف، بينما يكون العملاء فيها دبروا المكيدة التي يضربون بها الجيش الإسلامي من الخلف.

وأخذ كل من الجانبين ينفذ مخططه بعناية وتدقيق، فدارت المعركة بسرعة خاطفة مذهلة، ولم تدُم إلا أياما قليلة، على الطريقة التالية:

يوم ٣٠ سبتمبر (١٥١٦) نزل الجيش الإسباني إلى البر في دقة ونظام محكمين، وحط على الساحل أثقاله.

إثر ذلك أخذ يتسلق يومي ١ و٢ أكتوبر المرتفعات المؤدية إلى القصبة خلف المدينة.

وقد ترك عروج -حسب المخطط- فرقا من المجاهدين حول هاتيك المرتفعات خارج الأسوار، فأخذت تناوش الإسبانيين، وتصادمهم من حيث لا يحتسبون، فضاق الأعداء بذلك ذرعًا؛ إذ وجدوا أنفسهم في موقف حرج، بين الأسوار الحصينة من جهة، وبين فرق المجاهدين المتنقلين من جهة أخرى، والأنكى من كل ذلك بالنسبة لهم هو أن الجيش الذي وعد «سلطان» تنس بإرساله للمشاركة في الحملة على مدينة الجزائر ونظامها الجديد الذي اختارته لنفسها- لم يصل أرض المعركة، ولم تبدُ أدنى إشارة تنبئ بقرب وصوله، فأخذ الهلع يعصر قلب الإسبان، وأخذوا يتراجعون إلى مركزهم على ساحل البحر، محتمين بمدافع الأسطول.

هذه هي الفرصة التي كان ينتظرها عروج، فما كاد الجيش الإسباني يبدأ حركة الانسحاب حتى فتحت مدينة الجزائر أقفالها وأخرجت أبطالها فلم يبقَ بها من رجل يستطيع حمل السلاح إلا برز إلى الميدان.

وكانت قوة المسلمين تشمل:

أولا: الأتراك أصحاب عروج، وهم قلة قليلة، يقودون الفرق ويسيرون في الطليعة.

ثانيًا: رجال الأندلس المهاجرين، الذي قال عنهم الملك الإسباني فليب الثاني لسفير فرنسا في بلاطه «فوكفولس» حسبما رواه هذا الأخير: يوجد بمدينة الجزائر ١٥ ألفا ممن يحسنون استعمال الأسلحة النارية من بينهم عشرة آلاف رجل من العرب الذي نزحوا من إسبانيا في السنوات الأخيرة، وهم من خيرة الجنود.

ثالثًا: المقاتلون من نفس سكان المدينة، والذين كان الإسبان يعتقدون أنهم سيكونون من أعوانهم في هذه الملحمة.

وانصب جيش المسلمين سيلا دافقًا على الإسبانيين، وهم يصيحون صيحات الجهاد، ويجأرون بذكر الله، فما كاد الأعراب المحيطون بالمدينة يسمعون نفير الجهاد، وأصوات التهليل والتكبير، حتى أقدموا على ميدان المعركة في جموع متتالية يشدون أزر المسلمين إخوانهم، ويمعنون في جهاد العدو.

ساد الرعب والفزع صفوف الإسبان، واختل نظامهم بصورة تامة، فأصبحوا لا يفكرون إلا في بلوغ سفن الأسطول، والمسلمون من حولهم ومن ورائهم وخلال صفوفهم يمعنون فيهم قتلا وأسرًا.

وكان البحر قد أخذ في الاضطراب، والسفن ملتصقٌ بعضها ببعض، فأخذت تتلاطم، ولم يستطع الوصول إليها وركوبها إلا الأقل من فلول

الجيش، تاركين فوق الميدان كل ما جاءوا به، إلى جانب ثلاثة آلاف من القتلى وثمانمائة من الأسرى، حسب الروايات الإسبانية والفرنجية.

ومما زاد في هول النكبة الإسبانية أن اضطراب البحر قد انقلب إلى زوبعة شديدة، حطمت من العمارة الإسبانية فوق صخور باب الواد نصفها على الأقل.

وهكذا افتتحت الدولة الجزائرية الجديدة حياتها، ولما تنقض بضعة أشهر على تأسيسها، بهذا النصر العظيم، الذي هز البلاد كلها طربًا وسرورًا وأحيا في النفوس ما كاد يموت من الآمال.

التوسع بعد النصر

وما كان مثل هذا النصر العظيم ليترك مدينة الجزائر لوحدها منفصلة عما حواليها من السهول والهضاب، فالأمير عروج والرجال الذين انضووا تحت رايته لتأسيس الدولة الجديدة، والذين ذاقوا تحت قيادته لذة الانتصار الذي وعد الله به الصابرين المجاهدين- رأوا وجوب توسيع رقعة الدولة الصاعدة، وتعمير الفراغ الذي تركته عصور الفتن والاضطراب، وحكم الإقطاع الرهيب الذي سادت به الفوضى، فدان العرب الذين يسكنون متيجة لهذا النظام الذي شاركوا في إقامة دعائمه يوم شاركوا مؤسسيه وحاملي لوائه في معركة الجزائر الكبرى، فانضمت لإمارة الجزائر مدن البليدة، ومليانة والمدية، وما حواليها، كما اعترفت بوجوده واعترفت بسيادته بلاد الجبال القبائلية، وأصبحت إمارة الجزائر إمارة ذات شأن عظيم.

تحرير مدينة تنس

جاء خير الدين على رأس العمارة الإسلامية من مدينة جيجل بعد ما بلغه نبأ النصر الأكبر، وأرسى بأسطوله في مدينة الجزائر، رغم وجود الإسبان في قلعة الصخرة، وكان الأسطول مؤلفًا من عشر سفن.

كان عروج وخير الدين يعرفان أن الإسبان لن يصبروا على هذه الهزيمة النكراء، ولن يتركوا أرض البلاد الجزائرية غنيمة لهذه الدولة الناشئة التي لم تكن تخطر لهم على بال، وأنهم لا محالة راجعون إليها، وأنهم لا محالة مدافعون دفاع البائس عما يحتلونه من سواحلها، فبادر عروج وخير الدين بتحصين مدينة الجزائر تحصينًا قويًا، وشاد الجزائريون بسواعدهم القوية وإيمانهم المتين الأسوار الضخمة والقلاع الحصينة، واستعدوا لليوم العظيم.

لكن المؤمن لا يُلدغ من جُحر واحد مرتين، وما كان الصبر محتملًا على تنس التي اقتطعها فيما سبق الأمير يحيى الزياني من أرض الملكة الواهية بعد تحطيم الإسبان لقوى المسلمين بالمرسى الكبير، ووضع نفسه في نذالة وسقوط همة تحت حماية الإسبان؛ علّهم يمكنونه من «عرش» تلمسان بعد انتصارهم على بني عمه ورجال دينه وملته، ذلك الانتصار الذي علّق عليه الآمال، وآل أمر هذه «السلطنة» إلى «حميد العبيد» من بني مهل.

فعروج وخير الدين عزما -قبل كل شيء- على إنقاذ مدينة تنس من هذا المتغلب الشقي، الذي ولغ في دماء المسلمين، والذي جرَّأ الإسبان على مدينة الجزائر، ووعد جيشهم بالإعانة والتأييد، فسار إليها عروج برًّا في شهر جوان (١٥١٧) على رأس جيش مؤلف من ألف تركي، وفِرَق من المجاهدين الأندلسيين، كما سار إليها خير الدين بحرًا.

وما أغنى عن «السلطان» في تنس ما أمدته به إسبانيا من جيش قوامه خمسمائة رجل، ومن أسطول يشمل أربع سفن، فإن الشعب المسلم الأبيَّ في تنس وما حولها لم ينصر هذا الخائن الفاجر، وانفض من حوله ملبيًا داعي الوحدة والجهاد الإسلامي، فلم يبق معه إلا جند قليل، وجمع من الإسبان الذين يؤازرونه، ووقف عند واد الجر على خمس مراحل من البليدة ليدافع عن سلطنته الخيالية.

واشتعلت نيران المعركة حالا بمجرد وصول جيش الجزائر إلى الحومة، واستعمل هذا الجيش أسلحته النارية فانهزم جماعة «السلطان» الأصغر، لا يلوون على شيء، ودخل الجزائريون مدينة تنس بعد أن ركب الإسبان سفنهم وغادروها بكل سرعة خشية أن يحل بهم يوم كيوم الجزائر الذي سارت بذكره الركبان، وقُتِل «السلطان» الذليل.

التنظيم الإداري الأول

رأى عروج أن يقسم المملكة الجديدة -إداريًّا- إلى مقاطعتين:

مقاطعة شرقية: يشرف عليها خير الدين، ومقرها الإداري مدينة دلس.

ومقاطعة غربية: يشرف عليها عروج نفسه، ومقرها الإداري مدينة الجزائر العاصمة.

وغادر خير الدين مدينة تنس بعد الفتح، وذهب إلى دلس فافتتحها دون مقاومة تُذكر، وانتصب بها، ممثلًا للدولة الجديدة، ولشقيقه عروج.

استنجاد أهل تلمسان:

لم يكد المقام يستقر بعروج في مدينة تنس؛ حيث نظم البلاد حسب الحاجة وحسب الإمكانيات، حتى جاءه وفد كبير من مدينة تلمسان، يشكو

إليه سوء الحالة في العاصمة الزيانية ذات المدنية الشامخة، وذات الأمجاد العالية الرفيعة، وما انتابها من فوضى واضطراب من جراء فقد السلطة، وتناثر عقد الحكومة إثر تقاتل الأخوة والعمومة والخئولة حول ذلك العرش الذي فقد هيبته، وخسر قوته، وأصبح عبئًا على الشعب بعد أن كان له ملاذًا.

جاء القوم يطلبون نجدة عروج والدولة الجزائرية الفتية، ضد السلطان أبي حمو الثالث، الذي جلس علىّ عرش تلمسان بإعانة الإسبان وتحت حمايتهم، بعد أن اجتمع بالملك الإسباني في مدينة برغوس BURGOS، ودان له بالطاعة، وأعلن له التبعية، وألقى بالملك الشرعي «أبي زيان» في غيابة السجن، وذلك بعد أن تداول ملوك تلمسان وأمراؤها فيما بينهم منذ أمد بعيد عمليات الخلع والانتقاض، والقتل والسجن، مفرِّقين الشعب طرائق قددًا، ممكنين الإسبان من أكناف المسلمين.

معمعة تلمسان الهوجاء
بين الجزائريين والإسبانيين والزيانيين

كانت غاية البربروسين الأشقرين -عروج وخير الدين غاية الرجال الأحرار من أتراك وجزائريين، الذي أسسوا مملكة الجزائر، وبايعوا عروج أميرًا لها- أن يطهروا أرض المغرب من الاحتلال الإسباني، وأن يقوضوا ركني الاحتلال الإسباني الأساسيين: بجاية شرقًا، ووهران والمرسى الكبير غربًا.

بنظرة فاحصة صائبة، أدرك رجال الدولة الجزائريين أن ناحية الغرب أكثر خطرًا، وأدعى إلى الانتباه والحذر؛ ذلك أن الخطر لم يبق فيها من الإسبان وحدهم، إن خطرهم قد تسرب إلى مملكة بني زيان ونخر عظامها، وتمكن من رقاب ملوكها -ولا أقول من رقاب شعبها- فأصبح الوجود الإسباني هنالك منذرًا بالخطر الوبيل.

ومن وراء الإسبان، ومملكة بني زيان، يوجد الخطر الداهم البرتغالي، والغزو الذي لم تتمكن مملكة بني وطاس المرينية من ردعه، إلى أن أرداها وتخلى عنها الشعب؛ لكي يقيم على أنقاضها -باسمه وبتفويض منه- دولة أخرى توحد الشمل وتقود الشعب نحو الجهاد، فالتحرير.

اندفع عروج في جرأته المعهودة وبسالته النادرة يقطع المراحل نحو تلمسان نجدة لأبي زيان السجين، وشيعته وأنصاره أعداء الإسبان.

واتخذ عروج طريقه إلى تلمسان، بين الهضاب الداخلية؛ حتى لا يصطدم بالإسبان في ناحية وهران، فيصدونه عن تلمسان، أو يقطعوا عنه خط الرجعة، ولما وصل قلعة بني راشد وهي هوارة، التي تبعد عن «معسكر» نحو

٢٥ كيلو مترًا، وعن مستغانم نحو ٥٥ كيلو مترا اتخذ منها مركزًا لحماية مواصلاته، وترك بها حامية من ٦٠٠ رجل، أمَّر عليهم شقيقه الثالث إسحاق بن يعقوب، وأمرهم بالتضييق على الإسبان في وهران، وعرقلة أعمالهم وتحركاتهم العسكرية؛ حتى لا يعوقوا سيره نحو تلمسان، ثم انطلق كالسهم يجر وراءه جيش الجزائريين حتى وصل سهل أربال، حيث وجد أبا حمو في جيش غفير، شمل ستة آلاف فارس، وثلاثة آلاف راجل، يحاولون صده عن مدينة تلمسان، فهاجمهم حالًا، ولم يكن جند أبي حمو - رغم وفرة عدده- متمتعا بالقوة المعنوية والحصانة الروحية التي تجعل الجندي يقاتل مستبسلا حتى الموت، فانهزموا شر هزيمة، وتشتتوا، وواصل عروج سيره الخاطف. . .

فوصل عاصمة ياغمراسن العظيم، ففتحت له أبوابها، وتقبلته كما يقول مؤرخو الإفرنج اقتبال المنقذ.

أما أبو حمو الثالث، أو أبو قلمون، كما يدعوه قومه، فقد واصل سيره بعد الهزيمة ومعه جمع من الأنصار، فحل بمدينة فاس، ومنها ارتحل إلى مدينة وهران واضعًا نفسه تحت حماية حاكمها العام، مستمدًا منه العون والمدد؛ لكي يسترجع ملكًا لم يجد من يدافع معه عنه، بعد تعمده وضع بلاد الإسلام تحت حماية الإسبانيين.

وأجلس عروج على كرسي تلمسان السلطان أبا زيان الثالث المسعود، بدل عمه الذي اغتصب منه الملك، أبي حمو الثالث، ثم حاول عروج أن يوفق بين رغبته في توحيد البلاد تحت إدارة مركزية قوية في مدينة الجزائر، والاستعداد العام لمصادمة الإسبان، واستخلاص البلاد من بين براثنهم، وبين بقاء الملك لدول بني زيان، على ناحية تلمسان، ضمن دولة الجزائر.

لكن التوفيق بين عمليتي الجمع والتشتيت أمرٌ صعب الحصول، إذا ما نحن حذفنا من قاموسنا كلمة المستحيل، فلم يستقر الوضع بتلمسان إلا قليلا، حتى عادت الفتن والدسائس سيرتها الأولى، يغذيها الإسبان من جهة، ويغذيها صاحب العرش والطامعون في العرش من جهة أخرى.

وهكذا نشبت فتنة في تلمسان، والإسبان يتربصون بها الدوائر، وتولى كبر الفتنة نفس السلطان أبو زيان، وأشياع عمه أبي حمو معًا، فخرج عروج من تلمسان حينًا، ثم عاد إليها وقتل أبا زيان، وجماعة من قرابته وأنصاره، مع رءوس الفتنة ورجال المشاغبة.

عودة الإسبان وأبي حمو إلى تلمسان

وكان الملك الإسباني الكبير كارلوس الخامس، الذي اشتهر في التاريخ الغربي باسم «شرلكان» قد ارتقى عرش إسبانيا منذ سنة (١٥١٦) وهو الذي كان له القسط الأكبر في محاربة الجزائر فيما بعد، والذي هشمته الجزائر تهشيما كما سيمر بنا بعد قليل، فأمر حاكم مدينة وهران بأن يستعمل كل إمكانياته لإرجاع أبي حمو إلى عرش تلمسان، وإبعاد خطر التوسع الجزائري على أنقاض مملكة بني زيان، وأمده بجند بلغ عشرة آلاف رجل وبعتاد، فخرج أبو حمو على رأس جموع من الأعراب، ومعه فرقة من الجيش الإسباني، فداهموا أول الأمر قلعة بني راشد، حيث رابط إسحاق بن يعقوب، شقيق عروج، كما تقدم لنا، ونازلوها بقوة وبعنف، وتمكنوا منها بعد دفاع عظيم، ولم يستسلم لهم إسحاق إلا بعد أن تعهدوا له بأن يتركوه يسير حرًّا إلى تلمسان، مع بقايا الرجال الذين دافعوا معه عن القلعة، وسار فعلا يريد الالتحاق بشقيقه، لكن جماعة أبي حمو كمنوا لهم خيانة وغدرًا، فاغتالوه هو وجماعته أثناء الطريق، وكان ذلك أواخر جانفي (١٥١٨).

في هذه الأثناء، وجيش الإسبان وجموع أبي حمو تسير نحو تلمسان، أنزل حاكم وهران فرقة إسبانية ثانية في بلدة رشقون الساحلية حسب مخطط مدروس، فسارت نحو تلمسان مسرعة من طريق آخر، فاجتمعت الفرقتان، وجموع أبي حمو أمام تلمسان، ونصبوا حولها حصارًا محكمًا.

احتلال تلمسان واستشهاد عروج

كانت معركة تلمسان قاسية عنيفة، ورغم وفرة عدد الإسبان ونوعية سلاحهم وكثرة عدد أنصارهم من رجال أبي حمو فقد تمكن عروج والذين معه من جزائريين وتلمسانيين من المقاومة اليائسة مدة ستة أشهر كاملة، إلى أن تمكن الإسبانيون من تحطيم الأسوار بقصف المدافع المتواصل، فدخلوا المدينة، وانقلبت المقاومة اليائسة إلى حرب في الأسواق والطرقات والمنازل، ولما انتهى كل ذلك آوى عروج وبقية رجاله إلى قلعة المشور، فتحصنوا بها منتظرين مددًا، وقد قيل -وليس بأيدينا ما يؤكد هذا القول أو ينفيه- أن عروج كان ينتظر النجدة من قبل ملك فاس الوطاسي المريني تنفيذًا لاتفاق عقد بينهما، وأن الملك المريني قد أرسل فعلًا بجيش لنصرة عروج وتمكينه من الدفاع عن تلمسان ضد الإسبان وأنصارهم، لكن ذلك الجيش سار على طريق مليلة، فطال به السير ولم يتمكن من الوصول إلى ميدان المعركة في الوقت اللازم، فلما تم الأمر قفل راجعًا.

ضاق الحصار على المشور، ولم يبقَ فيه إلا خمسمائة رجل من الأتراك مع عروج، عزموا على الموت عن آخرهم، دفاعًا عن القلعة التي كانت تحمل آمال الوحدة وآمال الإنقاذ.

لكن الخديعة تنجح أحيانًا فيما لا ينجح فيه السلاح.

جاء يوم عيد الفطر، وتقدمت نحو المشور جماعة من المسلمين كثيرة العدد، وطلبت من حماة المعقل السماح لهم بأن يقيموا صلاة العيد في

مسجد المشور -حسب عادتهم- فأذن لهم الأتراك بذلك -ومن خدعنا بالله انخدعنا له- وما كادت هذه الجماعة تدخل الحصن، حتى أخرجت من بين ثيابها أسلحتها، وانقضت على الأتراك الذين فوجئوا بهذه العملية، فأمعنت فيهم قتلا.

لكن البقية الباقية من الأتراك لم تلبث أن استرجعت ثباتها، ونظمت فورًا خطة دفاعها، وصادمت هؤلاء المهاجمين وتمكنت من الإلقاء بهم وراء الأسوار وأوصدت دونهم الأبواب.

إنما أدرك عروج أن الثلة القليلة الباقية بين يديه لا تمكنه مطلقًا -مهما كانت البطولة- أن يدافع عن الأسوار وعن الأبواب، فقرر أن يشق طريقه بواسطة السلاح، مخترقا صفوف أعدائه، إلى أن يصل إلى ساحل البحر، فيجمع حوله أنصارًا، وينتظر وصول أسطول الجزائر بمدد يرسله خير الدين.

نفذت العملية الجزائرية، فخرج القوم من المشور، وأموا ناحية الغرب ليسلكوا منها مسارب ملتوية نحو الساحل، إنما أحيط بهم عند جبال بني سناسن والتحمت بينهم وبين متتبعيهم وكانوا خمسين إسبانيا تحت قيادة الفارس «كارسيادي لابلازا» معركة عنيفة غير متكافئة، وقد رددت كل كتب التاريخ الفرنجية والإسبانية هذه العبارة «وقد دافع عروج عن نفسه مثل الأسد» رغم أنه كان لا يستعمل إلا يدًا واحدة، والعشرة الرجال الذين كانوا معه، سلكوا مثل مسلكه، وكانوا قد تحصنوا بين جدران «زاوية سيدي موسى» إلى أن استشهد كل رجاله، وبقي وجها لوجه أمام قائد الفرقة الإسبانية، كارسيا، فاستمرا على المبارزة رأسا لرأس، إلى أن اخترط كل منهما صاحبه بالسيف، وخر عروج وخر خصمه، يتخبطان في دمائهما.

ساعتئذ تقدم الإسبانيون، فاحتزوا رأس عروج، وهم لا يكادون يصدقون أنهم قد تخلصوا فعلا من هذا البطل الصنديد، وساروا بالرأس توًّا نحو

وهران، ومن هنالك سير بها إلى إسبانيا حيث طاف القوم بها خلال أكبر مدنهم، وذهبوا بها بعد ذلك إلى أوربا، حيث طيف بها كذلك خلال أغلب المدن الأوربية التي كانت فرائصها ترتعد من مجرد ذكر اسم «بربروس» أما ثيابه المزركشة التي تركها في تلمسان، فقد أخذت إلى إسبانيا، وطيف بها أيضًا أغلب المدن، ثم أودعت في معتكف القديس سان جيروم القرطبي.

وكان عروج يوم استشهاده يبلغ الخمسين من عمره، ولم يترك من بعده ذرية.

يقول المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي: «ويروى أن جثمانه جيء به إلى العاصمة (الجزائر) فدفن بجوار ضريح سيدي رمضان، وقبره عن يمين الداخل، متصلا بجدار المسجد» وهكذا وقعت النكبتان معا في شهر واحد (ماي ١٥١٨) استشهاد عروج ورجاله، ودخول عشرة آلاف رجل من الجيش الإسباني مدينة تلمسان؛ لكي يعيدوا إلى العرش سلطانهم «أبا حمو الثالث».

والحق الذي لا نرتاب فيه هو أن أهل تلمسان الذين استنجدوا بعروج وفتحوا له أبواب المدينة وتلقوه على الرحب والسعة، لكي ينقذهم من الملك «أبي حمو» صنيعة الإسبان، ولكي يجلسوا على العرش أبا زيان لم يكونوا في أغلبيتهم يريدون أن يتعدى الأمر ذلك، لم يكونوا يريدون أن يخسروا استقلالهم، وأن يفقدوا ملكهم الذي تركه لهم جدهم ياغمراسن العظيم، فما كادت تنتهي فورة الجذل الأولى، ولم يكادوا يعلموا أن عروج يريد أن تصبح تلمسان ومملكتها جزءًا من دولة ضخمة هي الدولة «الجزائرية» حتى تخلوا عنه، بل ناصبه أكثرهم العداء، فكان ما كان بينه وبين الملك أبي زيان الذي نصبه على العرش بنفسه، ورجال عائلته وأنصاره.

إن التلمسانيين لم يريدوا أبدا أن تدنس أقدام العدو أرض بلادهم، لكنهم لم يريدوا أبدًا -وبصفة واضحة جلية- أن يتخلوا عن مملكة هي من صنع

أيديهم، لها تاريخها الحافل، ولها أمجادها العظيمة، ولها مدنيتها الشامخة الذرى، ولولا أنهم تخلوا عن عروج لكان في مقدورهم نصره وتأييده والثبات معه، رغما عن مساعي ودسائس الإسبان، وهم الذي طالما تحملوا -أثناء تاريخهم المجيد الحافل بجلائل الأعمال- أعوامًا من الحصار الضيق الشديد، وكان لهم النصر في أكثر الأحيان.

ما يقول مؤرخو الإفرنج عن عروج

يكاد المؤرخون الغربيون يجمعون على الإشادة بذكر هذا البطل العظيم، وما كان يتمتع به من خصال حربية ومدنية جعلته أسطورة في البحر، وأعجوبة في البر، وما كانت له من قدرة على التنظيم، جعلته ينشئ دولة ذات قوة وذات شأن عظيم، قاومت فيما بعد أعاصير الزمن ما يزيد عن الثلاثة قرون.

يقول بيشو في كتابه «تاريخ شمال إفريقيا» السالف الذكر:

إن هذين الشقيقين (عروج وخير الدين) كان لهما من الإقدام ومن الجرأة مقدارًا يفوق المتعارف عند الرجال، وكان لهما من الدهاء السياسي الخارق للعادة ما يجعل الناس مشدوهين من وجود مثله، عند رجلين لم تؤهلهما ثقافتهما البدائية ليقوما بهذا الدور العظيم، دور قيادة الشعوب.

وهكذا كانت الخاتمة البطولية لهذا القرصان المغامر الذي لا نتمالك أنفسنا عن الإعجاب بإقدامه، وبجرأته النادرة، كما نعجب أيما إعجاب بهذه العبقرية التي سادت أعماله في ميدان الحرب وفي ميدان تنظيم الدولة، كما أننا نستنكر إلى جانب إعجابنا هذا -كل الاستنكار- ما كان متصفًا به من مصانعة ومن قسوة فظيعة.

لكن المؤرخ الكبير دي قرامون في كتابه «تاريخ الجزائر تحت حكم الأتراك» يقول بكل إنصاف وتقدير:

«إن الكثير من المؤرخين لا يرون في عروج إلا زعيم عصابة، ليس إلا، وإنني لا أعرف حكمًا جائرًا مخالفًا للحقيقة كمثل هذا الحكم، فإن البربروس الأول (عروج) ما كان إلا جنديًا من جنود الإسلام المغاوير، جاهد فوق متن البحار جهادًا لا هوادة فيه، ضد أعداء ملكه، وضد أعداء دينه، على أنه كان ملتزما خلال جهاده هذا بكل القواعد والأسس التي كان العمل جاريًا بها خلال تلك الحقبة من التاريخ، فلم يكن أبدًا أكثر قسوة -ولا أقل نسوة- من الأعداء الذين كان يمعن في محاربتهم.

وعندما سنحت له الفرصة وأمكنته غزواته من جمع قوة كافية حوله، تمكنه من القيام بجلائل الأعمال- حاول إنشاء إمبراطورية في الشمال الإفريقي؛ حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها.

إن الوسيلة الوحيدة التي كانت تمكنه من إدراك تلك الغاية وتضمن له البقاء والاستمرار إنما هي إبعاد المسيحيين عن البقاع التي يحتلونها في البلاد.

من أجل تحقيق هذا الهدف أخذ يحارب المسيحيين قبل كل شيء، في شخص حلفائهم والخاضعين لهم، حتى يقطع عن النصارى كل طريق يتزودون منه، ويضطرهم بذلك إلى الاعتماد خاصة على ما يرد عليهم من إسبانيا.

ولقد كانت بداية أمره سعيدة، وكان انتصابه بالجهات الغربية يسمح له بإلقاء المهاجمين الإسبانيين إلى البحر لولا أنه قتل بسبب خديعة حلفائه.

ولقد مات كما يقول المؤرخ الإسباني هايدو: مأسوفا عليه كل الأسف من قبل جميع الذين انضووا تحت رايته وعملوا تحت لوائه» اهـ.

أما المؤرخ الكبير شارل أندري جوليان، فيقول في كتابه الشهير «تاريخ الشمال الإفريقي»:

«وهكذا انتهت في سن الرابعة والأربعين[١] هذه الحياة المجيدة في ميدان المغامرة، إنه هو الرجل الذين أنشأ -كما يقول هايدو المؤرخ الإسباني الذي عاش أسيرًا في الجزائر من (١٥٧٧) إلى (١٥٨١)- القوة العظيمة لمدينة الجزائر وللبلاد البربرية».

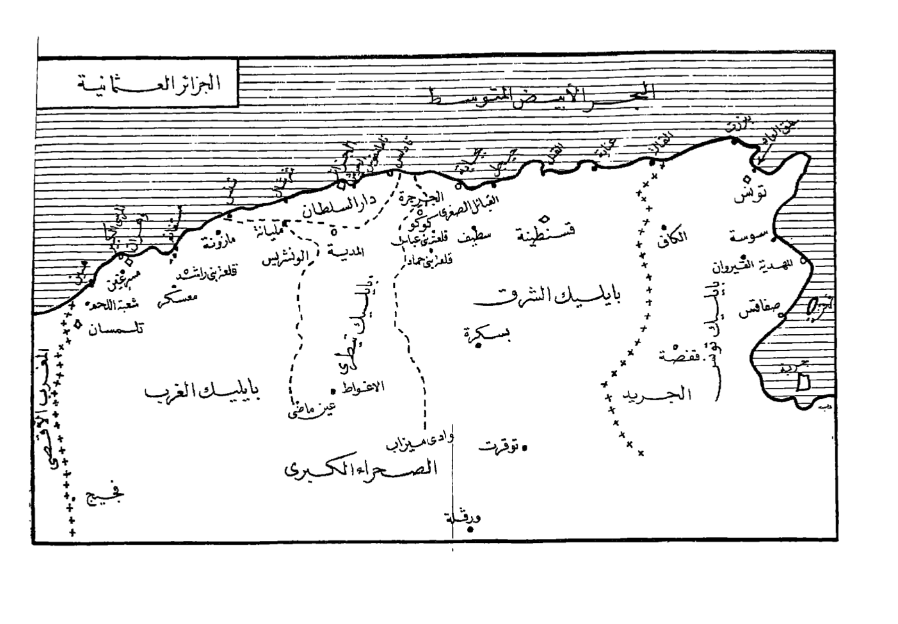
إنه بنظرة صادقة لا تخطئ وهي نظرته المعتادة- قد أدرك مدى ما تستطيع أقلية عاملة تحقيقه في وسط مليء بالمنافسات بين مختلف الإمارات المغربية، لكي يؤسس على حساب تلك الإمارات دولة إسلامية قوية، لا تستطيع أن تنالها بسوء هجمات النصارى.

وعلى هذه الصفة تمكن من بسط سلطانه على جهات متيجة ووادي شلف، وتيطري، والظهرة، والونشريس، ثم تلمسان، ونسف مملكة بني زيان نسفا لم تقم لها من بعده قائمة.

إنما كانت مأثرته هذه تتلاشى وتضمحل لو لم يتلقفها ويحتضنها باليمين شقيقه خير الدين، الذي سار بها في طريق النجاح والكمال.

أي نعم، هذا هو الشهيد عروج بن يعقوب التركي، وهذه هي أعماله في بلاد الجزائر خلال ستة أعوام، منذ مهاجمته لبجاية أول مرة سنة (١٥١٢) إلى يوم استشهاده ببني سناسن سنة (١٥١٨)، وتأسيسه بإعانة الشعب، وبإرادة الشعب، وبتأييد الشعب دولة الجزائر الحديثة.

(١) من المؤرخين من يقول: إن عروج استشهد وهو في سن ٤٤، لا في سن ٥٠



الجزائر العثمانية
البحر الأبيض المتوسط
دار السلطان
الجرجرة
القبائل الصغرى
كوكو
قلعة بني عباس
قلعة بني حماد
قسنطينة
سطيف
الكاف
تونس
سوسة
المهدية
القيروان
صفاقس
مازونة
مليانة
المدية
الونشريس
قلعة بني راشد
معسكر
شعبة اللحم
تلمسان
بايليك الشرق
بايليك الغرب
بايليك تيطري
بايليك تونس
بسكرة
قفصة
الجريد
الاغواط
عين ماضي
وادي ميزاب
توقرت
الصحراء الكبرى
فجيج
ورقلة
المغرب الأقصى

خير الدين والدولة العثمانية

بلغت أنباء فاجعة تلمسان مدينة الجزائر، فسادها الغم والهم، ولولا قوة في إيمان خير الدين، وشدة عزيمة أصحابه واقتناع رجال الدولة الفتية الجزائرية بوجوب المحافظة على هذا التراث، وتدعيمه، وتوسيعه، والدفاع عنه أمام كل عدو، والتفاف الشعب عن اقتناع حول هذه الدولة الفتية التي جمعت الشمل، والتي توج الله هامتها بنصره المبين أمام غزوة الإسبان الأولى، لولا كل ذلك لانهار البناء، وخسرت بلاد الجزائر معركتها أمام المسيحية الغازية.

فأهل الحل والعقد الذين اجتمعوا بمدينة الجزائر عندما بلغتهم أنباء كارثة تلمسان، واستشهاد الملك عروج- عرضوا على خير الدين في إلحاح شديد أن يتولى الإمارة بعد أخيه، وأن يواصل في سبيل الله جهاده، لكنه اعتذر عن قبول ذلك، وصرح لهم بعزمه على استئناف الغزو والجهاد على متن البحار، وأنه يعتزم السفر إلى إستانبول مستمدًا منها أسطولًا للجهاد، ورابطًا حبلها بحبله، فقال له العلماء: إن الله يوجب عليك البقاء في هذه المدينة الإسلامية لحمايتها ولا يسمح لك الدين بتركها نهبة للمفترس، فأجابهم، ونحن نأخذ هنا برواية المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف:

«بأنه بقي منفردًا دون إخوته (الذين استشهدوا جميعًا فوق أرض الجزائر) وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان، واستعانته علينا بغير ملتنا حتى كفانا الله أمره، وصاحب تونس الحفصي لا رأي له في نصرتنا وإعانتنا، وأسلمنا للعدو بمنع البارود عنا (أثناء حملة بجاية) لولا لطف الله، فالرأي هو أن نصل أيدينا بالقوة الإسلامية -وهو السلطان سليم خان- ونعتمد عليه في حماية هذه المدينة، ولا يكون ذلك إلا ببيعته والدخول في

طاعته، بالدعاء له في الخطب على المنابر، وضرب السكة باسمه، لتتفيأ ظل حمايته، فاستكانوا لذلك ورضوا به، وأعلنوا بالدعاء له على المنابر، وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية، وبعثوا له من السكة باسمه في الجزائر...» اهـ.

وعلى هذه الصفة قرر الجزائريون أن تكون دولة الجزائر الفتية جزءًا من الإمبراطورية العثمانية الضخمة المترامية الأطراف، وقرر خير الدين -مؤقتا- البقاء على كرسي الدولة، إلى أن يتخذ السلطان العثماني قراره فيما عرضه عليه أهل الجزائر، ويمدهم بما طلبوه من إعانة، بواسطة الوفد الذي سار إلى القاهرة حيث كان السلطان سليم مقيمًا لتنظيم البلاد، بعد إسقاط دولة المماليك، وكان الوفد تحت رئاسة الحاج حسين.

ولم يتأخر كثيرًا جواب السلطان، فقد أعلم خير الدين وأهل الجزائر بقبول ما طلبوه، وأنه قرر أن يشمل دولة الجزائر برعايته، وتكون مشتركة مع الدولة العثمانية في الجهاد ضد المسيحية، وأضفى على خير الدين لقب «باي لرباي» أي: باي البايات، باعتباره الرئيس الأعلى لكل البايات الذين يتولون أو سوف يتولون الحكم في بلاد الشمال الإفريقي، وخول السلطان دولة باي لرباي أن تضرب السكة باسمها، وذلك علامة الاستقلال ضمن الإمبراطورية العثمانية.

وكان الخليفة السلطان سليم -وهو بالقاهرة كما رأينا- يدرك جيد الإدراك أهمية هذه الدولة الجزائرية بالنسبة للجهاد العظيم القائم فيها ضد الاستعمار الصليبي الإسباني، ويدرك مدى المسئولية التي اضطلع بحملها؛ فبادر فور الاعتراف بخير الدين باي لرباي على دولة الجزائر، والاعتراف بأن دولة الجزائر قد دخلت ضمن إطار الدولة العثمانية الواسع؛ بإرسال أسطول إسلامي يحمل أربعة آلاف من المتطوعين الأتراك، وكمية ضخمة من العتاد والسلاح، فوصل ذلك المدد بعد وقت قليل إلى مدينة الجزائر، ونزل على

ساحل باب الواد، واستبشر المسلمون خيرًا كثيرًا، واستعدوا لمجابهة الحملة الجديدة التي سيشنها عليهم الإمبراطور شرلكان عما قريب حسبما جاءتهم من أنباء؛ من أجل احتلال الجزائر وتقويضها، والتخلص من التهديد الدائم الذي يصيب الممتلكات الإسبانية منها، وكذلك من أجل إرضاء الشرف، والانتقام للهزيمة المنكرة التي حلت بجيشه أثناء محاولتهم الأولى ضد مدينة الجزائر.

الفصل الخامس

عصر خير الدين

(١٥١٨-١٥٤٧)

خير الدين

شخصية البربروس الثاني خير الدين شخصية لامعة غريبة، تكاد تكون فذة لا في زمانها ولا في محيطها فقط؛ بل في كل الأزمنة المتأخرة من التاريخ الإسلامي منذ عهد صلاح الدين والظاهر بيبرس، وعلى كامل الرقعة التي تحيط بالبحر المتوسط، من مضيق البوسفور إلى مضيق جبل طارق.

أما سمعته فقد تجاوزت تلك الرقعة ولا ريب، وهيمنت على الأفكار، وسيطرت على الحوادث، وطبعت عصرًا كاملًا بطابعها الخاص، منذ تولى مقاليد الأمور على رأس الدولة الجزائرية، إلى أن لبت روحه داعي ربها راضية مرضية، فلا غرو إذا ما نحن أطلقنا على هذه الفترة من الكفاح الإسلامي الجزائري ضد الصليبية الإسبانية اسمَ «عصر خير الدين».

قال ابن أبي الضياف المؤرخ التونسي الشهير: «خير الدين هذا من رجال الدنيا بل والآخرة، فهو كما قال بعض الأدباء: خير الدين والدنيا».

والمتتبع لتاريخ هذا البطل العملاق يجد نفسه أمام شخصية متعددة الجوانب مختلفة المظاهر، القاسم الأعظم المشترك بينها هو إيمان قوي بالله، وصلابة في الجهاد الإسلامي لا تلين، إلى جانب تصميم وعزم لا يتطرق إليهما أيُّ ضعف، ونظرة صائبة خاطفة، لا تكاد تخطئ التقدير ولا التدبير، ولقد جاء في الأثر: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، وجرأة واندفاع لا تباليان بالصعوبات، ولا تحسبان حسابًا للعقبات، ودقة في السياسة وتدبير للملك، وعبقرية لم تتخل عن صاحبها ساعة الحرب ولا ساعة السلم، ومقدرة على التنظيم وعلى قيادة الرجال عز نظيرها.

كل هذه الصفات العبقرية مجتمعة في شخص واحد، قد ازدانت بالخُلُق الكريم، والحلم والوقار، والعفو عفو المقتدر الشهم، والسيرة الشخصية الصالحة التي لم تشبها شائبة ولم تحم حولها الشكوك والأقاويل، فكان ظاهره

كباطنه، وكان باطنه كظاهره: صفو، وإخلاص، وانقطاع لخدمة الله، وإعلاء لشأن دينه، وفناء في صالح المؤمنين.

هذا هو الرجل الذي منت به المقادير الإلهية على هذا الوطن الجزائري بعد استشهاد شقيقه عروج؛ فنظم دولتها، وقهر أعداءها، وجمع شمل أمتها، وبادله الشعب حبًّا بحب وثقة بثقة، كان لهما أعظم الأثر في الداخل، وكان لهما أعظم الأثر في الخارج.

وإني -والله- لأشعر بثقل الدين الذي لهذا البطل على بلادنا في شرق وفي وسط هذا المغرب العربي، ولكم وددت مخلصًا لو أنني وفيت بشيء من هذا الدين خلال كتابي هذا لكنني -ولسوء حظي- لست محاولًا ذلك في هذا العمل؛ لأني لو حاولت ذلك -من جهة- لخرجت عن نطاق هذا الكتاب، وقد أردته خاصًّا برسم وتقييم الجهاد الإسلامي في بلادنا ضد الصليبية الإسبانية، ومن جهة أخرى لعجزي الذي أعترف به عن الإحاطة بالأعمال البطولية التي قام بها هذا العملاق خارج الميدان الجزائري، ولعل الله يقيض لذلك رجلًا جزائريًّا، وما خلت الجزائر يومًا من الرجال.

فلأعد إذن إلى ذكر حوادثنا الجزائرية في ميدان الجهادين: جهاد الجمع والتكوين، وجهاد التطهير والتحرير.

الانكسار الإسباني أمام الجزائر

تجهيز الحملة: لم تصبر إسبانيا -وعلى رأسها الإمبراطور شرلكان العنيد- على الهزيمة المنكرة التي أصيبت بها تحت أسوار مدينة الجزائر، في السنة الماضية؛ فأخذت تستعد للأخذ بالثأر.

والذي زاد في قوة هذه الرغبة الجامحة في تحطيم مدينة الجزائر وإذلالها هو ذلك الفزع الذي ساد كل الأوساط الإسبانية والأوربية، عند إعلان انضمام

الجزائر للمجموعة الإسلامية العثمانية؛ ومن ثم وصول الخطر الإسلامي العثماني إلى هذا القسم الغربي من البحر المتوسط الذي يكاد يعتبره الإسبان - بحكم استيلائهم على أهم المدن الساحلية الجزائرية، وعلى جزائره الكبرى، ومعظم السواحل الإيطالية- بحرًا إسبانيًا صميمًا.

ولقد اغتنم الإسبان فرصة استشهاد عروج البطل، وانتصارهم في تلمسان، وما أحدثه ذلك في كل البلاد الجزائرية من حزنٍ وأسًى؛ فاتفقوا مع أبي حمو -ملك تلمسان- على أن يشترك الجانبان في هذه الضربة الحاسمة، وأن يتخلصا معًا من خطر هذه الدولة الجزائرية المهددة، وذلك بأن يهاجمها الإسبان من البحر في نفس الوقت الذي تتقدم فيه نحوها جيوش صاحب تلمسان، ولقد حسب الجانبان حساب كل شيء إلا حساب الشعب الجزائري، الذي كان حذرًا يقظًا، والذي كان للأعداء بالمرصاد.

كانت الحملة الإسبانية تشمل هذه المرة أربعين سفينة كبيرة، تحمل على متنها خمسة آلاف رجل من أشد المقاتلين الإسبانيين والأوربيين ومن أمتنهم عودًا، ووضعت الحملة تحت قيادة نائب ملك الصقليتين هو «كودي منكاد Hugo de Moncade»، واشترك معه في القيادة كنائب له القائد الإسباني كونز الفومارينودي ريبرا GONZALVO MARINO DE RIBERA.

أبحر الأسطول من جزيرة صقلية أواخر جويلية؛ فأم أول مرة مدينة المرسى الكبير، وأخذ منها جندًا وعتادًا، ثم سار من بعيد صوب بجاية فأخذ منها جيشًا كبيرًا وسلاحًا، فما وصل أمام مدينة الجزائر إلا يوم ١٧ أوت سنة (١٥١٩).

المعركة

اختار الجيش الإسباني ميدانًا لعملياته ضد مدينة الجزائر الساحلَ الممتد على يسار وادي الحراش، وكانت الخطة التي رسمها خير الدين

والمجاهدون الذين معه تجعل من هذه المعركة صورة تكاد تكون طبق الأصل للمعركة التي جرت خلال السنة الماضية؛ أي: أنهم يتركون الجيش الإسباني ينزل البر في النقطة التي يختارها فيحط بها سلاحه وعتاده، ثم يناوشونه في حرب كمين محيطين به من كل جهة، حتى ينهكه التعب وينال منه الإعياء، ثم يلتحمون به في معركة فاصلة في الساعة التي يرونها مناسبة.

وهكذا كان.

فقد أنزل الإسبانيون جندهم وسلاحهم وأمتعتهم، جاعلين وراءهم وادي الحراش، وانقضت أوقات قليلة في مناوشات بين الجانبين، ولم يدرِ الجزائريون ما هي النقطة التي سيركز الإسبان هجومهم عليها، إلى أن تحرك الجيش المهاجم بكامل قوته، وأخذ يصعد المرتفعات المحيطة بالجزائر حتى وصلوا كدية الصابون المشرفة على المدينة من ورائها، وأخذوا في سرعة وفي إتقان جديرين بالإعجاب في بناء قلعة حصينة فوق تلك الكدية ودعوها «قلعة الإمبراطور»، وهي التي هُدمت ورممت مرارًا، وكان لها شأن عظيم في تاريخ الجزائر، ولا تزال موجودة إلى يومنا هذا.

وجهزوها بالمدافع الثقيلة، ووضعوا الجزائر فعلًا تحت تهديد مدافعهم؛ لكن مهارة خير الدين الحربية لم تمكنهم من ذلك، فلم تصب مدافعهم إلا الأسوار الخلفية دون أن تلحق بها أذًى.

في نفس الوقت الذي كانت القيادة الإسبانية ترفع فيه جدران القلعة الإمبراطورية كانت تلك القيادة تنتظر قدوم جحافل الجيش التلمساني التي يقودها الملك عبد الله الثاني، والتي كانت ركنًا أساسيًّا في المعركة المقبلة؛ لكن الانتظار دام ستة أيام، وتم بناء القلعة، وأرهقت المناوشات أعصاب الجيش الإسباني، ولم يظهر أثر للجيش التلمساني، فقررت القيادة الإسبانية القيام بالهجوم العام وفتح العمليات.

وتفتق ذهن خير الدين عن حيلة حربية غريبة.

أرسل جماعة من المجاهدين الجزائريين بكل سرعة إلى ساحل البحر يقدرها المؤرخون بخمسمائة رجل، وما كادت هذه الفرقة الفدائية تحل بالموقع الذي اتخذه الإسبان معسكرًا لهم، ولم يتركوا لحراسته إلا عددًا قليلًا، حتى أخذوا يدمرون المعسكر، ويشعلون النار في القوارب التي تصل الأسطول بالبحر، ويهددون نفس سفن الأسطول.

كان الإسبانيون يرون من «كدية الصابون» تطورات هذه العملية الخطرة التي توشك أن تقضي على خط مواصلاتهم البحري؛ فوقعوا في المكيدة، وارتدت قوات كثيرة منهم نحو البحر لمحاولة إنقاذ القوارب والسفن، وهكذا انقسمت القوة نصفين، ففتح المجاهدون أبواب المدينة فجأة، وانطلقوا كالسهام يهاجمون الإسبان من كل جهة؛ فاختل نظامهم، وفقدوا مواصلاتهم، وشلت حرمة قيادتهم؛ فأصبحوا كقطعان الغنم السائمة بين أيدي المجاهدين، واخترطتهم السيوف من كل جانب، وانصب عليهم وابل الرصاص؛ فمات منهم جمع كبير، ووصل الباقون منهم إلى ساحل البحر.

أثناء هذه العملية أخذت أمواج البحر ترتفع، واشتد هيجان المياه، إلى درجة جعلت الرجوع إلى الأسطول عملية غير ممكنة، فما استطاعها منهم إلا القليل النادر.

أما الكثرة الكاثرة فقد بقيت على الساحل، وأحاط بها المجاهدون من كل جهة؛ فقتل منها من قتل، واستسلم للأسر من بقي حيًّا من ذلك الجيش الذي كان يحمل آمال إسبانيا وآمال المسيحية الرسمية جمعاء، فكان عدد الأسرى يزيد عن الثلاثة آلاف، قُتلوا من بعد عن آخرهم عندما حاولوا عملية انتقاض، ومات غرقًا في البحر أربعة آلاف رجل.

وهكذا لم يكد يسلم من هذه المعركة أحدٌ، وكان هذا اليوم العظيم الخالد -يوم النصر المبين- هو يوم الأحد ٢٤ من شهر أوت (٩٢٥هـ-١٥١٩م) فالمعركة من أولها إلى آخرها لم تزد عن ثمانية أيام.

لكن مأساة الإسبانيين لم تنتهِ عند هذا الحد، بل تعدتها إلى أن أصبحت كارثة؛ ذلك أن الرياح المعاكسة والأمواج المتلاطمة قد أرجعت إلى الساحل الجزائري ٢٤ سفينة من سفن الأسطول بكل من فيها، وبكل ما عليها، فغنمها المؤمنون، وتم بذلك نصر الله المبين.

ملاحظة عن الزوبعة

هذه الحكاية التي قصصتها عليك، والتي اعتمدت في تفصيلها على الصحيح من المصادر الغربية والعربية، تجعل النصر الأكبر في هذه المعركة؛ نتيجة للمناورة الناجحة التي قام بها خير الدين، ونتيجة لقوة شكيمة المجاهدين الجزائريين الذين انقضوا على أعدائهم كالأسود الضواري، وبعدئذ ثارت الزوبعة البحرية، فكانت خاتمة لهذا اليوم العظيم الذي فرح فيه المسلمون بنصر الله.

لكن الكثير من مؤرخي الفرنج يجعلون هذه الزوبعة البحرية سببًا رئيسيًا وأساسيًا للنكبة الإسبانية، متجاهلين على الأغلب مناورة خير الدين، ضاربين صفحًا عن بطولة المجاهدين الجزائريين الذين دبروا المكيدة واستثمروها، حتى جاءت الزوبعة فكانت فاصلة الخطاب، على أن نفس المؤرخ الإسباني هايدو في كتابه تاريخ ملوك الجزائر الذي ترجمه للفرنسية المؤرخ دي قرامون الذي ذكرناه آنفًا، يؤكد أن الزوبعة لم تثر إلا عند الانهزام ومحاولة ركوب سفن الأسطول.

ويزيد دي قرامون على ذلك بيانًا فيقول: إن المعركة التي أسفرت عن انكسار الجيش الإسباني قد وقعت يوم العشرين، وإن الزوبعة ثارت بعد ذلك

يومي ٢١ و٢٢، وإن المؤرخين الإفرنج ليفعلون هذا -هذه المرة- كما فعلوه من قبل؛ بمناسبة الانكسار الإسباني السابق، وكما سيفعلونه من بعد بمناسبة ما سيمر بنا من انكسارات إسبانية أخرى، هي أشد هولًا وأعظم أثرًا؛ تغطية لهذه الهزائم، وتخفيفًا من حدة وقعها، وغمطًا لحق الشعب المجاهد النبيل.

أما نحن معشر الجزائريين والمسلمين عامة فنقول: إنه لو صحت أقوالهم وكانت الزوابع حقًّا هي التي سببت هزيمة الإسبان أمام الجزائر -ما سبق منها وما لحق- فإن الله سبحانه وتعالى يكون قد نصر بالزوابع والأعاصير هذه المدينة المجاهدة، وهذه الدولة الإسلامية الناشئة، كما نصر من قبل المجاهدين المسلمين الأولين يوم الأحزاب بالريح الصرصر العاتية ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

ملاحظة عن جيش ملك تلمسان

كان الملك الزياني صنيعة الإسبان أبو حمو الثالث قد قضى نحبه في نفس السنة التي استشهد فيها عروج؛ أي: سنة (٩٦٤هـ-١٥١٨م) وتولى المُلْك بعده أخوه عبد الله الثاني، ولم تكن سياسته كسياسة أخيه؛ بل كان يرى أول الأمر وجوب سلوك سياسة الحياد بين الإسبان وبين الجزائريين، وإن كان ولا بد من الاعتماد على أحد الطرفين، فليكن على خير الدين لا على الإسبان.

وكانت هذه نفس السياسة التي يراها شقيقه مسعود، الذي أبعد أخاه عن ملك تلمسان، ثم عاد إليه في حديث لا يكاد يصدقه العقل لهوجه، والعرش مثل كرة المباراة، لا تكاد تتلقفه اليد، حتى ترمي به إلى آخَر، ومن وراء كل ذلك مساعي الجزائريين ودسائس ومحاولة الإسبان، ورأي وعزيمة أهل تلمسان.

والذي نعتقده -وسط هذه المأساة الحزينة الكئيبة- هو أن القضية ليست قضية الملك عبد الله، أو قضية الملك المسعود؛ بل هي قبل كل شيء قضية أهل تلمسان، وأن أهل المدينة العظيمة هم الذين أبوا أن ينصروا الإسبان على إخوتهم المسلمين، وهم الذين أرغموا الملِك على عدم الوفاء بالعهد الذي قطعه الملك للإمبراطور شرلكان؛ بإرسال الجيش لتأييد الحملة على الجزائر وتدمير ملكها، وسأقدم لقراء كتابي مجموعة من الرسائل الرسمية، ومن التقارير السرية، تُلقي الأنوار على هذه الحقبة من تاريخ بني زيان؛ وهم بين الأتراك الجزائريين وبين الإسبان.

النكسة المؤلمة، ثورة أحمد بن القاضي ومصرعه

ارتفع نجم خير الدين إثر هذا النصر العظيم، وعلا صيته إلى السماء، وأخذت بعض الفرائص ترتعد منه فرقًا، لا فرائص الإسبان فقط؛ بل فرائص البعض من ملوك المسلمين؛ كسلطان بني حفص بتونس.

يقول ابن أبي الضياف المذكور آنفًا: ولما علم ذلك محمد بن الحسن دخلته الغيرة الملكية، واشتد حذره من خير الدين، وتحقق أنه إذا وصل يده بالدولة العثمانية سهل عليه الاستيلاء على المملكة التونسية، وندم على إضاعة الحزم، فركب متن الفساد والفتنة بين نواب خير الدين، وكاتب صاحب تلمسان يحذره غائلة خير الدين ... إلخ.

وكان خير الدين قد قسم مملكة الجزائر إلى قسمين: قسم شرقي، يشمل البلاد القبالية الجبلية، من شرقي العاصمة الجزائرية إلى حدود المملكة الحفصية التونسية، ووضع على رأس هذا القسم صديقه ورفيقه في الجهاد الشيخ أحمد بن القاضي الغبريني «سلطان كوكو» ببلاد زواوة، وتقع قرية كوكو على بعد ١٨ كيلو مترًا في الجنوب الشرقي من مدينة أربعاء بني راثن.

أما القسم الغربي، وهو الممتد من الجزائر إلى حدود دولة بني زيان الغير المحددة بالضبط، فقد وضع عليها السيد محمد بن علي، وظن أنه يستطيع أن يعتمد على الزعيمين المحليين لحكم البلاد مباشرة بيد أبنائها، تاركًا لمدينة الجزائر السلطة العليا، ومباشرة أمور الحرب والسياسة؛ لكن إسبانيا وملوك المسلمين كانوا بالمرصاد.

ولقد كان «ملك» قلعة بني عباس عبد العزيز -عدوُّ أحمد بن القاضي الألد- من أكثر الناس نقمة على هذا النظام الإداري الجديد، الذي يجعل من خصمه ابن القاضي أميرًا عليه، وحاكمًا في جهته، فكان يحمل لواء العصيان، ويعلن الطاعة والولاء للملك الحفصي بتونس.

لكن الحالة تغيرت بصفة فجائية؛ فالسيد أحمد بن القاضي الغبريني الذي أساءت الدسائس العَلاقات بينه وبين خير الدين، أعلن الثورة والانفصال عن الدولة الجزائرية، منصاعًا لمساعي الدولة الحفصية، معتمدًا على مددها ورجالها، فما وسع خير الدين إلا إخراج رجاله، ومقاتلة ابن القاضي قتالًا مريرًا في جبال زواوة المنيعة الشامخة، واضطره للالتجاء إلى عنابة.

ثم تلقى ابن القاضي مددًا من السلطان الحفصي التونسي، فعاد إلى الحرب، واستفزاز سكان الجبال ضد الحكم الجزائري، وساءت الحالة إلى أن قرر خير الدين الخروج بنفسه لمقاتلة الصديق القديم المنشق. أما المؤرخ دي قرامون فيروي القصة معتمدًا على ما بين يديه من الوثائق هكذا.

عزم سلطان تونس على إخضاع الجزائر لسلطته؛ لأنها كانت نظريًّا تابعة لدولة بني حفص، وتآمر مع ابن القاضي على أن يلتحق به أثناء اختراقه البلاد القبائلية، وأن يجتمعا على مقاتلة الجزائريين أصحاب خير الدين.

خرج خير الدين وهو يعتقد أنه سيرد غارة الحفصيين، معتمدًا على جيش الأتراك وجيش ابن القاضي، وما كادت المعركة تلتحم في «فليسة أم الليل»

حتى أدار جنود ابن القاضي سلاحهم ضد خير الدين والأتراك؛ فوقعوا بين نارين، وقُتلوا عن آخرهم تقريبًا، ونجا خير الدين بنفسه وبعض رجاله إلى جيجل، وأرسل يطلب من الجزائر سلاحه وأسطوله وكنوزه.

ويقول المؤلف: «واستمر أحمد بن القاضي يتقدم في متيجة ويخربها ودخل الجزائر، فسلك فيها سيرة أدهى وأمر من سيرة الأتراك». اهـ.

دام حكم ابن القاضي في مدينة الجزائر ستة أعوام (١٥٣١-١٥٢٧) وقد كادت تتفتت تلك الرابطة التي أحكم خير الدين صنعها، وشكل منها دولة الجزائر، وسادت مختلف جهاتها الفوضى والاضطراب.

وكان خير الدين يحاول رتق الفتق من مدينة جيجل، ويكثر الترداد بينهما وبين جربة، ويوالي القيام بأعماله البحرية الناجحة؛ من أجل جمع قوة أخرى، إلى أن تمكن من جمع جيش جديد، وأيده ونصره عدوه القديم سلطان قلعة بني عباس، الذي كان عاداه من أجل صداقته لابن القاضي واعتماده عليه؛ فبرز إلى الميدان من جديد، واسترجع مدينة القل، وانضمت إليه مدينة قسنطينة، وجاءته جموع الشعب المجاهد الراغب في الوَحْدَةِ، والتفت حول لوائه من جديد؛ فسار يشق طريقه جاهدًا نحو مدينة الجزائر.

أما الشيخ أحمد بن القاضي، فقد غادر الجزائر مسرعًا؛ لملاقاة خصمه العنيد بين مرتفعات وفجاج الجبال القبائلية، والتقى الجمعان عند مضيق ثنية بني عائشة، فانهزم رجال ابن القاضي حتى لم يبقَ معه إلا قلة من الأنصار فرأوا أن هذه الحرب الأخوية توشك أن تحطم كل ما كسبته البلاد خلال السنوات الأخيرة، وأن هذه الأعمال لا تفيد آخر الأمر إلا الإسبانيين لا غير؛ فعزموا هم بأنفسهم على التخلص من الشيخ أحمد بن القاضي، فجاءوه إلى خيمته عند غروب الشمس وقتلوه، وكان ذلك سنة (١٥٢٧) وبذلك انتهت الفتنة.

يقول المؤرخ الأستاذ س. بوليفة في كتابه الجرجرة عبر التاريخ:

«ودخل خير الدين مدينة الجزائر، وقد روي أن أهل المدينة قد احتفلوا برجوعه أيما احتفال؛ ذلك أن دخول خير الدين للمدينة كان بمثابة تحرير لها، فالسياسة الجافة القاسية التي عامل بها ابن القاضي مدينة الجزائر على طريقته الجبلية الغليظة، قد أوغرت ضده قلوب أهل الجزائر منذ عهد طويل».

ولم تستمر الحرب طويلًا بين الجانبين بعد ذلك، فجبال القبائل الحرة الأبية قد عمدت إلى جمع الشمل من جديد، وجاء الحسين بن القاضي شقيق الشيخ أحمد الذي تولى الإمارة بعد مصرع أخيه إلى مدينة الجزائر سنة (١٥٢٩) يستسلم استسلامًا شريفًا بين يدي خير الدين.

الرجوع إلى الجهاد، وتحرير معقل صخرة الجزائر

التف الناس من جديد حول خير الدين، ورأوا فيه المنقذ للمرة الثانية، مما حاق بهم من فوضى واضطراب وإرهاق أثناء فتنة ابن القاضي السالفة الذكر؛ فأعاد تنظيم الدولة، ورتب أمورها، وشكل الجيش، وأحسن تجهيزه، وجمع أسطولًا ضخمًا، مما كان لديه أولًا، ومما غنمه أثناء جهاده البحري خلال تلك الفترة؛ فأصبح من جديد -وفي مدة وجيزة- على رأس دولة قوية وشعب مجاهد منقاد، وجيش في البر وأسطول في البحر، مستعدين للقيام بواجباتهم المفروضة لحماية بيضة الإسلام، وإنقاذ ما بقي من البلاد تحت النير الصليبي الإسباني.

ولم يضع ساعة من الوقت سدى، والوقت كالسيف كما قال المثل: إن لم تقطعه قطعك، وفي هذه الحالة التي نذكرها الآن مصداق لهذا المثل.

ففي اليوم السادس من شهر مايو سنة (١٥٢٩م) رمضان (٩٣٦هـ) أخذ في قصف جدران معقل الصخرة الجزائرية، برمي القنابل الحديدية من المراكز التي شادها من أجل ذلك على بعد ٢٠٠ متر فقط من تلك الجدران.

ولقد كان معقل الصخرة حصينًا جدًّا، أبدع الإسبانيون إنشاءه وتعميره، ووضعوا فيه من الأسلحة ومن العتاد والزاد ما يجعلهم في أمن من كل غائلة، وما يجعلهم إلى جانب ذلك تهديدًا دائمًا لمدينة الجزائر، يستطيعون نسفها متى أرادوا.

وأعان خير الدين وجيشه على مباشرة هذه العملية الضخمة ما غنمه المجاهدون المسلمون في عرض البحر؛ من سفينة كبيرة تابعة لدولة البندقية المحاربة محملة ذخيرة وسلاحًا.

تقول كل كتب التاريخ -باختصار-: إن خير الدين هاجم الحصن العظيم هجومًا مركزًا أماميًّا، ثم هاجمه من جهة باب الواد، فدكَّ أسواره، ثم احتله يوم ٢٧ من شهر مايو؛ لكن تقريرًا إسبانيًا محفوظًا بخزائن سيمانكاس السالفة الذكر يعطينا صورة واقعية عن الحيلة الحربية التي استعملها خير الدين من أجل تحطيم القلعة واحتلالها.

يقول التقرير: إن خير الدين قد أمر بتجهيز كل السفن الحربية وشحنها بالرجال والعتاد، وأذاع في كل مكان أنه سيبحر إلى السواحل الإسبانية من أجل الغزو والجهاد، وخرجت السفن فعلًا من وراء صخور الجزائر، وأخذت طريقها نحو الشمال، لكن تلك السفن عادات أدراجُها تحت جنح الظلام، واختبأت في مرفأ تاما نتفوس، في الجهة المقابلة للجزائر على الطرف الآخر من الخليج.

ويوم الخميس ٢٢ مايو، أخذت كل البطاريات الموجودة بمدينة الجزائر تقصف المعقل قصفًا عنيفًا وبصفة متواصلة، فاستمر ذلك كامل يوم الخميس، وليلة الجمعة إلى ما قبل الفجر، ثم سكتت المدفعية، وظن الإسبان أن هذا الدور من المعركة قد انتهى، وأنهم يستطيعون أخذ نصيب من الراحة، وكان الإعياء قد نال منهم كل منال.

في نفس تلك الليلة، كان الأسطول الجزائري يخترق الخليج من تاما نتفوس إلى الجهة المقابلة حيث الحصن، وأحاطت به السفن من الشرق ومن الغرب، وفطن الحراس الإسبان لذلك في آخر وقت، وأعلنوا النفير؛ لكن بعد فوات الأوان؛ حيث إن الرجال الذين حملهم الأسطول كانوا قد تمكنوا من النزول إلى أرض المعقل، وداهموا الحصن وتمكنوا منه.

ولقد قُتل من المسيحيين أثناء هذه العملية ٦٥ جنديًا، وكانت خسائر المسلمين -حسب التقرير الإسباني دائمًا- ١١ تركيًا و٣٥ عربيًا، وأسر المسلمون من الإسبان الذين كانوا بالحصن ٩٠ جنديًا، و٢٥ من النساء والأطفال.

أما قائد معقل الصخرة (مارتينودي فاركاس) الذي دافع دفاع الأبطال عن معقله، فقد كان من بين الأسرى، وقد عذبه الأتراك؛ من أجل أن يدلهم على المخبأ الذي أودع فيه مقدارًا من المال يساوي ٢٠٠٠ دوقة (نحو ٤٨٠٠٠ دينار جزائري) ثم جعلوه بعد ذلك رئيسًا على بقية الأسرى الذين كُلفوا ببناء منارة المسجد (مسجد خير الدين الذي أشرنا إليه في فصل سالف).

أما خير الدين، فقد أعلن بعد ذلك وأذاع في جماعات المسلمين أنه من كان يؤمن بالله ورسوله، ويريد الجنة في الدار الآخرة، فعليه أن ينضم إلى جيشه بكل سرعة، وهو يعتزم مهاجمة وهران والمرسى الكبير.

هذا ما جاء في التقرير الإسباني عن احتلال البنيون، أو معقل صخرة إصطفلة، وكان احتلاله نصرًا إسلاميًا من الطراز الأول؛ لأنه طهر بصفة كاملة ساحل الجزائر الأوسط بحيث حصر نقط الخطر الإسباني في الناحية الشرقية (بجاية وما إليها) وفي الناحية الغربية (وهران والمرسى الكبير وما إليها).

أما مدينة الجزائر العاصمة، فقد أزاح الجهاد المنتصر عن صدرها وقر ذلك الكابوس الناري، الذي خيم عليها عشرين سنة كاملة (٩١٦-٩٣٦هـ) (جانفي ١٥١٠- ٢٤مايز ١٥٢٩).

إن خير الدين لم يستعمل كل الأسرى -كما جاء في التقرير الإسباني- لبناء منارة المسجد؛ بل إن معظمهم استعمل لتحطيم المعقل، وتقويض ما بقي من أركانه؛ كي يقطع كل أمل للإسبان في الرجوع إليه، ومحاولة احتلاله من جديد، وتم ذلك العمل بعد أيام قليلة.

وما كادت تتم هذه العملية، حتى جاءت سفينة إسبانية ضخمة، تحمل على ظهرها جيشًا مؤلفًا من سبعمائة رجل مقاتل وعتادًا وزادًا؛ نجدة لمعقل الصخرة، حتى يستطيع أن يقابل هجوم المسلمين، ويدافع عن وجوده دفاع المستميت.

وكانت أبراج الحراسة الجزائرية تراقب بنظاراتها المقرِّبة قائد هذه السفينة، وهو يحاول أن «يكتشف» معقل الصخرة ولا يجد له أثرًا، فإذا بالسفن الجهادية الإسلامية تنقض على سفينته كالصقور، وتتمكن من أسرها والدخول بها إلى الجزائر غنيمة دسمة، بكل ما عليها ومَن عليها.

بناء مرسى الجزائر الجديد

يومئذ عمد خير الدين للقيام بعمل يدل على عبقرية معمارية ممتازة، فأمر جماعة الأسرى تحت إشراف معلمي البناء الجزائريين بنقل الصخور والحجارة التي تراكمت من أنقاض معقل الصخرة، وأرسل السفن إلى الجهة المقابلة نحو الخليج، عند مرفأ تاما نتفوس، فجاءته بصخور رومانية قديمة، واستعمل كل ذلك من أجل وصل البر بجزيرة إصطفلة؛ حيث كان حصن الصخرة، وما كاد يتم بناء ذلك الجسر العريض المتين الراسخ الأسس، والذي لا يزال يحمل إلى يومنا هذا اسم «جسر خير الدين» حتى أمر بأن توصل الجزر العشرون بعضها ببعض، ببناء دائري متين، ليست له إلا فتحة واحدة، وهكذا أنشأ مرسى مدينة الجزائر العتيق -ويدعى اليوم الجفنة- وأصبح مقرًّا للأسطول الجزائري، يحميه من العواصف التي تحملها رياح الغرب.

الانتصار الإسلامي العظيم بمعركة الباليار البحرية

ما كاد يتم هذا الانتصار، ويتخلص المسلمون نهائيًّا من قلعة الصخرة، حتى اندفعت سفنهم حالًا، تحمل الحرب إلى أرض إسبانيا، وتتبع أسطولها دون هوادة ولا رحمة.

كان الأسطول الجزائري يشمل ١٥ سفينة من نوع القالير GALERES، وقد ألقى الرعب والهلع في قلوب سكان السواحل الإسبانية؛ إذ أمعن فيهم حربًا وسبيًا وتخريبًا، إلى درجة أن السكان تركوا قراهم خاوية على عروشها، والتجئوا إلى داخل البلاد. أما المعذبون في الأرض من بقايا المسلمين الأندلسيين، فكانوا يبتهجون بهذا الانتقام الإلهي، ويرجون من وراء هذه الأعمال نصرًا وتمكينًا.

كان ذلك سنة (١٥٣٠) وقد تلقى قائد الأسطول الإسباني أمرًا إمبراطوريًّا بأن يتقدم لمهاجمة الأسطول الإسلامي، وأن يخطمه ويبعد عن الساحل الإسباني خطره، فاستعد الأميرال «أفريدريكوبور- توندو» أيما استعداد، وتقدم على رأس أسطول مؤلف من ١٢ سفينة حربية، يتتبع أسطول خير الدين السريع، إلى أن وجده بين جزيرتين من جزر الباليار الإسبانية التي تتوسط الحوض الغربي من البحر المتوسط بين شماله وجنوبه، وظن القائد الإسباني أن الوضع ملائم له، فهاجم الأسطول الجزائري بقوة وعنف، وألقى عليه وابلًا من قنابله وقذائفه.

لكن الأسطول الإسلامي الجزائري تلقى صدمة العدو بثبات وبصدق عزيمة جديرين بالإعجاب، ووجه خير الدين فورًا هجومًا معاكسًا، ركزه على سفينة القيادة الإسبانية، وانطلق نحوها كالقذيفة، فإذا بسفينته تحاذي سفينة الأميرال الإسباني، وهي أكثر منها قوة وأكبر منها حجمًا، وإذا بالمجاهدين الجزائرين يلقون بأنفسهم، والسيوف تلمع بأيديهم، ونيران الحمية والإيمان تتقد في صدورهم على السفينة الضخمة، فيستقرون على ظهرها ويقاتلون مَن

فيها قتال مَن يحب الموت؛ فيتغلبون ويأسرون السفينة، ويموت قائدها الأميرال الإسباني موت الأشراف والصناديد؛ دفاعًا عن سفينته، وعن شرفه، وعن إمبراطوره.

ثم يلتفت الأسطول الإسلامي الجزائري في هجومات خاطفة مركزة إلى بقية سفن الأسطول، فأمعن فيها أسرًا وتغريقًا وإحراقًا، واسودَّ اليوم من هول المعركة؛ فأسفرت عن تحطيم الأسطول الإسباني كله، ولم تنجُ من هذه المجزرة البحرية إلا سفينة واحدة فقط، وكانت فرحة المسلمين بهذا النصر الذي مكنهم من السيطرة على البحر، والرجوع بالغنائم والأسلاب، تعادل الكمد والغم والحزن الذي ساد البلاد الإسبانية خاصة، والبلاد المسيحية الأوربية عامة، واعتقد الفريقان أن لهذا اليوم ما بعده.

جزء من ملحمة عالمية

لقد طرأ على هذه المعارك البحرية عامل جديد لا يُستهان به، ألا وهو إسناد شرلكان الكبير قيادة أسطوله البحري الذي يعمل ضد الساحل الجزائري إلى بَحَّار ماهر ذاع صيته، ولمع اسمه لمعانًا غريبًا؛ هو الأميرال أندريا دوريا.

ودوريا سليل بيت من أكبر وأمجد بيوتات مدينة جنوة الإيطالية، وقد ورث عن أبيه وعن جده حب المغامرة البحرية، وعشق الأمواج، واقتحام الأخطار بين الشراعات المنشورة والزوابع الثائرة، وهدير المدافع ولمعان السيوف، ولم يكن يهمه شخص الذي يعمل تحت رايته، على شريطة أن يكون مسيحيًا مقاتلًا؛ بل يهمه أن يكون مصارعًا، وأن يحرز النصر على العدو، فعمل أولًا تحت لواء مدينة جنوة.

ثم اصطفاه فراسوا الأول ملك فرنسا وسلمه مقاليد الأسطول الفرنسي، إلى أن بدرت من الملك الفرنسي بادرة أساءته، فأرجع إليه سنة (١٥٢٩) القلادة التي

سلمها له رمزًا للقيادة، ودخل في خدمة الإمبراطور شرلكان، الذي كان يومئذ على رأس أقوى وأضخم دولة مسيحية في أوربا، تجمع تحت تاجه بلاد إسبانيا، وأغلب إيطاليا، والنمسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا، والقسم الأكبر من بلاد أمريكا الوسطى والجنوبية.

وقد وقف يومئذ وجهًا لوجه أمام الدولة العثمانية الإسلامية، التي اندفع سلاطينها الأولون في غمرة من أغرب غمرات التاريخ، يحتلون البلاد الأوربية الشرقية، ويسقطون دولها وممالكها دولة دولة ومملكة مملكة، إلى أن وقفوا على أبواب مدينة فيينا عاصمة النمسا.

وإذا كانت الدولة الجزائرية الفتية قد أعلنت بيعتها للسلطان سليم، ودخلت تحت راية الخلافة العثمانية مملكة مستقلة ممتازة، فقد تغيرت - لأمد وجيز- صبغة الحرب الجزائرية الإسبانية، وأصبحت جزءًا من هذا الصراع العظيم الذي شمل كامل بلاد البحر المتوسط وما حواليه؛ بل من هذه الملحمة الإسلامية المسيحية التي تولى كبرها من ناحية الشرق السلطان سليم، ثم ولده السلطان سليمان القانوني، وأمير البحر باي لرباي الجزائر خير الدين، وتولى كبرها من ناحية الغرب شرلكان الكبير وأمير البحر أندريا دوريا.

الانتصار الكبير في شرشال

وما كان الإسبانيون ليتركوا الساحل الجزائري -وقد أعلنوا أنه من ممتلكاتهم الخاصة- مرتعًا للدولة الجزائرية الحديثة، وما كانوا ليصبروا وهم أهل العزيمة والعناد على الهزيمة المنكرة التي لحقتهم في مدينة الجزائر سنة (١٥١٩) فصمموا على أن يضربوا هذه الدولة الإسلامية الجديدة ضربة حاسمة، وأن يجعلوا من هذا الساحل الذي يسيطرون على شرقه بواسطة مركز بجاية، ويسيطرون على غربه بواسطة مركز وهران والمرسى الكبير نقطة

انطلاق لتحقيق هدفهم الأكبر تحطيم الدولة الإسلامية، وإبعادها عن البحر المتوسط، وجعل المغرب العربي من ممتلكات إسبانيا (والبرتغال) وقرر الإمبراطور تعبئة حملة جديدة، والإرسال بها فورًا؛ لتحطيم قوة خير الدين، ووضع تلك الحملة تحت راية أندريا دوريا خصم خير الدين العنيد.

أخذ دوريا يجمع أسطوله في مدينة جنوة منذ سنة (١٥٣٠) ويستعد لهذه الحملة الخاطفة، وفي شهر جويلية من سنة (١٥٣١) غادر المرسى الإيطالي الكبير على رأس عمارة مؤلفة من عشرين سفينة، تحمل ألفًا وخمسمائة من المقاتلين الأشداء، وسار نحو الساحل الجزائري.

ولقد كان خير الدين مطلعًا على هذه الأعمال؛ لكنه لم يكن يعرف وجهة الأسطول المسيحي، وهل هو يريد مباغتة العاصمة الجزائرية، أم سيختار نقطة أخرى من الساحل الجزائري ميدانًا لمعركته؟ فجمع أسطوله، وكان يبلغ أربعين سفينة، وأعلن حالة الانتباه، وأخذ ينتظر الأنباء.

كانت مدينة شرشال يومئذ مركزًا من أكبر مراكز الدولة الجزائرية الحديثة، وقد حصنها الشهيد عروج فأحسن تحصينها، وأقام بها قلعة ذات شأن، واتخذت منها الدولة الجزائرية مصنعًا لعتاد الجيش الإسلامي ومؤنه، ومعملًا لصناعة الأخشاب -الكارستة- باللغة التركية، تعتمد على غابات الونشريس وغيرها من الغابات الكثيفة، التي كانت قبل أن يحرقها الجيش الفرنسي فيما بعد أثناء وقائع الاحتلال الرهيبة تمثل ثروة وطنية عارمة.

ثم إن شرشال بمركزها الطبيعي الممتاز، وهي تقع فيما بين مدينة الجزائر (١٢٠ كيلو مترًا غربيها) وبين مدينة وهران، تكون تحت الراية الإسبانية مصدر تهديد مباشر ومستمر لمدينة الجزائر، ومركز تجمع لما يستقبل من الأعمال.

فمدينة شرشال إذن كانت هدف المعركة.

وكان أندريا دوريا يعلم أن هذه المدينة لم يكن لها إلا رجال حاميتها للدفاع عنها، مع من ينظم إليهم من المجاهدين، وأنها لا تستطيع المقاومة الطويلة، ثم أيقن أنه إذا ما استقر بها، ووضع حاميته في قلعتها، فلن يستطيع خير الدين ولا أسطوله إبعاده عنها.

وأفاقت مدينة شرشال، فإذا بالأسطول الإسباني الضخم يسد أفقها، ويقترب منها، وفي سرعة محمودة تشاورت القيادة ورجال الشعب، وتقرر إخلاء البلدة حالا من السكان، والتجاء القوة المسلحة إلى القلعة، ثم الدفاع عنها، ومطاولة الإسبان بها ريثما يقدم المدد من الجزائر ومن داخل البلاد.

نزل الإسبان مدينة شرشال دون حادث يذكر، وتركزت الحامية الإسلامية ومن معها من المجاهدين في معقل القصبة، وأخذوا يراقبون أعمال العدو وينتظرون ساعة الانقضاض عليه.

بادر الإسبانيون بالبحث عمن بشرشال من أسرى النصارى، وكانوا نحو من ثمانمائة فوجدوا مخابئهم وأخرجوهم، فانضموا إلى الجيش المحتل، ودلوه على ديار كبار القوم، والبقاع التي يمكن أن تكون بها مخابئ الأموال ونفيس الذخائر، فانقسم الجيش الإسباني ومن معه من الأسرى، إلى عصابات نهب وسلب، وأخذوا يجوسون خلال الديار، وتجرأ بعضهم على الخروج إلى الحدائق والمزارع حول البلدة.

أيقنت القيادة الإسلامية ساعتئذ أنه يمكن التغلب على هذه الفرق إذا ما فصلوا بينها، ونازلوا كل فرقة منها على حدة، فلم يعبئوا بالفارق الكبير بين عددهم القليل وعدد عدوهم، وفتحوا أبواب القلعة، واندفعوا يجأرون بالتهليل والتكبير، وأحاطوا بالعدو من كل جانب، وحالوا بين فرقه وبين التجمع، كما حالوا بينهم وبين البحر، بينما كانت مدفعية القلعة تقذف سفن الأسطول الإسباني بنيرانها وقذائفها؛ فاختل نظام العدو، وسادت فرقه

الفوضى والاضطراب، وأصبحوا كالهشيم تذروه الرياح بين سيوف الجزائريين.

ما انتهى اليوم حتى كانت جثث ألف وأربعمائة من الإسبانيين تكسو أرض بلدة شرشال، بينما كان عدد الأسرى يبلغ الستمائة فما تمكن من الرجوع إلى سفن الأسطول إلا العدد اليسير؛ أي: نحو ٣٠٠ رجل من بقايا الجيش الإسباني، ومن الأسرى الذين تمكنوا من النجاة.

وتلكأ دوريا في الرحيل عن شرشال، وهو يحمل وقر هذه النكبة التي وقعت تحت سمعه وبصره؛ لكن جاءه النذير بأن أسطول الجزائر قد قدم مسرعًا تحت قيادة خير الدين؛ لينازل في شرشال خصمه العنيد.

لكن دوريا درس الموقف فوجده لغير صالحه، وأيقن أنه إذا ما حاول الثبات بأسطوله أمام خير الدين؛ فإن الدائرة ستدور عليه -لا محالة- نظرًا لقوة وعدد أسطول خير الدين من جهة، ونظرًا لما أصاب الإسبان من هلع وانهيار نتيجة المعركة الخاسرة من جهة أخرى؛ فبادر بمغادرة أرض المعركة ناجيًا بنفسه وبسفنه وبقايا رجاله إلى جهة الشمال.

وحل بالمدينة خير الدين ورجاله، فما كادوا يعرفون أنباء النصر وفرار سفن العدو حتى أشرعوا سفنهم واقتفوا أثر غريمهم، يريدون أن يصفوا معه حسابًا طويلًا؛ لكن سفن الإسبان كانت قد سابقت الريح، فلم يتمكن الأسطول الجزائري من اللحاق بها، والاشتباك معها في المعركة التي كان يريدها، ولم يتمكن إلا من سفينتين إسبانيتين كانتا محملتين عتادًا وأقواتًا؛ فأخذها بكل ما كانت تحمله.

وكان لهذا النصر العظيم الذي عزز وآزر النصر السابق حول مدينة الجزائر أثرُه الفعال داخل البلاد وخارجها:

أما في الداخل، فقد ازداد الشعب الجزائري إيمانًا بقوة هذه الدولة التي أقامها بإرادته، والتي أسلمها طوعًا قيادته، وأيقن أن نصر الله معقود برايتها، وأن إنقاذ الوطن سيكون على يدها؛ فازدادت هيبة الدولة بذلك وقوي نفوذها، وامتد سلطانها، وأثر كل ذلك على رجال الشعب في تلمسان وضواحيها وهم تحت سلطة بني زيان الاسمية؛ فأصبحوا ينتظرون الخلاص، وإنقاذ البلاد من احتلال الإسبان، ومن سيطرة نفوذهم، على يد هذه الدولة الجزائرية القوية، وعلى يد ملكها خير الدين بالذات، وستأتيك أنباؤهم بعد حين.

أما في الخارج، فقد كان لأنباء انكسار حملة أندريا دوريا في شرشال، واضطراره للفرار أمام أسطول خير الدين رجة عنيفة هزت الدوائر المسيحية، وأوقعتها في كمد وحيرة، وجعلتها تفكر تفكيرًا جديًّا في تجهيز حملة تضع فيها كل آمالها، وتجعلها حاسمة للقضاء على هذه القوة الناشئة الرهيبة، كما هز النصر الإسلامي دوائر إستانبول المتحفزة المرهفة، وجعلتها تفكر تفكيرًا جديًّا في منح خير الدين البطل فرصة أكبر وأوسع؛ لاستثمار خبرته وتمكينه من دحر أعداء الدولة وأعداء الإسلام بصفة أعم وأشمل.

إنقاذ جديد لمسلمي الأندلس

كان المسلمون في بقايا الأرض الأندلسية ما بين ساحل البحر وبين جبال البشرات، يقاسون يومئذ الأمرين من هوس الحكم الأسود الذي فرضه عليهم شرلكان وإمعانه الأهوج في تنصيرهم قلبًا لا قالبًا، وإطلاقه العِنَان لرجال الكنيسة ورجال الحكم ورجال محاكم التفتيش، يمعنون في حملة البطش والإرهاب، والتعذيب الفظيع، والقتل الذريع، بما لا يستطيع قلم وصفه.

وتعالت الأصوات من كل جهة تستغيث برجال الدولة الجزائرية وبخير الدين؛ من أجل إنقاذهم، والعبور بهم إلى بر الأمان.

وكان خير الدين قبل ذلك قد عمل في هذا الميدان عمل الأبطال، ولم يكن عندئذ إلا رئيس سفن من القراصنة المجاهدين، فكيف به الآن وهو على رأس دولة قوية مجاهدة، وعلى رأس أسطول ذاع صيته، واخترقت سمعته الآفاق؟

وما كان أسرع خير الدين لسماع أصوات الاستغاثة البائسة وتلبيتها؛ فسار يجوب البحار، على رأس عمارة بلغ عددها ٣٦ سفينة، حتى بلغ السواحل الإسبانية التي التجأ إليها المسلمون، ولم يجرؤ أسطول إسبانيا على صده أو محاولة الوقوف أمامه؛ فأخذ خير الدين يحمل على سفنه أكبر عدد ممكن من أولئك المستضعفين في الأرض، الفارين بدينهم وبكرامتهم؛ بل إنه كان يترك أكبر عدد من بحارته الجزائريين فوق أديم الأرض الإسبانية؛ لكي يحمل مكانهم عددًا من اللاجئين، حتى إذا ما أوصلهم إلى دار السلامة والأمن فوق ساحل الجزائر، عاد إلى إسبانيا ليأتي بغيرهم.

وهكذا مكنه الله من ناصية البحر؛ فكرر غدوه ورواحه بين الساحلين سبع مرات متوالية، وكان جملة من أنقذهم من رجال الأندلس ونسائهم يبلغ السبعين ألفًا، اشتد بهم ساعد المسلمين، إلى جانب إخوانهم الذين جاءوا من قبلهم مهاجرين، ونزلوا بمدينة الجزائر وسهل متيجة، وعمَّروا مدنًا مثل البليدة ودلس، وأدخلوا إلى البلاد بقايا حضارتهم العريقة وصناعتهم وفنونهم وخبراتهم المختلفة، مما سبق لنا ذكره.

المحيط بعد البحر المتوسط

أصبح اسم خير الدين اسمًا عالميًّا، وصار مالكًا لزمام الحوض الغربي من البحر المتوسط دون منازع، وآلى على نفسه تقويض سلطان الإسبان، ودحرهم برًّا وبحرًا؛ فاتخذ من جزائر هيار HYERES الإسبانية مقرًّا لأسطوله، ومن هناك أخذ يوالي غزواته البحرية المتصلة المتوالية؛ فيغنم من سفن العدو كل ما وصلت إليه يده.

ولقد جمع حوله يومئذ أفذاذًا من الأبطال الذين ستمر بنا أسماؤهم في ميدان الجهاد والعزة والشرف؛ من أمثال ابنه حسان خير الدين، وطورغود رايس، وصالح رايس (موحد الأرض الجزائرية فيما بعد) وسنان (منقذ تونس فيما بعد) وأضرابهم.

ولم يكتفوا يومئذ بالغزو والجهاد وتمزيق أوصال العدو بالبحر المتوسط؛ بل اجتازوا مضيق جبل الفتح (جبل طارق) وأطلقوا العنان لسفنهم الجزائرية تنقض كالبزاة على السفن الإسبانية والبرتغالية الراجعة من الأرض الأمريكية، تحمل ذهب الهنود الحمر المساكين وخيراتهم، وما ابتزته منهم أيدي الإثم والعدوان الاستعماري الأسود؛ فيغدو كل ذلك غنيمة بين يد المسلمين.

وخلال كل ذلك، كان البطل الشهم محمد حسن أغا (ويقولون عن أصله -والله أعلم- أنه كان عبدًا خصيًّا من جزيرة سردينيا، وأن خير الدين قد تولى تربيته وتعليمه وتثقيفه، حتى جعل من العبد الخصي رجل إدارة الدولة، ممثلًا لخير الدين ونائبًا عنه) قد أخذ يحصن مدينة الجزائر تحصينًا جعلها قلعة شامخة تتحدى الأعاصير، وينجز بناء مرسى الجزائر الذي باشره خير الدين منذ تحطيمه لقلعة صخرة الجزائر على رأس المقاومين الإسبان فيها.

بينما كان أهل المدينة العتيقة ورجال الأندلس -الذين حلوا بها قديمًا وحديثًا- يجددون بناء العاصمة، ويرفعون فيها جدران القصور والبيوت الفخمة ذات الفن المعماري البديع، ويكثرون من بناء المساجد الفخمة لله، فكان عدد المساجد يوم احتلال فرنسا لهذه العاصمة القاهرة يربو عن المائة والعشرين مسجدًا.

خير الدين قبودان باشا

اشتدت الحرب ضراوة بين الدولة العثمانية وبين أوربا التي تتزعمها الإمبراطورية الإسبانية، واشتدت من جراء ذلك الحرب البحرية التي كان يقودها من الجهة الأوربية أندريا دوريا -الجنوي السالف الذكر- الذي هزمته وأذلته مدينة شرشال، فلم يجد السلطان سليمان العظيم شخصية من بين رجال البحر المسلمين تستطيع أن تقف في وجه دوريا إلا شخصية خير الدين؛ فبادر بإسناد خطة «قبودان باشا» إليه، وهي رتبة أمير البحر العام لجميع الأسطول العثماني، مع بقائه على رأس الدولة الجزائرية برتبة باي لرباي كما أسلفنا.

ولبى خير الدين داعي الجهاد؛ فترك على رأس الدولة الجزائرية نائبه وممثله محمد حسن أغا -المذكور آنفًا- وسار توًّا نحو إستانبول على رأس جزء من الأسطول الجزائري يبلغ عشرين سفينة، وهنالك في دار الخلافة والسلطنة اقتبل سليمان أمير بحره المجاهد خير الدين، على خير ما يتلقى به خليفة مسلم قائدًا من أكبر قادة المسلمين، وسلمه زمام البحر، ومكنه من قيادة أسطول عثماني يشمل ثمانين سفينة زيادة عن سفن الأسطول الجزائري، واستعد لمنازلة الإسبان.

انتقال المعركة إلى تونس

كانت السلطنة الحفصية بتونس تعاني يومئذ سكرات الموت، وتكاد تلفظ النفس الأخير، وقد تولى أمرها السلطان الحسن بن محمد، الذي خلف أباه محمد بن الحسن على العرش الواهي المضعضع، ولكي تتصور انهيار الدولة تحت سلطة مثل هؤلاء الملوك، وهي بين قوتين رهيبتين: قوة الإسبان، وقوة العثمانيين، أسوق لك ما قاله الدمشقي في أخبار الدول:

«وكان محمد بن الحسن مشتغلًا باللهو والخمر، مهملًا لأمور الملك، وترك خمسة وأربعين ذكرًا خلفه منهم الحسن، فقتل إخوته، ولم ينجُ منهم إلا الرشيد وعبد المؤمن لغيبتهما، واشتغل (مثل أبيه) بالخمور والفجور، وجمع حوله أكثر من أربعمائة غلام أمرد . . . فمالت عنه الأمة إلى الرشيد . . . ولجأ الرشيد إلى خير الدين صاحب الجزائر، واستعان به عل حرب أخيه».

وما كاد السلطان سليمان يطلع على حقيقة الحالة بتونس، ويدرك أن هذه المدينة التي انحصر فيها ملك بني حفص؛ إنما هي نقطة ضعف في الجهاز الإسلامي الجديد، وأن العدو يوشك أن يستعملها مع طرابلس؛ لضرب هذا الجهاز ومحاولة تقويضه، حتى أمر خير الدين بالسير توًّا نحو تونس، وإبعاد هذه الأدران عنها.

جاء الأسطول العثماني -تحت قيادة خير الدين- في شهر أوت (١٥٣٣) فعرج على مدينة عنابة، وأخذ منها مددًا جاءه مع حسن أغا، ثم تقدم نحو بنزرت برًّا، وحلَّق الوادي بحرًا؛ فتمكن منهما دون عناد، ووقف على أسوار مدينة تونس؛ ففتحت له أبوابها، وتقبله أهلُها على الرحب والسعة.

أما السلطان الفاجر الحسن بن محمد، فقد سار ذليلًا حقيرًا يستعدي شرلكان ورجال المسيحية على بني قومه وحماة دينه.

وأما خير الدين، فقد أخذ يجمع حوله الأعراب الذين انغمسوا في حمأة الفوضى والفتن، قال ابن أبي الضياف: «ثم إن خير الدين كاتب الأعراب، وحذرهم سوء عاقبة الفتنة في الإسلام فأجابوه، على شرط أن يبقى في أيديهم ما أعطاه لهم بنو أبي حفص من الإقطاعات؛ فالتزم لهم بذلك، وشرط عليهم: أن يكون مشتاهم بالصحراء، وأن يكفوا اليد العادية، ثم بعث إلى نائبه بالجزائر في إرسال عسكر وأربعمائة فارس، ولما وصلوا وزعهم بالجهات؛ لما رأى من حال أمر المملكة». اهـ.

نكبة الإسلام الرهيبة بتونس

وصل سلطان النحس الحسن بن محمد إلى إسبانيا، واستنجد عاهلها؛ فوجد شرلكان الفرصة السانحة التي تمكنه من ضرب خير الدين في غير ميدانه، ومهاجمته تحت ستار إرجاع السلطنة إلى سلطان ذهب طريد العدوان.

أخذ شرلكان يستعد استعدادًا عظيمًا، ويريد أن يضرب الإسلام ويضرب الدول العثمانية، ويضرب خير الدين بالذات، ضرباتٍ لا تقوم لهم بعدها في الأرض الإفريقية قائمة.

أتم استعداده على أكمل وجه، وأبحر من مدينة برشلونة يوم (٣١ مايو ١٥٣٥) يجر وراءه -كما يقول المؤرخون الإفرنج- حملة صليبية حقيقية مؤلفة من ٣٠ ألفًا من المقاتلين الأشداء، يحملهم ٥٠٠ شراع، وكانوا أمام أطلال قرطاجنة وسواحل مدينة تونس يوم (١٦ جوان ١٥٣٥).

لم تكن القوة التي بين يدي خير الدين بكافية لرد هذه الحملة العظيمة؛ إذ لم يكن الجيش الإسلامي يشمل إلا نحو سبعة آلاف من الأتراك الذين جاء بهم خير الدين، ونحو خمسة آلاف من التونسيين، وتخلف الأعراب عن الجهاد؛ فكانت النتيجة الحتمية أن استولى شرلكان على معقل «حلق الوادي» وهو مرسى مدينة تونس، واستعد لمهاجمة العاصمة الحفصية يتقدم صفوفه بصفة رمزية نذل الأنذال الحسن بن محمد، الذي كان قد أبرم مع صاحبه شرلكان اتفاقًا رهيبًا، وتقدم الجيش الغازي نحو مدينة تونس.

في نفس تلك الساعة، وقع بتونس الحدث الذي عجل بالانهيار، والذي كان سبب الكارثة العظمى؛ ذلك هو انتقاض عشرة آلاف أسير نصراني كانوا محبوسين بالعاصمة الحفصية، فعندما خلت المدينة من الجيش الذي تقدم لقتال العدو، وجد هلاء الأسرى فرصتهم السانحة؛ فخرجوا، ولموا

شعثهم، ثم هاجموا معقل القصبة الذي لم يكن به من الحرس إلا القليل؛ فتمكنوا منه، وأداروا مدافعه صوب جيش المسلمين الذي وقع بين نارين، وأوصدوا أبواب المدينة، وقاموا عليها حراسًا؛ ليمنعوا خير الدين وجيشه من الرجوع إليها والتحصن لمقاومة شرلكان إلى أن تأتي النجدات.

تقول بعض كتب تاريخ الإفرنج: إن خير الدين قد شعر بذلك الخطر قبل مغادرته مدينة تونس، وأنه قرر إعدام هؤلاء الأسرى؛ لكن إسراع شرلكان بشن هجومه لم يترك لخير الدين وقتًا لتنفيذ قراره.

قال ابن أبي الضياف: «فخرج لهم خير الدين في اثني عشر ألفًا من صناديد المقاومين، وصدقوا العزيمة في القتال؛ فاستولى على البرج المذكور (برج العيون) ثم رجع بمن معه إلى المدينة فاضطرب عليه أهلها».

بعضهم تمسك بطاعته وهي طاعة الله تعالى، وبعضهم جنح لطاعة سلطانهم أبي حفص، فجمع أعيان الناس وتكلم معهم؛ فاختلفوا عليه، فتركهم وخرج بمن معه إلى الحرب، وأبلى خير الدين في ذلك اليوم البلاء الحسن، وحرص على الموت؛ فوهبت له الحياة، ثم انهزم إلى القصبة (وكانت وقعة الأسرى).

دخل السلطان الحسن بجيش الصبنيول إلى تونس، ولقيهم الأعراب مستشرين؛ فقاتلهم الصبنيول، ودخل السلطان القصبة، ونادى بالأمان -وفي باطنه ضده- والدول إذا حان انقراض أوانها، وأشرفت على ما قدر من أجل سلطانها؛ تهاونت بأمانها، وجعلته وسيلة لغدرها، وطغيانها، ولا إيمان لمن لا أمان له...

وذلك أن الصبنيول اشترط على السلطان الحسن **استباحة البلاد ثلاثة أيام**، والتزم (السلطان) له بذلك، ولا علم لأحد من أهلها بذلك، فبينما الناس في سكون عافية، واغترار بخلب ذلك الأمان، وأسواقهم مفتوحة؛ إذ

هجم عليهم عسكر الصبنيول على حين غفلة، وامتدت أيديهم لاغتيال النفوس ونهب الأموال، وفر إلى زغوان من أمكنته الفرصة بنفسه وبأهله.

يقال: في هذه الواقعة مات الثلث من أهل تونس، ونجا الثلث، وأسر الثلث، والمأسور يفتدى إن كان له مال، وبلغت الفدية ألف دينار، وتغيرت البلاد وطمست أعلامها، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين وتسعمائة (٩٤١هـ-١٥٣٥م).

يقول التاريخ الفرنجي: إن عدد القتلى من سكان تونس خلال الثلاثة الأيام الرهيبة قد بلغ سبعين ألفًا[١]، وإن كل مدخرات تونس وخيراتها ونفائسها وأموالها قد ذهبت ضحية الغدر والخيانة والنهب والسلب والقتل الذريع، ولا أعرف في تاريخنا الإسلامي مذبحة بلغت هذا الحد من الهول والفظاعة الوحشية على يد عدو غادر، إلا مذبحة القدس الشريف يوم دخله الجيش الصليبي أول مرة، أو مذبحة بغداد يوم دخله شر خلق الله هولاكو ووحوش التتار والمغول.

ومن العجب أن بعض مؤرخي الفرنج يريد أن يشكك في نسبة هذه الأعمال الإجرامية الفظيعة إلى شرلكان، أو يحاول أن يخفف من وطأتها؛ لكن وثيقة بخزانة سيمانكاس تدين الإمبراطور وتصمه بهذا العار إلى الأبد.

ففي رسالته الموجهة يوم (١٣ جويلية ١٥٣٥) إلى حاكم مدينة بجاية يقول الإمبراطور في رقاعة غريبة ما تعريبه بالنص:

«ولكن بما أن سكان مدينة تونس لم يقابلوا ملكهم قبولًا حسنًا -كما يستحق وكما هو واجبهم- فقد رأينا أن نأمر بنهب المدينة انتقامًا منهم على سوء سلوكهم».

---

(١) هنري قارو Histoire Generale de l'Algerie.

وبعد أن استتب الأمر على هذه الصفة للحسن بن محمد فوق أشلاء أمته، وجثث الرجال والنساء والأطفال من بني قومه، عقد مع الإسبان معاهدة تقتضي:

١- اعتراف الدولة الحفصية بتبعيتها للدولة الإسبانية.

٢- ملكية الإسبان ملكية مطلقة لمرسى حلق الوادي وقرطاجنة ومدينة عنابة ومدينة المهدية.

٣- التزام السلطان بألا يدخل بلاده أحد من مهاجري الأندلس -يهوديًا كان أو مسلمًا- وقفل شرلكان بأسطوله ومعظم جيشه إلى صقلية.

والذي يدل على أن هذه المعركة كانت قاسية عنيفة هو طول أمدها؛ فإن الإسبان قد نزلوا الساحل التونسي يوم ١٦ جوان، واحتلوا حلق الوادي يوم ١٤ جويلية؛ أي: بعد نحو الشهر تقريبًا، واحتلوا تونس ونكبوها يوم ٢١ جويلية؛ أي: أن المعركة الغير المكافئة دامت ٣٦ يومًا.

الصفحة الاخيرة من المعاهدة التي امليت على السلطان الحسن ، تحمل امضاءه وامضاء الامبراطور -

رجوع خير الدين لمملكته

عاد خير الدين إلى بلاده الجزائرية، بعد أن ذاق الأمرين من الجوع والظمأ والحر، واستقر حينًا بمدينة قسنطينة، وطارت البشائر إلى كل جهات الجزائر برجوعه، وأخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الإسبان في الميادين التي يختارها بنفسه، وقد كانت ضراوة الإسبان قد بلغت حدها الأقصى، وعقد شرلكان العزم على تقويض أركان هذه الدولة الجزائرية الفتية مهما كلفه الأمر؛ حتى يفسح فيها المجال لاستعمار إسبانيا وانتشار المسيحية عَنْوَةً واقتدارًا، وإن ربك لبالمرصاد.

احتلال الإسبان مرسى هنين

كانت مدينة هنين المرسى الطبيعي لعاصمة تلمسان، وثغرها المبتسم على البحر؛ نظرًا لقرب المسافة بينهما، وتقع هنين داخل جون حسن، في منتصف الطريق بين بني صاف وجامع الغزوات، وبينها وبين تلمسان على خط مستقيم ٤٥ كيلو مترًا.

وعندما احتل الإسبان مدينة وهران سنة (١٥٠٩) أرسل ملك تلمسان مددًا لمرسى هنين وحصنها، واستعد للدفاع عنها؛ نظرًا لما لها من أهمية اقتصادية؛ إذ كانت مركز المبادلات التجارية مع أوربا، وخاصة مع بلاد البندقية.

في سنة (١٥٣١) خلال شهر أوت، تلقى القائد الإسباني دون ألفارو دوبازان don Alvaro de Bazan أمر الإمبراطور شرلكان بمهاجمة المدينة بقوة واحتلالها؛ إذ كان الإمبراطور يريد تطويق مملكة الجزائر الجديدة من شرقها ومن غربها، بسياج من الحصار متين، ويفرض سلطانه

بعنف على بني حفص بتونس، وعلى بني زيان بتلمسان، الذين كانوا آخذين -كبني حفص- في الانقراض والاضمحلال.

وقف الأسطول الإسباني المؤلَّف من ١١ سفينة حربية وناقلتين أمام المرسى الذي لم تكن به قوة كافية للدفاع؛ فأنزل بها الجيش الذي جاء به من إسبانيا، والفرقة التي أخذها من وهران، وهي مؤلفة من ٢٥٠ جنديًّا، واحتل المدينة وتحصن بها، بعد دفاع قام به رجال الشعب الذين لم تكن لهم قيادة، ولم يكن بين أيديهم سلاح، ثم أخذ قصبة البلاد وغنم ما كان بها.

كتب الراهب أسقف طليطلة -صاحب السلطان المطلق بإسبانيا- للإمبراطور عن هذه المدينة:

«لقد أكد لنا الذين يعرفون البلاد أن لمدينة هنين ومرساها أهمية بالغة، فهنين بلدة محصنة ذات أسوار منيعة ولها قلعة عظيمة، ولا تبعد عن تلمسان إلا ١٢ مرحلة، وهذا أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحركة التجارية التي يمكن أن نتداولها مع العرب، كما أن امتلاكنا لمدينة هنين يساعدنا -بالأخص- على إبقاء ملك تلمسان تحت قبضة أيدينا، فهو لن يفكر في مهاجمتها عندما يرانا قد تمكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة وتحصنا بها».

وفي نفس الرسالة يصف الكردينال للإمبراطور كيفية احتلال الإسبان للمدينة يوم (٨ سبتمبر ١٥٣١) فيقول:

«امتطى دون ألفارو وجيشه متن ١١ سفينة حربية بصحبة سفينتين ناقلتين، وأخذ معه مؤنًا وعتادًا تكفيه لمدة شهرين، وخرج من مالقة في شهر أوت، عاقدًا العزم على أن يقوم بعمل خالص لوجه ربنا، مفيد لجلالة إمبراطورنا...

ثم حل بمدينة وهران، فأخذ منها حسب التعليمات التي تلقاها مني ٢٥٠ جنديًّا، وغادرها يوم عيد سان برتلمي ٢٤ أوت، وأناخ على مدينة هنين التي هي من ممتلكات ملك الإسبان، فدخل أسطول جلالتكم مرساها، ومكنه الله منها؛ فاحتل المدينة والقصبة...

ولم تكن المدينة تنتظر هذا الهجوم، ولم تكن بها كل حاميتها، فسهل علينا الأمر من جراء ذلك، ولم تكلفنا العملية كثيرًا؛ حيث إن عدد القتلى من رجالنا لم يتجاوز الأربعين. أما عدد الجرحى فمائة رجل». وثائق سيمانكاس.

أما الدكتور لبرني -ممثل الإمبراطور بوهران- فيكتب لسلطانه يوم (٢ سبتمبر ١٥٣١):

«أعتقد أن احتلالنا لمرسى هنين إنما هو حادث عظيم جدًّا؛ ذلك أننا باستقرارنا وبتمكننا من هذه البلدة، نستطيع أن نعاقب ملك تلمسان، ونجبره على القيام بتعهداته...

وذلك أن الطريق من هنين إلى تلمسان أقرب وأضمن من طريق وهران والمرسى الكبير، ونستطيع من هذه البلدة -دون كبير عناء- أن ندخل مملكة تلمسان، وأن نأخذ من مولاي عبد الله أحسن ممتلكاته».

ويستدل من عدد قتلى الإسبان وعدد جرحاهم، على أن المعركة التي دافع فيها الشعب عن نفسه وعن مدينته كانت معركة حامية، وقد ترك الإسبان بقلعة المدينة سبعمائة مقاتل و١٥ مدفعًا.

لكن الشعب الأبيّ -حوالي المدينة- قد حاصرهم، ولم يترك لهم فرصة التوغل داخل البلاد، ولا هو سمح لهم بالتزود؛ فساءت حالتهم، ولم يتلقوا

المدد بانتظام من إسبانيا، فلم يستطيعوا البقاء بها أكثر من ثلاثة أعوام، واضطروا لإخلائها بصفة تامة خلال شهر ديسمبر (١٥٣٤) بعد أن جعلوا عاليها سافلها، وأمعنوا في تخريبها وتقويض معالمها ومساجدها، وأفسدوا مرساها، وصارت أثرًا بعد عين، بعد أن ذاع صيتها وطارت شهرتها خلال خمسمائة سنة، وذُكرت في تقاويم البلدان الشهيرة.

احتلال الإسبان لمدينة عنابة

ما كاد خير الدين يغادر مدينة عنابة بعد انسحابه الاضطراري من تونس سنة (١٥٣٥) ويعود للجزائر من أجل مواصلة الاستعداد للجهاد وحمل الحرب إلى بلد العدو، حتى بادر الإسبان بمهاجمة عنابة (بونة) التي كانت تابعة اسمًا لسلطة بني حفص بتونس، والتي اعترف السلطان النذل الحسن بن محمد بالتنازل عنها لسادته الإسبان.

هاجم الإسبان إذن المدينة في شهر أوت سنة (١٥٣٥) وقد حفظت لنا الوثائق الإسبانية -التي ذكرنا فيما سلف مصدرها- تقريرًا ضافيًا عن هذا الاحتلال وكيفيته ونتائجه، أرسل به قائد الحملة المركيز دي مونديخار إلى الإمبراطور بتاريخ (٢٩ أوت ١٥٣٥) وهذا تعريبه:

«كان البحر هادئًا بينما كانت الرياح معارضة، لم يصل الأسطول إلا بعد خمسة أيام إلى عنابة، وكان دون الفارودي يازان قد سبقنا إليها مع الناقلات، وما كاد يصل حتى تلقى بعض ضربات المدافع، مما يدل على أن السكان قد صمموا على الدفاع...

وأنزلنا الجند، ثم شكلنا كتيبتين، وأرسلنا بهما لمهاجمة القصر، ولم يكن العرب ينتظرون هجومنا عليه؛ فبادروا بالتخلي عنه، ولم نفعل ذلك اليوم شيئًا آخر، فاكتفينا باحتلال القصبة والمدينة.

أما النقالات -التي منعتها من قبل مدافع العدو من الاقتراب- فإنها قد دخلت المرسى، وخلال الثلاثة أيام الموالية اشتغلنا بإنزال المدفعية والذخيرة والمؤن إلى البر، وبعد إمعان النظر في وضع المدينة والقلعة، تأكد لديَّ أنه يجب علينا أن نحتلهما معًا مؤقتًا؛ لأن الجند الذي يحتل القلعة لا يتمكن بسهولة أن ينجد وأن يمون إذا كان العرب يحتلون المدينة؛ بل يجب ألا نترك العرب يدخلون المدينة إلا بعد التصريح لهم بذلك، فإذا دخلوها لا يجب أن يجدوها خالية (منا) لأنهم في هذه الحالة يُخشى أن يعودوا إليها، أو أن عربًا آخرين يدخلونها، ويتصرفون فيها بصفة تجعلها غير صالحة للسكنى...

ولقد تركت ٢٠٠ جندي بالقصر، و٦٠٠ جندي بالمدينة...

وإذا ما رأينا السماح للعرب بسكنى المدينة من جديد، فعلينا أن نقيم حصنًا فوق المرتفع الذي يعلو المرسى؛ لكي نستطيع نجدة جند القصر». اهـ.

وإننا لندرك من هذا التقرير أن العرب قد خرجوا من المدينة عندما انتهوا من عملية الدفاع، واستقروا حولها محاصرين للإسبان، منتظرين وصول المدد؛ من أجل مباشرة عملية الإنقاذ.

مهاجمة الباليار

كان لزامًا على خير الدين، وقد استقر بصفة مؤقتة بمدينة الجزائر؛ نظرًا لالتزاماته التي تفرضها عليه خطته الجديدة -كقائد عام للأسطول الإسلامي العثماني- أن يشعر شرلكان بوجوده، وأن يرد على ضربة تونس بضربة مثلها، وأن يتحدى الإسبان في عقر دارهم، وأن يعلن للعالم أجمع بأن هذه السلطة الجديدة التي أقامتها إرادة الشعب بمدينة الجزائر، إنما قامت لكي تعيش،

ولكي تنمو، ولكن تجاهد وتنتصر، وأنه إذا أصابتها نكسة اليوم؛ فإنها ستعود في الغد القريب رافعة أعلامها، فارضة إرادتها، متحدية أعداءها.

واختار خير الدين ورجاله هدفًا لضربتهم الانتقامية مدينة ماهون -عاصمة جزائر الباليار- وجزيرة مينورقة -بصفة أخص- فسار على رأس عمارة ضخمة، يتحدى أندريا دوريا، وكامل القوى الإسبانية، وانقض على مدينة ماهون فاحتلها، وكان يستطيع أن يفعل بها ما فعل الإسبان بتونس؛ لكنه تورع عن ذلك، وعف عن سفك الدماء دون موجب شرعي؛ فاكتفى بالاستحواذ على كل ما في المدينة من خيرات، وأرزاق وأموال.

ثم احتل مينورقة بأكملها، وعف فيها كذلك عن سفك الدماء، إنما أمعن في جمع ما بها من ثروات وخيرات وعاد بها -رافعًا لواء التحدي- إلى مدينة الجزائر غنيمة اقتسمها المجاهدون فيما بينهم بعد تسليم الخمس لبيت مال المسلمين، واختار من أهل ماهون ومينورقة ستة آلاف نسمة، جاء بهم إلى جانب الغنائم المادية الهائلة أسرى وسبايا إلى مدينة الجزائر.

ولقد أقضت أنباء هذه النكبة التي حلت بجزائر الباليار الإسبانية مضاجع الإمبراطور الذي اعتقد باطلًا أن خير الدين لن تقوم له بعد حادثة تونس قائمة، كما اهتزت لها كل أوساط البلاد المسيحية في أوربا جزعًا وهلعًا، ومحت بصفة عملية آثار انتصار شرلكان بتونس، وسط لجة من الدماء البريئة، وعلم الناس كافة -في الشرق وفي الغرب- أن لهذا التحديث الجريء ما وراءه، وأن هذه الصفحة من القتال المرير بين الصليبية الإسبانية الأوربية وبين الدفاع الإسلامي لم تنتهِ بعد.

عودة خير الدين لإستانبول، ونيابة حسن أغا

بعد تلك الغزوة الانتقامية الناجحة، جاء الأمر من السلطان سليمان لخير الدين بالسفر حالًا لإستانبول؛ كي يقود الأسطول العثماني في حربه العنيفة ضد القوى المسيحية المتجمعة حول الإمبراطور الإسباني، والتي يقودها أندريا دوريا الخصم العنيد الجسور، فغادر خير الدين مدينة الجزائر للمرة الثانية، تاركًا على رأس الدولة من جديد رفيقه المقدام محمد حسن أغا -رجل الإدارة ورجل الحرب- وذلك في شهر ديسمبر (١٥٣٥).

الفصل السادس

تلاعب الإسبان بعشر تلمسان

أواخر بني زيان

لنترك مؤقتا محمد حسن أغا يحكم مملكة الجزائر باسم صاحبها خير الدين، ونائبا عنه، ينظم الدولة، ويمهد الأمور، ويجمع الكلمة ويستعد للدفاع عن الأرض الإسلامية التي وضعتها ثقة سيده خير الدين على رأسها.

ولنترك خير الدين، وأندريا دوريا، ومن وراءهما السلطان سليمان وشرلكان يتصادمون برًّا وبحرًا، في صراع هائل دام أعوامًا، سنجمل الحديث عنه بعد حين، ولنلقِ نظرة فاحصة على ما كان يجري بتلمسان وحوالي تلمسان من مأساة فاجعة.

والحق أن حديث الانهيار الزياني كان حديثا عجيبًا، فهذه الدولة التي تصدعت وحدتها وتناثر قبل احتلال إسبانيا لوهران عقدها- قد ازدادت بعد هذا الاحتلال رسوبًا في مهاوي الاضمحلال، وما كانت سنواتها الأخيرة - ٤٥ عاما منذ احتلال وهران- إلا سلسلة من الدسائس والفتن والاضطراب، تنازعها عوامل عدة متباينة، متناقضة لم تجد الدولة من بينها مخرجًا.

العامل الأول: هو حب البقاء، وهو عامل أساسي جوهري، لم يكن وليد رغبة أصحاب العرش أو الطامعين فيه أو المتقاتلين عليه فحسب، بل كان أيضًا -وإلى حد بعيد- رغبة الشعب التلمساني وما إليه من أطراف هذه المملكة المتقلصة، فكان من الواضح الجلي أن الشعب هنالك يريد بقاء الدولة الزيانية، وكان يرى وجوب المحافظة على تلمسان العظيمة التالدة عاصمة للدولة وسط كل الأعاصير، بل رغم كل الأعاصير.

والعامل الثاني: هو نشأة الدولة الجزائرية، كوحدة من وحدات الإمبراطورية الإسلامية العثمانية الضخمة، فهذه الدولة الجديدة تريد -بلا ريب ولا شك- بسط سلطانها على كامل الأرض المغربية، وعلى الأخص فوق أديم هذه الرقعة

التي تدعى بالأرض الجزائرية، والتي تمتد ما بين دولتي بني حفص وبني مرين الوطاسيين بالمغرب الأقصى.

والعامل الثالث: هو المطامع الإسبانية الجامحة التي رأت في تدهور الدولة الزيانية وسيلة تمكنها من تحقيق صليبيتها، وبسط سلطانها على كامل البلاد، وكان احتلالها لوهران وتحصنها بها أول تنفيذ لهذه الغاية، وكان رضوخ سلطان تلمسان -أبي حمو الثالث- لها واحتماؤه بها إمعانا في ذلك التنفيذ، إلى أن اعتقدت أن مملكة بني زيان قد أصبحت جزءًا من ممتلكات الإمبراطور، وأن على إسبانيا وحدها تقع مسئولية إبعاد خطر الدولة الجزائرية عنها، وإنك إذا ما رجعت إلى صفحة سالفة كتبناها عن تدخل عروج رحمه الله في أمر تلمسان واستشهاده حولها- رأيت صورة صادقة لهذا الاشتباك الغريب في المصالح والأهواء المختلفة.

زد على كل ذلك هذا التكالب على العرش، واحتماء كل دعي من أدعيائه بطائفة من الشعب، أو طائفة من أصحاب المنافع والغايات والإقطاعيين، وقد ربط بعض الملوك ومدعو الملك حبلهم بإسبانيا، لا حبًّا، بل خوفًا وطمعًا، وربط بعضهم الآخر حبلهم بالجزائريين العثمانيين لمقابلة ذلك التيار ومقاومته فأصبح التاريخ الزياني من جراء كل ذلك مهزلة سخيفة لا يكاد الإنسان يفقه من كنهها شيئًا، إذ طالما انقلب حليف العثمانيين حليفا لإسبانيا، وطالما انقلب حليف الإسبان حليفا للجزائريين وهكذا دواليك.

وأن الذي يهمنا في خلال بحثنا هذا ليس هو تفصيل احتضار الدولة الزيانية، إنما الذي يهمنا -بصفة خاصة- هو تغلغل السيطرة الإسبانية من خلال هذه الأحداث المؤلمة داخل البلاد، وتلاعبها بمقدّراتها، وإرغامها على الخضوع لمعاهدات واتفاقات كلها لصالح الإسبان، وكلها لفائدة استعمارهم وبقائه.

قلنا فيما سلف: إن أبي حمو الثالث الذي رجع مع الجيش الإسباني، واحتل تلمسان سنة (١٥١٨/ ٩٦٤هـ) قد مات في نفس تلك السنة، وكان خلفاؤه على الملك إلى سنة (١٥٤٢) كما يلي:

- أبو محمد عبد الله الثاني (١٥١٨) حاول سياسة حياد بين إسبانيا والجزائر فلم يفلح -حاول التقرب من الإسبان- ثار عليه أخوه أبو سرحان المسعود، واستعان بخير الدين ودولة الجزائر فأعانته.

- أبو سرحان المسعود (١٥١٩) احتل تلمسان بإعانة الجزائريين، وأطرد أخاه عبد الله الثاني -بايع السلطان سليم العثماني- ثم نكث البيعة وأعلن نقض ارتباطه بالجزائر.

- أبو محمد عبد الله الثاني (ثانيا) ذهب إلى الجزائر يستنجد خير الدين ضد أخيه، ويلتزم بالبيعة والوفاء، فأنجده خير الدين وتحزب معه الشعب ورجع إلى تلمسان، واستمر على الوفاء -مختارا تارة ومضطرًا أخرى- إلى أن مات ملكًا رغم الاضطراب.

- محمد السابع (١٥٢٤) ابن السابق، انصاع لدسائس الإسبان واحتمى بهم، هزمه خير الدين وتمكن منه، ثم عفا عنه، فأخلص له إلى حين، واستعد للجهاد نكص على عقبيه، وقبل التبعية الإسبانية، بقي مذبذبا، ذهب لوهران ملتجأ لإسبانيا بعد خلعه.

- أبو زيان أحمد الثالث (١٥٤٢) خلع أخاه السابق وأظهر استعدادًا كبيرًا لمحاربة الإسبان وجمع كلمة المسلمين، استجابة لرغبة الشعب، وسآتيك بأنبائه عند رجوعنا لذكر الحروب الجزائرية الإسبانية، ولكي نستطيع فهم هذه الحوادث ونفقه طريقة التلاعب الإسباني وما بذلوه من دسائس- رأينا وجوب الاستعانة بالوثائق الإسبانية الرسمية التي ذكرنا جانبًا منها فيما سبق، والتي سنورد بهذه المناسبة جزءًا منها غير قليل، يتعلق بهذه الفترة بالذات، أيام ثار

الأمير عبد الله بإيعاز وبإعانة -جده لأمه- عبد الرحمن بن رضوان أحد شيوخ قبيلة بني عامر على أخيه الملك محمد السابع، والإسبان من وراء الاثنين، يدسون ويحرشون ويساومون، فلندرس إذن هذا «الملف» الذي اخترناه من بين مئات الوثائق.

من رسالة كتبها محمد السابع لحاكم وهران الإسباني

لقد وصلتنا رسالة سيادتكم وفهمنا محتواها: أن خادمنا الأمين يعقوب بن اليسار (اليهودي) سيقدم عليكم موفدًا من قبلنا، وسيقص عليكم حالتنا ههنا، وأرجوكم أن تصدقوا كل ما يقوله لكم على لساننا.

١٥/ ١/ ١٥٣٠

ويقول التقرير الإسباني المقدم من والي وهران للإمبراطور عن مقابلة المبعوث المذكور:

«وعندما سمع ابن اليسار جوابنا (عما تقدم به من العروض) قال: باسم الملك الذي بعث به، بما أن بيترو دي قودوا وبارافان والدكتور لابريخا (الوفد الإسباني) لا يستطيعون أن يفعلوا أكثر مما ذكروه، فأنا لا أستطيع أن أذكر لكم بقية الأمور التي كلفني ملكي بعرضها عليكم، ولهذا فسأعود إليه لعرض الأمر عليه، ثم أتصرف حسبما أتلقاه من تعليماته» اهـ.

وإننا لنفهم من هذه الرسالة أن محمدًا السابع كان يفاوض الإسبان مفاوضة حازمة، وأن سفيره ابن اليسار اليهودي قد قام بواجب السفارة حق القيام، وقد كان الملك محمد -في نفس ذلك الوقت- يساوم الجزائريين، ويعتمد على إعانتهم، لكي يتمكن من دحر أخيه الأمير عبد الله وجده عبد الرحمن بن رضوان القائم بدعوته، ولكي يطمئن من ناحية الإسبان، هذا ما تُحدثنا عنه -بإطناب وبيان جلي- الوثيقة التالية:

تقرير إسباني عن الحالة في تلمسان

قدم التقرير الحاكم بيدرو دي لودي من وهران لنيافة الأسقف، بتاريخ ٢٠ أوت (١٥٣١).

«هذا هو تقرير أقدمه لكم عما يجري الآن بمملكة تلمسان.

إن الملك محمدًا وأخاه عبد الله يتقاتلان، وقد أرسل مولاي عبد الله مزواره صحبة جماعة من الرجال لقتال أخيه محمد، ووقعت معركة يقال: إن النصر فيها كان لجماعة عبد الله لكن جاء قائد بني راشد على رأس خمسمائة من رجاله فاضطر أخو الملك إلى الانسحاب.

وجميع عرب المملكة قائمون اليوم: بعضهم مع الملك وبعضهم مع الأمير عبد الله، وأنا أظن أن كل العرب في هذه الناحية الشرقية من المملكة سينضمون إلى الأمير عبد الله إذا ما حل بهذه الساحة، ونرجو أن يقع هذا الأمر على هذا المنوال؛ لأن أخ الملك إذا أصبح حليفنا فإننا سنمسك بجميع خيوط اللعب ويستطيع صاحب الجلالة (إمبراطور إسبانيا) أن يفيد من الموقف حسب إرادته...

وأنا أعتقد أن ذلك ممكن إذا ما أخذنا بهذه الطريقة: جلالة الإمبراطور يؤيد عبد الله ويعترف به ملكا، ويسلم إليه قسما مهما من الأراضي التي سنفتكها من أيدي الترك...

لكننا مع ذلك لا نقوض سلطان ملك تلمسان، ونترك له ما بيده من الأرض، وبهذه الطريقة سيعلن الاثنان سرورهما ورضاهما، وسيكونان معا عونا لنا على محاربة بربروس (خير الدين).

إن ملك تلمسان (مولاي محمد) قد دعا إليه أحد اليهود من هنا (وهران) ولا ريب أنه سيتخذه واسطة للدخول في مفاوضات معنا، أما العرب الذين

أرسلهم لنا الأمير محمد فقد اعتبروا دعوة هذا اليهودي لتلمسان كفضيحة وبذلت كل جهدي لتهدئة خواطرهم.

وهذا ما يحدث غالبا لمن يتعامل مع الشقين في وقت واحد».

وجاء في رسالة من الدكتور لبريخا كوريجبدور وهران إلى الإمبراطور بتاريخ ٢ سبتمبر (١٥٣١) ما نصه عن الموضوع:

«إنني باذل قصارى جهدي لإقناع عرب المملكة (تلمسان) بأن ينضموا إلينا، وأنا معتقد أن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يمكننا بها معاقبة ملك تلمسان على عدم وفائه بعهوده، وعلى عدم سماحه للعرب بأن يبيعونا المؤن كما كانوا يفعلون من قبل...

ولقد دخلت في مفاوضات مع الأمير (عبد الله) مع حرصي على أن يعرف الملك (مولاي محمد) ذلك بصفة رسمية، حتى يعلم مدة الخسارة التي تلحقه من جراء إقلاعه عن خدمة جلالتكم.

ومنذ خمسة عشر يوما طلب إلي الملك أن أرسل له شخصا يستطيع التفاوض معه، فبعثت إليه باثنين من اليهود الحذرين الأذكياء، وهما أهم من وجدت هنا.

ففي أول الأمر سارت الأمور سيرا حسنا، وسُر الملك بعودة المفاوضات، لكن ساءت الأمور عندما حل بتلمسان مندوب من قبل التركي العظيم (السلطان العثماني) فمولاي محمد أظهر عندئذ من الاعتزاز بمجيء الرسول التركي ما جعله لا يرفض فقط اقتبال المندوبين اليهوديين، بل أنه أسلمهما للقتل.

وفي هذه الأثناء أعلمني الأمير عبد الله بأنه سيحل قريبا بوهران صحبة نسائه وأولاده والشيوخ المنضمين تحت لوائه، وأعلمني كذلك أنه سيسلم

إلي الرهائن التي طلبناها منه، وأنا في الحقيقة محتار من هذا الأمر؛ لأنني كنت أخبرت الأمير بأنه إذا ما وضع عائلته عندنا في مدينة وهران وحذا الشيوخ المنتمون إليه حذوه- فإن جلالتكم سوف تسلم له العون من مال ورجال؛ لكي يحتل مدينة تلمسان، على شريطة أن يكون أكثر وفاءً من أخيه في تنفيذ شروط الاتفاقية التي ستعقد معه».

رسالة بليغة جدا من عبد الرحمن بن رضوان للحاكم الإسباني

نذكر هذه الرسالة بنصها البدوي العامي، ونذكر بين قوسين تفسير بعض كلماتها، وقد بلغ ابن رضوان أن حاكم وهران قد سافر أو سيسافر لإسبانيا وكان يعتمد على إعانته كل الاعتماد، لنصر حفيده الأمير عبد الله، ضد أخيه الملك محمد السابع:

«الحمد لله وحده

إلى الفارس الجيد الحسين (بفتح الحاء) دون مرتيني ادي القربطي (القرطبي) اعزه الله، بعد سلمنا عليك نعرفك جنا (جاءنا) كتابك مع اتيميز والمجال الدي (الذي) علموا تجار الله بعيشك وفرحنا بيه وسرنا وعملنا العون ونحنا مجين سع (الساعة) واحمد ولدنا مرط (مرض) مرط كبير وصل حتى الموت وشفاه الله وهذي الأيام جنا خبر عليكم أنك مشيت لذلك البر (لذلك البر أي لإسبانيا) وتوقفنا ولادرنا اش نعملوا حتى أصحابنا العرب قلو (قالوا لنا) أنهم خرج لسحر (خرجوا للصحراء) انطربنا للرأس (انضربنا للرأس) وكتبنا لك بلعزم (بالعزم) تعرفنا بلخبر إن كان أنت مازلت في وهران عرفنا، وإن أنت عزم (عازم) على المشي لذلك البر عرفنا والسلام على دون فونتشك وعرفنا كيف هو دون الهونس أي جاكش خبر عليه.

وكتب عبد الرحمن بن رضوان لطف الله وسلام.

كتب يوم الجمع السادس شهر ربيع لول عام ٣٥»

وتفيدنا هذه الرسالة:

أولا: أن ابن رضوان وحفيده كانا يأمران فعلا بأوامر حاكم وهران، ويعملان لحسابه.

ثانيا: أن الجند الذي كان يعمل معهما، كان من المرتزقة الأعراب الرحل الذين يقطنون الصحراء.

تقرير من حاكم هنين للإمبراطور عن حالة تلمسان

٢٦ أفريل (١٥٣٤)

كتبت منذ أيام لجلالتكم أعلمكم أنني اتصلت من جواسيسنا بأخبار عن مولاي محمد ملك تلمسان.

«أنه قد استعرض يوم ٢٠ من هذا الشهر جيشا أعده لقتالنا، وهذا الجيش مستعد للسفر حيثما يريد.

وأخبرني أحد هؤلاء الجواسيس أن الملك قد اتصل برسول من الجزائر يحمل إليه رسالة تخبره بموت بربروس (خير الدين) فحزن الملك لذلك حزنا شديدا، وألقى بنفسه فوق الأرض نائحا منتحبا، ثم نهض وقال للشيوخ الذين كانوا حوله: بما أن «والدي» بربروس قد مات فلم يبقَ لنا من عمل نعمله، وطلب إليهم أن يعودوا إلى بلادهم ريثما يتحمل من الأتراك على العون والتأييد من جديد، فلما سمع الشيوخ كلامه خرجوا من عنده وكلهم يقول فيه سوءا.

ويقول بعض الجواسيس الآخرين: أنه جاءت بعد ذلك رسالة من الجزائر تؤكد أن بربروس لم يمت، إنما هو في مكان مجهول.

ويقول البعض: إن الملك مولاي محمد لا يريد أن يحارب النصارى؛ لأنه رجل ليس له قلب، وإنه منغمس في الملذات إلى العنق، وإنه لا يفكر إلا في ابتزاز المال من أية جهة كانت.

ويقولون: إنه جاء من مدينة الجزائر بزوجتين دخل بهما في هذه المدينة وجاء كذلك بزوجتين أخذهما بمدينة فاس عندما كان محاربا لأبيه، وبعدما تولى ملكا بتلمسان تزوج ست عشرة مرة ولا يفعل شيئا إلا الحفلات والأفراح، ويلح في طلب المال من أهل المدينة ومن العرب واليهود».

هزيمة الإسبان وابن رضوان أمام ملك تلمسان

تقرير الكونت دي الكوديت حاكم وهران للإمبراطور

١٢ جويلية (١٥٣٥)

«يظهر لي أن العرب الذين كان ابن رضوان يثق بهم ثقة مطلقة والذين ترك لديهم عدته إلى ساعة الحاجة إليها- لم يكتفوا بخيانته وقلب ظهر المجن له فقط، بل إنهم قد انضموا لأعدائه، أما العرب الذين بقوا مخلصين له فإنهم قد لاقوا عنتا كبيرا من بقية العرب الذين جمعوا مائتي رمح من قبائل بني راشد.

وعندما رأى ابن رضوان أنه لم يتصل به أحد ممن كان يعول عليهم في تلمسان- فقد تشاور في الأمر مع المسيحيين، وعزم على الانسحاب مع الملك (أي حفيده الأمير المطالب بالعرش) لكن العرب المناوئين له قد اقتفوا خطواته، وكي يسهل عليه الانسحاب والنجاة من أعدائه اضطر لترك المدافع الأربعة التي جاءه بها المسيحيون إلى هنا بعد أن عطلوها.

لكن ما راعهم أثناء الانسحاب إلا قائد بني راشد يهاجمهم على رأس فرسانه هجومًا عنيفًا، ففقد المسيحيون والعرب ثباتهم أمام هذا الهجوم، ففروا لا يلوون على شيء من أجل النجاة بأنفسهم».

خلاصة: ففريق منهم وصل إلى وهران وفريق أسر، أما فريق الفونسو مرتيتز فقد التجأ إلى تيفيدة وعزم على الدفاع حتى الموت.

لكن آخر الأنباء التي وصلتني تقول: إن هذا الفريق قد استسلم، وأن قائد بني راشد قد ساقه أسيرا إلى تلمسان.

«إن مولاي محمد ملك تلمسان لا يجهل أنه قد نجا من خطر عظيم، لكن لا يجب أن ينسى أن أخاه لا يزال حرا طليقا، وهذا ما يجعله مضطرا للتعامل معنا بصدق وأمانة، وذلك ما لم يفعله أبدا حتى اليوم.

إنه قد انتصر علينا لكنه رأى ماذا تستطيع القلة من النصارى أن تفعله أثناء المعركة، فكيف بها إن هي أصبحت كثرة.

ولقد أخبرني ابن رضوان بأنه سيسير إلى الصحراء لكي يأتي بما له هناك من المال، وبما أنه يخشى أن يهاجمه العرب أثناء سفره، ومتى علموا بهزيمته- فإنه قد سافر مسرعا وفي عزمه الرجوع إلى هنا، ثم المسير إلى جلالتكم ليستمد منكم العون والتأييد.

إنه لا يفكر إلا في أمر واحد ألا وهو الانتقام وأخذ الثأر من مولاي محمد، ولقد طلب مني الإذن بالقدوم إلى وهران، وكذلك طلب بقية الشيوخ الذين بقوا على ولائهم له، وقد منحتهم هذا الإذن.

وبما أنه من المهم جدا بالنسبة لنا أن يبقى العرب دوما مختلفين فقد حرضت ابن رضوان والشيوخ الذين معه على مواصلة القتال...

وعلى كل فإنني مواصل الجهود لكي يتفاقم أمر الخلاف بين الطرفين».

رسالة المنصور بن بوغني قائد بني راشد

بعد المعركة السالفة الذكر كتب قائد بني راشد الذي هزم الإسبان وأعراب ابن رضوان- رسالة لابن المزوار في وهران، تدل على تخوفه من سوء العاقبة وأنه أراد أن يخفف وطأة الهزيمة على الكونت دي الكوديت، ويوهمه بإمكان المفاوضة والاتفاق معه.

وهذا تعريب الرسالة:

إلى السيد عبد الله بن المزوار، من أخيه **المنصور بن بوغانم**[١]

إنك قد علمت بدون شك ما وقع بإرادة الله بيننا وبين ابن رضوان ومن معه من العرب، فإننا قد غلبناه وانهزم هاربا تحت جنح الظلام، ولقد كنا نود لو أن هذه الحادثة لم تقع، ولكن هي مشيئة الله وقدره، وأن ابن رضوان الذي خدع جماعة وهران (الإسبان) هو المسئول الوحيد عن هذه الحادثة.

أود بغاية الشوق أن أجتمع بكم وبودي أن أعرف كيف تسير أموركم هناك (في وهران) وهل الكونت (حاكم وهران) مستعد للخير باسم الله، وهل هو موتور مما حدث، وهل يمكن التفاهم معه، والمثل يقول: إن خير الصلح هو ما يقع بعد المعركة. ونسأل الله أن يكتب خير السلام.

حول الأسرى المسيحيين بتلمسان

رسالة الكونت دي الكوديت إلى محمد ملك تلمسان:

«جاءني رسالة سيادتكم صحبة كونز الوادي القنطرة تعلمونني فيها بأنكم لا تزالون عند حسن استعدادكم، وإنكم سترسلون لنا بالأسرى المسيحيين (حسب المعاهدة السابقة)...

فلتعلم سيادتكم أنني لا أزال عند حسن استعدادي، وأنني لا أكن أية نية خُلف لتعهداتي، وأعتقد أنه لا موجب لمفاوضات جديدة، فسيادتكم أعطتنا كلمة الشرف بأن ترجع لنا الأسرى المسيحيين.

(وبعد هذا تهديد علني في حالة ما إذا لم ينفذ العهد)

---

(١) الروايات والمراسلات الرسمية الإسبانية كلها تدعوه: ابن بوغاني.

جواب الملك محمد عن الرسالة السالفة...

«أرجوكم أن تطيلوا أجل العشرين يوما بعض الشيء لكي نرجع لكم المسيحيين، فهذه قضية ليست من السهولة بالدرجة التي تعتقدونها، ولا أستطيع إرجاع الأسرى إلا بعد أن أضمن لهم سلامة الوصول إلى وهران، وقد طلبت إلى القائد المنصور أن يقدم علي في تلمسان وأن يأتي معه بفريق من الفرسان لكي يصحبوا الأسرى إلى وهران».

رسالة ملك تلمسان للإمبراطور ومعاهدة التبعية

«يقول ناقل هذه الرسائل من الإسبانية إلى الفرنسية مسيو ابريموداي:

إن الهزيمة التي لحقت بخير الدين في تونس، واحتلال الإسبان لعاصمة بني حفص هو الذي جعلنا نفهم مغزى هذه الرسالة والسبب في إرسالها، فقد ظن ملك تلمسان بأن أمر الأتراك انتهى، وأنه لا يستطيع وحده الوقوف في وجه الإسبان فأراد أن يرجع حسن العلاقات معهم بعد الحادثة المذكورة آنفا مع ابن رضوان، وسنرى في هذه الرسالة أنه لم ينس المطالبة بشيء من ممتلكات حلفائه الأقدمين -رجال الجزائر- في حالة ما إذا تمكن شرلكان من احتلال مدن الجزائر، ودلس وشرشال، ومع هذه الرسالة نص المعاهدة التي عرضها، ممهورة بختمه:

تلمسان ٥ سبتمبر (١٥٣٥)

«تعلمون جلالتكم أنني كاتبتكم مرارا قبل هذا، ألتمس منكم قبولي ضمن حلفائكم وخدامكم، وإنني لم أتلقى منكم أي جواب، والله يعلم شدة رغبتي في أن أكون من أصدقاء جلالتكم.

وفي هذه الأثناء حاربني ابن رضوان وجاء يهاجمني ومعه جماعة من المسيحيين، فكنت مضطرا للدفاع عن نفسي، ولقد كلفني هذا كثيرا، لكن لم

أكن أستطيع غير ذلك، ولا أعتقد أن جلالتكم تعتب على إذا أنا دافعت عن مملكتي وعن نفسي، وإني أرسل لجلالتكم معاهدة أمضيتها بنفسي وختمتها بختمي، وألتمس من جلالتكم المصادقة عليها.

خلاصة المعاهدة

١- أن يعترف بي الأمبراطور صديقا حليفا، ولا ينصر علي عدوا.

٢- أتعهد بأن أدفع أربعة آلاف دوبلا DOBLAS سنويا، وفي نفس الآجال التي تعهد بها والدي من قبلي، على شريطة أن مداخيل باب تلمسان تكون لي، كما كانت لوالدي (المكوس على البضائع التي تدخل وهران أو تخرج منها، لتلمسان أو من تلمسان).

٣- إذا زادت مداخيل باب تلمسان عن الأربعة آلاف دوبلا (التي هي ما تعهد الملك بدفعه) فإن الزائد يكون لي خاصة.

٤- مقابل ذلك أتعهد بأن أرجع للكونت دي الكوديت السبعين أسيرا مسيحيا الذي هم الآن بتلمسان، ويوجد من بينهم خمسة أسرى عند عائلات تلمسانية، لها خمسة أسرى بوهران، فالرجاء الأمر بالمبادلة.

٥- لا يقبل في مدينة وهران ابن رضوان ولا حفيده ولا أحد من رجاله، فإن دخلوا وهران فرجائي إلى جلالتكم أن يبقوا بها أسرى.

٦- إذا ما فتح جلالة الإمبراطور مدن الجزائر وشرشال وتنس فله أن يبقي تحت سلطاته المدن المذكورة وغيرها من المراسي التي يود جلالته الاحتفاظ بها، أما داخلية البلاد المذكورة فيجب أن ترجع لي؛ لأنها كانت من ممتلكات آبائي وأجدادي.

٧- يكون هذا الصلح لمدة عشرة أعوام.

ولم يقبل الكونت دي الكوديت هذا النص، فأرسل للملك مشروعا إسبانيا استثمر فيه فزع الملك محمد ورعبه، وهذه خلاصة المعاهدة الجديدة التي فرضها الإسبان:

١- أنا مولاي محمد ملك تلمسان: أتعهد وألتزم بمحض اختياري بأن أكون الصديق والحليف والتابع لجلالة الإمبراطور، إذا ما رضي أن يشملني بحمايته، وألتزم بتنفيذ الشروط الآتية:

٢- أكون صديقا لمن يصادق جلالته، وعدوا لمن يعاديه، ولا أسمح مطلقا لأعدائه -عربا أو مسيحيين- باجتياز مملكتي.

٣- إذا جاء جلالة الإمبراطور بنفسه إلى مملكة تلمسان لمحاربة بقية الملوك في البلاد فأنا ألتزم السير معه واضعا تحت تصرفه كل القوى التي لدي.

٤- ومقابل ذلك يتعهد صاحب الجلالة بإعانتي ضد من يحاربني أو يريد بي سوءا، وذلك بواسطة الجيوش التي لجلالته بمراكز الحدود.

٥- وإذا جاء جلالته لمملكة تلمسان بنفسه أو أرسل جيشا لقتال أعدائه فأنا أتعهد بأن أمده بالأقوات وحيوانات الجر بأرخص الأثمان.

٦- أتعهد بأن أُرجع لوهران في مدة ثمانية أيام كل الأسرى المسيحيين الموجودين بتلمسان، وهم على أحسن حال من الصحة والسلامة.

٧- لا أقبل في بلادي لا بربروس ولا أي أحد من قراصنة الأتراك... وإذا حل بربروس أو جماعته ببلادي فأنا أبذل جهدي لأسرهم وتسليمهم لحاكم وهران.

٨- أمنع كل العرب وزناتة في مملكتي من إلحاق أي ضرر بمدينتي وهران والمرسى الكبير أو سكانهما من العرب واليهود وكذلك عرب الجبال (الخاضعين لإسبانيا).

٩- أعطي أوامري لكي تمر كل تجارة تلمسان بمدينة وهران، دون غيرها من المراسي إلا إذا سمح الإمبراطور بذلك.

١٠- يسمح لي جلالة الإمبراطور بأن أضع في وهران عددا من المتصرفين لكي يتولوا قبض المكوس الراجعة لي من هذه التجارة، يستثنى من ذلك ما يرد لتموين مدينة وهران، ما عدا التمور التي هي بضاعة.

١١- العرب واليهود سكان مدينة تلمسان ومملكتها يستطيعون القدوم إلى وهران وغيرها من ممتلكات جلالة الإمبراطور، ويستطيعون سكناها بصفة مسالمة دون أي اعتراض، على شريطة إحرازهم على الإذن بذلك من حاكم وهران، ولسكان وهران والمرسى الكبير مثل هذا الحق في سكنى تلمسان ومدن مملكتها، على شريطة إحراز الإذن مني.

لا يمكن إجبار أحد رعايا مملكتي -عربا أو يهودا- على اعتناق الدين المسيحي، ويسمح لهم بأن يعيشوا أحرارا حسب قوانينهم، وأن تحترم ديارهم وممتلكاتهم، وأن يباشروا أعمالهم التجارية مع كل ممالك ورعايا جلالة الإمبراطور.

١٣- مدة هذه المعاهدة خمسة أعوام، ابتداء من يوم إعلانها.

١٤- ألتزم بأن أدفع لجلالة الإمبراطور -الذي أعترف بتبعتي له- مقدار أربعة آلاف دوبلة كل سنة، من الذهب الصافي، معيار ١٧ قيراطا، وموزونة وزنا دقيقا.

١٥- يضع الإمبراطور تحت تصرفي عند الحاجة -كما فعل مع والدي- خمسمائة رجل لمشاركتي في الدفاع، وأتعهد بأن أدفع مرتباتهم منذ اليوم الذي يغادرون فيه مملكة قشتالة.

١٦- يحدث كثيرا أن عربا ويهودًا من سكان تلمسان يقدمون إلى وهران لشراء بضاعة ويعطون بدلها رقاعا تدفع عند رجوعهم لوهران لكنهم لا يعودون ولا يدفعون، فأنا ألتزم بدفع قيمة تلك الرقاع، ويجب إرغام كل عربي أو يهودي من سكان وهران على تسديد دينه لتجار تلمسان.

١٧- إذا حل ابن رضوان أو حفيده مولاي عبد الله بوهران فإن حاكم وهران يبقيهم بها لا يخرجون منها طوال مدة الصلح.

١٨- سأعلن عن هذه المعاهدة في كل مملكتي للجميع. ولأعدائي الذين ثاروا ضدي لفائدة أخي مولاي عبد الله ولجده (لأمه) ابن رضوان. فمن قبلها وأطاعها فهو مني ويدخل في خدمتي، ومن عصاها وخالفها فهو عدو لا يجب أن يقبل في مدينة وهران.

١٩- هذه المعاهدة أمضيتها بنفسي وختمتها بختمي ووضعت عليها طابع الدولة» اهـ.

رسالة الكوديت لابن رضوان بعد توقيع المعاهدة

اضطر الملك محمد -وهو تحت تهديد الإسبان الذين يقودون حركة ابن رضوان وحفيده ضد مملكة تلمسان- أن يمضي تلك المعاهدة، وقد يئس من تلقي أي نجدة.

وهكذا نفض الإسبان يدهم من يد ابن رضوان وحفيده (مؤقتا) وكتب دي الكوديت إلى ابن رضوان الرسالة التالية:

وهران أكتوبر (١٥٣٥)

إلى الكلي الاحترام الفارس المغوار السيد عبد الرحمن بن رضوان، لقد وصلتني رسالتكم لكنني أنتظركم شخصيا/ وأنا آسف جدا لعدم تمكنكم من الحضور حسب وعدكم. إن مولاي محمد قد عرض علينا عروضا كبيرة لخدمتنا لم نكن نستطيع إلا قبولها، ولم يكن جلالة الملك يستطيع أن يرفضه

كحليف؛ لهذا أرجوك أن تقدم إلى هنا وأن تأتي معك بمولاي عبد الله، فلا يمكن أن تجدا ملجأ أكثر منا وأضمن لكما، إنكما تستطيعان البقاء هنا دون أن يلحق الضرر أحدكما أو أحد الذين يقدمون معكما.

إن سلامتكما مرهونة بسرعة القدوم وكل تأخير يكون فيه الخطر، وبادر بإيقاف القتال، وأنا أعرف أن العرب الذين هم معك يخونونك، وإنك تجتاز خطرا عظيما بوجودك فيهم.

الكونت دي الكوديت يستحث الإمبراطور على احتلال تلمسان

تلكأ ملك تلمسان في تنفيذ المعاهدة، ولا ريب أن الشعب فد هاج وماج عندما علم بتفاصيلها، وكان خير الدين قد رجع للجزائر سالما، وقام بعمليته الانتقامية الباهرة ضد الإسبان في جزائر البايا، كما أسلفنا.

وتقدم إلى الملك محمد يستحثه على عدم تمكين الإسبان من رقاب المسلمين.

أمام كل ذلك راجع الكونت دي الكوديت موقفه، وكتب إلى الإمبراطور الرسالة التالية:

وهران (١٥٣٦)

أرجوكم يا سيادة أنطونيو فيلاليا نطو أن تبلغوا جلالة الإمبراطور عني ما يلي:

لقد بذلت قصارى جهدي لاستدراج الملك مولاي عبد الله لوهران، (أخ وعدو الملك محمد الذي تعاقد مع الإسبان).

والذي أرى الآن وجوب عمله هو المبادرة بتنصيب مولاي عبد الله (حفيد ابن رضوان) على عرش تلمسان، وهذا أمر ذو أهمية كبرى في خدمة جلالتكم؛

إننا بهذه الصفة نكون على يقين من أننا سنستعيد المصاريف التي تكبدناها في حملتنا الأولى، ونأمن كذلك شر امتلاك بربروس لمملكة تلمسان.

إنني أطلب من جلالتكم إمدادي بخمسة عشر ألف رجل، وثلاثمائة من الحرس الخاص لكي أبدأ حالا بالزحف على تلمسان، وأعتقد أن مدة أربعة أشهر كافية من أجل احتلال المملكة كلها، أما مولاي عبد الله فهو مستعد لقبول كل الشروط التي سنفرضها عليه.

وإذا أراد جلالة الإمبراطور الاحتفاظ بمدينة تلمسان لنفسه فإنني مستعد للدفاع عنها مدة سنة كاملة بواسطة أربعة آلاف رجل و٤٠٠ رمح على أن يدفع جلالة الإمبراطور جرايات الرجال كما يفعل في وهران ويعطينا المدفعية والذخيرة الكافية، أما بقية الأمور فأنا الكفيل بها.

أما إذا كانت جلالتكم غير مستعدة الآن لعمل شيء لفائدة مولاي عبد الله فأنا أرجو أن تمنحوه شيئا يكفيه للقيام بأوده، مثلما فعلتم من قبل مع غيره من أمراء وملوك العرب.

ومن اللائق أن تراسل جلالتكم الملك عبد الله والملكة أمه، وجده، للتعبير عن سروركم من أجل حضورهم واستقرارهم بوهران، وأن جلالتكم تعتبرهم من أخلص خدامها.

وإذا كنت ألح إلحاحا شديدا من أجل الإسراع بالحملة ضد تلمسان فذلك لأنني أعتقد الوقت مناسبا جدا .

فبربروس غائب اليوم عن الجزائر، ولا يدري أحد متى هو راجع، وفي المغرب الأقصى عادت الحرب بين ملك فاس (من بني وطاس) وبين الشريف (رأس دولة السعديين) وكلاهما لا يستطيع من جراء ذلك القيام لنجدة تلمسان.

الشروط والتعهدات التي يلتزم بها مولاي عبد الله إذا أعانته جلالتكم على استرجاع المملكة لمجرد احتلال مدينة تلمسان: يتعهد الملك عبد الله بأن يسدد خلال عشرة أيام كامل مصاريف الحملة.

ويدفع لنا حالا جزية عشرة آلاف دوبلة، ويتعهد بدفعها سلفا كل سنة.

وإذا ما عزمنا مهاجمة مدينة الجزائر فإنه يضع تحت تصرفنا ثلاثة آلف رجل، ينضمون للجيش المسيحي، يقودهم جده ابن رضوان، وإعانة لنا على هذه الحملة فإنه يسلم لنا في وهران ١٥٠٠٠[1] فنيق من القمح و ٥٠٠٠ فنيق من الشعير، و١٥٠٠ رأس من البقر.

كذلك هو يسلم لنا رهائن تشمل خمسين من أكبر شيوخ العرب ومن أقاربه وأحبابه.

وإذا ما أرادت جلالتكم بناء معاقل وحصون في مدينتي أرزيو وأرشقوم، وذلك ما يجعل مملكة تلمسان دوما تحت رحمتكم، فالملك عبد الله يلتزم بأن يقدم لنا مواد البناء اللازمة.

وإذا أرادت جلالتكم ضمانا وتعهدات الملك عبد الله أن يحتل الجيش الإسباني «المشور» الذي هو أهم حصون تلمسان- فإن الملك عبد الله يسمح لحاكم وهران بأن يضع في المشور أي عدد شاء من الجند الإسباني، ولا يسمح لأي عربي أن يدخل المشور مع الملك، إلا إذا سمح له القائد الإسباني بذلك، ثم إن الملك وابن رضوان يتعهدان بإمداد هذه الحامية بالمشور بكل ما هي محتاجة إليه من دقيق وقمح وشعير، كامل المدة التي تريد جلالتكم إبقاء الحامية بالمشور.

---

(١) الفنيق الإسباني يزن ٤٦,٥ كيلو.

وهكذا أسلم عبد الله تحت تأثير جده للأم ابن رضوان- كل شيء للإسبان مقابل العرش!

لكن الإمبراطور الذي كان منغمسا إلى الذقن في حروبه الأوربية التي سنأتي بكلمة عن تطوراتها- لم يأذن بمهاجمة تلمسان، ولا بإعلان ملكية عبد الله وبقي متعاملا مع الملك محمد بصفة مرنة، إلى سنة (١٥٤٢) حيث خلعه أخوه أبو زيان أحمد الثالث، وانتصب مكانه ملكا بتلمسان، وعزم عزما صادقا على جمع كلمة المسلمين ومحاربة الإسبان -كما سيمر بنا مفصلا- وانسحب الملك محمد إلى وهران مستعديا الإسبان على أخيه.

هذا نموذج فقط من الوثائق الإسبانية عن هذه الفترة الحرجة من تاريخ الجزائر، وتاريخ آخر دولة بني زيان، وإنها لتعطينا أصدق صورة عن دسائس ذلك العصر وفتنه واضطرابه.

المسلمون المتعاونون مع العدو

نرى لزاما علينا قبل أن نختم صفحة الوثائق الإسبانية المتعلقة بهذه الفترة الكدرة من تاريخنا- أن نذكر شيئا عن المسلمين الذين وضعوا أنفسهم تحت سلطة الإسبان، سواء كانوا من قبيلة بني عامر أو من غيرهما، وعن النفسية التي دخلوا بها في خدمة الإسبان.

هؤلاء قوم يوجد مثلهم في كل زمان وفي كل مكان، من أصحاب الغايات، وطلاب المال السحت، والمتصيدين في كل ماء عكر، ولقد رأينا أمثالهم في أوربا عندما دوختها جزمة المحتل النازي، كما رأينا أمثالهم ببلادنا الجزائرية، وهي تخوض معركة الحياة أو الموت أثناء الثورة العظمى، وانضموا «الحركية» من حثالات الرجال وأشباهم، في عدد عظيم تحت لواء المستعمر، يقاتلون إخوتهم وبني عمومتهم وبني خئولتهم، مقابل المطامع المادية والمال الحرام.

فهذه رسالة كتبها خونة الرعيل الأول، أجداد الحركية الأقدمون- للأمبراطور شركان، يطلبون فيها المكأفاة عن أعمالهم، وخياناتهم لله ورسوله ولصالح المؤمنين، وهي تمثل أقذر ما يمكن أن تنطوي عليه النفس البشرية من سقوط وانحطاط ورذيلة، وتصور حالة «المتعاونين» النفسية في كل زمان وفي كل مكان:

الحمد لله وحده ولا غالب إلا الله

السلطان العلي القوى المرفع الكمل الحفل الأجل المشكور الأشنع (الأشهر) الأرفع طيعنا ومولانا السنيور السلطان النبرادور (الإمبراطور) نصره الله وعلى قدره وشنو على جميع سلاطن الدنيا، من خدمك المقبلين الأرض تحت أقدمكم السعدة وصفنكم (عبيدكم) الشيخ محمد بن يوسف السودي

وعبيد الجزائر السودي، بعد السلام على مقمك العلى، مولانا نصركم الله نحن جينا لهذا البلد متع وهران لعند خدمكم الفيد بدرن دغودوي وخدمكم الفرنجدر، مرسلين من عند خوتنا الشيخ حميد الُعبد وكافة ولاد محمد وكافة ولد بوبكر ونحن في خيل وقوم كثير قد الالفين خيل صححه ونحنا خدمكم وجندكم للغرب ولشرق.

ونحب بالله أن نحنا برسم الجزائر وغيرها بالله تعل وكذلك على خدمتكم الله ينصرك المربطين أولاد سي أبو عبد الله سيدي محمد أفغول وسيدي عمار ونحن كولنا على خدمتك نموت ونحن صبقنا (سبقنا) الناس الكول لخدمتك ونحب من الله ومنك الله ينصرك تأمر على أن نوكافاو وقت ان نحنا خدمك نوصاح كما يعرفك القيد والقاظي متع وهران والشيخ ما ردهم ما كتب لمقامكم العلي إلا نحنا العرب ما عندنا من يستور وجهنا في الكتبة ولا زايد إلا نرغبو لله سبحنه أن يكبل تحت طعتك وأقدمك بقية الدنيا والسلام على مقمك العلي من وهران أول يومن من شهر العيد المبرك. اهـ.

ولعنة الله إلى الأبد على الخونة الأنذال الساقطين ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

الفصل السابع

غزوة شرلكان الكبرى ضد عاصمة الجزائر وانكساره الشنيع

ملابسات الغزوة

هذه الغزوة الكبرى التي أرادها شرلكان حاسمة عارمة، قاصمة لقهر الدولة الجزائرية الفتية ترتبط بأسباب عدة.

منها: إرادة شرلكان ورجال إسبانيا الانتقام للشرف الإسباني الذي نال منه انكسارهم أمام الجزائر سنة (١٥١٩) أي منال.

ومنها: الفوز السياسي العظيم الذي نالوه بتونس الشرق الجزائري، وتمكنهم من إخضاع بقايا الدولة الحفصية لسلطانهم المباشر.

ومنها: الفوز السياسي العظيم الذي نالوه بتلمسان والغرب الجزائري، عندما أخضعوا سلطان بني زيان وربطوه بمعاهدة خضوع وتبعية واستسلام.

فإخضاعهم وإذلالهم لسلطنتي تونس وتلمسان جعلهم يستطيعون التفرغ لمحاربة مملكة الجزائر، ويطمعون في تحطيمها وشيكا، وربما أملوا أن يكون الجانبان الخاضعان في الشرق وفي الغرب عونا لهما على بلوغ تلك الغاية الصليبية التي لا شك في صليبيتها.

ومنها: وجود خير الدين بربروس بالشرق، وتفرغه لقيادة الأسطول الإسلامي العثماني وما أحدثه ذلك -حسب ظنهم- من فراغ عظيم في الدولة الجزائرية، واعتقادهم أن غياب خير الدين قد صدع الوحدة وحطم القوة المعنوية التي كانت مستمدة من شخصيته القوية وسمعته العالمية.

ومنها: أن الجزائر لم يكن بها يومئذ من الجيش التركي العثماني إلا النزر القليل اليسير -حسبما يأتيك بيانه بعد هذا على لسان جواسيس الإسبان- غير قارئين للشعب الجزائري حسابًا، وهو خصمهم وهو قاهرهم.

ومنها: أن الدولة العثمانية كانت هاتيك الآونة منهمكة في حروب أوربا، وفي النمسا والمجر بالذات؛ حيث قاوم المسيحيون مقاومة عنيفة دفاعًا عن دينهم وعن شرفهم وعن أوطانهم، رغما عن الانتصارات العظيمة التي أحرزها العثمانيون برًا وبحرا، حيث كان أسطولهم المؤلف من ألف سفينة حربية، كما يؤكد المؤرخون العثمانيون والأجانب تحت قيادة خير الدين الماهرة يهاجم ويقاوم الأساطيل المسيحية المتضامنة.

ومنها: الإخفاق الذي باء به ميثاق التعاون العثماني الفرنسي وتخاذل ملك فرنسا عن القيام بتعهداته؛ ولذلك حدث طريف يجب أن نخصه بشيء من الإطناب.

فرنسو الأول ملك فرنسا يستغيث

يرجع هذا الحديث إلى السنة (١٥١٩) حيث كان الملك الإسباني شارل، الذي ورث عرش جده فردنياند الكاثوليكي، محطم دولة الأندلس، يتطلع إلى عرش الإمبراطورية الألمانية الذي خلا بموت حفيده الإمبراطور مكسيمليان النمساوي، وكان فرنسو ملك فرنسا -عميد عائلة فالو- يتطلع هو أيضًا لذلك العرش الذي ينضوي تحت لوائه سبعة ملوك وأمراء، ومن هنا ابتدأت -رسميا- العداوة والمنافسة بين فرنسا وبقية الدول الأوربية.

اجتمع الأمراء الناخبون في مدينة فرانكفورت، وطالت بينهم المداولات والمساومات إلى أن اتفقوا يوم ٥ جويلية (١٥١٩) على انتخاب ملك إسبانيا، الذي أصبح يحكم معظم إيطاليا، وبلجيكا، وهولندا، والنمسا، وبعض الشمال الفرنسي زيادة عن الممتلكات الشاسعة في أميركا- إمبراطورا، ووجدت فرنسا نفسها محاطة بالأعداء تكاد تفقد استقلالها، سيما بعد خيانة مارشال فرنسا الأمير دي بربون أثناء الحرب، واتفاق الأمراء على اقتسام ترابها، وبعد معارك طويلة قاسية وقع ملك فرنسا أسيرا بين يدي

أعدائه في إيطاليا يوم ٢٤ فيفري (١٥٢٥) وسيق إلى مدريد؛ حيث أمضى معاهدة سلم فيها لأعدائه بما طلبوا، وكتب إلى أمه يقول: سيدتي لقد خسرت كل شيء ماعدا الشرف والحياة، ثم أطلق الإسبان سراحه بعد أن ترك ولديه رهينة عندهم.

وأرسلت أمه أو أرسل هو على طريق أمه التي كانت تقوم مقامه وصية على الملك- رسالة يستغيث فيها بالسلطان سليمان العثماني العظيم، وخصم المسيحية وخصم شرلكان في آن واحد، يستغيث به ويعرض عليه التعاون ضد الخصم المشترك.

جواب الخليفة العثماني

ولقد حفظ لنا التاريخ وثيقة إسلامية من الطراز الأول، هي الجواب الذي رد به السلطان سليمان -خليفة المسلمين- على استغاثة فرنسو الأول ووعده بالإعانة ضد العدو المشترك، وهي نموذج من «شعور العظمة الذي كان يتسم به سلاطين وخلفاء آل عثمان الأولين، وهذا نص الرسالة كما جاء تعريبها في كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية» للأستاذ محمد فريد:

الله العلي المعطي المعين

بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته، وعلت كلمته، وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء وقدوة فرقة الأصفياء، محمد المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم الكثيرة البركات.

وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعة، أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وجميع أولياء الله.

أنا سلطان السلاطين، وبرهان الخواقين، متوج الملوك، ظل الله في الأرضين سلطان البحر الأبيض، والبحر الأسود والأناضول، والرميلي،

وقرمان الروم، وولاية ذمي القدرية، وديار بكر، وكردستان وأذربيجان العجم، والشام، وحلب، ومصر، ومكة والمدينة والقدس، وجميع ديار العرب، واليمن وممالك كثيرة أيضا، التي فتحها آبائي الكرام، وأجدادي العظام، بقوتهم القاهرة، أنار الله براهينهم، وبلاد أخرى كثيرة أفتحتها يد جلالتي بسيف الظفر، أنا السلطان سليمان خان، ابن السلطان سليم خان، ابن السلطان بايزيد خان

إلى فرنسيس ملك ولاية فرنسا:

وصل إلى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوبُ الذي أرسلتموه مع تابعكم فرانقيان النشيط، مع بعض الأخبار التي أوصيتموه بها شفاهيا، وأعلمتنا أن عدوكم استولى على بلادكم، وإنكم الآن محبوسون، وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم. وكل ما قلتموه وعرض على أعتاب سرير سدنتنا الملوكانية، وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار معلوما.

فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم.

فكن منشرح الصدر، ولا تكن مشغول الخاطر، فإن آبائي الكرام وأجدادي العظام -نور الله مراقدهم- لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد، ورد العدو، ونحن أيضا سالكون على طريقتهم وفي كل وقت نفتح البلاد الصعبة، والقلاع الحصينة، وخيولنا ليلا ونهارا مسروجة، وسيوفنا مسلولة، فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته.

وأما باقي الأحوال والأخبار فستفهمونها من تابعكم المذكور، فليكن معلومكم هذا.

تحريرا في أوائل شهر آخر الربيعين، سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة.
بمقام دار السلطنة العلية
القسطنطينية المحروسة المحمية

الهيجان المسيحي وإخفاق المخطط الهجومي

وما كاد يذاع نبأ هذا الحلف بين سلطان المسلمين وملك فرنسا المسيحي- حتى سادت أوربا كلها موجة من الاستياء والاشمئزاز، ورفعت عقيرتها بالتنديد بملك فرنسا الذي يستنجد (بالكفار) أعداء المسيحية، ضد ملك مسيحي، واستغل شرلكان هذه الدعاية، وزاد بواسطتها في التضييق على ملك فرنسا، بعد أن أعلن إلغاء المعاهدة السالفة بينهما.

وكان البرنامج الذي وقع الاتفاق عليه بين مندوبي السلطان العثماني والملك الفرنسي يقتضي مهاجمة مشتركة لبلاد إيطاليا.

يقول محمد فريد في كتابه: تاريخ الدولة العثمانية، الآنف الذكر:

«وفي مايو سنة (١٥٣٨) جمع السلطان سليمان ببلاد الأرناوود (ألبانيا) جيشا عظيما مؤلفا من مائة ألف مقاتل، لشن الغارة على بلاد إيطاليا، وكان معه ولداه: محمد وسليم، وسفير فرنسا مسيو دولافوي: وفي الوقت نفسه نزل خير الدين باشا بميناء أوترنتة بجنوب إيطاليا، استعدادا لمهاجمتها من جهة الجنوب، بينما يهاجمها السلطان سليمان من جهة الشرق، وملك فرنسا من جهة الغرب، لكن إحجام ملك فرنسا عن التقدم إطاعة للرأي العام (المسيحي) كما ذكرنا، كان السبب في عدم نجاح المشروع... وانتهى الأمر بأن تهادن ملك فرنسا مع الإمبراطور شرلكان، وأمضيا المهادنة في نيس سنة (١٥٣٨)».

إنما الأمر الذي لم يذكره الأستاذ محمد فريد هو أن مهادنة مدينة نيس قد وقعت تحت تأثير وضغط البابا بولس الثالث، صونا للوحدة المسيحية، وصدا للتقدم الإسلامي في بلاد إيطاليا.

لم تكن هذه الحادثة هي آخر عملية في الحلف العثماني الفرنسي، فكلا الجانبين كان مضطرا لمد يده نحو الآخر ضد العدو المشترك في مستقبل

الأيام، إلا أن الذي يهمنا في بحثنا هذا هو التأكيد بأن هدنة نيس قد تركت المجال واسعا أمام شرلكان، لتهيئة الحملة الحاسمة ضد الجزائر، وخاصة أن ملك فرنسا قد تعهد لشارلكان -تعهدا شرفيا- بأنه لن يحاربه ولن يقوم بأي عمل ضده أثناء محاربته وتحطيمه لسلطان المسلمين في مدينة الجزائر، ففرنسا والبابا وكل البلاد المسيحية كانت مشتركة في الحملة العظمى على مدينة الجزائر.

تقرير سري إسباني عن قوة الجزائر

من وثائق «سيمانكاس» الإسبانية: سنة (١٥٣٣)

يحكم الجزائر الآن حسن أغا، وينوب عنه في حالة غيابه حاج باشا والقائد الصوردو.

ويوجد بمدينة الجزائر ١٨٠٠ تركي.

أما بقية البلاد فيوجد من الأتراك:

في تنس	٢٥	
في برسك	١٠	
شرشال	٣٠	
المدية	١٥٠	٧٣٥
مليانة	١٠٠	
تادس	٦٠	(لعلها زمورة أو بنورة ميزاب؟)
بنورة	٢٠	
جيجل	٢٠	
القل	٢٠	
قسنطينة	٣٠٠	

وهكذا، يوجد نحو ٢٦٠٠ تركي، وتوجد بمدينة الجزائر نحو ٣٠٠٠ عائلة عربية، و٣٠٠ عائلة يهودية.

أما القوة التي بين يدي حسن أغا، وهو مخيم الآن خارج المدينة، فهي تشمل ٧٠٠ تركي، وألف فارس وألفي راجل من العرب، وأما تسليح الجزائر، فعلى النمط التالي:

في البرج الفوقاني: ثلاثة مدافع لرمي الحجارة، و٥ مدافع صغير.

وفي البرج الكبير بباب الواد: مدفعان كبيران ومدفعان صغيران، وفي زاوية باب الواد قرب البحر: أربعة مدافع، ومن هذا المكان إلى الباب المقابل للجزيرة: ١٧ مدفعا، ومن هذا الباب إلى المسجد الكبير ١٧ مدفعا من البرونز، و٤ مدافع من الحديد، من بينها ثعبانية cauleuvrineمدفع طويل ورقيق. وبين المسجد الكبير ودار الصناعة ٢١ مدفعا من بينها ٦ مدافع صغيرة من الحديد.

وبين دار الصناعة وباب عزون ٨ مدافع، وفوق نفس الباب ٢ مدافع صغيرة تدعى البازية fauconneaux (ترمي قنابل من الرصاص تزن نحو كيلو).

وفي المرسى ٨ سفن يحتوي أكبرها على ١٧ صفا للجذافين.

ويشتغلون الآن في المدينة بصنع الخبز المجفف BISCUIT بكل نشاط، وكذلك المدية ومليانة، وذلك ما لم نشاهده أبدا من قبل.

ويسود الانزعاج في المدينة أنهم سمعوا أن الإمبراطور سيعقد الصلح مع ملك فرنسا، لكن هدأت خواطرهم عندما سمعوا أن السلطان يجهز الآن عمارة قوية.

تقرير سري إسباني آخر عن حالة الجزائر

إلى صاحبة الجلالة الملكة:

من فرانسيسكو بيريزدي كاييز حاكم بجاية.

بجاية ٢٩ مارس (١٥٣٦) . . .

وهذه أنباء وردت علينا من مدينة الجزائر، نقلها لنا ستة من العبيد المسيحيين الذين تمكنوا من الفرار يوم ٢٧ فيفري وغادروا الجزائر فوق فلك ووصلوا إلى مدينة بجاية.

يوجد الآن في مدينة الجزائر ألفان من الأتراك، وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجري الأندلس في مدن الجزائر ومليانة وبقاع أخرى، وضع بها بربروس حاميات.

أما حاكم الجزائر اليوم فهو مرتد سارد (من سردينيا) اسمه حسن أغا، وسكان المدينة في قلق شديد؛ لأنهم اتصلوا بأنباء موثوق بها تفيد تحرك أسطول جلالتكم.

وأخبرنا الأسرى المذكورون أن الأمطار الغزيرة التي انهمرت في فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة في ثلاث جهات وعلى مسافات شاسعة، وقد أقدم السكان على ترميم ما تحطم بكل سرعة، لكن العمل لم يتم إلى الآن نظرا لعدم وجود البنائين العارفين.

ويقولون هنا أنهم سيستعينون بألف وخمسمائة من العرب المحيطين بالجزائر من أجل انجاز العمل.

أما مدينة قسنطينة ففيها ١٥٠٠ من الإنكشارية، يقودهم تركي اسمه القائد كولج علي، وبربروس هو الذي أرسل هؤلاء الإنكشارية. وبما أن كولج علي

هذا تابع لحكومة الجزائر فلا ريب أنه سيقدم إلى مدينة الجزائر بمجرد علمه بتحرك أسطول جلالتكم.

احتلال الجزائريين لبلدة «جبل طارق» والمعركة البحرية الكبرى

إذا كان محمد حسن أغا نائب خير الدين على ملك الجزائر منهمكا في توطيد الأمن، ووضع أسس الإدارة المستقرة، ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية- فإنه إلى جانب ذلك لم يهمل أمر الغزو والجهاد، ولم يترك الإسبانيين في راحة على متن الحوض الغربي من البحر المتوسط، بل كانت الوقائع والمغامرات البحرية متوالية خلال هذه المدة التي تلت خروج خير الدين من الجزائر، والتي سبقت معركة شرلكان الكبرى.

أهم هذه الوقائع البحرية بلا جدال هي معركة جبل طارق، ببلاد الأندلس، والمعركة البحرية الهائلة التي تلتها، والتي دلت على قوة الجانبين وعلى استعدادها ويقظتها.

في شهر سبتمبر سنة (١٥٣٩) ركب الجيش الإسلامي الجزائري -وكان يشمل ١٣٠٠ رجل- متن ١٣ سفينة حربية، واندفع في حركة سريعة وفي جرأة نادرة نحو بلدة «جبل طارق».

وعلى حين غفلة من أهلها والمدافعين عنها من الإسبان نزل إلى البر، فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على ما فيها من خيرات وأرزاق مختلفة غنائم للمسلمين، وتوغل في جهات الساحل الإسباني الجنوبي يغنم ما وقع تحت يده من أموال ومتاع الإسبان، ويختار من بينهم جماعات من الأسرى، والسبايا، يسوقهم للبيع في المدن المغربية الشمالية، وخاصة تيطوان، ثم يعود للميدان.

وعندما تمت العملية، وقفل راجعا إلى مدينة الجزائر، اعترضت طريقه عمارة بحرية إسبانية وافرة العدد، تحت قيادة الأميرال برنارد دي موندوزا، فاستعرت نيران المعركة بين القوتين وكانت تعنيفة قاسية، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين، ولقد تمكن الإسبان من تحرير سبعمائة من الجذافين النصارى الذين يعملون أسرى فوق السفن الجزائرية، لكن خسائر الإسبان كانت خلال هذه المعركة عظيمة جدا؛ إذ كلفتهم -حسبما يروي تاريخهم- ثمانمائة قتيل.

غزوة شرلكان الصليبية الكبرى

أتم الإمبراطور شرلكان تجهيزاته الحربية البحرية من أجل تحطيم مدينة الجزائر، وأمده البابا يوحنا الثالث بعون أدبي عظيم، علاوة عن العون المادي؛ إذا نشر في البلاد الأوربية كلها أمرا باباويا يعلن فيه أن هذه الحملة إنما هي حملة صليبية، وأن واجب كل مؤمن بالمسيح مخلص للنصرانية أن ينضم إليها، وأن يشارك في محاربة «الكافرين».

وكان رسل شرلكان السريون في إستانبول قد دخلوا في مساومات مع خير الدين على أن يكون مواليا له، وأن يقلع عن خدمة السلطان العثماني، وأن يكون مقابل ذلك ملكًا على كامل الشمال الإفريقي تعترف له إسبانيا بالملك، ويعترف لها هو بالتبعية، ويدفع لها جزية سنوية.

وكان خير الدين يطلع السلطان أثناء ذلك على سير هذه المحادثات وعلى تطوراتها أولا بأول، وكانت تقع تحت إشراف أندريا دوريا، بواسطة وفد من ثلاثة رجال، تحت رئاسة الدكتور أومبرو، وأطال خير الدين أمد المفاوضات إلى أن بلغت السنتين، حسب الخطة المقررة بينه وبين السلطان سليمان، فلما فرغت جعبة الرسل بادر السلطان بإلقاء القبض عليهم، وأودع الدكتور أومبرو سجينًا بقلعة الحصون السبعة، بتهمة حث أحد

الرعايا العثمانيين على العصيان، وأسقط في يدي أندريا دوريا، الذي ظن - على بطولته وعلى عبقريته- أن رجال البحر المسلمين يستطيعون مثله أن يستبدلوا بكل سهولة، راية براية، وقضية بقضية وملكا بملك.

جيش شرلكان وأسطوله

كان جيش شرلكان مؤلفًا من خيرة المقاتلين البواسل، وقد شارك فيه كل نبلاء إسبانيا وألمانيا وإيطاليا بإرسال متطوعين، والبابا يوحنا الثالث أرسل مع الجيش حفيده كولونا، ورهبنة مالطة القوية العنيفة أرسلت مائة وأربعين فارسًا وأربعمائة راجل من خير ما عندها من المقاتلين الأشداء، فكان الجيش الشرلكاني يبلغ ٢٤٠٠٠ رجل، وألفي فرس، أما الأسطول فكان يشتمل على أربعمائة وخمسين سفينة نقل، وخمس وستين سفينة حربية كبرى، فكان عدد البحارة في مجموعها يبلغ ١٢٠٠٠ رجل، تحت قيادة أندريا دوريا نفسه.

أما الجيش كله، فقد كان تحت قيادة الإمبراطور شرلكان الفعلية، الذي أراد أن يكون له نفسه شرف تحطيم مدينة الجزائر، وفتح أرضها باسم النصرانية المنتصرة.

تحرك الأسطول الضخم من مرسى ماهون يوم ١٨ أكتوبر سنة (١٥٤١) وحل بجون الجزائر على الساعة السابعة صباحًا من يوم ٢٠ أكتوبر، وأخذ يتجول أمام مدينة الجزائر، متباهيا بقوته وعظمته.

ذهب الأسطول -حسب المنهاج الذي قرره الإمبراطور ورجال حربه- إلى طرف الخليج المقابل لمدينة الجزائر (رأس تاما نتفوس) وهنالك خيم مؤقتًا ثم عاد رأسا نحو ضفة وادي الحراش اليسرى، وهنالك أخذ ينزل جنده إلى البر يوم الأحد ٢٣ أكتوبر عند مطلع الفجر، وعلى الساعة التاسعة نزل

الإمبراطور إلى الأرض اليابسة، محاطًا بالأشراف والنبلاء ورجال الحاشية، واستقر به المقام، فجعل المركز العام لأركان حربه الإمبراطوري عند «الحامة» شرقي مدينة الجزائر، حيث حديقة التجارب الآن، وذلك على مقربة من مركز التجمع العام، الواقع بين ضفة الحراش وبين الحامة (الحمة).

المناوشات الأولى

جمع محمد حسن أغا كل ما لديه من القوى، واستعد للدفاع، وقرر مع أركان حربه أن يسلك نفس الطريقة التي سلكها الجزائريون من قبل في محاربة الإسبان والتي مكنتهم من النصر مرتين متواليتين، فتحصنوا في المدينة ينتظرون تطور الوقائع ويراقبون بدقة حركات العدو وسكناته.

بينما تكون قوى الشعب قد قامت حوله بحركات التفاف متوالية، لا تترك للإسبان وقتا للراحة، ولا تمكنهم من النوم.

فما كاد الإسبان ينزلون الأرض حتى ابتدأ المجاهدون تنفيذ الخطة، وانطلقت كتائبهم الخفيفة الحركة القليلة العدد تهاجم الإسبانيين من كل مكان، تحت قيادة القائد البطل «الحاج البشير».

احتلال كدية الصابون

في اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر قرر الإمبراطور ابتداء المعركة والتقدم إلى الأمام حسب خطته المرسومة، وكان الإمبراطور يقود الحركة على رأس الفيلق الألماني الشديد البأس، وحوله الأمراء والنبلاء، أما الفريق الطلياني وفرسان مالطة فقد كانوا في المؤخرة، وكان يقودهم كاميل كالونا، حفيد البابا.

استمر تقدم الإمبراطور والجيش الشعبي الجزائري يهاجمه ويشاغبه من كل جهة، حتى اضطره للتوقف حينا عند إحدى الربوات، مقاتلا، إلى أن وصل إلى كدية الصابون (على مرتفع خلف مدينة الجزائر) وهنالك بعد معركة عنيفة مع المجاهدين تمكن الإمبراطور من احتلال الكدية الاستراتيجية، فوضع بها أثقاله واتخذ منها مركزًا عامًّا للهجوم، ثم وسع خط عملياته حالا، فاحتل عدة تلال وصلت بين مركزه العام والمكان المعروف بقنطرة العفرون، قرب البحر، غربي الجزائر، وهكذا أصبحت مدينة الجزائر مطوقة فعلا من كل جهاتها برًّا وبحرًا.

ولقد صدقت التقارير التي أرسل بها جواسيس الإسبان، والتي سبق لنا أن قدمنا لك بعضها فيما سلف، فلم يكن بالمدينة أكثر من ٨٠٠ رجل من الأتراك وخمسة آلاف من الأندلسيين، أما المجاهدون العرب فكانوا مكلفين بالإحداق بالعدو خارج الأسوار ومناوأته على طريق «حرب الكمين».

ولقد غر الإمبراطور ورجال النصرانية الذين التفوا حوله في هذه الصليبية الضخمة- قلة عدد المدافعين عن الجزائر، وظنوا أن هؤلاء المدافعين سيستسلمون -لا محالة- أمام هذه الكثرة الكاثرة من الجيش المسيحي ومن أسطوله.

لكن الإمبراطور ورجاله قد غفلوا عن وجود قوة رهيبة لا تقاومها على وجه الأرض قوة: قوة الإيمان والعزيمة والجهاد الشريف في سبيل الله والوطن.

تقدم إلى المدينة رسول من قبل الإمبراطور، هو الفارس لورنزو مانويل، بطلب إلى محمد حسن أغا ورجاله تسليم المدينة وخضوعها للإمبراطور، حقنًا لدماء أهلها.

لكن محمد حسن أغا ورجال المدينة رفضوا ذلك بكل إباء وشمم، وأعلنوا له أنهم سيتولون الدفاع عن مدينتهم إلى آخر رجل منهم، فرجع إلى إمبراطوره يخبره بجواب الحامية(١).

وفي نفس تلك الليلة خرج من مدينة الجزائر رسول أم ساحة الإمبراطور، طلب إليه باسم الحامية أن يسمح بحرية الطريق المواجه لمعقل «باب الواد» حتى يتمكن كل من أراد من أهل الجزائر -وخاصة نساءها وأطفالها من غير المقاتلين- مغادرة المدينة والالتحاق بداخل البلاد.

ومن هنا علم الإمبراطور وأركان حربه أن الجزائريين قد قرروا الدفاع المستميت، وأن الجزائر لا تخضع إلا إذا ما حطمت فيها آخر حجرة يمكن لمقاتل أن يحتمي وراءها، واستعد الجانبان للمعركة الحاسمة.

لم يكن الإمبراطور ساعتئذ قد أنزل مدفعية الحصار، فلم يبتدئ قصف مدينة الجزائر بالقنابل، بينما كان المجاهدون الذين خفوا إلى ساحة الوغى من كل مكان يتبارون في مهاجمة الجيش الإسباني ومناوأته من كل مكان، حتى قال أحد فرسان مالطة في تقريره عن المعركة: «إن هذه الطريقة في الحرب قد أذهلتنا؛ لأننا لم نكن نعرفها من قبل» وكان المجاهدون الجزائريون يحسنون استعمال كل مرتفع وكل منخفض من الأرض.

وكان المخطط الإسلامي الجزائري يقتضي أن يخرج المجاهدون من أبواب مدينة الجزائر عندما يكون المجاهدون خارج الأسوار قد أنهكوا القوى المهاجمة فينقضون عليها بشدة وصرامة، ويقطعون بين الجيش الذي

---

(١) يزعم بعض مؤرخي الفرنج والإسبان أن محمد حسن أغا أراد الاستسلام، لكن رجال الحرب وسكان المدينة منعوه من ذلك، وهذه فرية لا تعتمد على أي أساس، وهي مناقضة لما عرف عن محمد حسن أغا من قوة الإيمان وشدة الشكيمة وأصالة الرأي، وذلك ما جعل خير الدين يعتمده ويستخلفه ويعتبره ساعده الأيمن.

تحت قيادة الإمبراطور في كدية الصابون وبين البحر، ثم يحيط كل فريق منهم بفرقة من جيش الصليبيين وتلتحم نيران المعركة العامة، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

وإذا كان القوم يستعدون لهذه المعمعة الرهيبة، التي لا تتكافأ فيها القوى المادية، إنما تتفوق فيها قوة الإيمان بالله والجهاد في سبيله، تدخلت يد القدر القاهرة، فجاءت بعامل جديد، كان له الأثر الفعال في تمكين المسلمين من تنفيذ خطتهم على الوجه الأكمل، وكان من نتائجه تدمير معظم الأسطول الإسباني، والإمعان في فداحة الكارثة النصرانية.

ذلك أنه في نفس تلك الليلة ٢٤ أكتوبر، بعد نهار مليء بالحوادث والمشاق أنزل الله السماء مدرارًا على أرض المعركة وحواليها، وكانت تزداد شدة وتهاطلا كلما تقدم الليل، بينما هبت ريح عاتية من الشمال الغربي فتعالت الأمواج وتشابكت، وأصبح الأسطول الذي يحمل السلاح والمدفعية والعتاد في موقف جد حرج.

ولم يكن للإسبانيين في تلك الليلة خيام يحتمون فيها من وابل المطر، إذ لم يكونوا قد جاءوا بالعتاد اللازم من السفن، فقضوا بين الماء والأوحال شر ليلة، بعد أن قضوا بين المسيرة ونيران المجاهدين شر نهار.

المعركة الحاسمة

عند مطلع الفجر تصاعدت أصوات المؤذنين، ينادون الناس لبيوت الله، من عشرات المنارات، ولم يكن القوم قد ناموا ليلتهم تلك، وهم يعلمون أن يوم الغد إنما هو المصير، فإما إلى عز وحرية وتمكين وإما إلى فناء ودمار، ومذبحة كمذبحة تونس، وسقوط بلاد المغرب العربي كافة تحت أقدام الغزوة الصليبية الأوربية.

وما كادت تنقضي الصلاة حتى فتحت أبواب المدينة فجأة، وتدفقت منها جموع المجاهدين، تتصاعد أصوات تكبيرهم وتهليلهم حتى لتبلغ عنان السماء، وانقضوا تحت قيادة البطل الحاج البشير على ميمنة الخط الإسباني وكانت مستقرة أمام رأس تافورة (فيما بين إدارة البريد المركزي اليوم والبحر).

وكانت طليعة الفرقة الطليانية هي التي تلقت الصدمة الأولى ففوجئت به واستولى عليها الرعب والفزع -كما يقول المؤرخون الأوربيون- فتقهقرت دون نظام في حركة هي أقرب إلى الفرار حتى التحقت بالمعسكر الكامل للفرقة الطليانية.

وازداد المجاهدون بسالة وإقداما أمام هذا النصر الأول، فواصلوا هجومهم، يقتفون خطى الفارين إلى أن اصطدموا بالفرقة الطليانية كاملة، وكانت هي الحلقة الوسطى من جهاز الجيش الصليبي، وما راعتهم كثرة العدو، بل اندفعوا في تصميم من باع نفسه لله، وترك وراءه الحياة الدنيا ومباهجها، فلم تستطع الفرقة الطليانية صمودًا أمام هذا الزحف الجارف، واضطرب أمرها فولت أمامه منهزمة، وانقلب انهزامها حسب التعبير الفرنجي إلى فرار بلا نظام debandade[١] وأعمل الجزائريون السيف في رقابها فأحدثوا بين صفوفها مقتلة عظيمة، ولم تزل تولي الأدبار والجزائريون من خلفها، إلى أن تدخلت فرقة مالطة في المعركة.

الدور الثاني من المعركة

كانت فرقة فرسان مالطة ورجالها مستقرة بعيدًا عن الموقع الطلياني، فما كادت ترى ضراوة المعركة وفرار الطليان، وما يوشك أن يلحق بالجيش

---

(١) دور قراصون تاريخ الجزائر تحت حكم الأتراك.

الإمبراطوري كله من دمار نتيجة انهيار ميمنته- حتى اندفعت ملبية صوت الواجب والشرف، وحالت بين المجاهدين الجزائريين وبين ظهور الفرار من الطليان، وتمركزت بثبات وقوة وعزم -شأن فرسان مالطة في كل مكان، وفي كل معركة- في الفج الصغير الذي يقع وراء الجسر، والذي تمر منه الطريق المؤدية إلى كدية الصابون، فتوقف عندئذ الهجوم الجزائري، حتى لا ينقطع وراءه خط الرجعة، بينما اندفع القائدان الصليبيان كولونا، والأمير صالون مع فرقة من الفرسان، وراء الفارين من بقايا الفرقة الطليانية التي كانت ممعنة في الفرار لا تلوى على شيء، فتمكنا بعد لأي من إدراكها، بعيدًا عن أرض المعركة فتوقفت عن الفرار.

أما الجزائريون فقد ألقى إليهم القائد الحاج البشير أمرًا بأن يرجعوا حالا، في نظام عسكري تام، وراء أسوار وحصون مدينة الجزائر دون أن يتركوا الاشتباك مع العدو إلى أن يصبح تحت مرمى أسلحة ومدافع الحصون.

وهكذا كان الأمر ولم يقرأ فرسان مالطة في حميتهم الحربية ومن تبعهم من رجال الفرق الأخرى حسابا للمخطط الجزائري، فأخذوا يتقدمون والجزائريون يستدرجونهم، إلى أن أصبحوا على مقربة من حصن «باب عزون» ففتح رجال الدفاع الجزائريون الأبواب ودخل المجاهدون ثم أقفلت بسرعة وبقيت فرقة العدو تجاه السور، مكشوفة تحت وابل المطر الذي كان يزداد شدة، فلم يستطيع الفرسان والرجال -الذين تقدموا دون تروٍّ ولا إمعان- التقدم إلى الأسوار واقتحامها لمناعتها وشدة المدافعين عنها، ولا التقهقر؛ لأن سلاح الجزائريين يحصدهم جميعًا من وراء ظهورهم.

امتطى الإمبراطور صهوة جواده حين بلغته أنباء المصيبة التي ألحقها الجزائريون بالفرقة الطليانية، وتقدم مع النبلاء ورجال الخاصة، والمهرة من الفرسان لنجدة فريق مالطة الذي أصبح في خطر عظيم، واقتحم أولئك

الفرسان منطقة الخطر تحت نيران الحصون الجزائرية، ففقدوا نصف عددهم في الملحمة، وكان المجاهدون الجزائريون من عرب الداخل يلهبون ظهورهم من الخلف، والذي زاد في هول المعركة وفداحة الخطب بالنسبة للصليبيين هو أنهم لم يكونوا يستطيعون استعمال أسلحتهم النارية تحت وابل المطر، فالبارود الذي لديهم قد أصبح عجينة لا تصلح لشيء، بينما كان على الأسوار رجال من مهاجري الأندلس يحسنون الرمي بالسهام البعيدة المدى، من القسي الحديدية (arbalettes) فكانوا يصيبون أهدافهم بدقة، إلى جانب إخوانهم من المجاهدين الذي كانوا يستعملون الأسلحة النارية، فحصدت صفوف المهاجمين، واضطروا بعد قليل للانسحاب تاركين بين الأوحال عددًا عظيمًا من قتلاهم.

وهكذا أسفرت المعركة يوم ٢٥ أكتوبر عن نصر جزائري عظيم حققه ثبات وإيمان وتضحية المجاهدين الجزائريين.

حالة الأسطول الصليبي

أما العاصفة البحرية فقد ازدادت خلال هذه المعركة شدة وعنفًا، ودفعت حركة الأمواج بقطع الأسطول إلى الساحل وخاصة سفن النقل الكبيرة، فكان يرتطم بعضها ببعض، وكانت تتكسر وتتلف على الساحل، وانقلب الأمر بعد حين إلى كارثة حقيقية؛ حيث جاوز عدد سفن النقل التي تحطمت على ساحل البحر ١٥٠ سفينة كان المجاهدون المسلمون من عرب البلاد الداخلية يغنمون ما فيها، ويأسرون رجالها.

أما السفن الحربية التي كانت أمتن صنعًا وأحسن قيادة فقد انسحبت من موقعها الخطر مستعملة المجاديف، واستمرت عمليتها هذه نحوًا من ٢٤ ساعة.

انقاذ الأسرى المسلمين

لكن هذه السفن الحربية التي ناورت وابتعدت عن مركز الخطر كان لها خطر آخر، يكمن في أحشائها، ألا وهو أن أغلبية أصحاب المجاديف كانوا من الأسرى المسلمين المستعبدين، وكانوا يتتبعون سير المعركة باهتمام، فرأوا أثناء هذا الانسحاب أن هذه هي فرصتهم السانحة للتحرر، وإنقاذ أنفسهم من عذاب الهون، بواسطة بلوغ ساحل السلامة فتركوا التجديف واندفعوا وهم في السلاسل والأغلال، يفتحون لأنفسهم طريق النجاة، بأي صفة من الصفات، وكانت نتيجة هذه العملية أن ١٦ سفينة حربية ارتطمت بالساحل وتحطمت لفقد الجدافين، بينما تمكن المجاهدون الجزائريون من إنقاذ ألف وأربعمائة رجل منهم، أنزلوهم بالجزائر على الرحب والسعة.

مدى الكارثة البحرية

أراد الإمبراطور وأركان حربه أن ينقذوا شيئًا مما ألقى به الأسطول إلى ساحل البحر، من سلاح، وعتاد، وأن ينقذوا كذلك من الموت أو الأسر أولئك البحارة الذين كانوا يئنون تحت أنقاض السفن، فبعثوا بفرقة إلى ساحل الفاجعة، لكن هذه الفرقة لم تستطع عمل أي شيء، فما وصل من العتاد إلى البر أخذه المجاهدون، وما بقي منه في السفن الغارقة ابتلعه اليم وهو الأكثر؛ إذ كان يشمل كامل المدفعية والآلات والأدوات والمؤن والذخيرة.

ويقول التاريخ الإفرنجي: إن ساحل البحر الجزائري على مدى نحو مائتي كيلو مترًا من شرق دلس إلى غرب شرشال كان مغمورًا ببقايا السفن الإسبانية المهشمة، وجثث من قضى نحبه بها غرقًا، أما الذي كانت السفن تحمله من متاع مختلف فكانت الأمواج تلقي به على مختلف السواحل الجزائرية، غنيمة باردة للمسلمين.

الانسحاب

كان الندريا دوريا وهو يشرف على العمليات البحرية من فوق ظهر سفينته الكبرى «طومبيرانس» يحاول الدفاع عن رجاله وعن متاعه وعن كل ما قذفت الزوبعة به على الساحل، ليمنع وصول المجاهدين إليه، والاستيلاء عليه، فكان يتقدم من الساحل بين الأمواج، ويوالي رمي القنابل والقذائف المدفعية، لكن المحاولة ما زادت الكارثة الصليبية إلا اتساعًا وفداح؛ إذ إنها لم تغنِ عنه شيئًا، ولم تمنع المجاهدين من جهة الاستيلاء على كل ما وصل إلى الساحل من جهة، بينما هي من جهة أخرى قد كانت السبب في تحطيم سفينة حربية أخرى.

هذا بينما كان الإمبراطور يحاول تنظيم بقايا جيشه من جديد، ويفكر في أحسن الطرق للخلاص من هذه المصيبة لكنه وجد نفسه أمام ثلاثة أعداء، لا يمكن التغلب بسهولة على واحد منهم: الجزائريون من وراء أسوارهم يرقبون الحوادث باهتمام ويستعدون لإعادة المعركة، والجوع الذي أصاب الجيش في صميم أحشائه، والرعب والفزع اللذين رانا على القلوب فأفقدها الحمية والرشد.

وسط هذه النكبة التي لم تخطر له على بال، والتي اشتركت فيها أسلحة الأرض وعناصر السماء بقي الإمبراطور محافظًا على رباطة جأشه مستسلمًا لقضاء الله، يردد دوما بين شفتيه «لتنفذ إرادتك يا رب» وأخذ يشاور كبار معاونيه ممن أبقت عليهم المعركة: هل ينسحب من الأرض الجزائرية فوق بقايا الأسطول أم يجمع بقية الرجال من الأرض الجزائرية فوق بقايا الأسطول ويتحصن في جهة ما من الأرض، وينتظر تحسن حالة الجو، وورود مدد من أوربا؟

أما الأميرال أندريا دوريا فقد كان مصممًا وكان صريحًا للغاية: أرسل من فوق ظهر سفينته فدائيًّا إسبانيا قام بعملية بطولية يجب أن تسجل في صفحات

الفخار، ألا وهي أنه اخترق برسالته عومًا أمواج البحر الزاخرة، وتسرب خلال جموع المجاهدين الجزائريين، حتى وصل خيمة الإمبراطور وأبلغ الرسالة.

يقول أندريا دوريا في رسالته تلك:

أما من جهة البحر فمن المستحيل بقاء الأسطول في مركز الخطر داخل الخليج، وأنه إن لم ينسحب حالًا إلى جهة تامانتفوس، المواجهة لمدينة الجزائر، على الطرف المقابل من الخليج- فإن بقية السفن سوف تتحطم لا محالة.

وأما من جهة البر فهو يرى استحالة البقاء والانتظار، وأن الواجب هو الانسحاب حالا ببقية الرجال، وامتطاء صهوة بقايا الأسطول في جهة تامانتفوس.

وكانت آراء قادة الجيش في أغلبيتهم تؤيد رأي أندريا دوريا، إلا القائد الإسباني فرناند وكورتيز جلاد سكان أمريكا، الذي رأى وجوب البقاء والمقاومة، ويقول مؤرخو الإفرنج: إنه لم يبق لديه شيء يدافع عنه؛ إذ إنه قد رأى بعيني رأسه غرق سفينته التي كانت تحمل كل الكنوز من الذهب والفضة والحجارة الكريمة، التي اغتصبها من أصحابها سكان القارة الأمريكية المساكين، كما كان من أنصار البقاء والثبات الكونت دالكوديت الشهير حاكم وهران العام.

أخذ الجيش الإسباني عندئذ في الانسحاب بعيدًا عن الأسوار، لكي يخترق ضفة البحر إلى أن يبلغ رأس تامانتفوس.

واتقاء لغائلة الجوع أمر الإمبراطور بقتل الخيول التي كانت لدى الجيش وتوزيع لحمها طعامًا للرجال، مبتدئًا بقتل تلك الخيول العربية البديعة الفارهة التي جاء بها لنفسه، وبات الجيش المنهزم ليلتئذ وراء وادي خنيس.

ومن الغد ٢٧ أكتوبر، وصلت فلول الجيش إلى وادي الحراش، الذي كانت مياهه قد ارتفعت كثيرًا من جراء المطر الغزير، فلم يستطع الجيش اختراقه وبات دونه تلك الليلة.

صبيحة يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر أخذ بقايا الرجال القادرون على العمل ينشئون من أخشاب السفن جسرًا، عبروا عليه إلى الضفة الأخرى، واستمروا على سيرهم ببطء، حتى وصلوا وادي الحميض (الحميز) فباتوا عنده.

واستأنفوا سيرهم المنهك يوم السبت ٢٩ أكتوبر، فوصولا إلى تامانتفوس، حيث كان ينتظرهم الأسطول، وهم على أسوأ ما يكون تعبًا وانهيارًا؛ ذلك أن المجاهدين المسلمين من حماة الجزائر ومن عرب الداخل كانوا لا يفتأون يهاجمون أطراف الجيش ليلا ونهارًا، وقد اضطر الإمبراطور للدفاع عن بقية الجيش المنهزم أن يجعل بقايا الفرقة الطليانية في الميمنة (أبعد ما تكون عن أسلحة الجزائريين) وأن يضع في الميسرة -وخاصة المؤخرة- فرسان مالطة ورجال إسبانيا، وكان يقود المؤخرة بنفسه لرد هجومات المجاهدين المتوالية، ولإنقاذ من يسقط من الرجال.

وهكذا استمر سير الفلول إلى أن بلغت أنقاض مدينة رسغوليا، الرومانية العتيقة المحطمة Resgunia.

قضوا بتلك الأطلال يومي الأحد والاثنين، حيث استرجعوا شيئًا من الراحة، وابتدأت عملية ركوب البحر يوم الثلاثاء، أول نوفمبر وأخذوا يغادرون الأرض الجزائرية بعد أن دفنوا فيها جندهم، وواروا تحت أمواج بحرها أسطولهم، وانهارت فوق سطحها قواهم المعنوية.

أما الإمبراطور فلم يركب البحر إلا يوم ٣ نوفمبر بعد أن تم انسحاب كل الأحياء من بقايا الجيش، وركبوا بقايا الأسطول المعطب.

وهكذا لم تدم هذه الصليبية التي جهزت لكي تحطم دولة الجزائر ولم يمكث الاستعمار تحت ستار الصليبية في بلاد إفريقيا إلا ١٢ يومًا من الأحد ٢٣ أكتوبر إلى الخميس ٣ نوفمبر (١٥٤١).

الإمبراطور في بجاية

أبحر الجيش المنهزم بفلوله إلى مدينة بجاية وكان البحر لا يزال متهيجًا مضطربًا فابتلع عددًا من بقايا الأسطول، وكانت أعمال الإصلاح والترميم تجري فوق متن السفن دون انقطاع إلى أن وصلت السفن تترى إلى مرفأ مدينة بجاية.

لكن ماذا وجدوا ببجاية؟

وجدوا بها البؤس والجوع والفاقة؛ حيث أن الحصار الذي كان المجاهدون المسلمون يطوقون به المدينة الأسيرة كان ضيقًا، منع كل توسع في الزاد والميرة، رغمًا عن وجود بعض الخونة المتعاونين الذين كانوا يوسعون أحيانا على حامية المدينة، مقابل ذهب غزير، وهذه كما أسلفنا طائفة من حثالة البشر، لا يخلو منها زمان ولا مكان، لا في القديم ولا في الحديث؛ إنها نادر؛ والنادر لا حكم له.

أخذ الإمبراطور الكئيب المحطم يتسلى في بجاية بالإقبال على العبادة، وحضور القداسات في الكنائس (المساجد الإسلامية الكبيرة) التي أصبحت مفتوحة ليلا ونهارًا، والإسبانيون يقومون بالصلوات العامة وأعلنوا الصيام تذللا إلى الله وخشوعًا.

وكان ببجاية عدد من اليهود النازحين من إسبانيا، فرأى الإمبراطور أن يزداد بالنكبة بهم تقربًا إلى الله، فصب جام نقمته عليهم، لا لشيء إلا أنهم من اليهود، فامتهنوا وعذبوا ثم استرقوا وبيعوا عبيدًا إلى البلاد الأوربية.

وبعد أن بقي الإمبراطور ١٤ يوما ببجاية، تفقد خلالها حالتها، ورمم حصونها وأسوارها، ووعدها بالعون والمدد السريع، غادرها يوم ١٦ نوفمبر (١٥٤١) وعاد إلى أوربا جريح النفس، منكسر القلب.

الخطر الذي نجا منه الإمبراطور وجيشه

لقائل أن يقول: بل يجب على القائل أن يقول: أين كان خير الدين أثناء هذه المعمعة، وقد ترك محمد حسن أغا بالعاصمة الجزائرية، في قلة من الرجال والسلاح، وماذا كان يفعل من أجل حماية ملكه وعاصمته؟

إن التاريخ الحق قد توقع هذا السؤال، وسجل لنا بين دفتي كتبه الجواب عنه.

إن خير الدين في إستانبول -وقد كان في رتبة «قبودان باشا» أي القائد الأعلى للأسطول الإسلامي العثماني- لم يكن مطلق الحرية في عمله، مثلما كان على رأس مملكته بمدينة الجزائر، بل كان عليه قبل الإقدام على أية عملية أخذ رأي الديوان السلطاني بعد المداولة.

وقد كان خير الدين يعلم -وهو رجل البحر الخبير- أن شرلكان يتجهز جديًّا لغزو الجزائر واقتحامها، فاقترح منذ شهر جوان سنة (١٥٤١) تجهيز أسطول حربي قوامه مائة سفينة، يرسل خمسين منها إلى الساحل الجزائري انتظارًا لأسطول العدو، ويعترض بالخمسين الباقية طريق الأسطول الإسباني وهو سائر نحو الجزائر.

لكن رجال الديوان لم يصادقوا على هذا المخطط، وقر قرارهم على أنه لا يمكن الاستغناء عن هذه الكمية من سفن الأسطول، والدولة في حرب مستعرة الوطيس، وأنه تجب مراقبة سير الأمور عن كثب، فمتى تحقق مسير الإمبراطور إلى الجزائر يذهب المدد مسرعًا، بينما تكون مدينة الجزائر قد

أوقفت العدو تحت أسوارها المنيعة؛ فيصل المدد، ويقع الإسبان بين نارين، بحرًا وبرًّا.

وما كادت أنباء الحملة الإسبانية تصل مسامع رجال الديوان منذ يومها الأول حتى جهز خير الدين أسطولا قويًا، يحمل الرجال والمعدات، واندفع نحو الجزائر؛ كي ينفذ المخطط المذكور.

إنما سبقته الحوادث -وكفى الله المؤمنين القتال- ففعلت الزوبعة بأسطول الصليبية ما فعلت، وقام المجاهدون خير القيام بالدور المخصص لهم، وما وصلت عمارة خير الدين، حتى كانت آخر سفن الأسطول النصراني قد غادرت تامانتفوس.

علم الإمبراطور بهذا النبأ فأدرك أنه قد نجا من خطر عظيم، وأنه لو لم يسرع بالانسحاب، أو لو أنه اتبع رأي القائلين بالبقاء لأصبح هو وبقايا جنده أسرى بين يدي خير الدين والجزائريين.

ثمن المعركة

فاقت نكبة الجيش الصليبي في مداها واتساعها كل نكبة حلت بجيش مهاجم قبل ذلك فوق أديم الأرض الإفريقية.

كانت الخسارة تشمل ٢٠٠ سفينة، من بينها نحو ٣٠ سفينة حربية، و٢٠٠ مدفع، وكل العدد والأسلحة والذخيرة والأدوات.

و١٢٠٠٠ رجل، بين قتيل في المعركة وغريق وأسير.

أما الغنائم التي غنمها المسلمون الجزائريون من جراء ذلك فلا يكاد يحصيها عد.

يقول الشيخ حسين بن رجب شاوش، ابن المفتي، في تاريخه المختصر عن باشوات وعلماء الجزائر:

«وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها، من رخاء الأسعار، وأمن الأقطار، ولم يبقَ لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية، في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن بأمن الملك العلام...

وخلف اللعين لأهل الجزائر ما ملأ أيديهم غناء، وكسبت من ذلك أموالا طائلة، وفرج الله على أوليائه المسلمين».

أما البطل الزعيم محمد حسن أغا فقد تلقى من السلطان سليمان إثر هذا النصر العظيم -الذي كان لحسن تدبيره ولحسن مناورته ورباطة جأشه- حظًّا وافرا، منه لقب «باشا» وهي أول مرة يمنح فيها أحد العاملين في الجزائر هذا اللقب الذي كان يومئذ حقًّا رفيعًا وممتازًا.

تقرير الكونت دالكوديت بعد النكبة

وفي يوم ٢٥ ديسمبر من تلك السنة بعث الكونت ألونزودي قرطبة من وهران إلى والده الكونت دالكوديت حاكم وهران -وقد كان ينوب عنه أثناء غيابه- التقرير التالي:

«إن الأنباء الجديدة الموثوق بها التي وردت علي من الجزائر قد أعلمتني بأن الأتراك قد أنقذوا خمسا من السفن (الإسبانية) التي شحطت على الساحل أربع منها سالمة، وواحدة بها عطب قليل...

كذلك قد أخرجوا من الماء ستين مدفعًا بين كبير وصغير، منها ٢٠ مدفعًا ضخمًا...

ولقد أرسل حسن أغا مندوبًا من قبله إلى ملك تلمسان (الملك محمد) يسأله الإعانة استعدادًا لتلقى صدمة الأرمادا الجديدة (باعتبار أن شرلكان سيعيد الكرة قريبًا على رأس قوة أخرى)...

كما أرسل مندوبين عنه إلى فليز[1] باديس على الساحل الشمالي المغربي) من أجل صناعة سفن وابتياع أشياء تحتاجها مدينة الجزائر . . .

كذلك أرسل حسن أغا مندوبين -اختارهم من بين الفضلاء، وجهزهم تجهيزًا حسنًا- إلى حامد بن سليمان، وهو الآن شيخ محلة ملك تلمسان؛ يسأله القدوم لنجدته في الوقت الذي يعينه له، فأجابه الشيخ حامد بأنه سيقدم حالا للنجدة إذا كان باقيا على رأس المحلة . . .

كذلك استصرخ حسان أغا لنجدته القائد المنصور وكبار المرابطين (شيوخ الطرق) بالمملكة (التلمسانية») اهـ.

وهكذا أخذ محمد حسن باشا يستعد منذ الساعة الأولى في حذر ويقظة للجولة الثانية التي علم أن الإسبان لابد مقدمون عليها.

توسيع حدود المملكة

اغتنم محمد حسن باشا فرصة هذا النصر العظيم وما أحدثه من دوي هائل في كل أطراف البلاد، فتقدم على رأس جماعة قليلة من الجيش إلى بسكرة وغيرها من بلاد الزيبان وما يحيط بها- إلى تخوم الصحراء الكبرى، داعيًا إلى الوحدة وجمع الشمل ضمن الدولة الجزائرية العثمانية، فأسفرت رحلته هذه عن انضمام كل هاتيك الجهات إلى النظام الجديد الذي استقر بالعاصمة الجزائرية.

---

(١) يقول مازمول: إن أهل باديس «فاليز» كانوا يكسبون عيشهم من أمرين: بيع سمك السردين لسكان الجبال المحيطة بهم، وصناعة السفن التي كانوا يغزون بها سواحل المسيحية؛ ذلك لأن الجبال المشرفة على مدينتهم كانت مكتسية بغابات الأرز والقرو (chene) وكانت لهم دار صناعة تبني السفن لحساب الحكومة.

الإقطاع المتعاون مع العدو

لكن الإقطاع لم يلقِ مع ذلك سلاحه، وبقي بعض أمراء الإقطاع يوالون جهودهم الإجرامية متصلين بالعدو اتصالا وثيقًا، سعيًا منهم في محاولة نسف هذه الوحدة الوطنية الإسلامية التي تجعل من الدولة الجزائرية الحديثة كلا لا يتجزأ تحت راية واحدة، وتحت قيادة واحدة، وضمن إدارة واحدة.

فإذا كان الأبرار الأحرار من أهل زواوة قد أصبحوا دعامة متينة لهذه الوحدة الصالحة وكنا نجد مجاهديهم في مقدمات كل زحف- فإن زعيم عائلة ابن القاضي في (كوكو) وهو محمد بن محمد -الذي آلت إليه الإمارة الجبلية، بعد أحمد والحسن- كان يصل أسبابه بأسباب الإمبراطور شرلكان، حتى بعد هزيمته وانهياره أمام الجزائر، مستفزًا إياه على إعادة الحملة، وتحطيم العاصمة وإذلالها، فيتمكن ابن القاضي يومئذ من توطيد سلطانه على قبائل زواوة، ويتخلص نهائيًا على يد الإسبان من خصمه أمير قلعة بني عباس.

وكان حاكم بجاية الإسباني هو الواسطة بين هذا الإقطاعي المأفون وبين لحكومة الإسبانية، ولقد وجدنا في محفوظات خزائن سيمانكاس -الآنفة الذكر- عددًا من الوثائق التي تفضح أعمال ومساعي هذا الإقطاعي وبعض خواصه، واخترنا للنشر منها ثلاث وثائق فيها أكثر من دلالة، ويستطيع القارئ أن يفهم منها كل شيء، دون حاجة إلى شروح وبيانات.

أما الرسالة الأولى الجميلة الخط، المتينة العبارة فهي من محمد بن محمد القاضي[١] إلى الإمبراطور شرلكان، وفيها معنى الاعتراف له بالخلافة، وأنه صاحب السلطة الإلهية المطلقة على العالم.

(١) هي من إنشاء وبخط كاتبه طبعًا.

وأما الرسالة الثانية، الرديئة الخط، السوقية العبارة، فمن ابن أخيه وممثله و«ضوء حدقته» عمر بن أحمد إلى حاكم مدينة بجاية الإسباني.

وإني ما أثبت نص الرسالتين ونشرت صورتهما إلا لنعلم إلى أي هوة سحيقة تتردى الإقطاعية الفاجرة من أجل الاحتفاظ على امتيازاتها والتمكن من قهر أعدائها.

رسالة محمد بن محمد القاضي للإمبراطور شرلكان

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله.

«الحمد لله الذي جعل الخلافة عصمة للأنام، وحفظا لبقاء النظام، وركنًا وثيقا على الدوام، وملجأ منيعا لنفوذ حكم الحكام، قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير.

أما بعد: هذه المقدمة الحميدة المقاصد، المشتملة على السر في حكمة البارئ والفوائد، ومكتوب وثيق كريم، وخطاب واضح جسيم، ورسالة خص بها الملك الإمام، والسلطان الفاضل الهمام، والمرتضى لأيالة الأنام، البطل الشمام، الباسل الضرغام، صاحب الشهامة والإقدام، والضرب بالأسنة والحسام، الأظهر الأجود العماد، الأشهر الكهف الملاذ، الأمضى السامي الشجاع، الحامي البطل، الكافل الأحفل، تاج الملوك الكبراء، وفخر السلاطين الأمراء، الأمجد الأنجد المعلوم بالجلالة والعفاف، المعدود في فضلاء الملوك الأشراف، ملك البرين، وحائز حكم البحرين، سيد ملوك الزمان، وناشر لواء الفضل والإحسان، السلطان الشهير، الحائز للفضل الكبير، الأظهر الأكبر، الأمضاء الأرضا الأحضا الأسنى الأسمى الأحمى، الألمع الأمنع، ذو البأس المشهور، الملك أنبرضور.

فإننا كتبناه إليكم من حصننا المصون، وملجئنا المنصور المشهور عند القريب والبعيد، الشائع ذكره عند الأحرار والعبيد «كوكو» عن إذن ملكها القائم بجميع شئونها، سيد زواوة وسلطانها، وأميرها وقاهرها أبي عبد الله محمد بن محمد القاضي أيده الله، وإلى هذا.

فأنا على ما تعلم من الجد والاهتمام فيما يجمع كلمتنا معكم منذ أعوام، وما غفلنا من المكالمة مع خديمكم قبطان بجاية، ولا نشك في أنه خفى عنكم جميع ذلك، فلما رأينا أن ذلك غير كاف وجهنا إليكم بأعز الناس عندنا، وأشرفهم لدينا، الذي هو ولدنا وضوء حدقتنا ابن أخينا سيدي عمر؛ ليقوم مقامنا، وتتحققون منه ما عندنا، وليزول الإشكال وينتهي اللبس، وأنه مهما ورد عليكم بليل تبادرون إلى ما طلب منكم بنهار، وإن ورد عليكم بنهار فكذلك، فإذا بكم توانيتم في الأمور، وتقاعستم في الأشياء، وليس هذا من طبعكم، ولا مما نتعاهده من سيرتكم، وإنما المعلوم منكم والمعهود من طرقكم مع من سلف من الملوك الحالين ببابكم- المبادرة من حينكم بالإجابة إلى ما يطلبونه منكم، مع أنهم لم يوجهوا إليكم مثل من وجهناه إليكم؛ لأنهم يوجهون إليكم الأصحاب، ونحن وجهنا أولادنا إلى مقامكم الرفيع وحلوا ببابكم المنيع، وهذه مدة طويلة ننتظر قدومكم معه أقدمكم الله في ساعة الخير، ولا خفي عنكم ما وقع بيننا وبين عدونا في الصيف من القتال مدة تزيد عن شهرين، وظننا ورودكم على الجزائر مع غيبته[1]، وتتقطع مادته، وتريحون الناس منه، ولم يُرد الله ذلك، **هو الآن يطلب صلحنا، وأبينا**، والقتال كل وقت بيننا وبينه.

وعليكم بالجد والعزم، والنهوض والحزم، والقدوم بنفسكم مع ولدنا الذي عندكم، وليكن ذلك في شهر يناير، إلا إذا تعذر عليكم ذلك، ولم يساعدكم الزمان إلى ما طلبنا **فوجهوا خمسين غرابا**[2] في هذا الوقت المذكور[3] ليقع بها بعض التضييق على العدو، حتى يتيسر عليكم الحال،

(١) يشير إلى خير الدين، الذي كان غائبا عن الجزائر.

(٢) نوع من السفن الحربية الخفيفة.

(٣) يعني: يناير سنة ١٥٤٤ .

ولو كان السر في وجودكم لكان في هذا الكفاية في الوقت، وبالجملة لما أن شاع عندنا وعند غيرنا علو شأنكم، وكبر همتكم، وإيفاء عهدكم، وتكميلكم المرغوب من قصدكم- بادرنا إلى الحلول ببابكم، فما علينا فعلناه، ولم يبقَ إلا ما عندكم، فاعملوا بمقتضى ذلك، ولا يسعكم التخلف عنه طبعًا، مع ما نعلمه من سيرتكم.

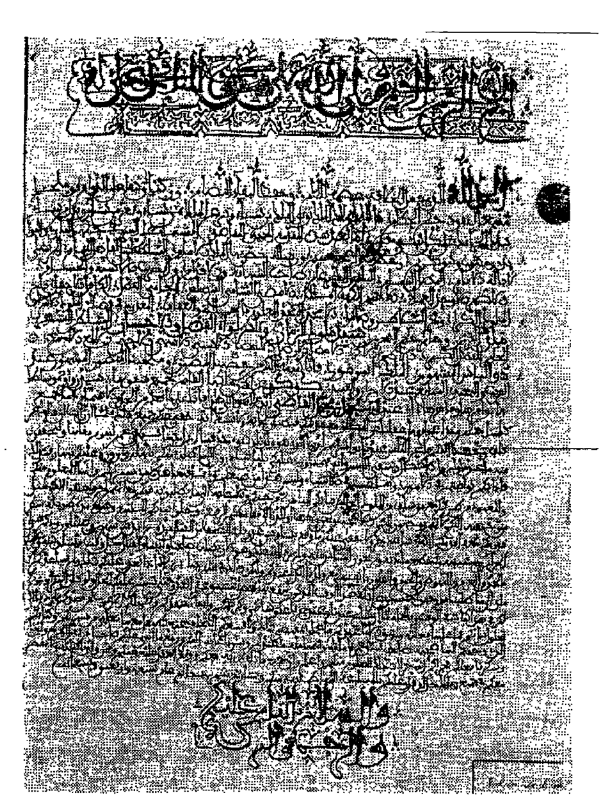
وكتابكم الذي وجهتم إلينا صحبة صاحب سيدي عمر تأملناه، وفهمنا منه ما عندكم، وسررنا غاية السرور، مع ما أثنى عليكم صاحبنا من فعل الخير مع ولدنا، وشكرنا فعلكم، فجزاكم الله خيرا، إن ذلك المعلوم عنكم، واعلم أن جميع ما تلفظ به معكم، ووقع العقد عليه بينكم وبين ولدنا قبلناه، ولا نقصر معكم في جميع ذلك جل أو قل وعليكم بالمسارعة إلى ما طلبناه منكم، وبتاريخ شهر دجامبر عام تسعة وأربعين وتسعمائة، والسلام التام عليكم والرحمة والبركة» اهـ.

رسالة عمر بن أحمد لحاكم بجاية

«الحمد لله والصلاة على رسول الله».

من عمر بن أحمد أصلحه الله إلى القايد المكرم الوجيه المعظم قبطان بجاية شنيور دون الويس، سلام عليكم، وإليه.

اعلم وإن نحن على العهد الأول، وعلى المحبة وتجديد السلطان، ولا بطل مشورتن الأولى، إلا الناس يضحك فينا، أولا اعلش نعمل الآن، إن كان أنتما (أنتم) على العهد الأول أرسل (أرسلوا) للسلطان يعجل علينا بالعمارة، أو نعمل (ونعمل) معكم عقدة ترضيكم وتصركم (وتسركم) والذي حبيت في خاطركم تعمله اعجل بالعمارة قبل أن يفوت الحال فينا وفيكم، وإذا بغيت كتوب عم (عمي)... ترسلهم للسلطان نكتبوهم، واعلم لنا (أعلمنا) بالسلطان أين هو، وبالدوك دالبة، واعملم لنا بالبرنسب أين هو وبالبرنسب ذويه وبالقباطن كلهم أين كانوا ونحن قلن (قلنا) ما يغفلتش على الجزائر لأن هي تضرنا وتضركم، وأيضًا بلغنا أن خير الدين وصاحب فرانسية حاصروا مينة وانكسروا وهل شتى في تلك البلاد، واعجلوا لنا بالجواب وبما كان لنا بالأخبار، وبما في قلوبكم والسلام. اهـ



صورة الرسالة التي بعث بها محمد بن محمد القاضي الى الامبراطور شرلكان

رسالة أخرى من عمر فيها حقيقة رائعة

وهناك رسالة ثالثة، أرى وجوب إثباتها، لأن الإقطاعي يؤكد فيها بالنص أن «بلاد المسلمين» كارهة لهم وأعمالهم ومساعيهم، وإليك بنصها وبرسمها:

«الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد.

عمر بن أحمد أصلحه الله.

إلى سنيور دون ألويس قبطان بجاية أكرمه الله، سلام عليكم والسؤال عن جميع أحوالكم، من صاحبك وخديم السلطان لنبر أدور (الإمبراطور) وخديمكم عمر بن أحمد بعد السلام عليكم، وإليه، نعلمكم بأن العمارة الذي جاءت للجزائر على ذمة بجاية وهم ستة آلاف ترك، وهم قاصدين إلى بجاية، ما ينتضر إلا العيد وصلحنا أحنا وإياهم.

وهم شرط (وا) فينا إذا اصتلحن (اصطلحنا) نحركوا معهم إليكم، الآن إذا كان فيكم ش قوة، أو فيكم على اش نعمل، أو ما زالت قوتكم، اتكافا وقبل لا يعقد الصلح.

لأن نحن كرهتن بلاد المسلمين نحن وازواوة إلا عليكم، ولا يعارنا إلا بكم[١].

وإذا ماكانش منكم، أنتم اعمل (اعملوا) على أرواحكم، وأرسل (وأرسلوا) لسلطنكم يغيثكم ولا قطع الرسل بيننا وبينكم وإلا الخوف مكان

(١) معناه: لأننا نحن ما كرهتنا بلاد المسلمين نحن وزواوة إلا من أجلكم، ولا يعيروننا إلا بكم.

من أين يجوز إليكم الرقاص (الساعي) وإلا انظر حتى أنا أنجيكم كل يوم، وسلم لي على قشتل ومكلص وجوان بايس وعلى كافة أصحبكم والسلام عائد عليكم».

ولم يرسل الإمبراطور الأسطول استجابة لهذه الدعوة، ولم يعر الأمر أدنى أهمية، وانهارت الإقطاعية شيئًا فشيئا في مهاوي الاضمحلال وكان رجال زواوة الأحرار يقفون في الصفوف الأولى يوم تحرير بجاية، وفي كل معارك الجزائر المجاهدة، كما سيمر بك بعد حين.

الحمد لله والصلاة على رسول الله

من عمر بن احمد حفظه الله الى القايد المكرم
الوجيه المعظم قبطان جنابه شنوزلي و والو
بن سلام عليكم والبلاد على حسب العهد [illegible]
وال وعلى المحبة وجد لي السلطان في [illegible] المنشور
من [illegible] الناس يحكي فينا و لا فيكم العكس
بعملها ولا ركان ا[illegible] على العهد الاول والان
للسلطان جعل علينا العمارة او يعمل [illegible]
[illegible] من عندكم ونصرتهم والاي [illegible] حاكم
كم [illegible] اعلى بالعمارة قبل ان يفوت الحال
فينا وفيكم واذا [illegible] كنتم عم ونستر [illegible]
للسلطان [illegible] هو [illegible] واعلم لنا بعد السلطان [illegible]
هو وبالحكم [illegible] الله واعلم لنا بالعمارة الاي عمر
عام [illegible] ابن [illegible] خرجت واعلم لنا ان البر
[illegible] ابن هو و بالبر [illegible] و بالقنا [illegible]
ابن [illegible] على الجزاير لا رضي ان تقع
[illegible] وانتم واما بلغنا ان [illegible] و[illegible]
[illegible] مسيبة وانكسروا و[illegible]
[illegible] واعطوا لنا بالجواب [illegible] من الاخبار [illegible]
[illegible] والسلام

(رسالة عمر بن أحمد «١»)

الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد

الى مسيو ردور الوسر فيكا رجابه

اكرمه الله سلام عليكم والسوال عن جميع احوالكم من عاجكه وجح

بيم السلطان لنبردو ر وخديمكم عمر بن احمد بعد السلام عليكم

واليه نعلمكم بان العمارت الاحجاز للمراكب على من عجابة

وهم سنة الف ترك وهم فعلا الاجابة بابتنو الدار العبيد وطلبنا

خروا باهم وهم شركا فينا اذا اصلحتم شركوا معكم اليكم

للدرا وكان فيكم شروة او فيكم على الذي تعمل او مال الدقو

نكم انتقا وفيه لا يجوز الطلح للرجيع هنا اكل المسلمين

فيها زواوة لا عليكم ولا علينا زيا الاربكم واذا كان ثمن

منكم انتم اعمد على ارقاعكم وادبلا السلطنكم تمستكرو

ولا نقطع الرسل بيننا وبينكم واللا الحوف مكان من

ابن جحوز اليكم الرفاعو الدانكر جي انا الحبكم كل يوم

وسلم الى علي فينشل وطلع وجواتي باسر وعلى

كافة احبابكم والسلام تاريخ عليكم

(رسالة عمر بن أحمد «٢»)

عودة إلى تلمسان

بقيت الحالة في تلمسان مضطربة متأزمة، وبقى ملكها محمد السابع قابعا تحت السيطرة الإسبانية، متلكئا مع ذلك في تنفيذ المعاهدة المشئومة التي عقدها معهم، والتي أعلن شعب تلمسان الأبي الشريف سخطه عليها وعدم اعترافه بها، إلى أن جاءت البشرى للمسلمين، بانكسار شرلكان وجيشه الصليبي تحت جدران مدينة الجزائر، وأخذ الله لهم أخذ عزيز مقتدر، فقويت عزائم التملسانيين، ورأوا اقتراب ساعة الفرج والخلاص.

فتحت تأثير الرأي العام وحُبا في مسايرته، من أجل ضمان البقاء، أراد الملك محمد السابع أن يتقرب إلى الجزائر المنتصرة، وأرسل لمحمد حسن أغا (باشا) يسلمه قلعة المشور، إشعارا له بدخوله تحت حمايته، لكن هل هنالك من يأمن جانب هذا الملك بعد ما أظهرته الأيام من تلاعبه ومن انتهازيته، ومن سوء طويته؟

ولم يقتنع بذلك أحد، وكان أخوه أبو زيان أحمد أقل الناس اقتناعا بذلك، فرأى -وشاركه أهل العقد والحل في رأيه هذا- أن الحالة الجديدة التي أسفر عنها انتصار دولة الجزائر العظيم، وانهزام الإسبان ومجموعتهم، تقتضي أن تقوم بتلمسان حكومة جديدة، طاهرة، لم تشترك مع الإسبان، ولم تنغمس في حمأة التعاقد معهم فشمر عن ساعد الجد، وأعانه قومه، وأرسل إلى محمد حسن باشا يستمد منه العون والتأييد، فلم يتثاقل الباشا اليقظ النشيط، وأسرع الخطى نحو تلمسان، على رأس جماعة من جنده، وهناك اجتمع الحليفان على محمد السابع، فخسر المعركة، وانهزم عن تلمسان، واعتلى أبو زيان أحمد الثاني عرش بني زيان، متضامنا مع الجزائريين، واصلا لما أمر به الله أن يوصل، واستبشر الناس.

لكن مصيبة تلمسان بعرشها المهلهل كانت عظيمة، ومأساتها لم تنته بعد، فالملك المخلوع محمد السابع ذهب مع بقايا أنصاره والمنتفعين بحكمه إلى وهران يستعدي الأسباب على قومه وأهل مدينته ويزين لهم القيام لاحتلال المدينة وإبعاد الجزائريين عنها؛ حيث إن محمد حسن باشا قد رجع لمدينة الجزائر تاركًا لأبي زيان أربعمائة من رجال الجيش التركي، عونًا وسندًا.

معركة شعبة اللحم

خف الكونت الباسل الجريء دالكوديت حاكم وهران، لإعانة الملك المخلوع، وأمده بجيش من الإسبان، وبعتاد حربي كبير، وتقدم على رأس جموعه، ومرتزقته ومن معه من الإسبان نحو تلمسان سالكا طريقا خلفيا.

وعلم أبو زيان ورجال المملكة بهذا الخطر، فقاموا خفافا وثقالا لدرئه، وخرجوا ومعهم رجال المدد العثماني، فالتقوا بالملك المخلوع ومن معه من إسبان في مكان يعرف «بشعبة اللحم» على نحو ٦ كيلو مترات من الشمال الشرقي لمدينة عين تموشنت وتصادم الجمعان، واستبسلا في القتال، لكن حمية الإيمان، وعزة الشرف جعلت جماعة المسلمين تتغلب على الإسبان الذين كان يقودهم الجزال ألفونس دي مرتينز، ومن معهم من أشياع ومرتزقة محمد، فأحاطوا بهم من كل جانب وإذا قوهم مرارة الحتوف، فأفنوهم عن آخرهم، لم ينجح منهم أحد، إلا ذلك الملك الخسيس، الذي فر أثناء المعركة مسابقا الريح، وأخذ ينفخ فيهم روح العزم على الأخذ بالثأر، وكان ذلك في شهر جانفي (١٥٤٣) (شوال ٩٥٠).

انتهاك حرمة تلمسان

علم شرلكان هذه الأنباء المحزنة، فزادت في غمه وكربه، لكنه علم أنه إذا ما ترك الحبل على الغارب فإن آمال إسبانيا وآمال المسيحية كلها سوف تنهار

ولن تقوم بعدها قائمة للدولة الإسبانية في البلاد، وأن آمال وهران وبجاية وغيرها من مراكز الانطلاق الإسبانية هو السقوط والاندثار، إذا ما تمكن الجزائريون من الاستقرار نهائيا بتلمسان.

لهذا عزم على أن يلعب ورقته الأخيرة، وأن يستخلص تلمسان من النفوذ الجزائري، ويعيد إليها السلطان الإسباني، وينتقم بذلك في نفس الوقت للفاجعة التي حلت به وبجيشه وأسطوله أمام العاصمة الجزائرية، فبعث المدد الكبير من الرجال والعتاد إلى وهران، تلبية لطلب الكونت دالكوديت، وما جاءت سنة (١٥٤٤) (ذي الحجة ٩٥٠) حتى تقدم الكونت العجوز على رأس جيش إسباني قوامه ١٥٠٠٠ مقاتل مسيحي، يعينهم مثل عددهم، أي ١٥٠٠٠ من أعراب الناحية سواء أكانوا من أنصار محمد السابع، أو من الذين يتبعون كل ناعق من أجل النهب والسلب، فهاجموا تلمسان التي قاتلت قتالا شديدًا من أجل عزتها وشرف استقلالها، لكن الجيش الذي كان يقوده ملكها أبو زيان أحمد قد انهزم رغم قوته المعنوية وصلابة رجاله في معركتين متواليتين كانت الأولى في سهل أنكاد، والثانية تحت جدران المدينة وبين حصونها، أمام الكثرة الكاثرة من أعدائه، فدخلت جموع الإسبان ومن معهم مدينة تلمسان البائسة، وأمعنوا في نهبها وانتهاك حرماتها، وارتكاب كل الموبقات فيها، وبعد أن نكلوا بأهلها تنكيلا ذريعا، وضعوا على العرش صنيعتهم محمد السابع، وأيقنوا أنهم بذلك قد أمنوا إلى أمد طويل جانب هذه المملكة التي أصبحت -في نظرهم- جزءا من إمبراطوريتهم، ثم عاد الكونت دالكوديت إلى وهران، بعد أن وصم شرفه العسكري بوصمة عار وشنار، بارتكابه هذه الدنايا الخسيسة الفاجرة في مدينة طالما رفعت منار العلم والمعرفة والحضارة الحقة، أعلى عليين، وفي قوم ما كان ذنبهم إلا الدفاع عن دينهم، وعن شرفهم، وعن مملكتهم التي أقامتها سواعدهم وسواعد آبائهم وأجدادهم من قبلهم.

لكن الشعب لا ينسى، والشعب يعرف كيف ينتقم ولو بعد حين.

الشرف يرفع رأسه من جديد

فشعب كشعب تملسان، وملك كأبي زيان أحمد، وزعيم دولة ناشئة جامعة منتصرة، كمحمد حسن باشا، لا يمكن أبدا أن يصبروا على أذى ولا أن يناموا على قذى، فصمموا -والشعب إذا صمم فعل- على أخذ الغادر وأنصاره، أخذ عزيز مقتدر، وما هو إلا أمد وجيز حتى جمع أبو زيان أحمد الثاني حوله رجال الشعب الأباة الأشاوس، وأمده محمد حسن باشا، ممثل خير الدين، برجال وعتاد، فأعاد الكرة على خصمه (أخيه) وصادمه حوالي تلمسان فخرج محمد السابع بنفسه على رأس مرتزقة من أسبان وأعراب، لملاقاة أخيه، فدارت الدائرة عليه في معركة «الزيتون» ورجع إلى تلمسان، يريد الاستمرار على المقاومة، لكن الضمير الشعبي قد ثار في مدينة تلمسان ثورة جامحة، طاغية، وتقدم أحرار الشعب وفتيته الأبرار نحو أبواب المدينة فأوصدوها في وجه الملك الخسيس، ووقفوا على الأسوار يصدونه ويصدون جموعه عن دخولها، ونادوا بإرجاع الملك إلى ملكهم الذين ارتضوه، أبى زيان أحمد الثاني، فتربع من جديد على عرش كانت الأيام قد حكمت عليه بالزوال والاضمحلال بعد قليل.

أما الملك المخلوع الخسيس، الذي كان مع خسته وانتهازيته، للأجنبي، لا يخلو من شجاعة ولا من عزيمة، فإنه أراد الاستمرار على المعركة، وأراد جمع جموع أخرى من أسبان وهران، ومن أعراب الداخل، وأراد الدخول من جديد إلى تلمسان للانتقام من أهلها، فذهب إلى بلاد أنكاد، حيث تسكن قبيلة ذات حول وقوة وهي تقع في الجنوب الغربي من مدينة وجدة، على نحو الثلاثين كيلومترا- يستصرخها، ويحاول الانتصار بها، لكن المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، فكيف بتلك القبائل المحيطة بتلمسان وقد لدغت من جحر واحد المرار العديدة، فأحاط رجال الشعب بذلك الملك وجماعته، وأعدموهم عن آخرهم، وطووا صفحة عار ومذلة، لطخت حكم بني زيان،

وقضت على نجمهم، بعد حين، إلى الأفول، وأمنت تلمسان يومئذ - متضامنة مع الدولة الجزائرية- شر غائلة الإسبان، تحت إمرة ملكها الشعبي، أبي زيان أحمد الثاني.

جهاد خير الدين في البحر ضد إسبانيا

لم يبقَ خير الدين طويلا بمدينة الجزائر، عندما جاء للإسهام في الدفاع عنها- على رأس أسطوله، فوجد أن قوة الله القاهرة، وسواعد الجزائريين القوية، قد قضت على أسطول الإسبان وعلى جيشهم، فاكتفى بتفقد أمور المملكة، والاطلاع على سيرها، ثم انطلق بأسطوله، نحو البلاد الإسبانية، يذيقها العذاب الأليم، وقد أثبت فوق كرسي النيابة عنه، على رأس الحكومة، ابنه الروحي وخلَفه الوفي، محمد حسن آغا، الذي أنعم عليه السلطان برتبة الباشوية إثر نصر سنة (١٥٤١) العظيم.

وكان البحر المتوسط قد خلا يومئذ تقريبًا من أسطول إسبانيا الذي كان يضمد جراحاته ويحاول استرجاع قوته، فانطلقت السفن الجزائرية نحو السواحل الإسبانية، ونحو السواحل الطليانية التي تحتلها إسبانيا، وتوالت هنالك الغزوات، وساد الرعب والفزع هاتيك البلاد التي بقيت مفتوحة في وجه الجزائريين، يجوسون خلالها، ويتوغلون داخل أرضها، يغنمون ما فيها، ويأسرون ويسبون من يختارونه من رجالها، ونسائها وصبيانها، ينتقمون بذلك لما حل بمسلمي تونس، ووهران، وتلمسان وبجاية، وغيرها على يد الغزاة الإسبان، وكانت غنائم المسلمين لا تحصى ولا تكاد تعد.

خير الدين يحتل طولون ونيس

في هاتيك الأثناء كانت الحالة قد ساءت من جديد بين إسبانيا وفرنسا، وكان الإسبانيون قد قتلوا في لومبارديا، بإيطاليا، رسولين فرنسيين، كانا

يخترقان البلاد الطليانية المحتلة، وهما تحت لواء السلام المنعقد بمدينة نيس، وكان أولهما يحمل رسالة لدولة البندقية، والثاني يحمل رسالة للسلطان سليمان، فعادت الحرب بين الدولتين سيرتها الأولى، ومد السلطان سليمان يده من جديد إلى فرنسو الأول ملك فرنسا، ضد العدو المشترك، شرلكان، وتولى قيادة الحركة العثمانية القبودان باشا، خير الدين، واتخذ من مدينة مرسيليا مقرًّا عامًّا للأسطول العثماني والجيش العثماني.

هناك، في مرسيليا، باع خير الدين ورجال أسطوله الغنائم التي جاءوا بها من إسبانيا، وباعوا الرقيق الإسبان، من رجال ونساء، فتداولتهم أيدي القوم واشتراهم الفرنسيون بضاعة رابحة، فكانوا يبيعونهم بعد ذلك، مقابل أرباح لتجار من يهود ليفورنو الطليانية وهؤلاء كانوا يحققون لأنفسهم مكاسب عظيمة ببيع هؤلاء الأسرى والسبايا، إلى الإمبراطور شرلكان، الذي كان يرجعهم بعد ذلك إلى بلادهم.

وجاء الأسطول الفرنسي، بأمر الملك فرنسو الأول إلى مرسيليا، تحت قيادة الأمير فرنسو دي بربون، فوضع نفسه تحت تصرف خير الدين الذي أصبح من جراء ذلك القائد العام للقوى المتحالفة الفرنسية العثمانية.

ولقد كان أول عمل قام به خير الدين باي لرباي الجزائر، على رأس القوى المجتمعة، هو مهاجمة مدينة نيس، وتخليصها من بين أيدي دوق سافو، تحت التاج الإسباني، وإرجاعها لفرنسا.

ثم استقر خير الدين بأسطوله في مدينة طولون البحرية الشهيرة، واتخذها قاعدة عامة للجيش العثماني والأسطول الإسلامي، بعد أن غدرته الأغلبية الكبرى من سكانها وتركوها، بأمر ملك فرنسا، بين أيدي المسلمين.

ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الفرنسي، وأخذت الدعاية المسمومة تجوب أرجاء أوربا، يحملها الإسبان، وغلاة المسيحية،

ويستثمرونها إلى أقصى حدود الاستثمار، من ذلك قولهم: إن خير الدين قد اقتلع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع في طولون إلا أصوات المؤذنين، وبقي خير الدين والجند الإسلامي بمدينة طولون إلى سنة (١٥٤٤).

ولقد كان شرلكان خلال هذه الآونة، هاجم شمال فرنسا الشرقي، وانهزم تحت جدران مدينة شاطوتياري، ثم اضطر للذهاب إلى ألمانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتي ضد الكاثوليكية، وضده بصفة خاصة، قائمة على قدم وساق، واضطر -وقد هوى نجمه وذبل عوده، بعد نكبته السالفة الذكر أمام الجزائر- إلى عقد معاهدة مع ملك فرنسا، يوم ١٨ سبتمبر (١٥٤٤) في مدينة كرسبي دي فالو وما كان إلا صلحًا مؤقتا.

آخر غزوات خير الدين

غادر خير الدين ورجاله وأسطوله مرسى طولون من جراء هذا الصلح في شهر أفريل، راجعًا إلى إستانبول، وبما أن السلطان كان لا يزال على حالة حرب مع إسبانيا، فقد استمر خير الدين مباشرا لأعماله الحربية أثناء رجوعه، فوقف كما يقول مؤرخو الإفرنج أمام مدينة جنوة، وارتاع مجلس شيوخها مما يمكن أن تسفر عنه هذه الوقفة، فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة، مقابل أن يستمر على طريقه، ثم أناخ على جزيرة ألبا -التي أصبحت فيما بعد معتقلا مؤقتا لنابليون بونابارت، وكانت من ممتلكات إسبانيا- فاحتلها، وغنم ما بها، كما احتل عددًا من المدن الساحلية، من بينها مدينة ليباري، ورجع إلى إستانبول مثقلا بالغنائم والأسلاب، وقوبل فيها كما يقابل الأبطال الفاتحين.

موت خير الدين ومحمد حسن باشا

ثم جاء الموت يضع حدًا لجهاد البطلين العظيمين الذين أسسا بالفعل مملكة الجزائر العثمانية، وكلًلا هامتها بتاج النصر والفخار: خير الدين وابنه الروحي وممثله محمد حسن أغا (باشا).

فمحمد حسن رحمه الله قد فارق الدنيا، معززا مكرما مجاهدا في سبيل الله والوطن خلال سنة (١٥٤٤) ووضع الجند على رأس المملكة الجزائرية، مكانه -بصفة مؤقتة- القائد الحاج بكير، ريثما يعين لهم ملكهم خير الدين الباي لرباي- من يقوم مقامه على رأس المملكة.

أما خير الدين، فقد وافاه الأجل المحتوم، في مدينة إستانبول، وقد بلغ عنفوان مجده وفخاره، وهو في سن الثمانين، قضى منها زهاء الثلاثين سنة وهو على رأس مملكة الجزائر الجديدة، وقضى أواخرها، جامعًا بين مملكة الجزائر، وبين إمارة البحر العامة للأسطول الإسلامي العثماني، وكانت وفاته في شهر ماي سنة (١٥٤٧).

يقول المؤرخ الفرنسي الكبير دي قرامون، الآنف الذكر، في كتابه «تاريخ الجزائر تحت سلطة الأتراك» ما يلي:

«يعتبر خير الدين المؤسس الحقيقي لمملكة الجزائر».

«فأخوه عروج قد أدرك منذ الوهلة الأولى، أنه لا يمكن لأي فاتح أن يستقر على البلاد الساحلية ما لم يكن له السلطان المطلق على البلاد الداخلية، وخير الدين عمل بهذا المبدأ وسعى سعيه الحثيث طوال حياته من أجل وحدة السلطة، لقد بذل في ذلك السبيل أقصى ما لديه من طاقات عظيمة: شجاعته وشطارته، وخاصة شدة عزمه وتصميمه، مما جعله يتغلب على العديد من الأعداء في ظروف جد حرجة. . .

وكان حلم حياته كلها هو أن يؤلف من كامل بلاد الشمال الإفريقي دولة واحدة مترامية الأطراف، ولو أنه تمكن من تحقيق أمانيه لأصبحت هذه الدولة قوة بحرية من الطراز الأول، تبوِّئ الإسلام المكانة الأولى فوق عباب البحر المتوسط...

ولقد تمكن من إقناع السلطان سليمان بهذه الخطة، وكان سليمان يُكِنُّ له حبا عميقا راسخًا، لكن حسد رجال الديوان، ومساعي سفرائنا، قد عاقت سير أعماله مرارا عديدة، ولقد ترك تحقيق هذا الهدف العظيم ميراثًا لخلفائه الذين تولوا الأمر بعده، والذين لقوا في سبيل تحقيق هذا الهدف نفس العوامل التي عاقت خير الدين عن التنفيذ...

كذلك ترك لحلفائه فكرة الحذر من جيش الإنكشارية، وقد أدرك بثاقب فكره أن هذا الجيش سيكون بماله من الخيلاء والعجب والفوضى سببًا في انحطاط ثم خراب الدولة...

ولم يترك من الولد بعده إلا ابنه حسان، وكانت أمه عربية من مدينة الجزائر».

وهكذا انتهى عصر «خير الدين» العظيم رحمه الله وجازاه عن الجزائر وعن الإسلام خيرًا.

الفصل الثامن

حسان باشا بن خير الدين

اعترافًا بفضل خير الدين وتلبية لرغبته ولرغبة الجزائريين أسند الخليفة السلطان سليمان العظيم رتبة باي لرباي إلى ابن خير الدين الوحيد حسان الذي ولد بمدينة الجزائر، وتربى بين أهلها، وتثقف على يد علمائها، وكانت أمه سليلة إحدى بيوتاتها الكبيرة.

ولقد قضى حسان شبابه الأول عاملا في صفوف الجيش الإسلامي، مجاهدًا برًّا وبحرًا، إلى أن توفي الباشا محمد حسن أغا، وكان الهرم قد أدرك الباي لرباي الكبير خير الدين، وأدرك دنو أجله، فبادر السلطان بتعينه مكان والده، ومكان محمد حسن أغا.

تلمسان مرة أخرى

تركنا أبا زيان أحمد الثاني، ملكًا على تلمسان معترفًا بالوحدة مع الجزائر ورجالها، بعد مصرع أخيه محمد السابع.

لكن الصفو لم يدم طويلا، ولعبت السياسة ولعبت الدسائس ألعابها، فأخذ الملك يتقرب من الإسبان، وأخذ يبتعد عن الجزائريين، وأخذت سيرته مع قومه تسير في طريق الفساد والاضطراب، فأعلن خلعه عن العرش وبويع الحسن -أحد إخوته- بالملك، وذهب أبو زيان أحمد الثاني، إلى وهران يطلب من الإسبانيين العون والمدد، ويتعهد لهم بأنه سيكون لهم المخلص الأمين.

رأى الكونت دالكوديت وجوب اغتنام هذه الفرصة الذهبية، فجهز جيشه، وجمع إلى جانبه جموع الخاضعين من بني عامر وفليته، وبني راشد وعلى رأسهم قائدهم المنصور بن بو غانم، وتقدموا إلى تلمسان لإبعاد الملك الحسن وإعادة العرش لأحمد الثاني.

وما كاد جيش الإسبان وحلفاؤه يتحرك من وهران، حتى خرج حسان باشا على رأس القوة الإسلامية من مدينة الجزائر لكي يسد الطريق في وجه الإسبان، وينصر حليفه الملك الحسن في تلمسان، وذلك في أوت سنة (١٥٤٧) فالتقى الجمعان، الإسلامي والإسباني، قرب بلدة عربال، التي تقع أسفل البحيرة المالحة، على بعد ٢٥ كيلومترا جنوب وهران.

وقبل التحام المعركة، فوجئ حسان بنبأ موت أبيه خير الدين باشا، وبلغه ما أحدثه ذلك النبأ من هلع واضطراب في نفوس الخاصة والعامة بالجزائر، وخشي أن يقع خلفه من جراء ذلك ما لا تحمد عقباه، فقرر العودة حالًا إلى الجزائر، ورجع طريقه القهقرى حتى وصل مدينة مستغانم، تاركًا أمر تلمسان لساعة أخرى، والأهم مقدم على المهم.

أما الكونت دالكديت القائد الماهر، فلم تخفَ عليه هذه الحركة، ولم تخف عنه أنباء موت خير الدين، وما تبع ذلك من جزع واضطراب، فقرر فورًا اقتفاء أثر حسان خير الدين، على أن يقلب انسحابه الاختياري إلى هزيمة، وعلى أن يحتل من ورائه مدينة مستغانم.

وحل حسان خير الدين بمستغانم، والإسبان يقتفون خطاه، وقد احتلوا دون قتال مدينة مازغران، فاتفق أهل مستغانم المجاهدون مع حسان خير الدين على الدفاع عن المدينة دفاع المستميت، وصد العدو عنها مهما كان الثمن، وأرسلوا يستنفرون العرب الذين يلبون داعي الجهاد والشرف، ويستقدمون رجال الحامية العثمانية من تلمسان.

واحتدم القتال ثلاثة أيام متوالية تحت أسوار مستغانم، ولم يكن الإسبان يتوقعون ذلك أصلا، وأصيبوا بخيبة أمل مريرة، لكنهم صمموا على احتلال المدينة مهما كلفهم الأمر، واستبسل الجانبان في القتال.

وجاء المدد للمسلمين: حامية تلمسان العثمانية، وقد التف حولها آلاف من المجاهدين العرب وكان ذلك يوم ٢ أوت (١٥٤٧)، فتكافأت القوى وهاجم الإسبان المدينة بعد ذلك بقوة وبعنف شديدين، واستطاعوا خمس مرات رفع راياتهم فوق بعض أسوار المدينة، إنما كانت الكرة الإسلامية خاطفة ساحقة كل مرة، تبعد العدو حالا، وتسد الثلمة.

استمرت الملحمة على هذه الصفة أسبوعًا كاملاً، وعلم الكونت دالكوديت أنه قد أخطأ التقدير، وأنه قد خسر المعركة، فقرر رفع الحصار، والرجوع بجنده إلى وهران، وابتدأت عملية الانسحاب فعلًا يوم ٢٨ أوت بعد غروب الشمس.

لكن حمية المسلمين من مجاهدي مستغانم، ومن العثمانيين والعرب الذين تركوا الدنيا وما فيها وراء ظهورهم من أجل الدفاع عن حرمة الوطن وعن بيضة الإسلام، ما كانت لتترك الأعداء ينسحبون بحرية، دون أن يثخنوا فيهم، وأن يحاولوا قلب انسحابهم إلى هزيمة وفرار.

ودون إضاعة وقت سدى، خرج حسان خير الدين على رأس ١٥٠٠٠ من الرجال و٣٠٠٠ من الفرسان المجاهدين يقتفون أثر الإسبان خطوة بخطوة، ويضيقون عليهم الخناق، يقول المؤرخ الفرنسي دي قرامون السالف الذكر:

«تملك الرعب والفزع -من جراء ذلك التتبع العنيف- قلوب الجيش الإسباني فأصبح رجاله لا يفكرون في المعركة، إنما يفكرون في الفرار من أجل النجاة، وما استطاع القادة الإسبان جمع الفارين من جيشهم، والقيام بحركة مضادة للهجوم الإسلامي، إلا بشق الأنفس، وما تمكن الإسبان من الوصول إلى مدينة وهران، والاختفاء وراء أسوارها، إلا بجهد جهيد» اهـ.

«وفي هذه الأثناء، وقد بقيت تلمسان دون دفاع، تمكن أبو زيان أحمد وجموعه من دخول المدينة، واسترجاع ذلك العرش الواهي، معترفًا بالتبعية

الإسبانية التي طالما كافح ضدها، والتي كان كفاحه ضدها سببا لوصوله إلى العرش أول مرة وخلعه شقيقه المحتمي بإسبانيا، لكن هذا البرق الخلب، الذي كان نتيجة ظروف خاصة، ومفاجئة لم يدم طويلا».

استقرار الدولة الجزائرية

لم يكد حسان خير الدين يستقر من جديد بمدينة الجزائر، ولم تكد أنباء هذا الاستقرار تصل أطراف المملكة مصحوبة بأنباء النصر العظيم الذي سجله المسلمون بمستغانم- حتى هدأت الأفكار، وزال الاضطراب، وعادت إلى الأنفس ثقتها، واطمئنانها وأيقن الناس أجمعون أن حسان ابن خير الدين خير خلف لخير سلف، واستعدوا تحت هذه القيادة الحكيمة لاستئناف أعمال التوحيد واستئناف عمليات الجهاد.

تدخل دولة الأشراف السعديين المغربية
ونهاية دولة بني زيان

يقول الشيخ أبو العباس أحمد الناصري، في كتابه الشهير: «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى».

«اعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون: إن أصل سلفهم من ينبع النخل من أرض الحجاز، وأنهم أشراف، من ولد محمد النفس الزكية، رضي الله عنه، وإليه يرفعون نسبهم»

إلى أن يقول: «وممن طعن في نسبهم المولى محمد بن الشريف السجلماسي أول ملوك العلويين، صرح بذلك في بعض الرسائل التي كانت بينه وبين الشيخ ابن زيدان منهم، قال فيها: وقد اعتمدنا في ذلك (يعني في عدم شرفهم) على ما نقله الثقات المؤرخون لإخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس، ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر، فما وجدوكم إلا من بني سعد بن بكر».

أي: من بني سعد الذين منهم حليمة السعدية مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وسواء أكانوا من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من بني سعد فإن هؤلاء الأشراف السعديين قد أنقذوا المغرب الأقصى من خطرين عظيمين، كلاهما شر وكلاهما بلاء مستطير: خطر الانهيار الداخلي الذي أصاب بني وطاس المرينيين، حتى انحلت الدولة وأصابها الخراب والدمار، وتمزقت أوصالها، بما ليس هذا مقام ذكره، وخطر العدوان البرتغالي، الذي تفاقم أمره، حتى ملك -كما رأينا في التمهيد- كل المدن الساحلية، ومقاطعة الدوكالة

برمتها، وأصبح مهددا لحياة ولكيان المغرب الأقصى كدولة مستقلة، ذات عزة وشرف وسلطان عظيم.

أبلى السعديون الذين قدمتهم الأمة لتولي قيادتها في الجهاد، البلاء الحسن في إنقاذ السواحل المغربية من أيدي البرتغال، واستخلاص مقاطعة الدوكالة برمتها من بين براثنهم (١٥٤٠) وما كانت هذه الأعمال تتم دون أن تنقلب قيادتهم للجهاد، توطئة لتأسيس ملك جديد، على أنقاض ملك منحل، ففعلوا الأفاعيل ببني وطاس المرينيين، في وقائع طويلة كثيرة، واستقروا بمدينة مراكش.

ثم إن الشريف محمد المهدي، مؤسس دولة السعديين جهز جيشًا قويًا من أشاوش المغرب، وضعه تحت قيادة ابنه الشريف محمد الحران، وبعث به لكي يتولى فتح تلمسان، وبلاد المغرب الأوسط (سنة ١٥٥٠).

يقول الشيخ الناصري، المذكور آنفا:

«فلما فتح أبو عبد الله الشيخ، حضرة فاس في التاريخ المتقدم، تاقت نفسه إلى الاستيلاء على المغرب الأوسط، وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه، مع أنهم أجانب من هذا الإقليم ودخلاء فيه، فيقبح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم، لا سيما وقد فر إليهم عدو من أعدائه، وعيص من أعياص أقتاله، وهو أبو حسون الوطاسي[1] فرأى الشيخ من الرأي، وإظهار القوة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدءوه، فنهض من فاس قاصدًا تلمسان في جموعه إلى أن نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر، وقتل في حصارها ولده الحران، وكان نابا من أنيابه وسيفا من سيوفه، ثم استولى

---

(١) لم يكن أبو حسون عند الجزائريين، بل كان يبذل المساعي لدى إسبانيا والبرتغال كما ستأتيك أنباؤه مفصلة بعد حين.

الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى، سنة سبع وخمسين وتسعمائة (١٥٥٠) ونفى الترك عنها وانتشر حكمه في أعمالها إلى وادي شلف، ثم كر عليه الأتراك وأخرجوه من تلمسان، فعاد إلى مقره بفاس ثم عاود غزو تلمسان حين بلغه قيام رعاياها على الترك، وانحصار الترك بقصبتها، فأقام مرابطًا عليها أياما فامتنعت عليه، وأقلع عنها، ولم يعد لغزوها بعد ذلك» اهـ.

كيفية الوقائع والانتصار الجزائري العظيم

لقد تعمدت نقل الفقرات السالفة عن المؤرخ المغربي الكبير؛ لأنها تبين لنا -على اختصارها- حقيقتين:

أولاهما: أن الملك السعدي العظيم، هو الذي تولى كبر هذا القتال، وملك زمام المبادأة، من أجل غايتين، هما إبعاد العثمانيين عن أرض الجزائر من جهة، وضمها إلى المملكة المغربية الجديدة من جهة أخرى ثم مبادأة الجزائريين الحرب قبل أن يبدءوه.

وثانيا: أن تلمسان -المدينة الأبية الفحلة- لم تكن راضية أولا، ولم تكن راضية أخيرا بهذه المحاولة، وليست الحامية العثمانية القليلة العدد هي التي تثبت وحدها بل الشعب أحراره وشبابه ومقاتلوه، ثم الذين ثبتوا هذا الثبات العجيب، طيلة تسعة أشهر، كما ثبت أجدادهم من قبل، سنوات عدة، أمام الحصار المريني الشهير الذي أبقى أثره الفني الكبير «منارة المنصورة».

وتلمسان التي لم يستطع أبو عبد الله الشيخ فتحها أخيرًا وتولى عنها بعدما بلغه نبأ انحصار الأتراك فيها داخل القلعة- لم تدافع عنها الحامية المحصورة بالقلعة فحسب، بل دافع عنها الشعب، كل الشعب إلى جانب تلك الحامية، وكانت نتيجة هذا الدفاع -الذي أنجده الجزائريون العثمانيون- بقاء المدينة

الخالدة تلمسان ضمن هذه الوحدة الجزائرية الشاملة درة في تاج الدولة الجديدة.

ولنذكر الآن بعد هذا البيان كيفية وقوع الحوادث:

في سنة (١٥٥٠) جهز حسان خير الدين جيشًا عرمرمًا، قوامه خمسة آلاف رجل من الجزائريين رماة البنادق، وألف فارس منهم، وثمانية آلاف رجل من مجاهدي جبال زواوة تحت إمرة سلطان قلعة بني عباس السيد عبد العزيز، وخرج الجيش من مدينة الجزائر، جاعلًا وجهته مدينة وهران، لاستخلاصها من يد العدو، استثمارًا للهزيمة التي حلت بالإسبان تحت جدران مستغانم.

وإن الجيش لفي طريقه نحو مستغانم، حين بلغته أنباء أقضت مضاجع القيادة وجعلتها تغير وجهتها وتغير هدفها، وتصوب حرابها ونيران بنادقها لصدور المسلمين بدل صدور الصليبيين:

بلغها أن الملك السعدي قد احتل تلمسان، وتقدم منها إلى مستغانم فاحتلها أيضًا، وأنه متقدم نحو مدينة الجزائر، وقد وصل إلى مجرى نهر شلف.

هنالك شكَّل الجزائريون فرقة مقاومة صلبة، وضعوا على رأسها القائد حسان قورصو، فسارت توًّا إلى مجرى نهر الشلف، والتقى الجمعان، والتحمت نيران المعركة، وانهزمت جموع الشريف السعدي راجعة إلى الخلف، واستثمر حسان قورصو هذا الانهزام، فأرسل بفرقة استرجعت منهم مدينة مستغانم.

هذا هو الدور الأول من هذه المعركة المؤلمة.

أما الدور الثاني، فقد تم على الصفة التالية:

أرسل الشريف مددًا لجيشه، يبلغ عدده عشرين ألف رجل، تحت قيادة ابنه الشريف عبد القادر، وربما لم يكن مقصده يومئذ إعادة احتلال الغرب الجزائري، بل كان مقصده صد الجزائريين عن دخول بلاد المغرب.

فعند حدود المغرب، وحوالي قبة سيدي موسى، التي كانت دماء الشهيد البطل عروج لا تزال طرية فوق أرضها- التقى الجمعان مرة أخرى، وكان المجاهدون من زواوة هم الذين تصدوا للصدمة الأولى، وتبعهم بقية الجيش فكانت المعركة حارة عنيفة، أسفرت عن مقتل الشريف عبد القادر قائد الجيش المغربي، ورجوع هذا الجيش إلى ما وراء الملوية.

وعندئذ عاد الجزائريون إلى تلمسان، فلم يكن بها يومئذ لا ملك ولا شبه ملك، بعد كل الذي حدث، فنصَّبوا على العرش الأمير الحسن بن عبد الله الثاني، ولم يكن بيده شيء من الأمر؛ إذ إن الحكم الفعلي كان للقائد العثماني سفطة، الذي بقي بين أيديه من الجيش العثماني بالمشور ١٥٠٠ رجل، وبقي الملك رهين قصره، قاصر النظر، فاسد السيرة، ظالمًا متعسفًا، ضمن منطقة نفوذه الضيقة، فضاق الشعب ذرعًا بهذا الخيال المزيف، واجتمع مجلس العلماء وأعلن خلعه، سنة (١٥٥٤/ ٩٢٦هـ) وأعلن صالح رايس يومئذ نهاية دولة بني زيان، وانضمام تلمسان نهائيًّا إلى الدولة الجزائرية وإلى الأبد.

أما الملك السابق أحمد الثالث الذي أبعده الأشراف السعديون عند احتلالهم تلمسان، والذي طابت سيرته أولا، وساءت سيرته أخيرا، والذي حكم باسم إسبانيا مدينة تلمسان- فقد مات في وهران بعد ذلك، بائسًا حزينًا، فاقد الأمل.

محاولة تحديد الحدود والإفراج عن بني واطاس

كان السلطان السعدي عندما احتل مدينة فاس سنة ٩٥٦هـ ألقى القبض على جميع الوطاسيين المرينيين بها، وأرسل بهم مصفدين بالأغلال إلى مدينة مراكش، وكان لهم أنصار ومحبون، هالهم الأمر وساءهم، كما كان آخر ملوكهم أبو حسون قد نجا بنفسه، داعيًا لشخصه ولبني وطاس المرينيين.

فلما وقعت الواقعة، واصطدم الجانبان -المغربي والجزائري- تلك الصدمة المؤلمة القاسية، ورجع المغاربة إلى ما وراء وادي الملوية- أقدم السلطان العثماني على خطوة طيبة من أجل توطيد السلام وجمع الشمل، فأرسل وفدا من كبار العلماء، يرأسهم الفقيه العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الأصل، الجزائري المستقر، فأمَّ ساحة السلطان السعدي بمدينة مراكش، وفاوضه باسم السلطان سليمان حول هذه النقط.

أولا: اعتراف السلطان العثماني بالاستقلال التام المطلق لدولة المغرب مقابل اعتراف هذه الدولة بالخلافة العثمانية، جمعًا لوحدة المسلمين، وذلك بالدعاء للخليفة العثماني على المنابر.

ثانيا: إطلاق سراح المقيدين المنكوبين من بني وطاس المرينيين، والتخفيف عن ضيقهم؛ إذ لا يجوز شرعًا أن يغل جماعة من المسلمين.

ثالثا: تحديد الحدود، بين مملكتي الجزائر والمغرب الأقصى.

وطال النقاش حول هذه النقط وطالت المداولة، ولم يقبل سلطان مراكش السعدي الاعتراف بخلافة آل عثمان، كما لم يقبل تدخلهم في أمر بني وطاس، إنما أسفرت سفارة العلماء عن أمر إيجابي، وهو رسم حدود فاصلة

بين دولتي المغرب والجزائر من ساحل البحر إلى بداية الصحراء، مما لا يزال قائمًا إلى يوم الناس هذا، وكان ذلك سنة (٩٦١هـ / ١٥٥٣م).

سياسة حسان بن خير الدين

كانت سياسة حسان باشا -والولد نسخة من أبيه- ترمي إلى تحقيق ثلاثة أمور:

١- جمع وحدة البلاد، وإرساء أركان الدولة على أسس متينة، وتحصين الثغور؛ استعدادًا لرد كل غائلة عدوان.

٢- استرجاع المدن الجزائرية التي يحتلها الإسبان، وخاصة بجاية ووهران.

٣- بعد تطهير وهران السير على رأس جماعات المجاهدين المسلمين - جزائريين ومغاربة- مددًا لبقايا مسلمي الأندلس، وقهر إسبانيا في بلادها، وإقامة دولة إسلامية جديدة؛ حيث كانت تقوم دولة غرناطة، أسرع في العمل، وأحسن السياسة؛ من أجل تحقيق الغاية الأولى، واطمأن إليه الناس، وقسم المملكة إلى مقاطعة غربية، ومقاطعة جنوبية، ومنطقة عامة، وأطلق على كل مقاطعة اسم «بايليك» ووضع على رأسها عاملا يدعى «الباي»، أما المنطقة العامة فهي «دار السلطان» تشمل الجزائر وما حواليها، وتحكمها الإدارة المركزية مباشرة، وباي الشرق مركزه قسنطينة، وباي الغرب مركزه وهران (بعد فتحها)، وقد استقر مؤقتا بمازونة وبمعكسر، أما باي الجنوب فمركزه مدينة المدية.

ويحكم الشعب شيوخ منه، تحت إمرة ونظر البايات، ويدعى هؤلاء الشيوخ «شيوخ الوطن» وهم:

شيخ وطن بني خليل

شيخ وطن بني موسى

شيخ وطن يسر

شيخ وطن سباو

شيخ وطن بني جعد

شيخ وطن بني خليفة

شيخ وطن حمزة

شيخ وطن السبت

شيخ وطن عريب

شيخ وطن بني مناصر

شيخ وطن الفحص (متيجة)

وقد نقلنا هذا عن مذكرات الشيخ حسين بن رجب شاوش ابن المفتي الذي ترجمه للفرنسية G. Delphin ونشره بالمجلد التاسع من المجلة الآسيوية.

وإذ رأى حسان باشا أن الغزو الإسباني كان يهدف كل مرة لاحتلال كدية الصابون، المشرفة على مدينة الجزائر من خلفها، وأن العدو يستطيع تقويض مدينة الجزائر بما ينصبه فوقها من مدفعية- أمرَ ببناء معقل منيع وحصن شامخ فوق تلك الربوة التي ترتفع زهاء مائتي متر عن البحر، ولا تزال تلك القلعة موجودة إلى يومنا (بعد أن نسفها الجزائريون عند الغزو الفرنسي في جويلية ١٨٣٠) وأعاد الفرنسيون بناءها) وتدعى القلعة رسميًّا: «سلطان قلعة سي»

أي: قاعة السلطان، أما الشعب فإنه كان ولا يزال إلى يومنا هذا ينسبها لبانيها العظيم، ويدعوها برج مولاي حسان.

ثم أخذ يستعد للعمل الكبير ألا وهو احتلال وهران، والاجتياز منها إلى إسبانيا.

دسائس سفير فرنسا، ورجوع حسان لإستانبول

كان حسان باشا معاديًا لفرنسا، وكان يعلن عن عدائه هذا، غير مكترث بالعلاقات الرسمية الطيبة التي كانت تربط بين حكومة إستانبول وحكومة باريس، وغير معترف بالمعاهدة المشئومة التي مكَّنت فرنسا من حريات اقتصادية واسعة ببلاد السلطنة العثمانية.

وبينما كان حسان يعد العدة لإنجاز مشروعه، ويهيِّئ الأسطول- جاء الجزائر سفيرُ الدولة الفرنسية، الممثل لبلاده لدى بلاط السلطان سليمان، مستطلعًا جلية الخبر، وكأنه يريد أن يعرف إلى أي مدى يريد حسان أن يصل بعدائه المعلن نحو فرنسا.

والتقى الرجلان وتحادثا، وعرض سفير فرنسا على حسان باشا -مكرًا ودهاء- إعانة فرنسا له بأسطولها وبرجالها، من أجل غزو إسبانيا، ونجدة مسلمي الأندلس بها، لكن حسان باشا رفض هذا العرض بإباء وشمم قائلاً: إنها قضية جهاد إسلامي لا يدخل فيها غير المسلمين، ورجع السفير الفرنسي إلى إستانبول، وكان واسع النفوذ مسموع الكلمة، فكلم رجال الديوان السلطاني في الأمر، وهوَّل الواقعة، وقال: إن هذه السلطة الواسعة المطلقة التي أعطتها الدولة العثمانية للباي لرباي، وما يحاوله حسان باشا من توسيع ملكه وسلطته- يوشك أن يحطم وحدة الدولة العثمانية، ويهدد كيانها بالانقسام.

وهنا قرر الديوان السلطاني دعوة حسان باشا لإستانبول، حيث يُجابه بالأمر، ويعلم منه القوم شفويًا حقيقة سياسته، ومدى أطماعه، وهكذا غادر حسان مدينة الجزائر، مؤقتا، وخلفه على كرسي الدولة صالح رايس، شهر أفريل سنة (١٥٥٢).

الفصل التاسع

صالح رايس بطل الوحدة والجهاد

سياسة صالح رايس وأهدافه

لم يكن صالح رايس مجهولًا عند الشعب الجزائري، ولا عند رجال الإدارة والحكم، فهو أحد هؤلاء الأفذاذ، الذين صحبوا عروج وخير الدين، وجاهدوا في كل الميادين، وامتاز بقيادته الحكيمة في البحر، وبمواقفه البطولية في البر، وبدقة نظره وصواب رأيه فيما يتعلق بنظام الإدارة وترتيب شئون الملك.

لهذا، فقد قوبلت توليته منصب الباي لرباي بابتهاج عام، وتفاءل الشعب بهذه التسمية خيرًا، ولقد صدَّقت الحوادث هذا التفاؤل، فكانت السنوات الأربع التي قضاها على رأس الدولة الجزائرية سنوات جهاد، وفتح، ووحدة ونظام (١٥٥٢-١٥٥٦).

كانت التخوم الجزائرية قد وصلت إلى حيث هي الآن بصفة تقريبية، فيما يلي الشرق، وكانت تلك التخوم قد تركزت حوالي نهر الملوية من جهة الغرب حيث هي الآن تقريبًا، فكانت سياسة صالح رايس تهدف داخليًا إلى تحقيق أمرين:

أولهما: تحقيق الوحدة -بصفة تامة مطلقة- بين كل أجزاء هذه الدولة الجزائرية.

وثانيهما: إدخال بقية أجزاء الصحراء الجزائرية -فيما يلي الزيبان- ضمن هذه الوحدة.

أما سياسته الحربية الخارجية فقد كانت ترمي إلى ثلاثة أهداف:

أولها: إبعاد الإسبان نهائيا عن أرض الجزائر.

ثانيها: وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجآت التي تأتي من قبل الدولة المغربية السعدية، والتي لم تنفك، بعد الحوادث التي أسلفنا ذكرها متواصلة.

ثالثها: إعلان نفير الجهاد العام، والسير برًّا وبحرًا على رأس الجيوش الإسلامية إلى بلاد الأندلس.

فإلى أي مدى يا تُرى وصلت هذه السياسة، وما الذي حققته الأيام منها؟

التوحيد الداخلي

ابتدأ صالح رايس قبل كل شيء بتحقيق التوحيد الداخلي، وكانت في الجنوب الجزائري إمارتان مستقلتان؛ إمارة توقرت التي كان يتولى أمرها ملوك بني جلاب يتوارثونها أبًا عن جد، وإمارة بني وارجلان، (ورقلة) يتولى أمرها الشيوخ الإباضيون ورثة دولة بني رستم، ويمتد سلطانها إلى قرى وادي ميزاب غربًا وإلى المنيعة جنوبا.

كانت الإمارتان قد دخلتا أيام خير الدين باشا ضمن الوحدة الجزائرية، وتعهدتا بدفع مقدار معين لخزينة الدولة الجامعة بمدينة الجزائر؛ لكن ابتعاد خير الدين عن إدارة المملكة فعليًّا أواخر أيام حياته، واشتغال دولة الجزائر بحوادث تلمسان، وحوادث المغرب، ثم موت خير الدين- قد جعل الإمارتين تقلعان عن دفع ذلك المقدار، وتعلنان استقلالهما -كالسابق- عن إدارة الجزائر.

فبعد مراسلات وسفارات لم تغنِ شيئًا قرر صالح رايس ورجال ديوانه التحرك لهذه الناحية، وإدخالها -طوعًا أو كرهًا- ضمن الوحدة الجزائرية، وبصفة نهائية، حتى يتفرغ للحروب مع العدو.

تحرك الجيش الجزائري من مدينة الجزائر تحت قيادة صالح رايس نفسه، وذلك في شهر أكتوبر من سنة (١٥٥٢) قاصدًا ناحية الجنوب، وانضم له في مجانة عبد العزيز سلطان قلعة بني عباس، ومعه نحو الثمانية آلاف من رجال الجبال القبائلية، وسار الجميع نحو توقرت.

ولست أدري على أي قوة كان يعتمد ملك توقرت، وتحت أي تأثير قرر المقاومة المسلحة، وعدم قبول الرجوع إلى حضيرة الوحدة، فكانت النتيجة أن الجيش الجزائري هاجم واحات توقرت، وصدم الملك وجماعته بها صدمة عنيفة، أدت إلى انتهاء المقاومة، بعد خسائر ودماء كان أحرى بها أن تبذل في سبيل الله وضد العدو الذي كان لا يزال جاثمًا على المدن الساحلية من أرض الوطن يترقب الفرص للتقدم والانتشار.

وبعد احتلال توقرت، ونهاية أمر بني جلاب بها، وضمها نهائيًا إلى السلطة المركزية- تحرك الجيش نحو بني وارجلان، فكان الشيوخ هناك أرسخ عقلًا وأمعن إدراكًا من أن يقعوا في الورطة التي وقع فيها أهل توقرت، فبادروا بالإذعان، ولبوا نهائيًا داعي الوحدة الوطنية الإسلامية وأصبحوا منذ تلك الساعة جزءًا لا يتجزأ -وإلى الأبد- من هذه الدولة الجزائرية، كما تعهدت الدولة لهم باحترام المذهب الإباضي، وحرية تطبيقه، والتحاكم على مقتضاه، بالنسبة لكل الذين يعتنقونه.

بين صالح وعبد العزيز

وما لبث الخلاف أن نشب بين صالح رايس كرأس للدولة الجزائرية، وبين عبد العزيز كسلطان لقلعة بني عباس ومجانة، فالأول كان يرى التوحيد المطلق للبلاد، والثاني: كان يرى أنه ملك مستقل، وأنه يمد يده لحكومة الجزائر كحليف، يعينها عندما يرى ذلك، إنما لا يخضع لها.

فكان الصدام بين الفكرتين وبين الوضعيتين ضربة لازب.

وحصل الصدام، وكانت وقائع مؤلمة عنيفة، قتل أثناءها الفاضل أخو عبد العزيز، واندحر أثناءها جيش الجزائر في شهر ديسمبر (**١٥٥٢/ ٩٥٩هـ**) في بوغني، واندحر مرة أخرى بعد ذلك رغم انضمام بلاد كوكو (أعداء قلعة بني عباس التقليدين) إلى الجزائريين.

أبو حسون يظهر من جديد

ترك صالح رايس عبد العزيز لفرصة أخرى، وسكت على مضض عن هزيمة جيش الجزائر أمامه، وعاد من جديد إلى غزو الإسبان في البحر تمهيدًا للأمر العظيم الذي كان هدفه الأسمى، فألقى بأسطوله الضخم على جزائر الباليار، مقتديا بما كان يفعله فيها خير الدين وابنه حسان.

وكان الجهاد الإسلامي يشمل يومئذ -من الناحية الجزائرية- بلاد إسبانيا وبلاد البرتغال، ولقد علم بخروج سفن برتغالية، تحمل رجالاً وعتادًا، وأنها تجتاز مضيق جبل طارق، فخف لها بأسطوله، وداهمها واستولى عليها، وكانت هناك مفاجأة تنتظره، وانتظرها المغرب العربي معه.

وجد ذلك الأسطول -الذي يشمل ستًّا من سفن النقل- يحمل سلطان فاس السابق، أبا الحسن علي بن محمد الوطاسي، المعروف بأبي حسون، والذي نجا من قبضة الشريف السعدي عندما بطش بالوطاسيين في فاس، وكان الأسطول متوجها إلى فرضة باديس، على ساحل الريف المغربي، والتي يدعوها الإسبان فاليس.

وقص علي صالح رايس قصته: قال إنه ذهب أول الأمر إلى شرلكان، يطلب منه أن يعينه على استرجاع عرشه، لكن شرلكان لم يستجب لدعوته، ولم تكن حالته تسمح له بالتورط -تلك الساعة على الأقل- في حرب مع المغاربة، وأن الأمر يهم البرتغاليين أكثر منه.

يومئذ سار أبو حسون -الذي لم يكن يهمه شخص وهوية من يعينه على الرجوع إلى العرش، إنما يهمه الرجوع إلى عرش فاس على أي حال- إلى ملك البرتغال سنة (١٥٥٣) وكان هذا الملك موتورا من الأشراف السعديين الذين أخذوا يسترجعون من البرتغاليين ما يحتلونه من أرض المغرب الأقصى

ومن سواحله، فقرر إعانته، وأمده بالسفن والمال والرجال، وكانت تلك هي العمارة التي أسرها صالح رايس.

وهنا أخطأ التوفيق -في نظري- صالح رايس، الذي كان عليه أن يكتفي بأخذ العمارة، وأسر رجالها وإبقاء أبي حسون عنده، وأن يتخذ بذلك يدا عند السعديين، ويستميلهم إليه، أو يضغط عليهم بواسطته، لكنه اتفق بسرعة مع أبي حسون، وتعهد له هذا بأنه يعترف -بمجرد جلوسه على عرش فاس- بالتبعية للسلطان سليمان، والخطبة باسمه على المنابر، والاستعداد لتجهيز الجيوش لمباشرة غزو إسبانيا مع صالح رايس.

وهكذا، جهز صالح رايس في شهر سبتمبر من تلك السنة عمارة بحرية تشمل ٢٢ سفينة، تحمل الرجال والأثقال وسيَّرها بحرًا نحو مليلة، بينما خرج هو بنفسه على رأس جيش جزائري يزيد عن ثمانية آلاف رجل، فمر بتلمسان، وعزز جنده بالحامية التي كانت فيها، ودخل حدود المغرب الأقصى، بينما كان أبو حسون يجمع حوله أنصار بني مرين، وأعداء الأشراف، ثم اجتمع الجيشان، ودخل صالح رايس مدينة فاس يوم ٨ جانفي ٣/١٥٥٤ صفر ٩٦١هـ ونصَّب بها السلطان أبا حسون، تحت حماية ورعاية الدولة العثمانية، وذلك بعد مصادمات عدة ومعارك دارت بين أنصار الدولتين، المرينية والسعدية، سالت فيها الدماء غزيرة.

مكث صالح رايس بمدينة فاس أربعة أشهر، ضمن خلالها استقرار الأمر لأبي حسون، وإخلاص الدولة المرينية الجديدة للخلافة العثمانية، إنما هو لم يترك خلال تلك الفترة جهاده ضد الإسبان، فأرسل فريقًا من جنده إلى بلاد الريف فاسترجع من الإسبان معقلهم الكبير باديس، أو صخرة فاليس كما يدعونها، ثم قفل راجعًا إلى الجزائر، تاركًا لأبي حسون حامية تركية تؤيده، وتضمن إخلاصه لتعهداته.

لكن الأمر لم يدم طويلا ، فما كاد صالح رايس يرجع إلى الجزائر حتى جمع الشريف السعدي جيشًا كثيفًا ، وهاجم فاس ، والتحم في معركة قاسية مع أبي حسون ، الذي قُتل أثناء المعركة ، ودخل الشريف فاس من جديد ، لكنه وجد هواها مع بني مرين ، ولم يستطع الاعتماد عليها كعاصمة لملكه ، فانتقل إلى مراكش ، وجعل بها مقر دولته الجديدة .

آخر بني زيان

اغتنم صالح رايس فرصة وجوده بتلمسان ، واستماعه إلى شكوى أهل المدينة وعلمائها من «الملك» الحسن ، فأمر بجمع مجلس من العلماء ، قد تداول في الأمر وقرر خلع الملك الخليع ، وأعلن يومئذ -كما رأينا سالفًا- ضم تلمسان إلى مملكة الجزائر ، نهائيًا سنة (١٥٥٤) .

فتح بجاية وإنقاذ بقاياها

لم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شيء إلا بمحاربة الإسبان ، ولا يهدف من وراء أي عمل إلا جمع القوة وتكتيل الشعب من أجل دحر الإسبان .

وقد كان يرى قبل كل شيء وجوب احتلال وهران ، والنزول بالبلاد الإسبانية ، لكن أنى يتسنى له ذلك وسلطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص ، وسلطان قلعة بني عباس ببلاد مجانة يعلن انفصاله واستقلاله؟

ترامت إليه يومئذ الأنباء عن وهن القوى الإسبانية بمدينة بجاية وعن الضيق العظيم الذي تعانيه حاميتها ، فرأى أن يغتنم الفرصة ، وأن يبدأ بتطهير الشرق من الإسبان ، قبل أن يطهر الغرب ، ثم من يدري؟ لعل إنقاذ بجاية سيكون له من الأثر ما يجعل ملك مجانة يعود إلى حضيرة الوحدة تحت ضغط الشعب وتنفيذًا لمشيئته .

ففي شهر جوان من سنة (١٥٥٥) سار إلى مدينة بجاية على رأس جيش عرمرم يقدر بنحو الثلاثين ألف رجل، عززهم أثناء طريقهم رجال زواوة المجاهدون من أهل إمارة كوكو، ووصلت الجيوش الجزائرية فأناخت على المدينة بينما جاء الأسطول الجزائري، يحمل الأثقال والمدافع فأرسى إلى جانبها، ونصب المسلمون الحصار على القلعة، وصوبوا نحوها قذائف مدافعهم الضخمة، وابتدأت معركة الإنقاذ الكبرى.

ولقد كان الوالي الإسباني دون ألونزو كاريلو قد سمع من بعض صائدي الأسماك الإيطاليين أنهم شاهدوا أسطولا جزائريًا ضخمًا قادمًا إلى جهة الشرق، فلم يصدق أن الجزائريين سيهاجمونه، لكنه أخذ يستعد، وينتظر الحوادث ويوالي طلب النجدة والإعانة من إسبانيا.

ومما يسر به الله على الجزائريين إنقاذ مدينة بجاية وتطهير الساحل الشرقي الجزائري من الدنس الاستعماري- أن أمطار الخريف كانت تتهاطل باستمرار على تلك الناحية، فارتفعت بها مياه وادي الصمام، إلى أن أصبح في حالة تمكن السفن من اجتياز مصبه إلى ما خلف المدينة على مسافة خمسة كيلومترات تقريبًا، فاغتنم صالح رايس هذه الفرصة التي جادت بها السماء وأدخل السفن من مجرى الوادي إلى أن استقرت خلف القلاع، فأنزل مدفعيته وآلات حربه، ونصبها على المدينة بغاية الإحكام.

أما الجيش الإسباني، فقد استعد لحصار طويل، وخرج من أسوار المدينة قبل الحصار الإسلامي فأغار على الدواوير والقرى القريبة من المدينة، ونهب ما بها من دواجن وحيوان وحبوب، ورجع إلى ما وراء الأسوار.

ثم أخذت الحامية وجيش الإنقاذ تتبادلان إطلاق المدافع، واستبسل الإسبانيون -كعادتهم من وراء الحصون- في الدفاع، استبسالًا يسجل لهم بالفخر.

هاجم الجزائريون أول الأمر حصن القصر الإمبراطوري، بعد أن قصفوه بالمدافع وقوضوه، ثم استولوا عليه عنوة واقتدارًا، وما خرج منه الإسبان إلا بعد أن لم تبقَ بين أيديهم أدنى وسيلة للدفاع.

وما كاد المسلمون يتسلمون أنقاض الحصن حتى بادروا بإقامة جدرانه وأصبحوا يستعملونه في قصف المدينة، ويرقبون منه كل تحركات الإسبان، الذين أخذوا يعززون وسائل الدفاع في قلب المعقل المحصور.

رسالة بائسة إلى إسبانيا

رأى القائد الإسباني بعينيه بوادر الانهيار، فبعث بالرسالة الآتي نصها إلى الوصية على عرش إسبانيا، الأميرة خوانة بنت الإمبراطور شرلكان.

بجاية ١٧ سبتمبر (١٥٥٥)

(لقد أرسلت سموكم قبل هذا، أبلغكم الحالة التعسة التي أصبحت عليها مدينة بجاية، إن هذا المعقل في حاجة ملحة إلى النجدة السريعة.

لا توجد أبدا أية جدران حصينة تستطيع أن تثبت أمام هذه المدفعية المرعبة التي نصبها الكلب ملك الجزائر أمام بجاية، فخلال يومين اثنين حطم الأتراك بصفة تامة الحصن الإمبراطوري، وسدوا الخنادق، ولقد أصبح من المستحيل استمرار المقاومة، وصرت أتلقى من رجال الحامية رسائل تسألنا -أنا والمراقب- باسم الله أن نعمل على إنقاذهم).

وبعد أن يقول أنه جمع مجلسًا حربيًا مؤلفًا من كبار الضباط الذين ذكر أسماءهم يستأنف قائلًا:

(ولقد اتفق هؤلاء الضباط والقادة على أنه لا تمكن المقاومة أكثر من هذا الحد، فكل شيء قد تحطم حتى الأساس، وتهدمت الجدران، وما بقي منها

قائما فهو على وشك الانقضاض، ومن أجل هذا قد أجمعت كلمتنا على تسليم الحصن، ونسف الأقواس، والركائز التي لا تزال قائمة، وقد نفذنا كل هذا بالفعل، ونحن الآن ننتظر ماذا سيكون مآلنا، فالأتراك قد صوبوا مدافعهم الآن نحو نفس المدينة، وهم عديدون ومسلحون بالبنادق النارية.

نرجوكم رجاء حارًا أن تفكروا في أهمية بجاية وفي حصونها، فإذا ما تمكن هؤلاء الأتراك الأشقياء -دمرهم الله- من احتلالها فإن كل قوى جلالة الإمبراطور لن تستطيع مجتمعة إخراجهم منها.

ألتمس من سموكم إصدار الأوامر لكي نتلقى من إسبانيا بكامل السرعة المددَ اللازم، ولتعتقد سموكم أنني مستعد للموت -كوالدي- في سبيل الله وفي سبيل صاحب الجلالة. اهـ.

تحطيم حصن باب البحر

وجه الجزائريون نيران مدافعهم بعد ذلك نحو معقل باب البحر الذي يحمي أسفل المدينة، وكانت جدرانه سميكة فاستمر قصفها مدى خمسة أيام والإسبانيون يدافعون دفاع المستميت، إلى أن تمكن المجاهدون من اكتشاف مكان خزينة البارود، فصوبوا نحوها رصاص البنادق -بصفة محكمة- فانفجرت، وكان لانفجارها دوي هائل ورجة عظمى، تهاوت معها الكثرة من جدران الحصن، فهاجمه المجاهدون بعنف وشدة، واشتبك الجانبان في معركة بالسلاح الأبيض، إلى أن انتهت المقاومة فوق تلك الأطلال، وقتل أغلب المدافعين، وأسرت بقيتهم.

بقيت هنالك عقبة كبرى دون فتح المدينة، هي عقبة «القصر الكبير» وهو معقل هائل، رفيع الجدار، سميك الحصون، وكان هو مركز المقاومة الأساسي.

وقد كان رجال الإسبان ونساؤهم وأطفالهم، وما عندهم من عبيد- يشتغلون أثناء الحصار ليلًا ونهارًا في إقامة جدار دفاعي جديد، يحمي القصر الكبير، ويبلغ ارتفاعه ١٥ قدمًا، وكانوا يرممون بالليل كل ثلمة تحدثها مدافع الجزائرين في النهار.

طلب الاستسلام من قائد المعقل

تقدم نحو الأسوار الإسبانية أحد رجال الجيش الجزائري يحمل راية بيضاء، فسمح له بالدخول، وسلم للقائد الإسباني رسالة من صالح رايس، مكتوبة باللغة البرتغالية هذا تعريبها:

«أنا ملك الجزائر، أكتب إليك يا حاكم مدينة بجاية.

لقد رأيت كيف أن رجالي قد استطاعوا احتلال معقلين من معاقل دفاعكم، ثم إنك ولا ريب تعلم أنني عقدت العزم بصفة حاسمة على أخذ هذه القلعة التي تدافعون عنها أيضًا، ولتعلم أنك لن تتلقى أبدا أدنى إعانة من إسبانيا؛ لأنني قد أخذت السفينة التي بعثت على متنها من يطلب النجدة...

وبما أنه قد اقتربت ساعة سقوط المدينة وأنك لن تستطيع أصلًا النجاة والإفلات من قبضة يدي، فأنا أطلب إليك أن تستسلم، وأن تسلم المدينة لي، وأنا أتعهد لك مقابل ذلك بأنني لن أمسَّك أنت ولا أي رجل من الرجال الملتفين حولك بسوء، أما إذا استمر بك العناد فلن يكون مآلكم إلا الموت جميعًا...

عليك برد الجواب حالا، مع حامله حسن».

لكن الحاكم رفض الرضوخ لهذا الإنذار في غمرة من غمرات العزة والشرف الجريح، واستمرت المقاومة خمسة أيام أخرى.

أخذ الجزائريون يتسلقون إثر ذلك جدران الحصن، بعد أن ردموا الخنادق التي حفرت حوله، ويحاولون اقتحامه، مهما كلفهم الأمر، بينما كانت المدافع الجزائرية تسدد ضرباتها نحو الأهداف.

ساعتئذ جمع الحاكم بقية الرجال، وتشاور معهم، فأشاروا كلهم -وكان عددهم لا يبلغ إلا ١٢٠ رجلًا بوجوب الاستسلام؛ إذ لم يبقَ أدنى أمل في الدفاع فأرسلوا لصالح رايس يعلمونه بقرارهم، فقبل استسلامهم، وبر لهم بوعده السالف رغم أنهم استمروا على الدفاع ورفضوا الإنذار، وذلك تقديرًا منه لبطولتهم واعترافًا بما بذلوه من همة في الدفاع. وسمح لهم جميعًا -خلافًا لما يزعمه بعض مؤرخي الغرب- بالرجوع إلى إسبانيا.

ثم دخل الجزائريون المدينة بين هتاف التهليل والتكبير، واحتلوها، وبادروا قبل كل شيء بتحرير ما كان باقيًا بها من مساجد، فأزالوا فورا ما كان عليها من صلبان، وأعادوها معابد إسلامية، وأخذ الناس يعودون لسكنى بجاية، سواء أكانوا من سكانها الأقدمين الذين خرجوا منها عندما أعلنت سياسة التنصير الإجباري، أو من جاء معهم من جموع أخرى، وأخذوا كلهم في ترميم المدينة، وتضميد جراحاتها، حتى عادت لها في مدة وجيزة صبغة المدينة الحية العامرة، لكنها كانت -ولسوء الحظ- قد فقدت تحت المعاول الصليبية الإسبانية كل تراثها القديم، كما قدمت لك في بسطة سالفة، خلال استعباد فظيع دام نصف قرن.

الانتقام من البريء

لم يكن الحاكم المسكين ريبيرا، أو أي رجل مكانه، ليستطيع أن يدافع أكثر مما دافع، أو يعمل أكثر مما عمل.

لكن ثائرة الشعب الإسباني كانت عظيمة جدًّا، وكانت ثائرة الأمم المسيحية الأوربية، ودوائر البابا في روما أعظم من ذلك. فكانت السياسة التي لا ضمير لها توجب أن يقع الانتقام من أي أحد، من أجل تهدئة الثائرة.

واختير الحاكم العام ريبيرا، ليكون كبش الفداء كما يقولون، فقبض عليه ووجهت إليه تهمة الخيانة العظمى؛ لأنه سلم بنذالة للمسلمين قلعة كان يستطيع أن يدافع عنها أكثر مما دافع، فأفقد إسبانيا بذلك ثاني مراكزها في إفريقيا بعد وهران، وحكمت المحكمة العسكرية عليه بالإعدام، رغم اعتراف الرجال الذين كانوا حوله بأنهم قرروا معه الاستسلام؛ بل أجبروه تقريبًا عليه، وبعد أن عذب، وأهين، وذاق كل أنواع المذلة، أعدموه بقطع رأسه في ساحة عمومية، ورفع الجلاد رأس الحاكم أمام الشعب قائلًا الجملة التي أمر بقولها:

«أيها الشعب، هذا رأس رجل نذل فقده صاحبه، بعدما فقد الشرف».

أما الجزائر المجاهدة، فإنها ترد له اعتباره، وتذكره كخصم عنيد ناضل حتى النهاية عن عقيدته ودولته.

وأسدل نهائيًّا الستار عن مأساة بجاية تحت الحكم الإسباني.

تطهير القل والسواحل

انتهى بسقوط حصون بجاية بين أيدي الجزائريين كل أثر لاحتلال إسبانيا للساحل الشرقي الجزائري، والقرى الساحلية، ومنها مدينة القل، التي لم يكن لاحتلالها تاريخ، إنما يذكرنا تطهيرها بتاريخ لا نجد مندوحة عن ذكره، وهو تاريخ جد غريب.

إسبانيا في القل خلال القرن الثالث عشر

لا يعلم الكثير من الناس أن الدولة الإسبانية كانت قد احتلت مرسى القل فعلًا، سنة (١٢٨٢) ميلادية، والدولة الإسلامية الأندلسية كانت لا تزال قائمة الذات يانعة زاهرة، وإن كانت خلافاتها الداخلية تكاد تقضي عليها، والدولة الحفصية في تونس وفي الشرق الجزائري قوية متينة.

يقول ابن خلدون عن هذه العملية الغريبة حديثًا مقتضبًا لا يعطي صورة حقيقية عنها[١].

لكنني أرى في هذا التاريخ ما يستوجب التسجيل، فهذه صفحة تكاد تندثر ولا يعرف عنها قراء العربية إلا تلك الإشارة العابرة السالفة الذكر، وأنها الضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وفي هذه القصة التي تكاد تشبه الأساطير عبرة وذكرى لقوم يعقلون، ترينا إلى أي مدى تستطيع النفس البشرية أن تنحدر في هوة الخيانة، إذا ما اتخذت إلهها هواها، فصدها عن سواء السبيل، وترينا أن التدخل الأجنبي في بلادنا، وفتح ثغرة للعدو فيها إنما تكون دومًا نتيجة التفرق والخلاف، وتغليب مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، كما ترينا من جهة أخرى، مدى قوة ومدى ثروة هذه الناحية من وطننا خلال القرن، ومدى استماتة رجال شعبنا، وذلك ديدنهم دائمًا في الدفاع عن دينهم وعن شرفهم وعن أوطانهم.

وإننا اعترافًا بالفضل لذويه نشير إلى أننا عثرنا على تفاصيل هذه الصفحة الغريبة من تاريخ المغرب الأوسط في المجلة الإفريقية، سنة (١٨٧٢) واعتمدنا على تلك التفاصيل لكتابة هذه القصة.

---

(١) (٦/ ٦٨٥) طبع بيروت.

كان الملك بطرس الثالث يحكم بلاد الأراغون الشديدة المراس في إسبانيا، وكانت الحروب القاسية مستعرة الأوار بين هذه المملكة الإسبانية الوطيدة الأركان وبين المسلمين في بلاد الأندلس، وقد أخذ نجمهم في الأفول تحت ضربات خلافاتهم الدامية، وحروبهم الداخلية الإجرامية.

وجاءت سنة (١٢٨٢) الميلادية (٦٨١هـ) تحمل إلى الملك الإسباني الكبير إمكانية غزو أعدائه المسلمين في عقر دارهم، واحتلال جزء كبير من أرض المغرب الأوسط، يجعله قاعدة لاحتلال بقية أجزائه، فيمكّنه ذلك من ضرب مسلمي الأندلس من الخلف، ويقطع عنهم كل طريق للمدد أو للانسحاب.

ولم يكن الملك الإسباني هو الذي فكر جديًّا في هذا الأمر، ولم تكن بطانته هي التي هيأت له الأسباب ومهدت له الأمور، بل إن العرض جاءه من نفس البلاد، تحمله نفس شريرة أوردها طمعها الخبيث موارد النذالة، فانغمست في الخيانة وتنكرت لله ولرسوله وللوطن، طمعًا في ملك مزيف، وسعيًّا وراء جاه يقام فوق جماجم المسلمين، ويسقى بوابل من دمائهم الطاهرة.

كان الخائن النذل أبو بكر بن الوزير[١] واليًا على مدينة قسنطينة الزاهرة من قِبل السلطان أبي إسحاق الحفصي، بتونس.

ولقد سولت له النفس الأمارة بالسوء أن يعلن استقلاله، ويخلع طاعة سلطانه، ويخضع لحكمه تلك الولاية الغنية الآهلة التي كانت -حسبما يرويه كل المؤرخين والرحالين- درة لامعة في تاج المغرب العربي.

(١) يقول ابن خلدون: هو أبو بكر بن موسى بن عيسى، ونسبته في كومية من بيوت الموحدين.

ولو أن هذا الوالي قد صبا إلى الاستقلال وشق عصا الطاعة، معتمدا على قوة عصبية، أو جند اصطنعه من بين أولئك الذين يتبعون كل ناعق- لقلنا أنه قد أصيب بمرض ذلك العصر، وأن شأنه في ذلك شأن القواد والولاة الذين امتلأ بهم تاريخ العدوتين، بل امتلأ بهم لسوء الحظ تاريخ الأمة العربية جمعاء، حين انفرط العقد وغشيتها الفتن.

لكنه علم أن ليست له عصبية مرهوبة، وأنه لا يستطيع امتطاء هذا المركب الوعر إلا محتميًا بحراب الأجنبي، مستعملًا سيوف العدو في رقاب بني عمه، فاتحًا للغزاة الأجانب ثغرة في بلاد المسلمين لم يطئوها من قبل، وبذلك يتحقق له الخيال وينال الإمارة والأموال، وهيهات!

من أجل ذلك راسل الملك بطرس الأراغوني يطمعه في ملك قسنطينة، وما إليها وحواليها، ويعده بأنه سيضع تحت تصرفه رجاله وفرسانه، وأنه سيكون ذراعه الأيمن، وخادمه الأمين.

والملك بطرس الثالث أعقل من أن يترك هذه الفرصة النادرة تفلت من بين يديه، فأخذ يقلب الأمر على كل وجوهه، وعزم على أن يستجيب للطلب وأن يضرب في بلاد المغرب العربي ضربته، ثم أعلم أبا بكر بأنه يجهز أسطوله من أجل ذلك، وأنه يجمع رجاله، وأنه سيكون عما قريب فوق أرض المعركة.

وقد كانت رسالة الوالي أبي بكر تحدد للملك الإسباني مكان النزول، وتؤكد له أنه إذا ما نزل بمرسى القل مع ثمانمائة من الفرسان وألفين من الرجال فإن طريق قسنطينة سيكون مفتوحًا أمامه.

كان يوجد في ذلك الحين لدى كل ملوك المغرب العربي جند من المرتزقة المسيحيين، أغلبهم من الإسبان، وكانت الكنيسة وكان ملوك أوربا يسمحون للرجال بالعمل لدى من يطلب ذلك من ملوك وأمراء المسلمين.

وكان أبو بكر في قسنطينة من ضمن أولئك الذين يحيطون أنفسهم بحرس غفير من الجند الأوربي المسيحي، ولعل رجال البطانة من ذلك الجند هم الذين زينوا لذلك العامل الخائن الاستنجاد بالملك الأراغوني، وكان يوجد بالمغرب العربي يومئذ نحو مائة ألف من هؤلاء الأوربيين المسيحيين، يحمون تلك الإمارات الهزيلة وتلك العروش الواهية، فكان المظنون أن هذه الجموع كلها ستقف وقفة الرجل لواحد حول الملك بطرس الثالث المسيحي حينما تطأ أقدامه أرض إفريقيا.

هكذا يقول الكاتب الإسباني برنارد دسكلوت الكاتالاني في تاريخه عن هذه المغامرة الجريئة التي كان له وحده فضل تسجيلها، وفضل حفظ تفاصيلها، وكان المستشرق الصقلي العظيم «أماري» هو الذي اكتشف هذا المخطوط وأشار إليه في ترجمته لتاريخ ابن خلدون، عند ذكر هذه الحادثة التي ذكرها مؤرخنا العظيم مقتضبة وكل ما قاله عنها: «وجاء أسطول النصارى إلى مرسى القل في مواعدة ابن وزير، فأخفق مسعاهم».

فالملك بطرس أرسل يجمع جيشًا من الرجال الأقوياء المخلصين داخل ممالكه، والتفَّ حوله ثمانمائة فارس، وثلاثة آلاف من الرجال، أغلبهم من الإسبان الذين كانوا قد أسلموا بعد الفتح العربي ثم عادوا إلى النصرانية بعد الاسترجاع الإسباني؛ إما رغبة فيها، أو فرارًا من الاضطهاد، ويدعونهم في إسبانيا «الموكارس» وأخذ ينشئ أسطولًا لحمل ذلك الجيش إلى إفريقيا.

يقول الكاتب الكاتالاني: إن هؤلاء الموكارس كانوا قومًا لا يعرفون الحياة إلا بواسطة السلاح، ولا يعيشون في المدن ولا في القرى، وإنما يسكنون الجبال الشاهقة بين الصخور، ويحترفون الحرب ضد السارازان؛ أي: المسلمين.

جمع الملك بطرس جيشه في مرسى طرطوشة Tol taza وجمع له من المؤن والأقوات والأسلحة ما يكفيه، ثم عبر البحر إلى جزيرة ميورقة التي كان يحكمها أمير مسلم، وحوله جند مؤلف من ألفي رجل، إنما كانوا خاضعين لمملكة أراغون، ثم أبحر الأسطول إلى مدينة القل.

لكن أمير ميورقة المسلم، الخاضع لمملكة أراغون، المطيع لها- ما كاد يعلم وجهة الأسطول، حتى أرسل سفينة خفيفة تسابق الريح، وأوصى رسله الذين امتطوا صهوتها أن يصلوا مرسى القل قبل وصول الأسطول الأرغوني، متحاشين محاذاته أو الاتصال به.

وصلت السفينة إلى القل، ونزل رسل حاكم ميورقة يقولون لأهل المدينة: إن الملك أراغون قد جاءهم بقوة عظيمة وأنه واصل إليهم بعد حين، وطلبوا إليهم أن يخبروا بذلك كل أهل الناحية حتى مدينة بجاية.

بادر سكان القل حينئذ بالخروج من المدينة، حاملين معهم أموالهم وذخائرهم واعتصموا بالجبال، فكانت المدينة خالية تمامًا من السكان عندما خيم عليها الأسطول الأرغواني الإسباني يوم ٢٨ جوان (١٢٨٢).

وقد كان والي قسنطينة أبو بكر -الذي ساء أثره في أهلها كما يقول ابن خلدون، فرفعوا أمرهم إلى السلطان أبي إسحاق- قد استعجل الأمر، عندما علم بمسير الأسطول، فأعلن العصيان، ونادى بنفسه أميرًا مستقلًا، فأرسل السلطان الحفصي ولده أبا فارس من مدينة بجاية على رأس قوة لردع هذا الخائن ووصلت قوة المسلمين إلى قسنطينة يوم غرة ربيع الأول سنة ٦٨١هـ ٩جوان (١٢٨٢م) وحاصرتها يومًا، ثم اقتحمتها، وقاتلت العامل المارق ومن معه من المرتزقة، إلى أن قتلته وأخاه ورجال خاصته، بعد أن دافعوا عن أنفسهم دفاعًا شديدًا، وعلقت رءوسهم على أسوار البلدة، وذلك جزاء الخائنين.

فمصرع هذا الخائن قد تم قبل ١٩ يومًا من نزول جيش أراغون بالقل، ويقول المؤرخ الإسباني: إن مدينة قسنطينة هي التي فتحت أبوابها طوعًا عندما جاءها جيش السلطان الحفصي، رغبة منها في التخلص من ذلك الرجس الذي أراد الوغد أن يوقعها فيه.

ثم نعود إلى ملخص رواية المؤرخ الكاتلاني:

ما كاد الملك بطرس يعلم نبأ ما وقع في قسنطينة حتى أسقط في يده، وذهب به الغضب والألم كل مذهب، وعلم أن المعركة قد أصبحت بدون هدف، لكنه لم يجد بدا من النزول فاحتل مدينة القل وكانت خاوية على عروشها، وأحكم التحصن فيها، وأسكن جيشه في منازلها.

وكان العرب يحيطون بالمدينة من فوق المرتفعات، فأرسل لهم الملك بطرس يقول: إنه قادم للحرب والنزال، فأعلموه أنهم يعقدون مجالس الشورى، ثم أخبروه أنهم مستعدون لعقد الصلح معه على أن يرحل بجنده عن المدينة، وأن يدفعوا له مقابل ذلك ما يقع الاتفاق عليه من مال، وأعلموه أنهم قد أحاطوا بهذا علمًا سلطان تونس الذي هو صاحب المدينة، لكن الملك لم يجب على هذا العرض.

ثم أرسل الإسبان طلائع من جيشهم ترتاد ما وراء خطوط التحصين، لتعلم مدى قوة ومدى استعداد الجند الإسلامي.

ورأى المسلمون هذه الطلائع، فخالوها مقدمة الجيش الإسباني الزاحف، فتصدوا لمقاومتها وأرسلوا فرسانهم لمقارعتها، وبلغ دوي المعركة مسامع الملك، فأصدر أمره لجيشه بالتقدم نحو الجبال، من طرق جانبية، ولم يشعر المسلمون إلا والجند الإسباني قد أحدق بهم، فاستشهدوا في ميدان المعركة، ولم ينجُ منهم إلا القليل.

وسار الملك وراء أرض المعركة نحو ثلاث ساعات، فإذا به يجد مدينة جميلة بديعة، خالية من السكان قصور مرتفعة، ومخازن قد امتلأت بالقمح والكتان فأصدر الملك أمره بإحراق كل ذلك، ما عدا الألبسة الحريرية، التي أخذ الرجال منها كل ما استطاعوا حمله، ثم رجع الملك إلى القل، وجيشه يجر وراءه غنيمة ألفين من البقر وعشرين ألفًا من الغنم والمعز، وعددًا من الأسرى.

واستمر المسلمون على التجمع في الجبال المحيطة بالمدينة، وهم يستعدون لخوض غمار المعركة؛ لكنهم لم يحاولوا يومئذ النزول للنزال.

واستمرت عمليات الغارة على مثل هذه الصفة أيامًا.

ثم عزم الجيش الإسلامي على قتال الإسبان، وأقبل في جموع غفيرة امتلأت بها السهول والجبال، كما يقول مؤلف تاريخ المعركة، لكن هذا الجيش لم يستطع الثبات أمام حملة فرسان الإسبان القوية العنيفة، فارتد إلى مراكزه الجبلية.

ثم جمع الملك مجلس شوراه، وقال لهم: إنه يعتزم، معتمدًا على الله، وعلى القوة التي سوف تمده بها ممالكه، أن يفتتح مدينة قسنطينة، ومنها ينطلق إلى فتح كامل إفريقيا، ولا يعبأ بكثرة من في سهولها وفي جبالها من المسلمين، وإن هذا الفتح سيكون خيرًا وبركة وفخرًا لأمته وللمسيحية جمعاء، وأنه سيرسل الرسل إلى قداسة البابا ليمده من عنده بجيش قوي، يفتح به إفريقيا في وجه المسيحية، حتى يكون فيها اسم الرب ممجدًا مشرفًا.

فأكد له مجلس الشورى إن هذا هو الرأي، وأنهم سيقاتلون وراءه في سبيل الله والمسيح حتى الموت.

أرسل الرسل -كما قال- نحو البلاد المسيحية ونحو البابا في مدينة رومة، فبسط الوفد للبابا رغبة الملك الأرغوني في العون بالمال والرجال لافتتاح إفريقيا من أجل المسيحية.

لكن الباب فكَّر في الأمر مليًّا ثم أجاب: إنني لست مؤمنًا بأن ملكًا صغيرًا كملك أرغون قد استطاع احتلال شيء من إفريقيا، ولا أن يستطيع عمل ما لا يستطيع عمله ملوك الإنكليز والألمان وغيرهم، فأنا لا أَعِد هذا الملك بأي إعانة.

وهكذا رجع الوفد خائبًا.

واستمرت المعارك الصغيرة ناشبة بين النصارى والمسلمين، والكل يرقب المعركة الحاسمة ويستعد لها.

وفي مرسى القل كانت تربض ١٤٠ سفينة جاءت بالجند والعتاد تنتظر الحوادث.

في هاتيك الأيام جاء وفد من نصارى صقلية إلى مدينة القل يعرض عرش الجزيرة على الملك بطرس الأرغوني، ويعده بالرجال والأموال ضد الفرنسيين الذين أرهقوا الجزيرة وطغوا فيها طغيانًا مبينًا[١].

ولما كانت المقاومة العربية تشتد يومًا بعد يوم، وأيقن أنه لن يستطيع تحقيق أحلامه بالاستيلاء على قسنطينة أو الثبات في مركزه بمدينة القل جمع رجاله وأشعرهم بقبوله تاج صقلية، وأنه مقلع إليها على رأس جنده وعمارته فقضى الرجال ثلاثة أيام يهيئون الانسحاب ويعمرون السفن بالجند والسلاح والزاد، وعندما انتهى كل شيء أمر بإحراق مدينة القل، فأشعلوا فيها النار من مائة مكان، وعندما جاء فرسان العرب إلى خرائب المدينة وجدوها قاعًا صفصفًا، وهكذا خابت آمال الإسبان في امتلاك شيء من الأرض الإفريقية مرة أولى بعدما أشاعوا فيها الموت والخراب والدمار، وما رجعوا إليها إلا سنة (١٥٠٩) كان أمرهم فيها، وفي غيرها هو ما نقصه عليك في كتابنا هذا.

---

(١) انظر: كتابنا «المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا».

مذكرات الشريف السعدي والإسبان ضد الجزائريين

بعد إنقاذ بجاية وتطهير الشرق الجزائري من أدران الاحتلال وجَّه صالح رايس ومن معه من الجزائريين كل همهم وكل اهتمامهم إلى ناحية وهران وما حواليها؛ لإنقاذها من يد الإسبان، ولتطهير أرض الوطن الجزائري من كل احتلال، ثم الاستعداد للوثبة الكبرى، نحو بلاد الأندلس.

لكن شوكة الشريف السعدي الذي اشتد أمره وقوي ساعده بمراكش كانت تؤلم جنوب الجزائريين وتقضُّ مضاجعهم، وخاصة بعد أن نصَّبوا أبا حسون بفاس تحت حمايتهم، وبطش به الشريف بطشة جبارة عاتية، فكيف يتصرفون وهم لا يعرفون ماذا سيكون موقف الشريف منهم؟

ولقد جاءتهم الأنباء تترى تناقلتها أفواه المسافرين من اليهود عن وجود مفاوضات حازمة بين حكومة إسبانيا والشريف المراكشي؛ قصد الوصول إلى اتفاق حربي سياسي، ضد دولة الجزائر، يقضي عليها، ويقسم أسلابها بين الطرفين.

ولقد كان اليهود هم التراجمة في مراكش بين الوفدين، وتسرب الخبر منهم إلى بني جلدتهم، فسادهم الرعب والفزع، وهم يعرفون -ما نسيه من سوء الحظ بعض المسلمين آنذاك- ماذا يخفي الاحتلال الإسباني للبلاد من شرور وبلايا لبني قومهم بصفة أخص، فوصلت تلك الأنباء إلى مسامع رجال حكومة الجزائر المرهفة، فبادرت بإعلام الخليفة السلطان سليمان العظيم في إستانبول.

التقرير الإسباني عن هذه المفاوضات

ولقد حفظ لنا التاريخ في خزائن سيمانكاس السالفة الذكر النص الرسمي للتقرير الإسباني عن هذه المفاوضات، وفيه علاوة على تفاصيل المذكرات وموقف الجانبين منها صور ذات ألوان زاهية واضحة عن البلاط المغربي، ومواقف السلطان السعدي أمام هذه القضية، وتفاصيل مقابلاته، مما يعتبر وثيقة ذات أهمية ممتازة، لا بالنسبة لتاريخ المعامع الإسبانية الجزائرية وحدها، بل بالنسبة أيضًا لمجموع تاريخ مغربنا العربي الكبير الواحد.

وهذه ترجمة ذلك التقرير المرفوع للكونت دالكوديت حاكم وهران الإسباني، الذي أشرف على سير المحادثات.

مالقة ٢٢ جويلية (١٥٥٥)

(أبحرت سفينتنا من مرسى مالقة يوم ٢٦ أفريل، ويوم ٢٩ أفريل دخلنا مرسى سبتة، وتلقانا حاكم البلدة لقاء حسنًا، وعلمت أن ابن الشريف يجمع جيشه للاشتباك في معركة فأسرعت إليه دون إضاعة وقت، ووصلنا إلى تيطوان يوم أول ماي.

وعندما وصلنا مدينة فاس بادرت بالسؤال عما إذا كان الشريف مولاي عبد الله والقائد المنصور لا يزالان بها، فعلمت أن الشريف مستقرٌّ وسط زمالته على مقربة من فاس، وأن القائد المنصور يستعد للتوجه إليه.

ويوم الأربعاء ١٥ ماي طلب منا أن نذهب إلى القصر لمقابلة الملك (الشريف السعدي) وكان إلى جانب الملك القائد المنصور، وكاتب الملك بوشميدة[١]، ومترجم الملك ليفي اليهودي، واقتبلنا الملك في قاعدة البرتقال.

---

(١) لعله: بو حميدة.

وبعد أن سلمناه الرسائل التي ترجمها المترجم ليفي طلب إلينا الملك أن نقول له شفويًا ما هي المهمة التي جئنا بها لفاس.

فأجبته بأن مهمتنا قد شرحت في الرسائل، وأننا جئنا استجابة لطلب مولاي عبد الله والقائد المنصور؛ حيث طلبا من سيادتكم (حكم وهران) إرسال بعض الرجال للتفاوض في قضية الجزائر وسيادته أرسلتنا بغاية السرعة إلى هنا.

أجابنا الشريف بأنه لا يزال عند فكره، وأنه يريد أن يطرد الترك من كامل إفريقيا، ومن أجل ذلك فهو يطلب من جلالة الإمبراطور إمداده بعشرة آلاف مقاتل يحملون السلاح الناري، وأنه (الشريف) يرى بأنه من المناسب أن يقوم جلالة الإمبراطور بكل ما يلزم لهؤلاء الرجال من نفقات؛ وذلك لأن طرد الأتراك إنما هو عمل تستفيد منه ممالك جلالة الإمبراطور وتستفيد منه المسيحية جمعاء.

ويقول الملك: إن احتلال مدينة الجزائر لا يكلف جلالة الإمبراطور كبير عناء؛ حيث إن جلالته عازمة على اقتحام الجزائر على رأس ثلاثين ألف فارس... إلخ.

وأجبته بأن هذه القضية تهم الملك وأبناءه أكثر مما تهم جلالة الإمبراطور، وأن الشريف لا ينسى الخطر العظيم الذي كان محيطًا به منذ عهد قريب[١] وأنه لا يستطيع أن يثق كثيرًا بأهل فاس.

وطالت المذاكرات كثيرًا، وأخيرًا أعلمني القائد بوشميدة بأن الشريف قد ادخر كثيرًا من المال لمحاربة الأتراك، وأنه يسعده أن يعينه الإمبراطور على ذلك، وأن الأمر مستعجل جدًا.

(١) نصب الأتراك لأبي حسون بفاس.

ثم جاء ذكر مدينة الجزائر وماذا نصنع بها بعد احتلالها بمشيئة الله، فكان من رأي الملك (الشريف السعدي) تحطيم هذه المدينة وإزالتها تمامًا، أما أهلها فلنا أن نأخذ أموالهم وأن نقتلهم في حالة ما إذا دافعوا عن أنفسهم؛ لكنه يرفض أن يؤخذوا عبيدًا للمسيحيين.

قلت له: إن الأتراك أجانب عن البلاد، وأنهم أعداء له، وأنني أرى ألا يعارض في معاملتهم معاملة الأعداء، أما العرب يمكن أن نترك لهم حريتهم في حالة ما إذا استسلموا اختيارًا دون مقاومة.

قال الملك: إنه لن يسمح أبدًا بأن يصبح أي عربي عبدًا؛ لأن هذا مخالف لشريعته...

وفي يوم ٢٩ ماي قمنا بزيارة جديدة للملك، وما كاد يرانا حتى أشار إلى بوشميدة أن يتقدم لاستقبالنا، فقادنا إلى قاعة أخرى غير التي يجلس فيها الملك، وقال لنا: إن الملك يريد أن يعرف ماذا تريدون من هذه الزيارة، فقلت له: إننا نرى أن الملك هو الذي يدفع نفقات الحملة (الإسبانية).

فذهب بوشميدة ليبلغ الملك ذلك، ثم رجع إلى القاعة التي كنت بها صحبة بولوقريلو، وكاسنينو، وقال لنا: إن الشريف قد رضي بأن يدفع لكل من العشرة آلاف رجل من حملة السلاح الناري (الإسبانيين) مقدار ثلاثة مثاقيل من الذهب في الشهر، وأنه لا يستطيع أن يدفع أكثر من ذلك، وأنه يبدأ الدفع منذ اليوم الذي ينزل به هذا الجيش أرض إفريقيا... قلنا له: إننا لا نستطيع قبول تحديد الجراية بثلاثة مثاقيل ذهب شهريًا؛ لأن هذا خارج عن نطاق مهمتنا...

وذهب بوشميدة وأعلم الملك، ثم عاد يقول لنا: إن الملك مصمم على ذلك المقدار لا يتجاوزه، وإنه يرى الاكتفاء بالرجال ولا يرى ضرورة لقدوم الفرسان؛ لأنه سوف يصحب الجيش المسيحي مع كل الفرسان الذين معه وكذلك هو يجهز المدفعية التي تصحب الجيش.

قلت له: إننا نرى من المناسب أن يبادر الملك قبل كل شيء بأن يضع بواسطة أحد رجاله في مدينة من المدن التي يحتلها جلالة الإمبراطور مائة ألف مثقال من الذهب، لكي يبدأ تجهيز الحملة حالًا.

ورجع إلينا الرسول يقول: إن الملك يرفض وضع هذا المقدار من المال، وأنه يدفع شهريًا جراية الجند منذ نزولهم بإفريقيا.

وكان يطلب منا دومًا خلال المفاوضات أن نسلمه أوراق التفويض التي لدينا والتي تسمح لنا بالتعاقد معه، قال لنا في الجلسة الختامية: إن المفاوضات تعتبر مقطوعة إذا لم نقدم إليه هذا التفويض.

وطلبنا إلى الملك أن يسلمنا رسالة لسموكم، فرفض ذلك قائلا: إنه لم يتصل برسالة منكم.

ويوم ٣ جوان ذهبنا لتوديع الملك فقيل لنا بأن نرجع يوم الغد، فرجعنا كما طلب منا، ووقع اقتبالنا هذه المرة داخل القصر، وأطلعونا على كل ما به من كنوز وأشياء ثمينة، ثم قدموا لنا مائدة طعام فاخرة.

وقال لنا رجال القصر إن الشريف لم يحتفل أبدًا بمسيحيين آخرين مثل احتفاله بكم.

لكن الملك لم يسمح لنا بمقابلة ابنه الأمير عبد الله، إنما طلب منا القائد المنصور بواسطة ممثله؛ لأنه كان في جيش الأمير، أن ننتظر أيامًا، ولهذا قررنا تأجيل السفر.

ويوم ١١ جوان قابلنا الملك من جديد، وبينما كنا نسأله أن يعطينا حرسًا كي نذهب لمقابلة الأمير عبد الله جاء القائد المنصور وأتى معه برسالة من الأمير لوالده، جاء فيها:

كتبت لسموكم مرتين دون أن أتصل برد ولا أدري ما هو السبب! أما فيما يتعلق بالمذاكرات مع ممثلي كونت وهران فلا أرى من اللائق أن نردهم دون أن نعمل ما يمكن عمله للأخذ بالثأر من أعدائنا، وقد سمحت للقائد المنصور أن يقدُم إليكم من أجل هذا ومن أجل تمكينه من المفاوضة قصد تحرير ابنه من الأسر.

ومن رأيي أن يرسل لكم الكونت حاكم وهران كرهينة ولدًا أو عدة من أولاده، ومقابل ذلك تستطيعون أن تقدموا له تسبقة ما يكفي لجرايات الجند مدة شهر أو شهرين، فإن طالت الحرب أكثر من ذلك فسموكم يدفع الجرايات كل شهر إلى نهاية المعركة.

وهذا كل ما لدي أن أقوله لكم.

خلاصة: جاءنا القائد يوم ١٢ جوان بعد مقابلة الملك، يقول: إن جلالته لا يضع المال المطلوب إلا بعد ضمان أكيد، ويرغب أن ترسل سيادتكم (كونت وهران) أحد أبنائها رهينة، وعندئذ يدفع مائة ألف مثقال.

وغادرنا فاس يوم ١٨ جوان بعد بقائنا بها ٣٨ يومًا) اهـ.

تعليق الكونت دالكوديت على هذا التقرير

وأرسل الكونت دالكوديت حاكم وهران، وقائد الصليبية الإسبانية بأرض الجزائر هذا التقرير إلى الأمير فيلب ابن الإمبراطور شرلكان وممثله، صحبه رسالة خاصة، هذا نصها:

المرسى الكبير ٩ أوت (١٥٥٥)

«في اليوم الثاني من هذا الشهر جاءني رسول كنت بعثت به إلى مدينة فاس. . . ويسألني أن أطلب من جلالتكم الإذن لي بالتفاوض مع الشريف.

ويخيل لي أن الله هو الذي أدار بنفسه هذه المذاكرات ذات الأهمية الكبرى بالنسبة لجلالة الإمبراطور وبالنسبة لسموكم (ابن الإمبراطور الأنفنت فليب)

ويجب علينا أن نعتبر أنفسنا سعداء جدًّا في الوقت الذي يبذل فيه ملك فرنسا عدونا الألد كل جهوده، دون أن يخاف الله، للحصول على أسطول السلطان (العثماني) كي يهاجم ممتلكات جلالة الإمبراطور، أن يعرض علينا ملك عربي ذو نفوذ كبير، كالشريف، مهاجمة أتراك الجزائر ومحاربتهم وإبعادهم عن الأرض التي يحتلونها في إفريقيا، وذلك فيما إذ قدمنا له ١٢ ألفًا من المقاتلين الإسبانيين على حسابه الخاص.

كذلك هو يتعهد، في حالة ما إذا رضيت أن أبعث بأحد أولادي رهينة لديه، أن يضع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكل سرعة.

وبما أن هذه العملية ستجر خيرًا عظيمًا على جلالته وعلى المسيحية جمعاء فأنا لا أتردد في قبول طلب الشريف، وأرسل إليه ولدي رهينة، حتى ولو كنت على يقين أنه يريد أن يذبحه، بل إنني أنا نفسي وكل الذين حولي من أهلي نستعد أن نقدم أنفسنا كرهائن، حتى ولو كان الشريف يريد بيعنا عبيدًا، والرجاء من سموكم أن توجهوا إلي بالتفويض الذي يمكنني من تتبع هذه المفاوضات».

الاستعداد لفتح وهران وموت بطل عظيم

كان جواب السلطان سليمان سريعًا وحاسمًا: وجوب مهاجمة وهران حالا، واحتلالها، قبل أن تسفر المذاكرات بين الجانبين -الإسباني والسعدي- عن نتيجة عملية.

وأرسل السلطان مع جوابه هذا مددًا بحريًا مؤلفًا من أربعين سَفينة حربية (GALERE) وستة آلاف من الجند العثماني، إعانة على هذا الزحف

التطهيري الكبير، فأضاف صالح رايس هذه القوة الجديدة إلى القوة الجزائرية التي بين يديه، وتتألف من ثلاثين سفينة حربية وأربعة آلاف من الجند الجزائري يمتطون صهوة السفن المذكورة.

أما جيش المجاهدين من داخل البلاد الجزائرية، ومعظمه أشاوس جبال الجرجرة، فكان يناهز العشرة آلاف رجل، ساروا فعلا على طريق البر نحو الناحية الغربية، بينما كان صالح رايس يتأهب للإقلاع على رأس العمارة البحرية ذات السبعين سفينة نحو وهران.

في نفس تلك الساعة ضربت يد القدر ضربتها، وما تشاءون إلا أن يشاء الله، فصالح رايس ذلك البطل المغوار والمجاهد المسلم الصميم، الذي كان يتحمل في حماس الشباب وقوة الرجولة الكاملة وقر السبعين عامًا من عمره الحافل بالبطولات- قد أصيب بالطاعون، فالتحقت روحه ببارئها خلال شهر جوان ١٥٥٦ رجب٩٦٣هـ.

وحمل الراية حالا بعد موت البطل الشهيد صالح رايس القائد يحيى مؤقتًا، فأقدم على إنجاز الأمر وأبحر نحو وهران، وجاء أثناء الطريق أمر السلطان العثماني برفع الرئيس الشهير حسان قورصو إلى منصب باي لرباي الرفيع، ووصل جيش البر وجيش البحر إلى وهران، وحوصرت حصارًا شديدًا.

ولكل أجل كتاب، فوهران لم تفتح تلك السنة ولم تفتح ذلك القرن، خلافًا لما قاله بعض المؤرخين، بل لم تفتح إلا بعد مائتي سنة من ذلك التاريخ حسبما سيمر بك من أحاديث هذا الكتاب.

أما سبب عدم فتح وهران، رغم ذلك الاستعداد الكبير فهو أن أعداء الخلافة الإسلامية قد تألبوا عليها برًا وبحرًا، فاضطر السلطان لجمع كل القوى الإسلامية وخاصة البحرية منها؛ لمقابلة الأعداء الذين تجمعوا في قوة

رهيبة تحت قيادة أندريادوريا، وجاء البطل حاج علي، الذي سنعرفه عما قريب، فوق ميدان الجهاد الجزائري باسمه الجديد: قلش على، يحمل أمر السلطان بسفر العمارة حالا، ووضعها تحت قيادته.

وهكذا، بعد أن احتل المجاهدون الجزائريون حصن صانطوس، من حصون وهران، وكادوا يتمكنون من ناصيتها، رغم الدفاع الإسباني العنيف اضطروا لرفع الحصار، فسار الأسطول الإسلامي حيث يدعوه واجب الجهاد، دفاعًا عن دار الخلافة، ورجع حسان قورصو بالجيش البري نحو الجزائر، وقد أخذ الإسبان يقتفون أثره، ويتبعون خطاه.

السعديون بتلمسان

وما كان الشريف السعدي ليترك هذه الفرصة الذهبية تمر دون أن يهتبلها، فأسرع بإرسال جموعه صوب تملسان، وكان جيشها ورجالها قد انضموا للمجاهدين في محاولة استرجاع وهران، فدخلها على حين غفلة، ووضع على رأسها القائد ابن غانم السالف الذكر، زعيم قبائل بني راشد، ووزير أواخر ملوك الزيانيين المحتمين بإسبانيا، أما الحامية الجزائرية، القليلة العدد فلم تستسلم، ولم تهن، والتجأت إلى حصن المشور، فاعتصمت به مقاومة، إلى أن جاءها الإنقاذ فيما بعد كما سترى.

هل كان الهجوم السعدي في هذا الوقت بالذات تنفيذًا لاتفاق انعقد بين الشريف وبين الإسبان، أثر المذاكرات السالفة الذكر؟ أم كان عملا قام به من عند نفسه، وبمحض استقلاله؟ ذلك ما لا يذكر التاريخ عنه أدنى تفصيل، وثائق سيمانكاس الآنفة الذكر، لم تحفظ لنا على ما أعلم ما يثبت أو ينفي انعقاد اتفاق أثر تلك المذاكرات.

الفصل العاشر

حسان باشا خير الدين يعود إلى الميدان

مرت بمدينة الجزائر حوادث خاطفة إثر ذلك خلال سنة (١٥٥٧) ليس لنا أن نتعرض لها، فهي لا تتعلق بالجهاد ضد الإسبان، فبعد مصرع حسان قورصو، واستشهاد الباي لرباي تكارلي- أرجع السلطان العثماني لكرسي الجزائر حسان بن خير الدين، بعد غيبة ناهزت أربعة أعوام، قضاها في الجهاد في ميادين أخرى.

واستبشر الناس -عامة وخاصة وجيشًا- أيما استبشار بعودة البطل بن البطل، لما خبروه من سيرته، وما علموه من خفايا سريرته، وكان قدومه في شهر شعبان من سنة (٩٦٤هـ جوان/ ١٥٥٧م)، وما كاد يستقر به المقام حتى أرجع إلى الإدارة نظامها، وإلى الجيش انقياده، وإلى الشعب أمنه وطمأنينته، ثم عزم على استئناف الجهاد، وإنجاز مشروعيه العظيمين، تطهير البلاد الجزائرية من الاستعمار الصليبي الإسباني، والنزول إلى الأرض الأندلسية.

تخليص تلمسان

سار بجيشه حالا نحو الغرب الجزائري لإرجاع جماعة الشريف، وراء حدود بلادهم، ولإنقاذ الحامية الجزائرية التي بقيت في قلعة المشور تحت قيادة الأمير صفطة مقاومةً لاحتلال السعديين.

وصل الجيش الجزائري تلمسان، فلم تقع معركة بين لجانبين سوى بعض مناوشات، وانسحب رجال الشريف إلى ما وراء الملوية.

لكن حسان رأى وجوب تتبعهم، والقضاء على دولة السعديين إثر مقتل الشريف وقيام ابنه عبد الله الغالب بالله مقامه، فوصل إلى مقربة مدينة فاس، والتقى الجمعان على وادي اللبن، ودارت رحى معركة لم تسفر عن شيء.

جاءته يومئذ الأنباء عن تحرك الإسبان من مدينة وهران بما يوشك أن يقطع عنه خط رجعته، فذهب بجيشه الجزائري إلى مرفأ قصاصة في الشمال، حيث

امتطى صهوة سفنه، وحمل معه مدفعيته وعتاده، أما القائد صفطة، القائم باسمه على مدينة تلمسان، فقد رجع بحاميته إليها، استعدادًا للحوادث المقبلة.

الانتصار الأكبر بمستغانم

جمع حسان خير الدين بمجرد رجوعه لمدينة الجزائر قوة عظيمة يصادم بها الإسبان في وهران، ويقارع بها السعديين إذا ما عادوا إلى الميدان الجزائري مرة أخرى، وأمر جموع المجاهدين أن يوافوه عند مجرى نهر الشلف.

وتحرك في نفس الوقت الكونت دالكوديت حاكم وهران على رأس القوى التي تمكن من جمعها بين يديه- نحو الشرق قاصدًا مدينة مستغانم، ولقد كان الاتفاق بينه وبين السلطان السعدي -كما تقول كتب التاريخ الإفرنجية- على أن يتحرك الجيش المغربي في نفس الوقت، سالكًا الطرق الخلفية، لكي يهاجم مدينة مليانة، بينما يكون الجزائريون ملتحمين في المعركة مع الإسبان، فيقعوا بين نارين، وينتهي أمرهم، ويحتل الحليفان الإسباني والمغربي بلادهم.

فيوم ٢٢ أوت (١٥٥٨) ابتدأ الهجوم الإسباني ضد مدينة مستغانم، وجاء الكونت دالكوديت على رأس جيش ضخم، مؤلَّف من اثني عشر ألف إسباني، أمدته بهم دولة إسبانيا؛ إذ رأت الفرصة سانحة للقضاء نهائيًا على دولة الجزائر، ويصحب الإسبان جماعة كبيرة من الأعراب المرتزقة (القائد المنصور بن بوغانم، ومن معه من بني عامر وبني راشد، وغيرهم) صحبة مدفعية ضخمة، وذخيرة وافرة، وعدة سفن تسير محاذية للجيش، تحمل المؤن والأثقال.

لكن عين حسان خير الدين كانت مفتوحة، ويقظة الجزائريين كانت مرهفة، والأسطول الجزائري كان مستعدًا الاستعداد كله لمجابهة الخطر،

فما كادت السفن الإسبانية النقالة تغادر مياه أرزيو حتى تصدى لها الأسطول الجزائري، فاستولى عليها جميعًا وانتقل كل ما كانت تحمله إلى صفوف المسلمين.

كان الكونت دالكوديت وكان جيشه يرون رأي العين هذه الواقعة التي حلت بسفنهم دون أن يستطيعوا عمل أي شيء من أجل إنقاذها؛ فأصابتهم خيبة مريرة، وأصبحوا يتوقعون الجوع والفاقة، إلى جانب توقع شدة الصلابة الجهادية الجزائرية.

وكان المخطط الحربي الجزائري على أبدع ما يمكن من حيث الإحكام والدقة؛ إذ بينما كان جيش المجاهدين يحث السير نحو مستغانم خرج من مدينة تلمسان على رأس جماعة بها القائد البطل الحاج علي (قلش علي) يسير سيرًا معاكسًا على الطرق الداخلية متجها من الغرب إلى الشرق؛ لكي يمنع الإسبان من أي محاولة تسرب نحو الداخل، ومهاجمة الدواوير والقرى من أجل الاستيلاء على ما فيها من أقوات ومؤن.

دخل الإسبان مدينة مازغران دون مقاومة وحطموا بوابتها الضخمة البديعة؛ لكي ينحتوا من حجارتها مقذوفات لمدافعهم، ثم أسرعوا السير بجيشهم الكثيف، يريدون الاستيلاء على مستغانم قبل وصول الجيش الجزائري، ووصلوا فعلا بكامل قواهم على مشارف المدينة، فالتحموا في معركة حامية مع جموع المجاهدين المتطوعين من عرب الناحية، الذين جاءوا مددًا للمدينة، قبل وصول الجيش الجزائري، وتمكنوا من دخول منطقة الدفاع رغمًا عن الحصار الإسباني.

وعند مطلع الفجر من يوم ٢٣ أوت أعلن الكونت دالكوديت النفير العام، فتقدمت كل جيوشه والجموع الموالية له تهاجم الأسوار، وتحطم الأبواب، واستبسل الجانبان في الحرب، الكثرة الإسبانية تهاجم، والقلة الإسلامية من

رجال الحامية الجزائرية وأهل المدينة والمتطوعون تقاوم مقاومة الذي باع روحه لله، ولم يبقَ له من أمل إلا الموت شهيدًا ؛ دفاعًا عن الدين والوطن والحرمات.

اكتسح الإسبانيون الأسوار، فانقلبت المدينة كلها ميدانًا للحرب، وأصبحت كل حارة وكل منزل وكل طريق فيها معقلا للدفاع، تجلت فيه أروع صور البطولة والفداء، كانت المعركة تدور حول كل شبر وكل ذراع من أرض المدينة، ولم يتمكن الإسبانيون من ناصيتها.

جاءت البشرى إلى المجاهدين بأن جيش حسان خير الدين قد أشرف على المدينة من ناحيتها الشرقية والجنوبية، وأنه جاء في جيش ضخم يشمل خمسة آلاف من رماة البنادق، وألف فارس، وقد انضم إليه من رجال الشعب أثناء الطريق زهاء الخمسة عشر ألفًا، يحملون أسلحتهم المختلفة، فازدادت المقاومة عنفًا واطمأنت القلوب.

وصل الجيش الجزائري الضخم، ودخل المدينة حالا، واشترك فور وصوله في المعركة، وكان الصدام عنيفًا هائلًا، فما انحدرت شمس ذلك اليوم نحو الغروب حتى كان الإسبان قد أُبعدوا إلى خارج المدينة، تاركين بين جدرانها عددًا ضخمًا من القتلى والجرحى.

وقضى الجانبان تلك الليلة في راحة نسبية، انتظارًا للمعركة التي ستكون فصل الخطاب.

وأشرقت شمس الغد ٢٤ أوت، فإذا بالإسبانيين وأتباعهم من بائعي الذمة والشرف والإيمان يجدون أنفسهم في مركز جد حرج، والمسلمون يحيطون بهم من كل أطرافهم:

أمامهم من جهة الشرق رجال وفرسان الجيش الجزائري ومن معه من المجاهدين العرب ومقاتلي مستغانم الأشاوس.

وعلى يمنيهم وقفت كتائب الحاج علي التلمسانية.

وعلى يسارهم نزل بحارة الأسطول الجزائري إلى الأرض، وأخذوا يضيقون عليهم الخناق، بينما كانت سفن ذلك الأسطول تمطرهم وابلا من قذائفها المختلفة واشتعلت نيران المعركة من جديد، فكانت حامية رهيبة حاسمة.

وبين أصوات التهليل والتكبير استيقظت ضمائر الأعراب اللذين جاءوا مع الإسبان، فانقلبوا عليهم وانضموا في أغلبيتهم إلى جماعة المجاهدين، وآوى إلى خيامه من لم يلبِّ دعوة الجهاد منهم، فاشتد الضيق بالإسبان، وعظم الكرب، وأخذوا يفتحون أمام أنفسهم، بكل مشقة، لا طريق التقدم؛ بل طريق الانسحاب والهزيمة.

لكن المسالك كانت مسدودة، والضغط الإسلامي كان شديدًا قاهرًا، فانقلب الانسحاب الإسباني إلى هزيمة، ثم ما عتم أن انقلب إلى فرار، وأصبح كل إسباني لا يفكر إلا في النجاة بنفسه لا يلوى على شيء، والمسلمون يتتبعونهم خطوة خطوة، لا يتركون لهم فرصة لاستعادة النفس، إلى أن وصلوا بلدة مازغران، فتدافع الإسبان نحو أبوابها ومساربها، في فوضى واضطراب، وتهالكوا على دخولها يدوس بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم بعضًا، وما دروا -وهم في حالة رعب أصبحت جنونًا جماعيًا- أنهم كانوا في تلك الساعة الرهيبة يدوسون تحت أقدامهم نفس قائدهم، البطل الجسور العجوز الكونت دالكوديت.

وهكذا كتب الله لهذا القائد الصليبي المؤمن المقتنع- بأن يموت منهزما، منكسرًا، فاقدًا لكل أمل، تحت أرجل جنده الفار الرعديد، أما ابنه فقد كان من بين الأسرى.

واحتل المسلمون مازغران وأسروا كل من تمكن من الالتجاء إليها، فكان عدد القتلى والأسرى من الإسبان يتجاوز الاثني عشر ألفا، ولقد تم هذا النصر العظيم الذي كان من أكبر أيام الجزائر الجديدة الماجدة، عند غروب شمس الجمعة ٢٦ أوت ١٥٥٨ ١٢ ذي القعدة ٩٦٥هـ.

أما جثة الكونت دالكوديت فقد سلمها الجزائريون بكل احترام إلى ابنه الأسير، فرجع بها إلى وهران، وذلك تقديرًا منهم لبطولته، وحميته، واستبساله في الدفاع عن معتقداته.

موت شرلكان غمًا وهمًا

لم تقم للإمبراطور الكبير شرلكان قائمة تقريبًا بعد انكساره الشنيع وخيبة آماله أمام مدينة الجزائر سنة (١٥٤١).

فبعد حرب دامت أربعين سنة مع فرنسا، تخللتها بعض فترات السلام- اضطر الإمبراطور لعقد هدنة بوسيل سنة (١٥٥٥).

وبعد أن حارب حركة الإصلاح الديني البروتستانتية دون رحمة ولا هوادة بصفته حامي حمى الكاثوليكية- اضطر لعقد الصلح مع البروتستانت في أوكسبروغ سنة (١٥٥٥) أيضًا.

وشاهد انهيار آماله بإفريقيا، من جراء استرجاع الجزائريين لبجاية، وانضمام مملكة تلمسان نهائيًّا للوحدة الجزائرية.

فأمام هذه الخيبات المتوالية وانهيار آماله أعلن تنازله عن عرش الإمبراطورية، وقسم البلاد نصفين، فسلم ملك ألمانيا لأخيه فردنياند، وسلم ملك إسبانيا وبلجيكا وهولاندا وإيطاليا وممتلكات أميركا لابنه فليب، ثم اعتكف سنة (١٥٥٦) بديريوست؛ حيث قضى سنتين في العبادة والنسك، ومات سنة (١٥٥٨) عندما كان الجيش الإسباني يصاب بنكبة من أعظم نكباته الإفريقية فيما بين مستغانم ومازغران، وقد كان يعاني تلك الساعة سكرات الموت، فكتموا عنه أنباء الكارثة.

وكانت أيام ابنه فليب الثاني أبشع وأحط أيام إسبانيا.

عودة حسان باشا خير الدين للمرة الثالثة

أراد حسان أن يغتنم فرصة انتصار مستغانم العظيم، لتصفية حساب مركز وهران الإسباني، وأخذ يستعد في مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة، منظمة منقادة إلى جانب جيش العثمانيين، فجند حسب مخططه الجديد عشرة الآف من رجال زواوة الأشداء، وقد كان شديد الميل إليهم، معترفًا بصدق إيمانهم وشدة شكيمتهم، وتزوج من ابنة زعيم كوكو من أكبر بيوتاتهم، فساء كل ذلك جيش الانكشارية، ووقعت بينهم وبينه قلاقل، أدت إلى رجوعه لمدينة إستانبول، لكن السلطان سليمان العثماني أعاده لمقر ولايته في شهر أوت سنة (١٥٦٢) فأخذ يوالي استعداده لتحقيق هدفه العظيم.

الانهيار الإسباني في جزيرة جربة

أخفقت سياسة الإسبان في تطويق المغرب العربي، وضرب البلاد الجزائرية من الخلف، واستعباد البلاد التونسية.

فبعد أن حرر العثمانيون مدينة طرابلس الغرب وجهوا أنظارهم لجزيرة جربة، التي جعل منها الإسبانيون معقلًا حصينًا منيعًا، يعتمدون عليه في حركاتهم الهجومية والدفاعية، بعد أن استولى عليها دوق مدينا سيلي نائب مملكة صقلية في شهر جوان (١٥٦٠) وأنزل بها جيشًا ضخمًا قوامه أربعة عشر ألف رجل.

جاء الأسطول العثماني مددًا للقائد البحري طور غود رايس، وكان هذا الأسطول الضخم يشمل ٨٦ سفينة حربية، تحت قيادة مصطفى بيالي باشا نفسه وهو يومئذ القائد العام للأساطيل الإسلامية، فداهم جزيرة جربة، بصلابة وعنف، ودارت رحى المعركة الضارية، فأسفرت عن انهزام الإسبان شر هزيمة، بعد أن فقدوا من أسطولهم ٣٥ سفينة.

معركة المرسى الكبير التاريخية

وبعد أن تركوا فوق أرض جزيرة جربة الزاهرة ما يزيد عن الخمسة آلاف أسير، وآلاف من القتلى وأنقذت جزيرة جربة بذلك نهائيًا- قضى حسان بن خير الدين خمسة أشهر، بعد عودته للجزائر، يهيئ العدة لمهاجمة وهران والمرسى الكبير، وهما كل ما بقى لإسبانيا ببلاد الجزائر.

ففي الخامس من شهر فيفري من سنة (١٥٦٣) خرج من مدينة الجزائر نحو الغرب يسوق بين يديه جيشًا عرمرمًا، مؤلفًا من ١٥٠٠٠ رجل من رماة البنادق.

و١٠٠٠ فارس من الصباحية يقودهم أحمد أمقران الزواوي (وهو من عائلة المقراني الكبيرة).

و١٢٠٠٠ راجل من زواوة وبني عباس.

أما المؤن والذخيرة فقد حملها الأسطول الجزائري إلى مدينة مستغانم، التي اتخذها قاعدة العمليات.

ويوم ٣ من شهر أفريل وصل بكامل جيشه أمام مدينة وهران ومرساها الكبير، فخيم عليها، وجعل مركز قيادته في «رأس العين» ونصب مدافعه حالًا تجاه حصن «القديسين».

ولقد كان الإسبان في وهران مستعدين لتلقي الصدمة، وراء حصونهم وقلاعهم ومراكز دفاعهم المحكمة الوضع، يقودهم فيها دون ألونزو دي قرطبة، أما في المرسى الكبير فكان استعدادهم مثل ذلك، وكانت قيادتهم بيدي شقيق قائد وهران المركيز دون مارتان، وهو ابن الكونت دالكوديت، الذي أطلق حسان سراحه وسلَّمه جثة أبيه بعد كارثة الإسبان بمستغانم.

واستنجد القائدان إسبانيا، فأمدتهما بأربعة آلاف رجل، تحت قيادة دون خوان دي ماندوزا، لكن زوبعة عاصفة هبت على البحر فأتلفت ثلاثة أرباع الأسطول وغرق بما فيه، وكان دون خوان من بين الغرقى، فلم يصل وهران أكثر من ألف رجل.

أخذ حسان يرمي الحصون بالقنابل وصمم الإسبان -كما هي عادتهم عندما يكونون وراء الحصون والقلاع- على الدفاع النهائي، والموت في سبيل المدينة إلى آخر رجل.

ودارت رحى المعركة الطاحنة على الصفة التالية:

١- هاجم الجيش الإسلامي بقوة وشراسة حصن القديسين، وتمكن من احتلاله بعد تحطيم جدرانه (يوم ١٥ أفريل).

٢- أدار الجيش الإسلامي الجزائري مدافعه من ذلك الحصن، ومن غيره من المراكز، نحو قلاع المرسى الكبير، وطلب حسان باشا من قائد حصن القديس ميشال أن يستسلم فرفض بشمم.

٣- تولى حسان باشا مهاجمة الحصن بنفسه على رأس صفوة مختارة من رجال جيشه، وتمكن مرتين من وضع السلالم على جدران الحصن من أجل مقاتلة العدو عليه، لكنه أخفق في احتلاله، ودامت المعركة يومًا كاملًا، كان فيها الهجوم الجزائري عنيفًا، وكان فيها الدفاع الإسباني مستبسلا، وفقد حسان خلال هذه العملية خيرة ضباطه ونحو خمسمائة من مجاهديه.

٤- العاصفة البحرية التي حطمت أسطول النجدة الإسبانية عاقت أيضًا وصول الأسطول الجزائري الذي يحمل المدافع الثقيلة والذخيرة والمؤن إلى أرزيو ومستغانم، فلم يتصل حسان باشا خير الدين بالمدد السريع الذي كان ينتظره.

٥- أرسل حسان باشا لدون مارتان، ابن الكونت دالكوديت، يطلب إليه تسليم المدينة، فأجابه بما مضمونه: إنني أفعل من أجلك كل شيء، وأطيع أوامرك مهما كانت، اعترافًا بجميلك عليَّ، وتسليمك لي جثة أبي، بعد أداء التحية العسكرية لها، أما أن أسلم إليك المدينة التي هي أمانة جلالة ملك إسبانيا في عنقي فذلك أمر لا سبيل إليه.

٦- وصل الأسطول الجزائري يحمل المدافع والمؤن بعد حين، ونصب الجزائريون مدافعهم في المواقع المناسبة، وابتدءوا يقصفون من البر ومن البحر حصون وقلاع المرسى، وذلك يوم ٤ ماي.

٧- تلقى المدافعون عن الحصون بعض المدد من وهران، وهاجم المسلمون القلاع خمس مرات، يومي ٥ و٦ ماي، دون جدوى.

٨- يوم ٨ ماي هاجم حسان باشا بنفسه على رأس جماعة من رجاله قلاع المرسى الكبير، هجومًا صارمًا، وتمكن من رفع العلم الجزائري فوق ثغرة أحدثها في مراكز الدفاع، واندفع منها إلى الداخل، لكنه أصيب بجرح في رأسه، ولم يتمكن الجيش من اجتياز الثغرة، نظرًا لشدة الدفاع.

٩- وجه الهجوم بعد ذلك إلى حصن سان ميشال بعد دفاع مجيد غادرت بقايا الحامية الإسبانية جدرانه، تحت وابل من نيران الجزائريين، وانضمت بقاياها للمدافعين عن القلعة.

١٠- وجه حسان نيران مدافعه نحو جدران القلعة الأساسية، واستمر قصف المدافع لها ٢٤ ساعة، فحطم الكثير منها؛ إنما كان رجال القلعة يرممون بالليل ما تحدثه مدافع المسلمين بالنهار.

١١- يوم ٩ ماي كانت مدافع الجزائريين قد حطمت حصون الناحية الغربية بصفة تامة، فأرسل حسان باشا من جديد يطلب إلى المركيز مارتان

تسليم المدينة، فأجابه: بما أن الحصون قد تحطمت فما الذي يمنعك عن اقتحام المدينة؟

١٢- عندئذ أمر حسان بالهجوم العام، واستبسل الإسبان في الدفاع عن بقايا الحصون والجدران والخرائب بصفة بطولية، وتمكن الجزائريون خلال ذلك من احتلال حصن جنوة، ورفع أعلامهم فوق السور، لكنهم لم يستطيعوا الثبات أمام الدفاع الإسباني المركَّز، فرجعوا إلى مواقعهم الأولى، بعد أن تركوا فوق أرض المعركة عددًا كبيرًا من الشهداء.

١٣- تمكنت في ذلك اليوم سفينة صغيرة إسبانية من اختراق صفوف الأسطول الجزائري، وبشرت قائد حامية وهران بأن المدد الإسباني قادم نحوهم على متن ٥٥ سفينة، يقودها الأميرال دوريا، فاشتد ساعد الإسبان بهذا النبأ وقويت معنوياتهم، وأرسل قائد وهران بواسطة فدائي إسباني اخترق ما بين البلدتين سباحة، يُعلم أخاه قائد المرسى الكبير بالنبأ العظيم، ويطلب إليه المقاومة اليائسة إلى أن يصل المدد.

١٤- استمرت المعارك حامية قاسية من الجانبين بصفة مستمرة من يوم ١١ ماي إلى يوم ٥ جوان.

١٥- عزم حسان باشا على إجراء المعركة الحاسمة، وقد بلغه من جواسيسه قرب وصول النجدة الإسبانية العظيمة، فجمع رجاله، وتقدم صفوفهم صائحًا بجنده صيحات البطولة والجهاد، وتهيج، وألقى بعمامته وسط الخندق، وألقى بنفسه في عنفوان المعركة أمام صفوف الأعداء، كأنه يطلب الشهادة فما تمكن جنده من الاحتواء عليه والرجوع به إلى الصف إلا بشق الأنفس.

لكن الجزائريين لم ينالوا من القلعة منالا رغم أنها أصبحت خرابًا، ورغم أنه لم يبقَ من حاميتها إلا القليل.

١٦- وطلعت شمس يوم ٧ جوان، فرأى الناس كافة -الأصدقاء منهم والأعداء- شراعات الأسطول الإسباني الضخم، يحمل للمحصورين النجدة المطلوبة.

١٧- رأى حسان باشا، وهو يكاد يتميز من الغيظ والانفعال هذه القوة الإسبانية الجديدة تصل وهي على أتم استعداد للقتال، وكان الجيش الجزائري قد أنهكت المعارك قوته، ودوريًّا يوشك أن يقطع عنهم خط الرجعة فأمر بالانسحاب والرجوع للجزائر من أجل استعداد جديد.

١٨- تقاتل الأسطول الجزائري -وكان قليل العدد- مع الأسطول الإسباني الضخم، والتحم معه في معركة حامية غير متكافئة، فغرقت تسع سفن جزائرية، ورجعت البقية إلى الجزائر.

وهكذا انتهت المعركة بفشل الحملة الجزائرية وانتصار الإسبانيين، بواسطة ثباتهم البطولي، واستماتتهم في سبيل الدفاع، إلى أن وصلتهم النجدة المنقذة.

حسان خير الدين يحاول احتلال مالطة

عزم السلطان سليمان على احتلال جزيرة مالطة، التي كانت أكبر معقل للمسيحيين في وسط البحر المتوسط، والتي استقر بها منذ سنة (١٥٣٠) فرسان القديس يوحنا المقاتلون الصناديد.

فأرسل لمنازلة الجزيرة الحصينة القوية أسطوله، تحت قيادة بيالي باشا نفسه، وطلب إلى الرايس طورغود، حاكم طرابلس وجربة، وإلى حسان باشا، باي لرباي الجزائر- أن يتوجها على رأس أسطوليهما الإسلاميين للمشاركة في عملية مالطة وإخضاعها استعدادًا لمنازلة بقية المعاقل الإسبانية بعد ذلك، فسار إليها حسان على رأس عمارة تشمل ٢٥ سفينة، وثلاثة آلاف رجل من المدربين.

وصل الأسطول الإسلامي برمته أمام الجزيرة الباسلة، يوم ١٨ ماي (١٥٦٥)، ونصب عليها الحصار، ثم نزل الجيش الإسلامي، واحتل معقل القديس إيلم بعد أن أصيب بخسائر عظيمة، واستشهد على رأس المسلمين الرايس الشهير طورغود البطل، الذي قال عنه مؤرخو الإفرنج: «إنه كان قائدًا ذا قيمة عديمة المثال، وكان يتحلى بصفات إنسانية غير معهودة في القرصان» وكان ذلك يوم ٢٣ ماي، وتوالت المعارك البطولية بين الجانبين، ودافع الفرسان المسيحيون عن جزيرتهم دفاعًا يسجل حقًّا في صحائف المجد، وردوا هجومًا عنيفًا قام به حسان باشا وجيشه يوم ١٥ جويلية على حصن القديس ميخائيل، ثم استمر الحصار ضيقًا شديدًا، واستمر الدفاع عنيفًا باسلا، إلى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها، وجاء المدد تحت قيادة نائب الملك في صقلية، صحبة أسطول مؤلف من ٢٨ سفينة حربية، تحمل ١٢٠٠٠ من المقاتلين، والتحمت المعارك تترى بين الجانبين، إلى أن هلك نصف الجيش الإسلامي وتمكن الباقون من الانسحاب يوم ٨ سبتمبر (١٥٦٥).

حسان باشا يرتفع لمنصب قبودان باشا

مات السلطان العثماني العظيم سليمان القانوني يوم ٥ سبتمبر (١٥٦٦) ٢٠ صفر ٩٧٤هـ بعد خلافة دامت ٤٨ سنة، رفع أثناءها لواء الإسلام في الخافقين أعلى عليين.

وخلفه ابنه السلطان سليم الثاني، فأسند منصب القائد العام لأسطول العثماني إلى حسان باشا خير الدين، فترك مملكة الجزائر متوجها إلى إستانبول خلال شهر جانفي (١٥٦٧/ ٩٧٤هـ) وعني السلطان مكانه في منصب الباي لرباي الأمير محمد بن صالح رايس، موحد الجزائر وفاتح بجاية، وبقي حسان خير الدين في منصب القيادة البحرية العامة للأسطول الإسلامي إلى أن توفي سنة

(١٥٧٠) عن ٥٣ عامًا، ودفن إلى جانب والده العظيم في مسجد باكداش في حي بويوك دارة بإستانبول، رحمهما الله رحمة واسعة.

أغرب مغامرة لاحتلال مدينة الجزائر

هي قصة بطولية من أغرب قصص المغامرات، تكاد تكون إلى الخيال، أقرب منها إلى الحقائق.

في شهر أكتوبر من سنة (١٥٦٧) تمكن أحد رجال البحر الماهرين يدعى خوان قاسكون من بلنسبة من إقناع الملك الإسباني بأنه يستطيع على رأس سفينتين فقط الاستيلاء على مدينة الجزائر فجأة، وتحطيم الحكم الإسلامي فيها، وكان برنامجه «يقتضي»:

١- أن يدخل مرسى مدينة الجزائر فجأة تحت ستار الليل.

٢- أن يشعل هو ورجاله النار في أسطول الرؤساء.

٣- يغتنم حالة الهيجان التي تعقب ذلك، فيدخل المدينة، ويطلق سراح الأسرى المسيحيين الموجودين فيها، ويضمهم إلى جماعته، ويعطيهم السلاح الكافي فيستحوذ على المدينة ويقضي فيها على كل مقاومة، ويتحصن بها ريثما يأتي الأسطول الإسباني حاملًا الجيش والإمداد.

رأى الملك الإسباني أن هذه المغامرة لن تكلفه كثيرًا، فإذا ما هي نجحت كانت قد حققت ما لم يستطع شرلكان نفسه تحقيقه، وإذا ما أخفقت فلا يعتبر إخفاقها أمرًا خطيرًا.

وهكذا خرج خوان من إسبانيا يوم أول أكتوبر، وحل بمرسى الجزائر ليلا بعد أربعة أيام، وكان الليل حالك السواد، فتسللت السفينتان داخل المرسى، دون أن يشعر بوصولهما أحد.

وكان الأسطول الجزائري متجمعًا في مرسى الجزائر الضيق، وقد التصق بعضه ببعض، بحيث أن أيقاد النار في سفينتين أو ثلاث سفن منه تلهب النار بمجموعه، فكلف خوان ستة من رجاله -أعطاهم المواد الملتهبة- بإيقاد النار، بينما اقتحم هو على رأس البقية من رجاله «باب البحر» ففاجأ الحارس وقتله، ثم توجهت كامل الجماعة إلى مكان الأسرى النصارى، يحملون معهم الأسلحة، من أجل تنفيذ الخطة.

لكن هذه العصابة -وهي تقوم بهذه المخاطرة- لم تر ألسنة اللهب متصاعدة من سفن الأسطول الجزائري، حسبما كان مقررًا، فتعطلت عن مهاجمة دار الأسرى، وعلمت أن المغامرين الستة لم يتمكنوا من إيقاد النار في السفن الجزائرية فاكتفت بفك أسر نحو العشرين من المسيحيين، وانسحبت رغم إرادة وأنف قائدها خوان إلى سفينتيهما، فركب الجميع البحر، وغادروا المرسى مستعملين المجاذيف.

لقد كان رجال المرسى وكان الحرس قد تنبهوا منذ الساعة الأولى لتلك المحاولة، فقتلوا الستة المكلفين بإحراق الأسطول، ثم ركب الجزائريون بعض السفن، وتتبعوا رجال العصابة فالتحقوا بهم غير بعيد، وأعادوهم إلى الجزائر مع الأسرى المحرَّرين.

أما البحارة، فقد وضعوا في سجون الأسرى، وأما خوان قاسكون، فقد ساقه سكان مدينة الجزائر إلى محكمة الباشا، واشتد بهم الهيجان فتظاهروا مطالبين بإعدامه.

فجماعة الرياس، ورجال البحر، الذين أعجبوا بهذه المغامرة تولوا مهمة الدفاع عنه، قائلين أنه كان رجلا محاربًا، وأنه يجب أن يعامل معاملة المقاتلين الأسرى.

لكن الباشا كان تحت تأثير الجماهير الجزائرية المتهيجة، فحكم بأن يسلم الرجل للشعب الذي أسره ليفعل به ما يشاء.

وانتقم الشعب من المغامر شر انتقام، وبقيت جثته معلقة أيامًا فوق سور المدينة.

ويقول الأستاذ المؤرخ دو قرامون، تعليقًا على موقف الرياس، من دفاعهم عن هذا المغامر: «إن هذا الموقف يؤكد همة رؤساء البحر، وأنهم كانوا رجال شرف وأمانة عسكرية، ولم يكونوا أوباشًا، أو لصوص بحر».

الفصل الحادي عشر

كلج علي باشا المجاهد العظيم

سبق لنا أن ذكرنا هذا البطل أثناء كفاحه الطويل من أجل الإسلام ومن أجل وحدة الجزائر وتحررها، تحت اسم «الحاج علي» ولقد ورد ذكره في تقرير إسباني سبق لنا نشره، كحاكم لمدينة قسنطينة، كما ورد ذكره مرارًا أثناء حوادث تلمسان، وأثناء محاولات استرجاع وهران ومعركة مستغانم وغزوات البحر العديدة.

ونجده الآن، وهو صاحب السلطة العليا في مدينة الجزائر، متمتعًا بلقب باي لرباي، الذي أضفاه عليه السلطان سليم الثاني، سنة (١٥٦٨).

ولابد لنا قبل الدخول في تفاصيل جهاده أن نصحح اسمه، وندرك معناه، فهذا الاسم يحمل بين ثناياه معنى الجهاد، ومعنى التكريم.

فالسلطان العثماني هو الذي غير اسمه من علج علي إلى كلج علي، وكلج كلمة تركية لا نزال نستعملها محرفة بعض التحريف في لهجتنا العامية فننطق بها «قلش» ومعناها السيف.

إنه قد استحق هذا الاسم بجهاده، وبإيمانه، وبانقطاعه لخدمة الإسلام والدفاع عن أرضه وعن حرماته.

وكان الحاج كلج علي -وهو على رأس الدولة الجزائرية- يريد أن يندفع بجرأة مغامرًا لكي يحقق هدفيه العظيمين: تحرير المغرب العربي من بقايا الإسبان، والاندفاع نحو بلاد الأندلس، للمد من أجل بقايا المسلمين فيها، ريثما يقيض الله من يعيد دولة ومدنية الإسلام إليها.

نجدة الثورة الإسلامية بإسبانيا

كانت إسبانيا يومئذ تعاني أزمة عظيمة في إدارتها، وفي ماليتها التي أشرفت على الإفلاس، من جراء الخراب في الداخل، ومن جراء الحروب في الخارج، وقد سادتها موجة من الظلم والإرهاب والفظائع، ما لا يكاد التاريخ يأتينا بمثل لها في قطر من الأقطار، تحت حكم ملك، هو فليب الثاني، جمع إلى الظلم والشراسة وفساد الأخلاق وفساد السريرة، حتى استوجب هذا الحكم القاسي العنيف من المؤرخ الإنكليزي الأكبر موتلي: «وقليل من الرجال الذين عرفهم التاريخ قد استطاعوا بجهودهم الخاصة أن يأتوا بمثل هذا المقدار الضخم من البشر، الذي جاء به هذا الملك. . .

وإذا كانت هنالك عيوب قد برِئ منها -كما يمكن أن يكون ذلك- فسبب ذلك هو أنه غير مسموح للطبيعة الإنسانية بأن تبلغ الكمال حتى في الشر».

فهذه الحالة المرتبكة، وما صحبها من مظالم، وويلات وآفات- جعلت البقية من مسلمي إسبانيا في ناحية الجنوب، سواء من التي بقيت محافظة على دينها أو التي تنصرت ظاهريًا- تأخذ الأهبة للانتقاض على الحكم الإسباني، وراسلت كلج علي تطلب العون والمدد، وعينوا موعدًا لإعلان الثورة يوم مجمع القديسين (يوم ١ نوفمبر).

جمع كلج علي باشا بمدينة الجزائر جيشًا عظيمًا قوامه ١٤٠٠٠ رجل من رماة البنادق، مع ستين ألفًا من المجاهدين الجزائريين، من مختلف جهات البلاد، وأرسل بهم إلى مدينتي مستغانم ومازغران، استعدادًا للغارة على وهران، ثم النزول في بلاد الأندلس، وأرسل مع الرجال المذكورين عددًا كبيرًا من المدافع، و١٤٠٠ بعير محملة بارودًا.

ويوم الأربعاء المتفق عليه؛ أي: يوم عيد مجمع القديسيين كانت أربعون سفينة من الأسطول الجزائري تقف أمام مرسى المرية الإسباني، لشد أزر الثورة ساعة اندلاعها.

لكن العملية أخفقت يومئذ لسوء تصرف أحد رجال الثورة من الأندلسيين؛ إذ انكشف أمره فداهمه الإسبان، وضبطوا ما كان يخفيه في بيته من سلاح، واطلعوا على تدبير الثورة، فلم تقع في اليوم المعين، وخسرت بذلك فرصة المبادأة.

إنما الثورة أعلنت بعيد ذلك، وبعث كلج علي باشا في شهر يناير من سنة (١٥٦٩) أسطول الجزائر لتأييد الثائرين، وحاول إنزال الجند الجزائري في الأماكن المتفق عليها، لكن الإسبانيين كانوا قد عرفوا ذلك من قبل، فصدوه عن النزول.

وكانت الثورة في عنفوانها، وزوابع الشتاء قوية في البحر، فالأسطول الجزائري أصبح يقاوم الأعاصير من أجل الوصول إلى أماكن أخرى على الساحل ينزل بها المدد المطلوب، إلا أن الزوابع قد نالت منه كل منال، فأغرقت **٣٢** سفينة جزائرية كانت تحمل الرجال والسلاح، ولم تتمكن إلا ست فقط من السفن من إنزال شحنتها فوق سواحل الأندلس، وكان فيها المدافع والبارود والمتطوعون الجزائريون.

لم يأبه كلج علي لهذه الكارثة التي أرادها الله لأسطول الجزائر، فصمم على إرسال مدد جديد لمسلمي الأندلس، وتمكن من إنزال أربعة آلاف من مجاهدي الجزائر، خلال شهر أكتوبر من تلك السنة من رماة البنادق النارية المركزة ARQUEBUSES وذخيرة كثيرة، وبعض مئات من قدماء المجاهدين العثمانيين، لكي يعملوا إطارات في إدارة المعارك.

وفي السنة الموالية سنة (١٥٧٠) أرسل الجزائريون مددًا جديدًا من الرجال والسلاح إعانة للثورة الأندلسية وكان كلج علي باشا يريد الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هنالك، لكن ما شاع وذاع عن تجمع أساطيل المسيحية واستعدادها لإجراء معركة حاسمة مع المسلمين، وأمر السلطان له بالاستعداد للمشاركة في هذه الملحمة العظمى جعله مضطرًا للبقاء في الجزائر، منتظرًا للحوادث.

إخفاق الثورة بالأندلس

كانت الجزائر هي الدولة الإسلامية الوحيدة التي مدت يدها بالإعانة الفعالة لثائري الأندلس، من رجال وأسلحة وعتاد، ولولا أن قضى الله ولا مرد لقضائه بغرق ٣٢ سفينة جزائرية كانت تحمل السلاح والرجال، ولولا انكشاف أمر الثورة، واطلاع الإسبان على مخططها- لربما كانت الحالة تتطور لفائدة بقاء الإسلام هنالك.

لكن المسيحية قد تجمعت يومئذ في إسبانيا، لقتال ومحق هذه الطائفة التي كانت آخر من يعبد الله في بلاد الأندلس، وكانت النهاية الأليمة، هي هذه الرواية المحزنة، التي يلخصها الأمير شكيب أرسلان، عن كتاب إستانلي «الإسلام في الأندلس»:

«وبويع لرجل موصوف بالنجدة والحماسة، اسمه عبد الله بن أبوه. فأرسلت دولة إسبانيا لتدويخ الثوار الدون يوحنا الإستيري، أخا الملك، وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر (هو ابنٌ غير شرعي للإمبراطور شرلكان ولد سفاحًا من إحدى خليلاته، وقد تولى فيما بعد قيادة الأسطول النصراني، كما سترى) فباشر القتال في أثناء سنة (١٥٦٩) إلى (١٥٧٠)، وأتى من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع، فذبح النساء والأطفال أمام عينيه،

وأحرق المساكن ودمر البلاد وكانت علامته: «لا هوادة» وانتهى الأمر بإذعان «الموريسك» لكنه إذعان لم يَطُل، واستأنف مولاي عبد الله ابن أبوه الكرة، فاحتال الإسبان حتى قتلوه غيلة، وبقي رأسه منصوبًا فوق أحد أبواب غرناطة ثلاثين سنة...

أفحش الإسبانيول في قمع الثورة بما أقدموا عليه من الذبح، والحريق، والخنق بالدخان، حتى أهلكوا من بقية العرب هنالك خلقًا كثيرًا، وخنع الذين نجوا من الموت فوقعوا في الرق، وسيقوا مماليك عبدانا...

ولما كان اليوم المشهود المذكور في التاريخ، وهو عيد جميع القديسين سنة (١٥٧٠) بلغ عدد من ذهب منهم عشرين ألفًا، والذين أخذوا منهم في معمعة الفتنة صاروا إلى الاستعباد، والباقون أخرجوا من البلاد مخفورين، فمات كثير منهم على الطريق تعبًا... ولم ينته إخراجهم تمامًا إلا سنة (١٦١٠) إذ وقع الجلاء الأخير... ويقال: إن عدد من خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة غرناطة إلى السنة العاشرة بعد الألف والستمائة بلغ الثلاثة ملايين، وأن الذين خرجوا لآخر مرة نحو نصف مليون (كما ترى في فصل آت»)

ويختم المؤرخ الإنكليزي كلامه عن هذه المأساة، بهذه العبارة:

«وما درى الإسبانيون المساكين بأنهم كانوا لا يعرفون ماذا يصنعون، ولا أنهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم، بل كانوا فرحين بإبعاد المسلمين مع أن إسبانيا كانت بهم مركز المدنية، ومبعث أشعة العلم قرونًا، وقلما استفادت بقعة أوربية من حضارة الإسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد، فلما غادرها الإسلام انكسفت شمسها، وتسلط نحسها، وإن فضل مسلمي الأندلس ليظهر في همجية هؤلاء القوم (الإسبان) وتأخرهم في الحضارة وسقوط هذه الأمة في سلّم الاجتماع، بعد أن خلت ديارها من الإسلام» اهـ.

وهكذا انهارت آخر الآمال في إنقاذ البقية الباقية من الإسلام في بلاد الأندلس، وكانت الخيبة مريرة، وكان رد الفعل مؤلمًا في أطراف بلاد الدولة الجزائرية التي كانت منذ سني عروج وخير الدين، إلى آخر عهد قلج علي (١٥١٦-١٥٧٠) تجعل إنقاذ بقايا الأندلس هدفًا من أعظم أهدافها.

الحلف البابوي

كان البابا بيوس الخامس (١٥٦٦-١٥٧٢) قد أدرك الخطر الإسلامي العظيم الذين يتهدد البلاد الأوربية، من جراء تدفق الموجة التركية العثمانية برًّا وبحرًا، فأخذ يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الأوربية المختلفة، وتوحيد قواها برًّا وبحرًا تحت راية البابوية، من أجل الوقوف في وجه الإسلام.

وهكذا تمكن من جمع أسطولي إسبانيا وجمهورية البندقية وبقية الدويلات الطليانية وألمانيا مع أسطول البابوية، واستعدت القوى المجتمعة الموحدة للهجوم، ولقد تم عقد هذا الحلف المقدس الكاثوليكي في كاتدرائية سان بيار (القديس بطرس) يوم ٢٥ ماي (١٥٧٠).

إنقاذ مدينة تونس

رأى كلج علي المبادرة قبل كل شيء باستخلاص تونس من بين يدي الإسبان، فجمع الجيش الجزائري، وبادر بمهاجمة مدينة تونس، فالتقى بجموع الملك أحمد الحفصي بباجة ودحرها، ثم تقدم إلى العاصمة التونسية، يقول ابن أبي الضياف:

«وفتح أهل الحاضرة أبوابها لعلي باشا فدخلها بمن معه، وقصد القصلة وذلك سنة (٩٩٧هـ/ ١٥٦٩م) ونادى في الناس بالأمان، فاجتمع إليه وجوه

البلد وأخذ عليهم البيعة للسلطان سليم العثماني، وأعلنت الخطباء بالدعاء له على المنابر وضربت السكة باسمه، ولما استقرت قدمه جاءه فرسان الزمامرة (من جيش السلطان الحفصي) وقالوا له: نحن خدام سلطاننا، دافعنا عنه بقدر استطاعتنا، ولا مرد لحكم الله، فإن شئتم أبقيتمونا في بلادنا، وإن شئتم ننصرف، وأرض الله واسعة، فقال لهم علي باشا: لقد فعلتم ما وجب عليكم من النصح والمدافعة عن سلطانكم فأنتم الآن من جماعتنا».

ثم ترك علي باشا جماعة من جيشه لحماية مدينة تونس، ومحاصرة قلعة حلق الوادي التي كانت لا تزال بيد الإسبان، ورجع توًّا إلى الجزائر؛ لأن واجبًا آخر عظيمًا كان يدعوه بكل إلحاح استجابة لأمر الخليفة السلطان سليم.

وهو المشاركة بأسطول الجزائر، وعدده يومئذ ٧٠ سفينة، في المعركة البحرية الهائلة المنتظرة.

معركة ليبانت الحاسمة في البحر

استعدت النصرانية قاطبة تحت راية البابوية للقيام بمعركتها الحاسمة وكانت قيادة الأسطول المسيحي قد أسندت إلى الأميرال يوحنا الإستيري (جلاد مسلمي الأندلس، وابن شرلكان سفاحًا) فسار إلى بحر الأدرياتيك، وهو يشمل ٣٠٠ سفينة حربية، تحمل على متنها ثمانين ألف رجل، ولم يكن مع الأميرال العثماني إلا ٢٥٠ سفينة، والتقت العمارتان الإسلامية والنصرانية، يوم ٧ أكتوبر ١٥٧١/ ١٧ جمادى الأول ٩٧٩هـ أمام مدينة ليبانت ببلاد اليونان، واحتدمت نيران المعركة، وكان الأسطول الجزائري الذي يقوده كلج علي بنفسه يحتل ميسرة الأسطول الإسلامي العام، وعند بداية المعركة كانت رياح النصر تهب على شراعات المسلمين، واندفع

الجزائريون في حمية وإيمان يصادمون ما يليهم من سفن النصرانية، فاستولوا على عدة سفن منها، من بينها السفينة التي تحمل علم البابا.

لكن المعركة انقلبت ضد المسلمين وأحيط بهم فكانت خسائرهم فادحة: غرق من الأسطول الإسلامي ٩٤ سفينة من بينها ٣٠ سفينة جزائرية، وأخذ المسيحيون ١٣٠ سفينة، عليها نحو الثلاثمائة مدفع، و٣٠ ألف أسير وقعوا في قبضة المسيحيين واستشهد خلال المعركة علي باشا قائد الأسطول العثماني.

أما صاحبنا قلج علي فقد استطاع إنقاذ الأربعين سفينة التي بقيت من أسطوله، واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التي غنمها الجزائريون ومن بينها السفينة التي تحمل علم البابا، ورجع بها لإستنابول، التي استقبلته استقبال الرجل العظيم، رغم الشعور بمرارة الخيبة، ونكبة الهزيمة المؤقتة.

بادر السلطان بإسناد خطة «قبودان باشا» أي القائد العام للأسطول الإسلامي إلى قلج علي، مع بقائه على خطته كباي لرباي بمدينة الجزائر، فعين ممثلًا له، على رأس الدولة الجزائرية، السيد أحمد العربي، الذي يدعوه الأتراك «عرب أحمد».

أقبل كلج علي بهمة ونشاط عديمي المثال على تجديد الأسطول الإسلامي، وتعويض ما فقد منه، فما جاءت صائفة سنة (١٥٧٢) حتى كان قد هيأ ٢٥٠ سفينة جديدة، وارتاعت دولة البندقية من هذا الاستعداد، فطلبت الصلح من الدولة العثمانية، وتنازلت لها عن جزيرة قبرص -موضوع الصراع الكبير بين الأتراك واليونان اليوم- ودفعت لها غرامة حربية قدرها ثلاثمائة ألف دوكا.

إنقاذ تونس نهائيا

أراد الأمير يوحنا الإستيري النمساوي أن يغتنم فرصة الروع الذي أحدثته معركة ليبانت السالفة الذكر في صفوف المسلمين، لكي ينفذ خطة الصليبية الإسبانية الشاملة، التي كانت هدف أبيه شرلكان من قبله، كما كانت -وكما بقيت- هدف ملوك إسبانيا.

فرأى أن يبتدي بغزو مدينة تونس، واسترجاعها من أيدي العثمانيين، ريثما يتمكن من إعادة الكرة على مدينة الجزائر.

خرج خلال شهر أكتوبر من سنة (١٥٧٣) من جزيرة صقلية على رأس أسطول مؤلف من ١٣٨ سفينة، تحمل ٢٥ ألفًا من المقاتلين، ونزل بقلعة حلق الوادي التي كانت تحتلها إسبانيا، وجاء بالملك الحفصي أبي العباس أحمد، الذي التجأ إلى الإسبان، فقرر مهاجمة تونس وأخذها حالًا، على شريطة أن يكون الحكم مناصفة بين الإسبان وبين السلطان أحمد الحفصي.

لكن هذا الملك اللاجئ كانت فيه بقايا إيمان وشرف، فلم يقبل الحكم مناصفة، فتنازل عن العرش لأخيه محمد بن الحسن، ودخل الإسبان مدينة تونس، التي لم يكن بها يومئذ ما يكفي للدفاع عنها، وخرج أهلها فارين بأنفسهم وبشرفهم ولاذوا بالبوادي كما يقول ابن أبي الضياف، ونالهم من الجوع والعطش وكشف الستر وتشتيت الشمل ما هو مبسوط في كتب التاريخ، مما تقشعر منه الجلود.

ويقول أيضًا:

«وانتهى محمد بن الحسن إلى القصبة، وشاطره قائد جيش الصبنيول في الحكم، وعاث عسكره في البلاد، وربطوا خيولهم بجامع الزيتونة،

واستباحوا ما به وبالمدارس العلمية من الكتب، وألقوا بها في الطرقات يدوسها العسكر بخيولهم وهذا هو السبب في قلة تآليف الفحول من هذا القطر، فإنها ضاعت شذر مذر في هذه الواقعة».

وأن تونس لفي هذا الكرب العظيم؛ إذ تراءت لها طلائع الأسطول العثماني يقوده القبودان باشا كلج علي باي لرباي الجزائر، فينزل على مقربة من أطلال قرطاجنة جيشًا عثمانيًا قويًا، تحت قيادة المجاهد البطل سنان باشا، ويستقدم لإعانته فورًا جيش الجزائر يقوده عرب أحمد، وجيش طرابلس يقوده مصطفى باشا، وجيش القيروان يقوده حيدر باشا.

يقول ابن أبي الضياف أيضًا:

«وحاصر قلج علي باشا حلق الوادي، ووالى عليه القتال، إلى أن أخذه عنوة، وحكم السيف في أهله (الإسبان) وغنم جميع ما به من العدة والذخائر، والآلات، وذلك لستٍّ خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة (١٥٧٣م) ثم جرد الوزير عسكرًا لحصار تونس، ففر من بها من الصبنيول، ومعهم محمد بن الحسن الحفصي إلى البستيون، وتملك العسكر العثماني على الحاضرة وقصبتها، ثم اجتمعوا عصابة واحدة بقلب واحد، على حصار البستيون (قلعة بناها الإسبان إلى جانب تونس) وضيقوا على أهله من كل جهة، وباشر الوزير سنان باشا الحرب بنفسه كواحد من الجند، حتى إنه أمر بعمل ترس يشرف منه على قتال من في البستيون، فكان ينقل التراب والحجر على ظهره مثل العسكر، فعرضه أحد من أمراء الجند فقال له: ما هذا أيها الوزير؟ نحن إلى رأيك أحوج منا إلى جسمك! فقال له الوزير: لا تحرمني من ثواب».

«ولم يزل ملحًا على حصار البستيون إلى أن ملكه عنوة يوم الخميس لخمس بقين من جمادى الأولى، سنة إحدى وثمانين وتسعمائة (١٥٧٣م)

واستأصل أهله بالقتل والأسر، ومات من الفريقين ما ينيف على العشرين ألفًا».

أما محمد بن الحسن الحفصي، فقد أرسل به سنان باشا -بعد أن استأصل شأفة الإقطاعيين، إلى إستانبول- حيث قضى نحبه، وانقرضت بهذه الموقعة دولة بني حفص، بعد أن حكمت البلاد التونسية (والكثير من بلاد الجزائر الشرقية) ما يزيد عن الثلاثمائة والسبعين سنة، كانت في أولها وفي وسطها، بهجة الدنيا، ومنار علم وحضارة وسمو، أضاء إشعاعه الآفاق.

وهكذا أسدل الستار نهائيا على المطامع الإسبانية في مشرق المغرب العربي ولم يبقَ لهم بالمغرب الأوسط إلا مدينة وهران ومرساها الكبير، أما بالمغرب الأقصى، فقد كانت الأمور تتمخض عن حادث عظيم، ألا وهو معركة الملوك الثلاثة، أو معركة القصر الكبير، وانهيار المطامع البرتغالية إلى الأبد.

معركة الملوك الثلاثة الحاسمة

أرادت إسبانيا أن تتقرب بعد هذه الحوادث إلى الخليفة السلطان مراد الثالث، وأن تعقد معه صلحًا، لكن باي لرباي الجزائر، القبودان باشا كلج علي وقف دون ذلك موقفا صارمًا عنيفًا، وجعل السلطان يعتنق فكرته: لا صلح مع إسبانيا، ما دامت تحتل وهران، والمرسى الكبير، فأخفق المسعى، ولم تنل إسبانيا من السلطان العثماني الصلح الذي كانت تريده.

وكان الملك السعدي الشريف الغالب قد توفى بمراكش سنة (١٥٧٤) ٩٨٢هـ تاركًا ملك السعديين لابنه محمد المتوكل.

وقد كان هذا الشريف الغالب المتوفى قد سلم حجر باديس (أو قلعة فاليس) للإسبان، كما يروي الناصري في كتاب الاستقصاء عن كتاب «النزهة»:

«ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأى عمارة ترك الجزائر وأساطيلهم، لا ينقطع ترددها عن حجر باديس ومرسى طنجة، يعني البوغاز، وتحوف منهم- اتفق مع الطاغية (الإسباني) على أن يعطيه حجر باديس، ويخليها لهم من المسلمين، فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدوا سبيلا إليه، فنزل النصارى على حجر باديس، وأخرجوا المسلمين منها، ونبشوا قبور الأموات وحرقوها، وأهانوا المسلمين كل إهانة، ولما بلغ خبر نزولهم عليها لولده محمد، وكان خليفته على فاس- خرج بجيوشه لإغاثة المسلمين، فلما كان بوادي اللبن بلغه استيلاؤهم عليها، فرجع وتركها لهم» اهـ.

لكن الشيخ عبد الملك ابن الشيخ السعدي، أخا الغالب- لم يعترف بالملك لابن أخيه محمد، وطالب بالعرش نفسه، وغادر البلاد إلى إستانبول يستنجد السلطان العثماني، مراد الثالث، ويعترف له بالخلافة، ويلتزم بالدعاء له فوق المنابر، إذا ما هو استقر على عرش السعديين، ولم يكتفِ الشريف عبد الملك بهذا الوعد، بل انضم إلى الجيش العثماني الذي ذهب مجاهدًا لإنقاذ تونس وشارك في عمليات الجهاد، على رأس جماعة من أنصاره.

فالسلطان مراد الثالث طلب إلى والي الجزائر يومئذ، القائد رمضان، الذي خلف كلج علي، أن يجهز جيش الدولة الجزائرية، وأن يقتحم به تخوم الدولة المغربية، لكي يفتح طريق العرش أمام الشريف عبد الملك، وكان هذا قد دخل المغرب قبل ذلك خلسة، وأخذ في استشارة أنصاره، واستفزاز القبائل، من أجل القيام بدعوته.

أتم القائد رمضان تجهيزاته، وسار سنة (١٥٧٥/ ٩٨٣هـ) قاصدًا مدينة فاس، وضم جيشه البالغ عدده خمسة آلاف رجل، إلى قوى الشريف عبد الملك، ثم

صادموا معًا جيش السلطان محمد السعدي في مكان يقال له الركن ببلاد بني وارثين، فاندحر أمامهم ولحقت به هزيمة منكرة؛ لأن جماعة الأندلسيين الذين كانوا معه قد انقلبوا عليه عندما رأوا جماعة الأندلسيين والأتراك مع خصمه، فانضموا إليهم، ودخل الشريف عبد الملك مدينة فاس تلك السنة، وبويع بها سلطانا على المغرب.

ثم دفع للقائد رمضان مصاريف الحملة التي كان اقترضها من رجال الحكومة في الجزائر، وكان ذلك ٥٠ ألف أوقية من الذهب، وأكرمهم بتحف وهدايا ثمينة، ومدافع كثيرة، ثم أرجعهم إلى الجزائر، وخرج لوداعهم بنفسه.

أما السلطان محمد المتوكل، فقد انهزم إلى مراكش، واستقر بها، وما لبث بها إلا قليلا حتى تتبعه خصمه، وهزمه من جديد، واستولى على مراكش، وخلا له الجو في المغرب، فنفذ للسلطان العثماني وعوده، واعترف بخلافته، ودعا له فوق منابر المغرب.

في هذه السنة، بلغ امتداد الخلافة العثمانية أقصى مداه؛ إذ شمل كامل أطراف بلاد العرب، من دجلة شرقا وعدن واليمن جنوبا، إلى المحيط الأطلسي، زيادة عن بلاد الترك، والبلاد الأوربية المفتوحة.

استنجاد السلطان محمد السعدي بالبرتغال

أما السلطان محمد المتوكل، المخلوع المنهزم، فبعد أن استقر بالسوس مدة سار إلى إسبانيا بحرا، يطلب إلى ملكها وإلى رجالها النجدة والمدد، لكي يستعيد عرشه، ولكي يخرج المغرب من دائرة النفوذ العثماني.

لكن إسبانيا لم تكن يومئذ في حالة تسمح لها بمثل هذه المغامرة، وخاصة أن المغرب الأقصى كان لا يزال حسب المعاهدات السالفة، منطقة نفوذ، أو مجالا استعماريا للبرتغال.

فلوى السلطان عنانه نحو لشبونة، عاصمة البرتغال، حيث اجتمع بالملك سبستيان، وعقد معه عهدا : أنه يتنازل للبرتغاليين عن سواحل المغرب الغربية، وأن يحكم بقية البلاد الداخلية معترفا بسلطانهم وذلك مقابل إمدادهم له بقوة عسكرية، تبعد عمه عن العرش، وترجعه إليه، وتم الاتفاق على هذا.

وظن البرتغاليون أنهم بذلك قد تمكنوا من المغرب الحر الأبي وأنه لن يفلت من قبضتهم.

ركب سبستيان البحر في حملة ضخمة لم ير الراءون قبلها ولم يروا بعدها في ضخامة العدد، ووفرة العدة، وتنوع السلاح؛ إذ كان الجيش البرتغالي يشمل نحو مائة ألف رجل حسب الروايات المغربية، والأصح أن الجيش الغازي كان مؤلفا حسب رواية المؤرخ مانويل كما يلي:

٢٠٠٠٠ من الإسبان
١٢٠٠٠ من البرتغال
٣٠٠٠ من الطليان
٣٠٠٠ من الألمان
٤٠٠٠ من جيش البابا
٤٢٠٠٠ المجموع من غير رجال البحر.

بينما كانت جموع محمد المتوكل التي تناصره إلى جانبهم لا تزيد عن ثلاثمائة رجل، وكان القطر المغربي قد استفاق بعد ذهول لنفسه، واستعاد بعد الفتن المتوالية نفسه، والتفَّ الشعب كما لم يلتف من قبل في ذلك الزمن حول السلطان عبد الملك، واستصرخ العلماء الشعب من كل جهة فاستجاب لداعي الجهاد، وتقدمت جموع المسلمين إلى نواحي مدينة أصيلا على البحر المحيط، حيث نزل البرتغاليون خلال شهر جوان (١٥٧٨)، وتمكنوا من الأرض وتحصنوا واستعدوا للقتال على مقربة من القصر الكبير.

وجاءت جماعة من المجاهدين من كل صوب، وعلى رأسها السلطان عبد الملك وكانت تبلغ أربعين ألف رجل، والتقى الجمعان في معركة حاسمة فظيعة، كان كل فريق من الفريقين يدرك هدفها، ويدرك مآلها:

فالمغاربة: إما إلى عزة وحرية أو إلى مذلة وهوان.

والبرتغال: إما إلى توسع واستعمار وملك ذريع، أو إلى انهيار وفقد كل أمل في امتلاك المغرب.

وقعت المعركة التي يقودها ثلاثة ملوك يوم الرابع من شهر أوت (١٥٧٨)، على وادي المخازن (الاثنين ٣٠ جمادى الأولى ٩٨٦هـ) وهبت رياح النصر على المجاهدين، فما انتهى اليوم حتى كانت جموع البرتغاليين قد هلكت عن آخرها تقريبًا، ولم يأسر المسلمون منها إلا القليل.

أما الملوك الثلاثة الذين قادوا المعركة، فقد لقوا فيها حتفهم جميعًا في يوم واحد:

السلطان عبد الملك: مات في أول المعركة، وكان مريضًا ولم يطلع على وفاته أحد، إلا حاجبه المملوك رضوان العلج، فكتم الخبر عن كل أحد، وقاد المعركة فعلا باسم سيده المتوفى إلى أن تم النصر، وعندئذ أعلن الحقيقة للناس.

والملك سبستيان: لقي حتفه غرقا، وهو منهزم، في وادي المخازن.

والسلطان المخلوع المطالب بالعرش، الذي تولي كبر هذه الواقعة، محمد المتوكل: فإنه حاول الفرار بعد الهزيمة، فخاض نهر المخازن، ومات به غريقًا أيضا.

وبايع الناس يومئذ في إجماع رائع، شقيق عبد الملك الأمير أحمد، الذي لقب فيما بعد بالمنصور، وكان أكبر معين لشقيقه الشهيد.

فبادر بمراسلة ملوك وعظماء المسلمين وأعلامهم بالنصر العظيم، كالسلطان مراد العثماني، وتلقى منهم التهاني، يقول الناصري: «وكان أول من وفد عليه، رسول صاحب الجزائر».

وأرسل له السلطان مراد هدية فاستقلها ولم يعبأ بها. وقطع الخطبة للخليفة العثماني، ثم توالت الرسل بين السلطانين فتصالحا، وتصافيا، واستقر الأمر للخلافة السعدية، على أرض المغرب الأقصى.

وهكذا أنقذ الله المغرب الأقصى، بل المغرب العربي كافة، على يد هؤلاء المجاهدين الأبرار، من كارثة كادت تحل به، وتغير مجرى التاريخ فيه.

وانهارت أحلام ومطامع البرتغال إلى الأبد في تملك شيء من أقطارنا. بل البرتغال نفسها أصبحت جزءًا من بلاد إسبانيا، بعد سنتين من ذلك التاريخ.

قال المؤرخ البرتغالي لويز مارية في كتابه الموضوع عن أخبار الجديدة: تعليقا على هذه المعركة (حسب رواية الاستقصاء) ما نصه: «إن هذا العصر هو العصر النحس، البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم، وخلفها الفشل وانقطع الرجاء، واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير من بلاد المغرب» ا هـ.

استمرار الجزائر على الجهاد في البحر

لم يفتأ الجزائريون خلال هذه الحوادث وبعدها يوالون الغزو في البحر ويحطمون ما وجدوه أمامهم في طريقهم، من سفن الإسبان، تجارية كانت أو حربية.

وما زادتهم نكبة الأندلس الأخيرة، وخيبة الثورة فيها خيبة مريرة، إلا ضراوة واستبسالا في قتال الأعداء الذي كانوا متمسكين بمدينتي وهران والمرسى الكبير، مضيقين الخناق على ما حولهما.

ففي شهر أفريل من سنة (١٥٧٨) هاجم الأسطول الجزائري بقوة وجرأة سواحل إسبانيا الشرقية والجنوبية، فحطم منشآتها، وغنم ما بها، وأُسر وسبي من أهلها جمع كبير، انتقاما من الموبقات التي ارتكبها الإسبان في المسلمين.

وفي نفس تلك السنة، وكان حسن باشا فنزيانو، مملوك طور غود باشا يتولى السلطة في الجزائر- هاجم الأسطول الجزائري مرة أخرى جزائر الباليار، فحطم ما فيها، وغنم ما بها.

وخلال سنة (١٥٨٢) جهز حسن فنزيانو أسطوله من جديد لمحاربة إسبانيا فوق ترابها، وما تحتله من بلاد أوربا، ونزلوا حوالي مدينة برشلونة الكبرى في إسبانيا، فحطموا منشآتها، وغنموا ما فيها، ولم يكتفوا بذلك بل اجتازوا مضيق جبل طارق، وهاجموا جزائر الخالدات -الكناري- التي تحتلها إسبانيا، فحطموا المراكز الإسبانية وغنموا ما فيها.

ورجع القبطان مراد رايس، أحد أمراء البحر الجزائريين المشهورين، بغنائم عظيمة من هذه المغامرة (وهو صاحب البئر التي لا تزال موجودة الآن، حفرها صدقة للسابلة، على مقربة من الجزائر، حيث قرية: بئر مراد رايس، وتدعى منذ الاحتلال الفرنسي للبلاد سنة (١٨٣٠) بير ماندرايس)

إنقاذ بقايا البؤساء من مسلمي الأندلس

ولم يكن الأسطول الجزائري يذهب لإسبانيا لمجرد التنكيل بالإسبان، وتحطيم منشآتهم، وأخذ الغنائم والأسلاب والأسرى منهم، بل كان إلى

جانب ذلك يوالي أعماله المشكورة المأجورة، فينقذ من الجحيم الإسباني ما استطاع إنقاذه من منكوبي الأندلس.

فكان جملة الأسطول الجزائري في تلك الآونة يتجاوز العشرة آلاف من الأنفس منحهم الجزائريون الأرض، وفتحوا أمامهم بعد يأس أبواب الأمل والحياة.

ولم يكن طريق الجزائريين أثناء هذه الغزوات البحرية الكبرى مفروشا بالورود، بل كانوا يقتحمون أخطارا عظيمة، ويتحملون ضربات قاسية عنيفة، مثال ذلك موقعة سنة (١٥٨٥)؛ حيث التقى الأسطول الجزائري بعمارة قوية من أسطول جنوة فأسفرت المعركة عن أسر ١٨سفينة جزائرية.

موت البطل كلج على باشا

كل هذه الأعمال كانت تقع تحت إشراف وبأمر القبودان باشا كلج علي باي لرباي الجزائر. الذي كان خلفاؤه: قايد رمضان، وحين فنزيانو، وغيرهم، يتصرفون باسمه.

وكان كلج علي واقفا على استكمال قوى الأسطول العثماني، وإرجاع صولته وروعته إليه، بعد كارثة ليبانت الشهيرة السابقة الذكر، فتمكن من ذلك على الوجه الأكمل، وما رجعت روحه لربها راضية مرضية سنة (١٥٨٧) عن سن ثمانين سنة حتى كانت العمارة البحرية الإسلامية أقوى وأعظم أساطيل العالم.

كلج علي وقنال السويس

مما يشهد بمهارة وعبقرية هذا الرجل الغريب أنه ما كاد يرى التجارة الأوربية الكبرى تجتاز ببضاعتها الوافرة الغنى طرق الجنوب الأفريقي، عادلة

عن اجتياز البحر الأحمر، وخليج السويس، حتى أقنع السلطان بوجوب فتح قنال بحري، يصل بين ميناء السويس والبحر المتوسط، حتى يختصر طريق القوافل البحرية فتسترجع مصر وبلاد العرب أهميتها التجارية، ولا تفقد مواني البحر المتوسط مكانتها الاقتصادية.

واقتنع السلطان بذلك، وابتدأ حفر القنال فعلا، لكن الأعمال تعطلت، وألغيت، بعد موت القبودان باشا .

وبموت البطل الكبير كلج علي انتهى في البلاد الجزائرية نظام «الباي لرباي» الذي جعل من حكام الجزائر ملوكا حقيقيين واسعي السلطة والنفوذ، واستعيض عنه بنظام «الباشوات الثلاثين» أي الذين يحكمون البلاد لمدة ثلاثة أعوام (نظريًّا)

نهاية القرن السادس عشر وآثاره

أسفرت هذه الأعمال الكبرى التي رسمناها صورًا واضحة -خلال القرن السادس عشر- عن وضعيات محدودة، مدققة:

١- إخفاق الصليبية الإسبانية في دور مدها العظيم إخفاقا شنيعا قاسيا، في تونس وفي الجزائر وفي تلمسان، وخسرت إسبانيا تحت ضربات المجاهدين الجزائريين كل ما تمكنت من قبل من احتلاله، فلم يبقَ لها نهاية القرن السادس عشر فوق أديم الأرض الجزائرية إلا مدينة وهران، ومرساها الكبير.

٢- توقف «الهلالية» العثمانية، إن صح التعبير، فالامتداد التركي العظيم قد توقف في أوربا فعلا، أواخر هذا القرن.

وأخذت حركة المقاومة المسيحية الأوربية تشتد وتتكتل ريثما خلفتها حركة الاسترجاع ورد العثمانيين إلى مراكز انطلاقهم، خلف وادي الدانوب.

٣- انتظام سير الجزائر، التي أصبحت دولة بأتم معنى الكلمة، رغم تبعيتها لسلطان العثمانيين، كخليفة للمسلمين، واستمرارها على أعمال الغزو والجهاد ضد الإسبانيين ومن انضوى تحت لوائهم أولا، ثم تعميم الحرب ضد كل دولة لم تتعاقد مع الجزائر رأسا.

٤- تونس، وطرابلس، ومصر ولايات عثمانية، كبقية بلاد العرب والترك.

٥- استقرار سلطنة الأشراف السعديين تحت لواء السلطان أحمد المنصور استقرارًا متينا، معترفا به من الجميع.

٦- فقد المسلمين لآخر أمل في استرجاع بلاد الأندلس، أو شيء منها، بعد إخفاق ثورة الموريسكو، فلم يبقَ من المسلمين لسنوات قليلة إلا النزر اليسير، رغم المحاولة اليائسة الأخيرة، سنة (١٦١٠) التي قام الجزائريون فيها أيضا بدور مشكور، كما سترى.

٧- تفككت الإمبراطورية الإسبانية الألمانية الضخمة، حين اغتنم أحرار بلاد هولندا وبلجيكا فرصة نكبات الإسبان، فأخذوا يعلنون الثورات المتوالية ضد الحكم الجائر العنيف، منذ سنة (١٥٧٦) إلى أن تم لهم التحرر ورفعوا رايات الاستقلال. وحارب الإنكليز إسبانيا فحطموا أسطولها تحطيما سنة (١٥٨٨) في بحر الشمال.

٨- إخفاق المخطط الاستعماري الصليبي البرتغالي في المغرب العربي إلى الأبد.

الفصل الثاني عشر

ما بين الصليبيتين

فترة ركود

انتهى الدور الأول من الصليبية الإسبانية مع انتهاء القرن السادس عشر بإخفاق تام كما رأينا في الفصل السالف.

ولم يبق بين يدي الإسبان من الأرض الجزائرية إلا وهران ومرساها الكبير، وقطعة من الأرض محدودة المساحة تحيط بالمدينتين المذكورتين، سنرى فيما بعد امتدادها وطريقة حكم وسيرة الإسبان فيها.

وسادت فترة ركود طويلة المدى على الميدان الحربي، اقتضتها ظروف داخلية، وظروف خارجية.

إنما الإسبان لم ينسوا صليبيتهم، وكانوا عاقدين العزم دوما واستمرارا على استئنافها، متى سنحت لهم الفرصة، كما لم ينس الجزائريون وهران أصلا، فكانت قبلة أنظارهم، وكانت هدفهم الأساسي، وتعهدوها بالغزو مرارا خلال هذه الفترة، لكن تلك العمليات لم تسفر مطلقا عن شيء إيجابي...

ولهذا الركود النسبي أسباب عديدة، أهمها في نظري:

١- فتور استولى على نفوس الحاكمين والمحكومين من جراء خيبة الأمل في إنقاذ الأندلس: وذلك إثر إخفاق الثورة المسلحة التي كان الجزائريون أول وآخر من مد لها يد المساعدة والإعانة.

٢- اطمئنان ساد الأوساط الجزائرية كلها إثر الإخفاق العظيم الذي باءت به الحملات الإسبانية السالفة، وتطهير كامل البلاد الجزائرية والتونسية من بقايا الاحتلال الإسباني، وانحصار الخطر في بقعة وهران وحدها وهي محاصرة مضيق عليها.

٣- انغماس الجزائريين في حروب بحرية -لا أول لها ولا آخر- مع كامل الدول الأوربية التي لم تتعاقد رأسا مع الجزائر، ولم تُمضِ معها معاهدة سلام، ولم تدفع للخزينة الجزائرية الجعل المتفق عليه.

فكان الاشتباك مستمرا مع فرنسا، وإنكلترا، وهولندا، والدانمارك، وإيطاليا بمختلف جمهوريتها، زيادة عن إسبانيا العدو الأساسي.

٤- اضطرابات في الحكومة المركزية الجزائرية وخلافات مستمرة بين ضباط الجيش العثماني حول الرئاسة، وإن كان ذلك لا يؤثر على حياة الشعب أدنى تأثير، لا من قريب ولا من بعيد؛ لأن قضية كرسي الرئاسة كانت قضية عثمانية بحتة، هي دولة بين كبار الضباط ورجال الديوان العسكري لا غير، فكانت السياسة الجزائرية يومئذ تدور حول النقط التالية:

(أ) كرسي الرئاسة ومناصب الإدارة العليا.

(ب) تمهيد الراحة في الداخل، وإخماد الثورات والاضطرابات.

(ج) توسيع مدى الاستقلال الجزائري، ومنع التدخل العثماني المباشر.

(د) توسيع نطاق الجهاد في البحر، وإرغام كل الدول الأوربية على التعاقد رأسا مع الجزائر.

(هـ) الاستعداد المستمر للدفاع ضد الغارات البرية والبحرية التي تقوم بها بعض الدول الأوربية كرد فعل على الحرب البحرية التي تقوم بها الجزائر.

أما إسبانيا، فلم تغتنم هذه الفرص لشن غارات جديدة على الدولة الجزائرية؛ لأن الدولة الإسبانية كانت تنحط شيئا فشيئا في مهاوي السقوط، وتعاني أزمات عديدة منها الداخلي؛ كانفصال البرتغال، وتفكك الإمبراطورية، ومنها المالي التي قاست منها الأمرين.

كل هذا جعل نوعا من المهادنة يسود الميدان الجزائري الإسباني، وإن كانت العمليات البحرية مستمرة، والعمليات البرية تأخذ دورا حادا، الفينة بعد الفينة، كما سنذكره فيما بعد.

ولقد غيرت الجزائر العثمانية نظامها خلال هذه الفترة ثلاث مرات، بعد نظام الباي لرباي، الذي انتهى بموت البطل كلج على سنت نظام «الباشوات الثلاثيين» الذين يعينهم الخليفة العثماني لمدة ثلاثة أعوام فقط، ودام ذلك النظام من سنة (١٥٨٧) إلى سنة (١٦٥٩).

ثم جربت نظام (آغة الهلاليين) وهو نظام يقتضي نوعا من الحكم الجماعي (العسكري) بأتم معنى الكلمة، فالديوان هو الذي يحكم البلاد، ويسند الرئاسة التنفيذية لكبير الضباط الذي يدعى الآغا، وذلك لمدة شهرين فقط، ثم يتولاها غيره. ولم يدم هذا النظام طويلا (١٦٥٩-١٦٧١) وذلك تحت نظر ورعاية «الباشا» الذي ترسل به إستانبول ممثلا لسلطة الخليفة العثماني: وليس له مطلقا التدخل في أمور البلاد.

أخيرا، اتخذت الدولة الجزائرية نظامها النهائي، وهو وليد التجارب الماضية كلها، أعني به نظام الديوان والداي.

فالديوان (العسكري) هو السلطة العليا: يعلن الحرب ويعقد السلام، ويعين كبار وصغار رجال الدولة، ويحدد العلاقات بين دولة الجزائر والدولة العثمانية وبقية الدول، والديوان ينتخب رئيس الدولة الذي يدعى «الداي» باللغة التركية وله معنيان: الزعيم والخال؛ فالداي هو رئيس الهيئة التنفيذية، وإلى جانبه مجلس وزراء مختصر، لا يتعدى خمسة رجال، وينتخب لمدة العمر، وهو في نفس الوقت يكون «الباشا» ممثل السلطان الخليفة.

وكانت السلطة القضائية مستقلة تمام الاستقلال عن السلطتين التشريعية والتنفيذية، يتولى أمرها القضاة تحت نظر وإشراف «المجلس الشرعي» أما النظام الداخلي -نظام البايات وشيوخ الوطن- فلم يتغير.

هذا هو الحكم الذي اشتهرت به الجزائر كدولة مستقلة من أكبر وأجرأ دول البحر المتوسط مدى ١٦٠ عاما (١٦٧٠-١٨٣٠) ولنرجع لدراسة أهم حوادث هذه الفترة، بين دوري الصليبية الإسبانية الكبيرين:

آخر محاولة لإنقاذ مسلمي الأندلس

رغم الخيبة التي منيت بها الثورة الأندلسية الكبرى سنة (١٥٧٠) ورغم الفتور الذي هيمن بعد ذلك على نفوس المسلمين- فإن بقايا الأندلسيين الذين نجوا من المذابح ومن الفظائع والذين آثروا البقاء في وطنهم لم يفقدوا الأمل في إنقاذ جزء من وطنهم يلجئون إليه، ويستقرون فيه، ويُرجعون إليه من شاء الرجوع من أبناء عمومتهم وإخوانهم الذين شردوا وراء البحار.

وكان هؤلاء «الموريسكو» كما يدعوهم الإسبان أهل همة ونجدة ونخوة وأهل صناعة وفن ومال، لم ينسوا دولتهم ولم ينسوا دينهم ولم يتخلوا عن آمالهم بعد مائة وعشرين سنة من تحطيم الإسبان لدولة غرناطة، وبعدما لحقهم من طغيان وظلم وإرهاق وإرغام على اعتناق المسيحية ظاهرا، وهم يكتمون الإيمان الشديد.

فتآمروا مغتنمين فرصة ضعف إسبانيا ووهنها، واضطرارها لعقد معاهدة لاهاي سنة (١٦٠٩) مع الثائرين عليها من رجال الفلاندر بشمال أوربا، وقرروا إعلان الثورة ودخلت في مؤامرتهم هذه دولة فرنسا، عدوة إسبانيا التقليدية، وكان على رأس فرنسا يومئذ الملك هنري الرابع الشهير. كما أدخلوا في المؤامرة دولة الجزائر، وكان على رأسها رضوان باشا.

واحكم نظام هذه المؤامرة، على الطريقة التالية:

١- يتحرك الأسطول الفرنسي حاملا جيشا فرنسيا قويا إلى إسبانيا وينزل بمدينة «دانية»

٢- يتحرك الأسطول الجزائري في نفس الوقت نحو دانية؛ لكي يحمي عملية نزول الفرنسيين إلى البر ولكي ينزل هو أيضا رجاله بعد ذلك.

٣- في نفس تلك الساعة يقوم مائة ألف رجل من بقايا مسلمي الأندلس بثورة عارمة داخل البلاد، وراء وخلال صفوف الجيش الإسباني فيقع بين نيران الفرنسيين والمسلمين.

لكن بينما كانت الاستعدادات تجري في كل جانب على قدم وساق افتضح أمر المؤامرة الثلاثية وانكشف، فأخذ الإسبانيون حذرهم.

وأعلن الملك هنري الثالث يوم ٢٢ سبتمبر (١٦٠٩) إبعاد كل «موريسكي» من أرض إسبانيا، وأعطاهم لذلك أجلا لا يتعدى ثلاثة أيام، كي يكونوا في الموانى المعينة لهم من أجل ركوب البحر.

وهكذا خرج من إسبانيا آخر فوج من بقايا مسلميها الذين اعتنقوا المسيحية ظاهرا، وأغلبيتهم العظمى كانت من أهل البلاد، الذين اعتنقوا الإسلام منذ أجيال عديدة، وجاء معظمهم فوق متن السفن الجزائرية إلى عاصمة الجزائر، ومنهم من أم تونس وتيطوان.

وطويت بذلك صفحة الإسلام في إسبانيا إلى يومنا هذا، ويقدر عدد النازحين هذه المرة بنحو نصف مليون نسمة.

وعمَّر الأندلسيون النازحون نواحي متيجة، وأقاموا مدينة البليدة وعددا من قرى متيجة والساحل، وأدخلوا منذ تلك السنة إلى متيجة غراسة النارنج والبرتقال، التي لم تزل في ازدهار منذ ذلك الحين إلى يوم الناس هذا.

الإنكليز يحاربون الجزائر

في سنة (١٦٢٠) أراد ملك الإنكليز جاك الأول إرغام دولة الجزائر على ترك الحرب البحرية ضد السفن الإنكليزية دون أن يعقد معاهدة مع الجزائر يسود بواسطتها السلام.

وجاء الأسطول الإنكليزي إلى الجزائر تحت قيادة الأميرال مانسل، وكان يحمل ألفا وخمسمائة رجل من المقاتلين، وطالب الجزائريين بتسليمه ما لديهم من أسرى الإنكليز، فرفضوا الإذعان لذلك الإنذار، وأخذ الأسطول يرمي القنابل على المرسى، وحاول أخذ سفن من أسطول الجزائر فلم يقدر على ذلك. وأنزل رجاله حوالي المدينة قصد إرهاب الجزائريين، فما استطاعوا أن ينالوا منهم منالا، ورجعوا إلى سفنهم، ثم أقلعوا إلى بلادهم دون طائل.

وتوالت العمليات العديدة، على هذا المنوال، بين الجزائريين والأوربيين مما لا يدخل حصره ولا وصفه في نطاق بحثنا هذا، المتعلق خاصة بالحروب الأسبانية الجزائرية.

مدى اتساع الحرب البحرية الجزائرية

تقول التقارير الأوربية المختلفة: إنه فيما بين سنة (١٦١٣) وسنة (١٦٢١) غنم الجزائريون خلال حروبهم البحرية مع أوربا أكثر من ثمانمائة سفينة محملة (أي بمعدل مائة سفينة كل سنة) هذا تفصيلها:

٤٤٧ سفينة هولاندية

١٩٣ سفينة فرنسية

١٢٠ سفينة إسبانية

٦٠ سفينة إنكليزية

٥٦ سفينة ألمانية

ولا تدخل في هذا الحساب السفن الصغيرة التي كان المجاهدون الجزائريون يمنعون في أخذها، أثناء غاراتهم المتواصلة على السواحل الإسبائية، كما لا تدخل في هذا الحساب السفن الطليانية التي استولى عليها الجزائريون خلال هذه المدة.

وكانت مخازن المدينة والديار التي تخصص لإقامة الأسرى المسيحيين ريثما تقدم اللجان المختلفة من أجل افتدائهم، تضم تلك المدة ما يزيد عن الثلاثين ألفا من هؤلاء الأسرى، من مختلف الجنسيات.

وكان الأسطول الجزائري المحارب، يشمل يومئذ المائة سفينة وكان عدد رجال البحر من الجزائريين، وغالبيتهم العظمى من أهل البلاد يبلغ الثلاثين ألف رجل.

انكسار الحملة الفرنسية في جيجل

كانت فرنسا تريد إرغام الجزائر دوما على اعتبارها دولة ذات معاملة ممتازة، حسب نظام «الامتيازات القنصلية» الذي منحته الدولة العثمانية لفرنسا.

وكانت الجزائر ترفض دوما الاعتراف لفرنسا بهذا الحق، وتعاملها معاملة الدولة الأجنبية المعتادة، تصالحها متى انعقد الصلح، وتحاربها متى تم أجل الصلح أو متى نقض، وهكذا كانت الحالة مرتبكة بين الدولتين، وخاصة فيما يتعلق بالمركز التجاري الفرنسي لصيد المرجان، الذي كان يفتح أيام السلام، ثم يحطم ويحتل أيام الحرب، وهكذا دواليك.

ورأى الملك الفرنسي الشهير لويز الرابع عشر في عنفوان مجده وصولته- أن يضع حدا لهذه الحالة المرتبكة، وأن يرغم الجزائريين نهائيا على احترام المركز التجاري، والكف عن أعمال القرصنة ضد فرنسا، فجهز حملة بحرية قوية، كي يحتل بها مكانا ممتازا على الساحل الجزائري، يحقق لفرنسا كل آمالها ويكون نقطة انطلاق لها فيما بعد.

كان ذلك سنة (١٦٦٤).

ففي يوم ٢ جويلية من تلك السنة غادرت مرسى طولون عمارة بحرية مؤلفة من ٨٣ سفينة يقودها الأميرالان بول ودوكين.

أما القوة العسكرية التي كان يحملها الأسطول وهي مؤلفة من ثمانية آلاف رجل- فكانت تحت قيادة الكونت قاداني، والإشراف الأعلى على العملية كلها كان للدوق دي بوفور.

وصلت الحملة أمام مدينة جيجل يوم ٢٢ من ذلك الشهر، بعد أن قضت أياما بجزائر الباليار، وانضمت لها سبع سفن من أسطول مالطة. ويوم ٢٣ اشتبكت في معركة حامية مع رجال المدينة، وتمكنت من احتلال جيجل ذلك اليوم، بعد أن تكبد الجانبان خسائر، وأخذ الفرنسيون يباشرون التحصين والدفاع.

كان يتولى أمر الجزائر يومئذ السيد شعبان آغا، وكان الديوان الجزائري مستعدا لرد كل عدوان. وكان الشعب-كما هي عادته دوما-مستعدا لتلبية دعوة الجهاد كلما دعي إليها.

فما كاد نبأ سقوط مدينة جيجل بيد الفرنسيين يصل مدينة الجزائر، حتى خف شعبان آغا ورجاله إلى ميدان المعركة، مصحوبين بمدفعية قوية، وقد انضمت إليهم جموع المجاهدين الغفيرة فكان الجيش الإسلامي الجزائري مخيما حول المدينة يوم ٥ أكتوبر.

وبعد أن أحكم وضع مدفعيته على المرتفعات وضيق الحصار على الفرنسيين بادر بقصف المراكز الفرنسية بقوة وعنف يوم ٢٥ أكتوبر، وألحق بالفرنسيين المحصوريين خسائر عظيمة، أدركوا معها بعد طول المعركة استحالة المقاومة، فصمموا على الانسحاب إنقاذا لأرواح من بقي منهم على قيد الحياة.

ثم ابتدأت عملية الانسحاب، تحت قنابل الجزائريين وضغطهم المتزايد، يوم ٣١ ديسمبر فبادر الفرنسيون بنقل ١٢٠٠ جريح إلى السفن، ثم سحبوا بقية الجند الذي خسر فوق أرض المعركة أكثر من ألفي رجل، ولم يسمح لهم الجزائريون الذين والوا ضغطهم وقذف مدفعيتهم بنقل أي شيء من سلاحهم ومن أمتعتهم، فتركوا كل ذلك غنيمة حرب للجزائريين، وكان من بين هذه الغنائم مائة مدفع وكل الآلات والمعدات.

ومما زاد في فداحة النكبة الفرنسية أن السفينة الكبرى لالون (القمر) وكانت تحمل ألفا ومائتين من الجيش المنهزم قد غرقت أثناء الانسحاب وأصبحت قبرا جماعيا لكل من فيها.

محاولة دوكين البحرية ضد الجزائر

وأعادت فرنسا الكرة بعد ذلك على الجزائر، فأرسلت الأميرال دوكين على رأس أسطول مؤلف من ٣٦ سفينة حربية يوم ١٢ جويلية (١٦٨٢) لإرغام الجزائريين على الرضوخ لمطالب فرنسا، فألقى ذلك الأسطول قنابل مدافعه على مدينة شرشال يوم ٢٥ من الشهر دون أن يلحق بها أضرارا، ما عدا إحراق سفينتين بمرساها.

وكان أمام مرسى الجزائر يوم ٢٩ جويلية، فأخذ يناور ويتظاهر بالقوة عله يرعب الجزائريين، ويضطرهم للرضوخ.

لكنهم لم يفعلوا، ورفضوا ما يقدم به من مطالب، فأخذ بإلقاء قنابله على المدينة يوم ٢٦ أوت، حيث رماها بست وثمانين قذيفة، وجدد الرمي ليلة ٣١ أوت، حيث ألقى على المدينة ١١٤ قذيفة جديدة، لم تحدث كلها إلا خسائر قليلة، ونظرًا لأنه كان يرمي من بعيد خشية أن تصيبه مدافع القلاع ولم يحصل أي تفاهم بين الجانبين فاستمرت أعمال الرمي، ودفاع الحصون والبطاريات الجزائرية إلى يوم ١٢ سبتمبر، حيث رأى الأسطول الفرنسي أنه لا طائل من وراء هذه العملية فرجع إلى فرنسا خائبا.

مثال لا حصر

إننا لم نذكر هذه الحوادث إلا على سبيل المثال فقط، فلسنا بصدد التاريخ للجزائر العثمانية، ولا حصر معاركها مع الدول المختلفة، لكننا أردنا أن نظهر تطور الحرب الأوربية ضد الجزائر، وكيف أمضى الجزائريون أيامهم خلال فترة الهدوء النسبية التي فصلت بين الصليبية الإسبانية في دورها الأول، والصليبية الإسبانية في دورها الثاني.

محاولات مغربية جديدة

توفي السلطان السعدي العظيم، أحمد المنصور سنة (١٠١٢هـ/ ١٦٠٣) وأخذ الخلل يتسرب من بعده إلى ذلك الملك الشامخ، وخلفه ابنه السلطان زيدان، ثم أخذ الارتباك يسود البلاد، إلى أن خرج الملك من عائلة الأشراف السعديين إلى عائلة الأشراف العلويين وكان ذلك سنة (١٠٥٠/ ١٦٤٠)، فاستتب الأمر للسلطان محمد بن الشريف بسجلماسة أصل العائلة العلوية، ثم صار يجمع إليه أطراف المملكة المغربية، وتعاظمت قوته، واستعصت عليه مدينة فاس، فأدار قواه وجهوده نحو ما يليه من البلاد الجزائرية، محاولا احتلالها بصفة مؤقتة، ولعل هذه الحركة كانت من أجل

أسباب اقتصادية بحتة؛ إذ إن سيرة الشريف أثناء هذه الغارة لم تكن سيرة من يريد البقاء في الأرض المفتوحة، ولا من يريد استمالة أهلها لعرشه ولدعوته.

ونترك الكلمة للشيخ الناصري في كتاب الاستقصاء عن وصف هذه الغارات:

«. . . فسار بهم إلى بني يزناسن وكانوا يومئذ في ولاية الترك، فأغار عليهم وانتهب أموالهم، وامتلأت أيدي العرب الذين جاءوا معه من مواشيهم. . .

ثم انثنى إلى وجدة، وكان أهلها يومئذ حزبين بعضهم قائم بدعوة البرك، وبعضهم خارج عنها، فانحاز الخارجون إلى المولى محمد فأغراهم بشيعة الترك فانتهبوهم، وشردوهم عن البلد. . .

ثم دلته العرب على أولاد زكري، وأولاد علي، وبني سنوس، المجاورين لهم، فشن عليهم الغارات وانتهبهم. . .

ثم توجه إلى تلمسان فأغار على سرحها، وسرح القرى المجاورة لها، واكتسح بسائطها، فبرز إليه أهلها ومعهم عسكر الترك الذي كان بالقصبة، فأوقع بهم، وقتل منهم عددا كبيرًا. . .

ولما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء، فأغار على الجعافرة وانتهب أموالهم. . .

وقدمت عليه أيضا دخيلة، ففرح بهم، وأكرمهم، ودلف على الأغواط وعين ماضي والغاسول، فنهب تلك القرى واستولى على أموالها وفرت أمامه عرب الحارث وسويد وحصين من بني مالك بن زغبة، فنزلوا بجبل راشد، متحصنين به، فرجع عنهم».

أمام هذه الحوادث المؤلمة وهي صفحة قاسية من تاريخنا المشترك جهزت الجزائر جيشها، وقصدت الناحية الغربية، فإذا بالشريف كان قد رجع بجموعه، وبغنائمه إلى ما وراء وادي الملوية.

وفد سلام ورسالة بليغة

جمع عثمان باشا صاحب الجزائر ديوانه، بعد رجوع الشريف إلى موطنه وقرروا أن يوجهوا إليه وفدا، يدعوه باسم الله والإسلام ألا يعود لمثلها، وبعثوا إليه مع الوفد المذكور برسالة أملاها العالم الجزائري الشيخ المحبوب الحضري، وأمضاها باسم الديوان، الداي عثمان باشا، وكان مؤلفا من اثنين من علماء الجزائر، واثنين من كبار رجال الدولة، ستأتي أسماؤهم ضمن الرسالة الطويلة، التي أقدم لك -نقلا من الاستقصاء- بعض ما جاء فيها:

«الحمد لله الذي أوصى وأرخص في مدافعة اللص والصائل شريفا أو مشروفا، ونص وهو الصادق سبحانه على قمع عرى أصله المتأصل مجهولا أو معروفا، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد بن عبد المطلب بن هاشم، وعلى آله تيجان العز وبراقع الجباه والخياشم، وصحابته صوارم الصولة الحاسمة من الفكر الطلي والغلاسم، بالرماح العاملة والسيوف القواصم...

ولا زائد بعد حمد الله إلا مقصد خطاب الشريف الجليل القدر، الصادق اللهجة والصدر، من رتق الله به فتوق وطنه، وحمى به من أحزاب الأباطيل أنجاد أرضه وأغوار عطنه، حافد مولانا علي وسيدتنا البتول...

سلام عليكم ما رصعت الجفان سموت البحور ولمعت الجواهر الحسان على بياض النحور، ورحمة الله تعالى وبركاته، ما أساغت محض الحلال ذكاته...

وبعد، فقد كاتبناكم من مغنى غنيمة المقيم والضاعن والزاير، رباط الحرب مدينة ثغر الجزائر صان الله من البر والبحر عرضها، وأمن زعازع العواصف والقواصف أرضها . . . إن الوهاب سبحانه منَحَكم هيبة وهمة في الجود والحلم والحماسة، واختار لكم عنوان عنايتها في غاب الصون سجلماسة، لكن فاتكم سر رأي التدبير، وأركبتم حزمكم جموع الجهل والتبذير، مع أن ذلك في الحقيقة دأب كل مؤسس لدولة، لا يجمعها إلا بجنايات الجولة والصولة، فخرقت على الأيالة العثمانية جلباب صونها الجديد، من وجدة الأبلق إلى حدودْ الجريد، فشوشت علينا أخلاق أخلاط الأعراب، إلى أن تعوقوا علينا في أرفق الآراب، وشنت الغارة الشعواء على بني يعقوب، فحسمت رسمهم على العقيب والعرقوب، وغادرت جماهرهم تسعى على عيالهم الزياني والموزنة، في أسواق مستغانم وديار مازونة، وجررت ذيل الذلة على أطراف الغاسول والأغواط، فالتقطتهم بطانتك التقاط سباع الطير للوطواط، وقادك الجاهل الجهم محمود حميان، لعين ماضي، والصوامع، وبني يطفيان.

فراحت رياح، وسويد ينقض كل بطل منهم غباره وطينه، على طود راشد وبلد قسطينة . . .

ولا كادنا، إلا ما هتكتم من ستر السر على موسى أبي الربيع السيد سليمان، مع أنكم أولى من يراعى حرمته وتوقيره، ويدافع عنه وعمن سواه ويرفد فقيرة، وتنسبون العجم للجهل وأنهم جفاة وأحلاف، ثم صرتم بدلا وأخلاف . . .

كان أولاد طلحة وهداج وخراج يؤدون لهذه المثابة ما ثقل وخف من الخراج، ولا يفوتنا من ملازمها وبر ولا شعر ولا صوف، ولا سقب ولا جدي ولا خروف، إلى أن طلعت علينا غرة شمسك السعيدة، فعادت كل شيعة قريبة منا بعيدة . . .

مع علمنا اليقيني أن شجرتنا لا تضعضع بزعازع حيان، ولا تندس ولو انهارت عليها جبال جيان، وأن الحجر لا يدق بالطلوب، والخاطف لا يطأ أوطية الخطوب، كذلك في المثال جندك خلال الصد والورود، لا يصبرون لصاعق البارود، ولا تنجح حجة الدروع والذوابل، إلا في سوق شن الغارات على حلل القبائل، وأما أسوار الجحافل وأدوار الكتائب فلا يصدمها فيهدمها إلا سيول الخيول والرماة الرواتب، وزنت صولتك لبني عامر، لذاذة النفار لكنف الكافر...

وإياك إياك والغرور، لما عثرت عليه في كتاب البوني، وأوراق السيوطي، وعلي بادي وابن الحاج، ورسالة أهل سبتة لعبد الحق بن أبي سعيد المريني بأنك المخصوص بصعود تلك الأدراج، وذلك منك بعيد الوصول، لا تدركه بالسمرة ولا بقبائع النصول، وأن أوتاد الروم والترك تتقوض من أرض الغرب، ولا يبقى من ينازعكم فيها بحرب ولا ضرب ليس لك في غنيمة إدراكه طمع، ولا سبيل لتبديد ما نظمه حازمنا وجمع، وقد غرتك أضغاث الأحلام وأغواك ضباب الغيب فأصبح ظنك منه في غياهب الظلام، فإن حرمت به فإنك لا شك حانث، وإن كان منكم يقينا فرابع أو ثالث، أولكم ثائر، والثاني مقتف له سائر، والثالث لكما أمير نائر، إما عادل أو جائر. ولا تمدن باع المخاطرة لأوطاننا فتخشى مخالب صولة سلطاننا، أما الشجاعة الغزيرة، فقد علمنا أن لك منها بالمهيمن أوفر نصيب، وممن ضرب فيها فأصاب الغرض بسهم مصيب. لكن غاية كفاية الشجاع إذا حمى الوطيس الدفاع، سيما في هذا الحين التي أبخستها عند الخلاص صناعة البارود والرصاص...

وما مرادنا إلا أمان العرب في المواضع، ليطيب لها جولان الانتقال في المشاتي والمرابع...

فإن تعلقت همتك بالإمارة فعليك بالمدن التي حجرها عليك همج البرابر، فصار يدعى بها لها على المنابر، فشد لها حيًّا زيمك لتذوق حلاوة الملك، المعجونة بمرهم النجاة أو الهلاك. . .

ليبقى بيننا وبينكم الستر المديد على الدوام، ونلغي كلام الوشاة من الأقوام. . .

وقد شيعنا نحوكم أربعة صحاب، تسر بمجالستهم الخواطر والرحاب، الفقيه الوجيه السيد عبد الله النفزي والفقيه الأبر السيد الحاج محمد بن علي الحضري المزغنائي، واثنين من أركان ديواننا، وقواعد إيواننا، أتراك سيوط، وغاية غرضنا جميل الجواب، بما هو أصفى وأصدق خطاب، والله تعالى يوفقنا لأحمد طريق، ويحشرنا مع جدك في خير فريق، آمين والسلام.

وكتب في منتصف رجب الفرد الحرام، عام أربعة وستين وألف اهـ (١٦٤٥م»).

ولما وصلت هذه الرسالة الغريبة بما جمعت من صنوف التعظيم والتبجيل، والاستعطاف، والوعيد والإنذار، وتحميل المسئوليات، مع شيء من التهكم اللاذع- إلى الشريف وقرأها اغتاظ، وعاتب الرسل، ولم تحصل نتيجة من هذه الوفادة الأولى.

فأعاد الديوان الجزائري الوفد من جديد، وكلف رجاله بمخاطبة الشريف بالطريقة التي يراها مؤثرة، فمثل الوفد بين يدي الشريف، وخاطبه قائلا، كما رواه الناصري:

«نحن جئناك، لتعمل معنا شريعة جدك، وتقف عند حدك، فما كان جدك يحارب المسلمين، ولا يأمر بنهب المستضعفين، فإن كان غرضك في الجهاد فرابط على الكفار الذين هم معك في وسط البلاد. . .

وأما إيقاد نار الفتنة بين العباد فليس من شيم أهل البيت الأمجاد، ولا يخفى عليك أن ما تفعله حرام، لا يجوز في مذهب من مذاهب المسلمين، ولا قانون من قوانين الإعجام، وهذان فقيهان من علماء الجزائر قد جاءا إليك، حتى يسمعا منك ما تقوله، ويحكم الله بيننا وبينك ورسوله، فقد تعطلت تجارتنا، وأجفلت عن وطننا رعيتنا، فما جوابك عند الله في هذا الذي تفعله في بلادنا وأنت ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع أنه لم يعجزنا أن نفعله نحن في بلادكم، ورعيتكم؟! على أننا محمولون على الظلم والجور عندكم، لكن تأبى ذلك همة سلطاننا» اهـ.

ولو أن المسلمين استعملوا دائما فيما بينهم هذه اللغة ورجعوا في كل خلافاتهم إلى حكم الله ورسوله لزالت أحن، وصينت إعراض وحقنت دماء.

فهذه الكلمات البليغة الصادرة عن قلوب مؤمنة صادقة، أحدثت الأثر المطلوب، بل فوق الأثر المطلوب، يقول الناصري:

«فلما سمع المولى محمد كلامهم أثر فيه وعظمهم، وداخلته القشعريرة، وعلاه سلطان الحق، فأذعن وقال: والله ما أوقعنا في هذا المحذور إلا شياطين العرب، انتصروا بنا على أعدائهم، وأوقعونا في معصية الله، وأبلغناهم غرضهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإني أعاهد الله تعالى لا أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء، وإني أعطيكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنا إلى ناحيتكم إلا فيما يرضى الله ورسوله، وكتب لهم بذلك عهدًا إلى صاحب الجزائر».

وهكذا تم أمر هذه الفتنة الهوجاء بسلام، حينما حكمت تعاليم ومفاهيم الإسلام.

محاولة استرجاع وهران

لم تكن وهران دار سلام واطمئنان أصلا بل كانت خلال تلك المدة وما بعدها مجال قتال ومناوشات ومضى الشهر، ومضت السنة، ومضى القرن، والمسلمون يحاولون استرجاع المدينة، ولا يتركون لأهلها ولا لحاميتها راحة، والإسبان يتحصنون، ويدافعون، ويستبسلون في الدفاع، دون أن يجسروا على مصادمة المسلمين خارج منطقة الاحتلال إلا قليلا.

من ذلك أن حاكم وهران، دون أنيقودي طوليدو خرج خلال شهر جوان من سنة (١٦٧٥) يريد مهاجمة تلمسان، وأخذها على غرة، لكن الجيش والشعب كانا على حالة انتباه، فانقلب أمره وبالا عليه، وتشتت شمل جنده، ورجع منهزما إلى وهران وتحصن بها، ثم نصب المسلمون على المدينة حصارًا ضيقًا، وأمدتهم الجزائر، وعلى رأسها يومئذ الداي الحاج محمد باشا، بمدفعيته فضيقوا الخناق على المدينة دون طائل.

ولقد كانت محاولة شعبان باي أقوى تلك المحاولات وأخطرها، وكادت تصفي حساب هذا الإسفين الاستعماري الصليبي المغروس في جسم الدولة الجزائرية، لكن مرحلة الجهاد كانت لا تزال طويلة الأمد، ولكل أجل كتاب، فشعبان باي الزناكي الذي يصفه الشيخ أبو راس في كتابه: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار بقوله:

«الفقيه الهمام، البطل الضرغام، الملك العلام، حاصد شوكة أهل الكفر والطغيان، الكفرة بثغر وهران، وضايقهم بالآلة والجنود، وأرهبهم بكثرة العساكر والحشود، فهو الحامل للواء الإسلام وجنده... إلخ» قد زحف على وهران زحفة صادقة، ساق فيها ثلاثة آلاف فارس، وألف راجل، وكان ذلك سنة (١٠٩٨) هجرية (١٦٨٦) وخرج إليه الإسبان من وهران في ثمانية آلاف

رجل، من بينهم -ولسوء الحظ- جماعة من أعراب بني عامر، وجيزة، والتقى الجمعان في المكان بكدية الخيار، واشتد القتال، إلى أن دارت الدائرة على الإسبان وجماعتهم فولوا الأدبار، تاركين فوق أرض المعرض أكثر من ١١٠٠ قتيل.

وتتبعهم المسلمون إلى أن وصلوا أسوار مدينة وهران، فاقتتلوا عندها قتالا شديدا، وكان شعبان باي رحمه الله يتقدم الصفوف، يحرض المؤمنين على القتال، فأصابته قذيفة إسبانية، أوردته مورد الشهادة وأحكم الإسبان التحصن وراء أسوار المدينة، فرجع عنها المسلمون، دون أن يتركوا محاصرتها، ودون أن يسمحوا للمحاصرين بأدنى حركة خارجها.

وعاد إليها مهاجما في السنة الموالية (١٦٧٨) القائد الباي إبراهيم خوجة، وضيق عليها الحصار، ونصب المدافع المختلفة في مواجهة حصونها، لكن التهديد الفرنسي للجزائر، وتضييق المارشال ديستري عليها حول إلى العاصمة الجزائرية نقطة الخطر، فاسترجع الديوان قوى وآلات حرب إبراهيم خوجة، استعدادا لمنازلة فرنسا إذا ما أنزلت إلى البر جندها (١٦٨٨)، لكن المارشال الفرنسي لم ينل من الجزائر منالا، ولا حصل منها على ترضية، ورجع إلى بلاده.

وفي سنة (١٧٠٤) خرج الإسبانيون من أسوارهم، وهاجموا ما يلي وهران من المداشر والقرى العربية، ورجعوا إلى أسوارهم يسوقون أمامهم **٢٥٠** عربيا، أسروهم واستعبدوهم.

ويومئذ نفخ الشعب الجزائري في صور الجهاد وتولى العملية الباي مصطفى المسراتي الملقب ببوشلاغم، وسيأتيك تفصيل جهاده الموفق بعد حين.

الفصل الثالث عشر

شعراء الجزائر يستثيرون الحكومة والشعب من أجل إنقاذ وهران

قضية قومية وإسلامية

انتظمت الدولة الجزائرية وقوي ساعدها، والتأمت وحدتها، بعد جهاد طويل وكفاح مرير، وأصبحت قضية وهران هي القضية الأولى التي يهتم بها الرأي العام ويريد أن يصفي حسابها مهما غلا الثمن ومهما كانت التكاليف، فهي في نظره قضية وطنية قومية من جهة، وهي في نظره قضية جهاد إسلامي عام، يمحو آخر آثار الصليبية الإسبانية بأرض الجزائر من جهة أخرى.

فالعلماء بدروسهم وكتبهم، ورجال الدين بخطبهم ومواعظهم، والشعراء بقصائدهم العديدة- كانوا يلهبون الحماس، ويشحذون العزائم، ويستفزون الشعب والحاكمين من أجل الحملة النهائية.

ولقد حفظ لنا التاريخ البعض من هاتيك القصائد المؤثرة، التي تعتبر مرآة للرأي العام، وصورة صادقة للإحساس الشعبي المتبلور المرهف.

ولا ريب أننا قد فقدنا مع ذلك -من جملة ما فقدناه- من كتبنا وآثار علمائنا أثناء وقائع الاحتلال الفرنسي الرهيبة، وخاصة فيما بين سنتي (١٨٣٠-١٨٥٠) الشيء الكثير من هذه الآثار، ومن هذه الأشعار.

وإننا لنرى -إمعانا في تصوير الحالة النفسية التي كان عليها الشعب- أن نورد على سبيل المثال شيئا من ذلك الشعر الذي أبقته لنا الأيام، فله زيادة عن قيمته التاريخية الكبيرة دلالات أخرى كثيرة.

استصراخ لإنقاذ وهران

من نظم العلامة سيدي محمد القوجي الجزائري يخاطب الداي أحمد باش خوجة:

ثم التفت نحو الجهاد بقوة ... والكفر فاقطع أصله بذكور
جهز جيوشا كالأسود وسرحن ... تلك الجواري في عباب بحور
اضرم على الكفار نار الحرب لا ... تقلع ولا تمهلهم بفتور
(...) عن وهران ضرس مؤلم ... سهل اقتلاع في اعتناء يسير
كم قد أذت من مسلمين وكم سبت ... منهم (بقرب) أسيرة وأسير
حلت بأرض المسلمين فهل لها ... من عسكر عند الصباح مغير
يلقى كلا كله عليها بغتة ... يأتيهم في غرة المغرور
فانهض بعزمك نحوها مستنصرا ... بالله في جد وفي تشمير
بعساكر مثل السيول تزاحمت ... للسبق تحت لوائك المنصور
أو كالسحاب بروقه ورعوده ... نار المكاحل أوقدت بزفير
وسوابق كمت وشهب ضمرت ... عند اللقاء تنقض مثل صقور
بادر بنا نغزو العدو وسارعن ... في حسم شوكتهم وفي التدبير
وأمر جيوشك بالتهاب للعدا ... والحزم حرض عزمهم بنفير
اقصد بلاد الكفر شتت شملها ... خرب بها ما كان من معمور
اقتلهم قتلا ذريعا واتركن ... أشلاءهم صرعى لطعم نسور
فإذا فتحت وقد ظفرت ببغية ... وقبلت بعد سعيك المشكور
وقسمت ثم مغانما جلى وقد ... سهم القراع بما لها الموفور
فارع الرعية خير رعى وسُسهموا ... بسياسة من عدلك المنشور

استصراخ لإنقاذ وهران

للعلامة المحقق سيدي محمد بن عبد المؤمن، يحرض الأمير الداي حسن الشريف باشا.

نادتك وهران فلب نداها ... وانزل بها لا تقصدن سواها
واحلل بهاتيك البطائح والربى ... واستصرخ دفينها الأواها
واستدع طائفة العساكر نحوها ... يغزونها ولينزلوا بفناها
مستصحبين لواءك المنصور إذ ... يلقاهم الفتح المبين وجاها
صرخت بدعوتك العلية فاستجب ... لندائها ولتكملن مناها
حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد ... قصرت عليك رجاءها ونداها
قد طالما عبثت بها أيدي العدا ... حتى استباحوا أرضها وحماها
وتصرفوا في المسلمين فأصبحت ... أعجوبة لمن اغتدى يرعاها
أضحى الصليب مؤيدا، والدين ... قد درست معالمه فلست تراها
جعلوا بها الناقوس في أوقاتهم ... بدل الأذان وغيروا معناها
كم من أسير حولها لا يفتدى ... كم من فقير حل في مثواها
يا أيها الملك الذي أيامه ... غرر غدت بكماله تتباهى
ومن الذي أحيا معالم سنة ... (وشيد؟) أركانها وبناها
ذاك الأمير أبو محمد الرضى ... حسن به قطر الجزائر تاها
أنت الأمير المرتجى لكريهة ... يوم النزال فأنت قطب رحاها
جرد (ضباطك) لمحق آثار العدا ... حتى ترى الإسلام في مغناها
وادع الغزاة لفتحها مستنجدا ... وانهض إليها وانزلن مرساها
من بعد توهين لناصر دينهم ... أبناء عامر ساءهم مرآها
وانظر برأيك فيهموا مسترشدًا ... أهل النهى فبرأيهم تعطاها

واستأصل الآثار حتى لا يرى من عامر من ترتجي جذواها
إذ ذاك نظفر بالمنى وتنال ما تهوى وتصبح نازلا بزواها
قوموا إليها معشر الإسلام قد آن القيام لها وحان لقاها
خوضوا إليها بحرها يصبح لكم (وهو أو برها تحوا بيداها؟)
الآن آن الفتح إذ ظهرت به آثار تنبي أنه وافاها
فأسلم سلمت من الزمان ودمت في برج المعالي راقيًا أعلاها
وعليك يا فخر الزمان تحية أذكى من المسك العبيق شذاها
وعلى رفيقك صهرنا شعبان من يهواك طبعًا ليس يطلب جاها
وعلى أبي زيان (الذي؟) حكى نظم الأوائل في القريض وضاهى
لا زلت منصور اللواء مؤيدا تحيي بعون الله سنة طه
صلى عليه وسلم الله الذي أحيا القلوب ببعثه وشفاها

ابتهال واستصراخ

للعالم الشاعر الأديب أبي عبد الله سيدي محمد حفيد العالم العلامة سيدي المهدي، نظمها سنة (١١١٤/ ١٧٠٢) (حسب رواية الشيخ أبي زيان)، بعد توسل بالرسول والأنبياء والخلفاء وآل البيت، متوجها إلى صالح وهران وعالمها دفينها الشيخ سيدي محمد الهواري، الذي ذاع في البلاد الجزائرية أن احتلال الإسبان لوهران كانت نتيجة غضبه على أمراء بني زيان؛ إذ دعا عليهم بقوله: «الله يشتت شملهم من البر والبحر» وهكذا جاءهم الإسبان من البحر والأتراك من البر فقضوا عليهم . . .

نرجو رضاك فربنا سبحانه مهما رضيت بفتحه يتفضل
إنا توسلنا إليك بسادة أقدامهم فوق الحياة تبجل
فبحقهم إلا قضيت حقوقنا وفتحت من باب العدا ما يقفل
أرجعت للإسلام رجعة مشفق والدين ينصر والكوافر تخذل

حتى نرى وهران دار إقامة الصلوات يسبقها الأذان المكمل
ونرى بها القرآن يفشو درسه والعلم حل بها فنعم المنزل
ويبوء عباد الصليب بحسرة لديار كفرهم الشنيع تزلزل
والخيل تمرح في جوانب أرضهم سورا ودورا بالأسارى تقفل
حتى إذا طال البلاء عليهم إذ نابهم بالحصر داء معضل
وتهيأت فرساننا لقتالهم والخيل ترفل في السروج وتصهل
ثم امتطوا لظهورها وتقلدوا بكواكب الأسياف مما يحمل
من كل هندي كأن وقوعه نجم أغار على الأبالس مشعل
وباسم للخط ينسب وصفه عن نحرهم في الطعن لا يتحول
باعوا النفوس لربهم بجنانه أكرم بها بيعا وربحا يحصل
فتصادقت حملاتهم فكأنهم عقبان جو في الطرائد تقبل
من بين ذي قتل يشحط في الدماء بطشًا وذي أسربه يتعجل
وتعلقت أبطالنا بحماتهم تبدي لهم حربا أمر وأهول
والمشرفية للرقاب قواطع أما البنادق في الصدور فتوغل
ولأهل حزب الله تمت صولة وبنصرهم رب السماء مكفل
حتى إذا حل المقدر للعدا في الحرب ثم على الهزيمة عولوا
ولوا على الأدبار يحطم بعضهم بعضًا كأنهم القطيع المهمل
والسيف يأخذهم ويعمل فيهموا عملا لأعناق الأخابث يشكل
وتهافتت أبطالنا بعزيمة نحو المدينة واستبان المدخل
وجوا عليهم كالصقور نجابة والكافرون بكفرهم قد أسبلوا
فتملكوها عنوة، وزهت بهم فرحًا، وعاد لها الزمان الأول
هذا بفضل الله نرجو عاجلًا والله يقضي ما يشاء ويفعل

***

قدمت يا شيخ العلا لك عذرة جاءتك في ثوب المحاسن ترفل
فاقت شقيقتها ومطلع حسنها الحق يعلو والأباطل تسفل

استصراخ للجهاد لإنقاذ وهران

لأبي العباس أحمد أبي علي صاحب

«فمن مبلغ عني قبائل عامر» السالفة الذكر

فمن مبلغ عني ملوك الأقالم وكل رئيس من رءوس العمائم
وكل همام مائل في حمائل على متن جار سابق في العزائم
وكل زعيم مولع بحدوده يصيد الضواري من فحول الضراغم
وسلطانها التركي في دار ملكه وبين علاه في دهاة العظائم
وجيش بني عثمان من كل قائد جيوشا كموج البحر عند التلاطم
يريدون «وهرانا» فما سبق القضا بتنفيذه للوقت في جفن عالم
يخوضون لجا في سفائن رائس حراضا لدين الله عز العزائم
وحرز بنات العرب من كل فاتك بأبكارها الحرات في قصر ظالم
فيا آل عثمان ويا سادة الوغى وكلكم أعماله بالخواتم. إلخ.
ويا معشر الأتراك ما بال سعيكم ووهران تزهو نخوة بالمراغم

الفصل الرابع عشر

النظام الاستعماري الإسباني في وهران

الأرض وسكانها

كانت إسبانيا تحتل حول وهران والمرسى الكبير مساحة من الأرض، تبلغ دائرتها نحو ٢٠ مرحلة، أي: نحو ٨٩ كيلو مترا.

في هذه البقعة من الأرض كان يوجد عدد كبير من الدواوير العربية، تقطنها آلاف من العائلات وعلى كل دوار رئيس مسئول يدعى «الشيخ».

يقول الدكتور دون بدرو دولاكوبيا في تقرير رسمي إسباني ترجمته المجلة الإفريقية- عن إدارة المدينة ونظامها ما ملخصه:

إن هؤلاء الأعراب الخاضعين للسلطة الإسبانية ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم الدواوير النبيلة: ويطلقون في وهران على رجال هذا القسم من الدواوير «فرسان المملكة».

وقسم الدواوير المنحطة والمستضعفة.

وأخيرا قسم الدواوير المختلطة: التي تجمع بين جماعة من هؤلاء وجماعة من أولئك، وهم يختلطون، إنما لا يندمج بعضهم في بعض.

والعرب من الدواوير النبيلة يمتازون عن عرب الدواوير الحقيرة، بشجاعتهم وإقدامهم، وحسن سلوكهم (بالنسبة للإسبان طبعًا).

المداخيل المالية

هؤلاء الأعراب الخاضعون حوالي وهران للسلطة الإسبانية، ويطلقون عليهم اسم «عرب السلام» MARO DE PAZ يدفعون للسلطة الإسبانية كل سنة جزية يدعونها: الرومية، وهي عبارة عن كمية من القمح يبلغ مقدارها اثنين من الدوبلات عن كل دوار، ومقابل هذه الجزية ينال الدوار الأمان لمدة سنة.

ويختلف حجم هذه «الدوبلة» حسب أهمية الدواوير، فعدد الأمداد (جمع مد) التي تشملها كل دوبلة يحدد بواسطة اتفاقات خاصة بين رجال السلطة ورجال الدوار.

فالدوبلة في سنة (١٧٠٨) وهي السنة التي استرجعت الجزائر فيها مدينة وهران كانت تشمل ١١٢ مدا عربيًّا، أي: ٢٨ برشالا إسبانيا، أو ٤٣ فنيقا قشتاليا، أو ما يعادل ألفين من الكيلوات.

طريق التعامل

وعندما يدفع شيخ الدوار هذه الجزية، ويأخذ لنفسه ولدواره الأمان- يقدم للإسبان الرهائن المتفق عليها، وهي تشمل عادة بعض أولاد الشيخ أو بعض ذوي قرابته؛ حيث يستقرون بمدينة وهران، على حساب الخزينة الإسبانية.

والشيخ يجمع تلك الجزية من سكان الدوار، حسب أهميتهم، ويدفعها للحاكم الإسباني كل سنة، ويتقاضى مقابل ذلك، ومقابل ما يقوم به من أعمال لخدمة المآرب الإسبانية- مقادير مالية تتراوح ما بين ٦٠ و١٠٠ دورو (الدورو يبلغ بقيمة الذهب نحو ١٠ دنانير جزائرية).

مجلس تحديد الجزية

في شهر يونيو من كل سنة يجمع الحاكم العام لمدينة وهران وضواحيها مجلسًا يضم كل الشيوخ ورؤساء العشائر، وعددًا من الفرسان، وذلك من أجل تحديد حجم «الرومية».

ويقدم الحاكم العام لهذا المجلس طعام الغداء، المؤلف من السمك، والفواكه المجففة، ثم تقدم لهم كميات من تبغ البرازيل الذي يحبونه كثيرًا، وفي هذا الاجتماع يقرر حجم الدوبلة، ويتناول الشيوخ منحتهم السنوية السالفة الذكر.

القبائل العربية وتقسيمها

أما القبائل والدواوير التي لا تحضر هذا الاجتماع، ولا تدفع الجزية- فإنها تعتبر قبائل عاصية، لا أمان لها، ومن أجل ذلك تكون عرضة كل آن للغارة عليها، وأخذ أموالها ومواشيها، واستعباد رجالها ونسائها، هكذا يقول الدكتور دولا كوبية في تقريره الرسمي.

ثم يقول: إن القبائل العربية التي تسكن المنطقة الإسبانية كانت معروفة، محددة الميول والسلوك، فمنها الطيب ومنها الخبيث، فمن القسم الطيب - بالنسبة لإسبانيا- أولاد عبد الله، وأولاد قلطة، والعزى، والغروزي، وأولاد جسلي، وقد اشتهر عنهم أنهم من الرجال المسالمين.

أما: الشقرانية، والسقراطة، وبني عرزاوية والعربي، وابن صرن- فقد اشتهر عنهم أنهم من رجال حسن السلوك، ومعرفة آداب المجالس.

وأما القسم الخبيث من هذه القبائل -في نظر الإسبان- فهم: الطرارة، وأولاد زعير، وحميان، فقد كانوا محسوبين من جماعة الخونة.

وجماعة سويد كانت تعتبر دوما من أنصار إسبانيا.

وجماعة زفينة الهبرة، والجفرة كانت من الموثوق بها.

وجماعة بني راشد لم تكن أبدا جماعة مسالمة، كانت تشمل لصوصا مقلقين -في نظر الإسبان طبعا- يحبون القتال، ويستجيبون دائما لكل من ينادي بالجهاد ضد النصارى. اهـ.

الفصل الخامس عشر

الفتح الأكبر وإنقاذ وهران

الداي محمد بكداش باشا

في سنة (١١١٩/١٧٠٧هـ) آل حكم الجزائر إلى أحد أفذاذ الرجال، هو الباشا محمد بكداش، العربي الأصل التركي المولد والمنشأ، العالم العامل، والمجاهد الجسور.

يقول الشيخ أبو زيد عبد الرحمن في شرحه للقصيدة الحلفاوية، التي وضعها مفتي تلمسان العلامة الشيخ محمد بن أحمد الحلفاوي- عن الباشا محمد بكداش:

«عالم فقيه، مشارك في عدة فنون، من المعارف والعلوم، ماهر في علم اللسان، له ممارسة بعلم القوم وطريقتهم، تصدر للإقراء مرارًا، وتولى خطابة بعض جوامع الجزائر سنة (١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م) فأدار فيها على الناس كئوس المواعظ فتركهم سكارى، وقد استوفى حق تحليته بالعلوم، وتحصيل المنطوق والمفهوم، الأديب الأريب... أبو عبد الله سيدي محمد بن ميمون، حفيد الشيخ الفقيه... علم الأعلام سيدي أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري...

وما زالت الشعراء تصفه بهذه الصفة العلمية، وما يناسبها من الصفات السنية، من ذلك قول كاتبه الذي سخر إنشاؤه بإنشاء عبد الحميد... سيدي إبراهيم الحسني المفتي:

حبيبي بكداش الذي عم فضله	....
عليم بأسرار القلوب منبي	عن الغيب فيما قاله فيصيب
رحيم رءوف فاضل متواضع	سخي، شجاع، للقلوب طبيب
إذا جاءه الملهوف عاد بسؤله	وكم في حماه طالب ورغيب

وفي وجهه الأسنى الكريم إلى الورى سرور ونور ما عراه قطوب
سبيل نداه كل آن براحة سحاب حكاه في الوجود سكوب
تعطرت الأرجاء من عرف نشره وعمت على الآفاق منه هبوب
ترى الناس سرعى يسألون بجاهه إذا نالهم ضيم وعم خطوب

ويقول عن أصله:

محمد بداش هو اسم هذا السلطان نصره الله، وهو مركب من اسمين. . . وذلك لأن والده الأرضى، السيد المرتضى، المرابط الناسك الصوفي السالك، نور الدين أبو الحسن علي بن محمد، رحمه الله تعالى ورضي عنه، سماه «بكداش» بلسان بلده التركي، وتفسيره باللغة العربية «الحجر القاسي»، ثم استمر على هذا الاسم المبارك لا يعرف إلا به، إلى أن خرج بجزيرة الغرب البربرية، قاصدًا محروسة الجزائر، فدخل في طريقه مدينة بونة (عنابة) فلقي بها . . . الشيخ سيدي قاسم بن شاسي رحمه الله . . . فسماه محمدًا، وقال فيه على طريقة الموال:

قلبي إليكم صبا والحب في جاشي والسر مني سري في سر بكداش
يا لائمي في هوى هذا الفتى الناشي أقصر ملامك إن خيره فاش

وقد أحاطت بمحمد بكداش باشا في مدينة الجزائر هالة من العلماء، والشعراء، والأدباء، لم تجتمع من قبله ولم تجتمع من بعده حول أي حاكم من حكام الجزائر العثمانيين، وألف المؤلفون فيه كتبًا كثيرة، منها المطبوع ومنها المخطوط.

فكان هذا الأمير أكثر تجاوبًا مع الشعب ونخبته من كل أمير آخر، إذا استثنينا خير الدين وابنه، وكان حريًا به أن ينهض لمحاربة الإسبان في وهران، وأن يطهر الجزائر نهائيًا من أدران الوجود الاستعماري فوق أرضها.

وكان باي الغرب، الجريء المقدام مصطفى بوشلاغم ممعنا في مناوشة الإسبان عاقدًا العزم على استخلاص وهران منهم، فوجد من محمد بكداش أذنًا صاغية، ووجد من الخزناجي، وزيره وصهره، السيد أوزن حسن (أي حسن الطويل) نعم المعين على تنفيذ ما اعتزم القيام به، وأخذ القوم يستعدون لليوم العظيم استعدادًا لم يسبق مثله، وأرسلوا إلى كل الجهات الجزائرية، يستحثون القوم على الجهاد.

دعوة الشعب للجهاد

يقول أبو زيد المذكور آنفًا: «فإن الناس جاءوا إليه من كل فج عميق وانسلوا إليه من كل قبيل وفريق، زيادة على من عينه السلطان لذلك من عساكره المنصورة بالله تعالى، حتى إن الناس وفدوا إليه بخيامهم وعيالهم واعتكفوا عليه الليالي والأيام، ورفضوا كل شيء سواه في ذلك المقام، وأنفقوا عليه الطارف والتالد، واستطابوا لأجله الحر والبارد. . . إن طلبة العلم وحملة القرآن كانوا أشد الناس مسارعة لإجابة دعوة السلطان إلى هذا الجهاد المبارك. . . وكانوا بمحلة مستقلة عن غيرها، وكانت شوكتهم على الكفار أقطع من الرماح، ومرماهم أنفذ من الصفاح، وسور جندهم يشد بعضه بعضًا، وكل واحد منهم يرى موته قبل أخيه فرضًا. . . وكان عددهم يزيد تارة على الألف، وينخفض عنه إلى السبعمائة. . . وكانت لهم منهم رؤساء يرجع أمرهم إليهم، ومنهم الفقيه والعالم. . . أبو عبد الله محمد الموفق التلمساني نسبا، المالكي مذهبًا رحمه الله ورضي عنه، وكان أكثر الناس حرصًا على الظفر بالشهادة، والفوز بالسعادة، يبحث عنها في كمائن العدو، ويرصدها في الحركة والهدو، ويحرض الناس على طلبها، ويحذرهم فوات زمنها، حتى أدرك منها المنى في وقت سعيد، بين البرج الأحمر والبرج الجديد».

الاستعداد

وبينما كانت جموع المجاهدين من رجال الشعب الأبي تتهاطل على موطن الجهاد المنتظر- أرسل الباشا محمد بكداش جيشًا جزائريًا مؤلفًا من ثمانية آلاف وخمسمائة رجل، مع سلاح كثير، ومدفعية ضخمة، وكميات هائلة من البارود، لنسف الأسوار، يقول أبو زيد: ورأيت في بعض دفاتر الباي (مصطفى بوشلاغم) أنه خرج على يد خليفته القائد مصطفى المسراتي نحو الثلاثة آلاف وثلاثمائة قنطار.

وعندما التأم شمل المجاهدين من رجال الجزائر ومن جماعات المتطوعين أوائل شهر سبتمبر (١٧٠٧) ابتدءوا منازلة وهران، والتضييق عليها، فكانت القيادة العليا للسيد أوزون حسن، وكانت إدارة العمليات للسيد الباي مصطفى بوشلاغم، وقد عقد الجميع العزم والتصميم على أخذ المدينة، وتحطيم أسوارها، ودك حصونها، مهما كلفهم ذلك من ثمن، والباشا من ورائهم من مدينة الجزائر يمد ويستحث، والشعب يوالي إرسال المجاهدين، ورجال الدين والأئمة في المساجد، يذكون نيران الإيمان في القلوب، ويدفعون بالناس إلى ساحات الشرف.

أما رجال الحامية الإسبانية فقد استبسلوا في الدفاع، فما كان المسلمون يجدون أمامهم إلا رجالًا عقدوا العزم على الموت دون الأنقاض وتحت الأنقاض، فما كانوا يخسرون شبرًا من الأرض، أو جدارًا من حصن إلا بعد أن يكون قد سقى وابلًا من دم المجاهدين المسلمين، ومن دم المقاتلين الإسبانيين، وكأن هذه المعركة التي دامت من ٨ سبتمبر إلى ١١ نوفمبر، كانت مباراة لإحراز كأس البطولة، وقد فاز بها الجانبان والحق يقال، الغالب والمغلوب.

مدد مالطة

وما كادت المعركة تحمى ويشتد وطيسها حتى حركت الحمية رجال المسيحية، فحلت بمرسى وهران سبع سفن تحمل على متنها مددًا مؤلفًا من أشد مقاتلي مالطة، وبعض مئات من المتطوعين الفرنسيين، فاشتد بذلك عزم الإسبان، وقويت معنوياتهم.

الهجوم الأول

ابتدأ الجزائريون الهجوم أوائل سبتمبر (١٧٠٧/ ١١١٩هـ) وأول أمر قاموا به هو محاولة هدم مجاز الماء الذي يرد من الخارج إلى وهران، وعليه «برج العيون» الحصن الحصين، فدخلوا إلى ساحته من خندق حفروه، والتحمت النيران أول معركة من معارك هذا الفتح المبين، فكانت حامية الوطيس، زحزح فيها الجزائريون الإسبان عن «رأس الماء» وحفروا حوله الخنادق حتى لا يعود إليه العدو، وكان ذلك أول نصر في هذه المعركة.

ثم هاجموا برج العيون، وصدقوا في هجومهم، وحفروا تحته الألغام لتفجيره، فلم يستطيعوا دكه، واضطروا لمهاجمته بالسيوف، تحت وابل من رصاص العدو وقنابله، التي أربى عددها عن الأربعة آلاف، إلى أن تمكنوا من صعود جدران الأسوار، واقتحموها وغلبوا أهلها عليها، وتمكنوا من احتلالها بعد معركة عنيفة.

ولقد أسر المسلمون من بقايا المدافعين عن البرج **٣٢٢** رجلًا، ومن أنصارهم من عرب جيذرة ٦٠ رجلًا، ووجدوا به من الجرحى **٢٧** رجلًا أمر الأمير بإرجاعهم إلى أهلهم، تكريمًا لبطولتهم في الدفاع، كما غنم المسلمون به سلاحًا كثيرًا، وكميات عظيمة من الأطعمة والذخيرة، وتم هذا

النصر يوم ٨ سبتمبر (١٧٠٧) الثلاثاء ١٠ جمادى الأخرى (١١١٩هـ)، وكان عدد القتلى من الإسبان ٤٠ رجلًا.

أما عدد شهداء المسلمين فكان يتجاوز المائتين.

النصر الثاني (برج مرجاج)

ثم أخذ المجاهدون في مهاجمة برج مرجاج الكبير، وهو من أضخم الحصون، ويدعونه الإسبان القديس فليب، والصليب المقدس (سانطاكروز) وتمكنوا من حفر لغم طويل، وصل تحت البرج، وملئوه بارودًا، وعرف الإسبان المدافعون عن البرج ذلك، وعلموا أن المقاومة لا تجديهم نفعًا؛ إذ إنهم يوشكون أن تطير أشلاؤهم مع شظايا البرج، فبعد مقاتلات وقصف متبادل بالقنابل أعلن الإسبان تسليم الحصن، فدخله المجاهدون المسلمون، وأسروا من بقايا المدافعين عنه ١٠٧ رجل، و٣ نسوة، وكميات هائلة من الأسلحة والذخيرة والمواد المختلفة، وكان ذلك يوم ٢٧ من جمادى الأخيرة ٢٥ سبتمبر.

النصر الثالث (برج ابن زهو)

وكان هذا البرج الضخم الحصين من أمنع حصون وهران، وأكثرها قوة، ولقد تقدم نحوه المسلمون، وهم يحسون بهبوب ريح النصر، فهاجموه بقوة وعنف، وتركوا تحت جدرانه جثث مئات من الشهداء، لكن الدفاع كان صلبًا، وكان يائسًا، وقد ارتاع الإسبان من خسارة البرجين الآخرين، فازدادوا شدة وضراوة في الدفاع عن هذا البرج، وصدوا هجمات الجزائريين المتواصلة، وكبدوهم خسائر عظيمة، مدة ثمانية أيام كاملة، كلما تقدمت موجة من مجاهدينا إلى الأسوار ردها الإسبان بعد تكبيدها الخسائر العظيمة.

ثم حاول الإسبان الخروج من وهران لمهاجمة المجاهدين إثر ما لحق بهم من خسائر، وما نالهم من جهد ونصب، فخرجوا في حمية وعنف، واقتتلوا مع المجاهدين قتالًا عنيفًا حول متارز البحر، لكن المجاهدين تغلبوا على هذا الهجوم، وتمكنوا من رد العدو إلى ما وراء جدرانه، بعدئذ أخذ المسلمون في حفر اللغم تحت الحصن، وكانت الأرض تحته صلدًا، فبعد عمل متواصل وجهود مضنية، تمكنوا من الحفر، ومن وضع اللغم، وتفجيره، لكنهم رأوا بعد ذلك أن الحصن لم يُصب بسوء، فأعادوا ذلك العمل مرة ثانية، ثم مرة ثالثة، وكان النجاح حليفهم هذه المرة فانفجر البرج، وانقلب بصخوره، فاقتحمه المسلمون، لكن الإسبان الذين بقوا على قيد الحياة لم يستسلموا، واستمروا يدافعون وراء الأنقاض، إلى أن أتى السيف على آخرهم، وكانوا ١٢٠ فلم يقع منهم تحت الأسر إلا ثمانية رجال.

وتم هذا النصر المبين يوم خامس شعبان ١٤ نوفمبر.

وكان عدد شهداء المسلمين نحو المائتين أيضًا.

النصر الرابع (البرج الجديد)

بقي على المسلمين يومئذ اقتحام آخر القلاع، وأكثرها منعة وأضخمها بناء، وأعلاها جدارًا، ألا وهي قلعة البرج الجديد الذي تبرعت ببنائه سيدة إسبانية، ابتغاء وجه المسيح، وكلفها ذلك مقدارًا عظيمًا من المال، وكان على المسلمين أن يعملوا الحيلة من أجل الإحاطة به، ومحاولة تحطيمه، فأخذوا يحيطونه بالمراكز الصغيرة التي يدعونها «المتارز» من عين جندرة إلى ناحية شعبة الدجاج، وراء البرج الجديد، ومدوا هذه المتاريزات إلى أرباض المدينة التي أصبحت كلها معقل دفاع، وصارت بعض جهاتها عورة، فكان

رصاص بنادق المجاهدين يدخل على المدافعين وهم في البيوت، وكان لا يستطيع أحد منهم -في مدينة وهران- أن يخرج من بيته إلى بيت مجاوره، فصاروا يثقبون الجدران لكي يتصل بعضهم ببعض، وأخذ المجاهدون يدخلون المدينة من أطرافها، ويتوغلون فيها، بعد مقاتلة المدافعين عنها إلى أن وصلوا إلى كنيسة سانتاماريا، فاحتلوها وحطموا أصنامها وصار قسم المدينة الموجود ما بين البرج الجديد والبرج الأحمر بين يدي الجزائريين، وصار الإسبان من أهل وهران ينقلون أمتعتهم إلى المرسى الكبير.

كل هذا والبرج الجديد ثابت في دفاعه لم يستطع المجاهدون تحطيم شيء منه، لكن البرج أصبح مع ذلك عديم الجدوى من ناحية الدفاع؛ إذ إن الحرب أصبحت تدور بين جدران المدينة، فخرج قائد الحصن يحمل راية بيضاء، واتفق مع القائد العام الجزائري على أن تقف أعمال الحرب حول البرج، فإن تمكن المجاهدون من احتلال مدينة وهران فالبرج يستسلم لهم، تبعًا للمدينة.

النصر الخامس (البرج الأحمر-لامونا)

عندئذ وجه المجاهدون كل عنفهم وجهودهم نحو البرج الأحمر الأخير، الذي بقي مدافعًا عن المدينة، عائقًا للجزائريين عن جمع كل قواهم لمداهمتها، فهاجموه بصلابة، واشتد أهله في الدفاع، وصمموا على الموت دونه، وتقاتل الفريقان قتالًا قاسيًا رهيبًا، إلى أن غير الجزائريون خطتهم، فعدلوا عن المتاريز والبنادق، واستلوا السيوف وهاجموا أعداءهم في موجة عارمة بينما المدافع تدك الجدران دكًا، إلى أن اضطرت بقيتهم إلى الاستسلام، وكان ذلك يوم ١٤ نوفمبر.

فرار الحاكم واحتلال المدينة

رأى دون ملشوردي أفيلانيدا -حاكم وهران العام- أن الواقعة قد وقعت وأنه لم يبق للمحافظة على وهران أو محاولة الدفاع عن بقاياها من سبيل، فترك الميدان، وترك المعركة، ونجا بنفسه فركب البحر إلى المرسى الكبير أولًا، ثم إلى إسبانيا أخيرًا.

هاجم الجزائريون المدينة، وقد سكتت كل حصونها، فدخلوها، بعد أن وضعوا الألغام تحت قصبتها، قطعًا لأمل آخر المدافعين عنها، ووجدوا أن بقايا الإسبان من أهلها قد فروا عنها إلى المرسى الكبير، ولم يخلفوا فيها إلا بقية رجال وعجزة، وبعض «المغطسين» أي الأعراب الذين باعوا دينهم وذمتهم للإسبان، فأخذ السيف عنهم، وأصبحوا خبرًا بعد عين، وتمكن المجاهدون من كل بقايا المدينة، بين أصوات التهليل والتكبير.

استسلام البرج الجديد

وتنفيذا للعهد الذي انعقد بين قائد البرج الجديد الإسباني وبين القيادة العامة الجزائرية- فقد استسلم حماة البرج الجديد للمجاهدين، بعد تمكنهم من مدينة وهران وكان عدد من فيه من بقايا حماته وممن التجأ إليهم نحو الأربعمائة رجل، أما السلاح والمؤن والأمتعة المختلفة فقد كانت كما يقول المؤرخون المسلمون تفوق الحصر، وكان مجموع الأسرى يفوق الألفين من بينهم نحو المائتين من كبار الضباط، والموظفين، وجماعة من متطوعي مالطة والفرنسيين، سيقوا إلى مجمعات الأسرى بمدينة الجزائر.

الفرحة العامة

يقول الشيخ أبو زيد في وصف الأفراح التي تلت هذا الفتح المبين:

«ولما أقبلت رسل البشائر وتليت صحف فتحها على الأمير، وعم الخطاب بالفرح جميع المؤمنين بلسان التبشير- أمر الأمير نصره الله (الداي محمد بكداش باشا) بصنع وليمة الفرح وعيده، وتسريح من كان في هم وعيده (أي جماعة المسجونين) وتزيين سوق البلاد وتجديده، وتعطيل البيع والشراء وقطع الجدال والمراء، ورفع الأحكام، وتنويع اللباس، والطعام، ففتحت الناس صناديق ذخائرها . . . وتأرجت الأرجاء بنفحات الند والعود، وسجعت حمائم الأوتار على أفنان الرباب والعود، وبرزت مخدرات الخدور، وطلعت في أبراج دكاكينها الشموس والبدور، وظللت أزقتها بالستور، وتقلدت جدرانها بقلائد النحور، ولم يزالوا في نعيم منضود، وظل ممدود، وسرور وأفراح، وضحك وانشراح، ليلهم ونهارهم سواء، حتى توهموا أنهم في الخلود، وأن كواكبهم لا تسقط من بيوت السعود. . .

وقد شاهدنا ما يقرب من هذا الصنيع بمحروسة تلمسان، وقد تحلت وجوهها الحسان. . . وبالجملة فقد عم السرور جميع المؤمنين، وأرغم جميع الكافرين، والحمد لله رب العالمين».

هذا ومما يذكره المؤرخون الأوربيون -في ألم وفي كدر- هو أن قنصل دولة إنكلترا قد شارك أهل الجزائر أفراحهم، وأضاء أنوار القنصلية ثلاثة أيام، اقتداء بهم.

إنقاذ المرسى الكبير

أما جيش المجاهدين، فإن مجال الكفاح لم يزل أمامه فسيحًا، فإذا كانت وهران قد أنقذت بعد كفاح مضن وجهد طويل فإن مدينة المرسى الكبير لا تزال حصينة منيعة، وقد التجأ إليها كل من تمكن من الانهزام من وهران، ولن يكون نصر وهران تامًا، بل لن يكون له أدنى محتوى إذا لم يعزز بإنقاذ المرسى الكبير وتطهيره بصفة تامة.

وجه المجاهدون كل جهودهم نحو المرسى الكبير، ولم يصيبوا شيئًا من الراحة بعد تحطيم الدفاع الإسباني في وهران، وخيموا على تلك المدينة محاصرين، مصممين على الفتح والإنقاذ.

ولم تكن معركة المرسى الكبير هينة، ولم تكن عملية إنقاذها بالأمر اليسير، لقد ركز بها الإسبان قدمهم أكثر من مائتي سنة، دون انقطاع (١٥٠٥-١٧٠٨) فكانت أول نقطة احتلوها، وجعلوها نواة لأعمالهم المقبلة، وكانت آخر نقطة خسروها، بعدما أبلوا في الدفاع عنها البلاء الحسن.

كانت الحرب بين الجانبين سجالًا، وكان الجزائريون يحتلون برجًا بعد قتال مرير، ودفاع عنيف، ثم يغادرونه غدًا تحت ضغط من العدو عظيم، وقد شمل الدفاع كل أهل المدينة، لا فرق بين عسكري ومدني، ولا بين رجل وامرأة.

وضع الجزائريون اللغم تحت حصن المدينة الأكبر، وفجروه، فلم يأت بنتيجة مطلوبة، ثم أعادوا حفر اللغم مرة أخرى، ثم أخرى، ففجروه، وقوضوا به البناء، وكان ذلك يوم الرابع والعشرين من المحرم الحرام (١١٢٠هـ/ ١٦ أفريل ١٧٠٨) واقتحموا المدينة، والتحموا في معركة كان كل

من الجانبين يدرك هدفها، ويعلم مغزاها، واضطر الجزائريون لوضع لغم رابع تحت بقايا الحصون، واشتدت المعركة عنفًا وضراوة، والمسلمون يهللون ويكبرون إلى أن تمكنوا من القضاء على آخر مقاومة، فاستسلمت لهم المدينة استسلامًا، وغنموا كل ما فيها، وساقوا من الأسرى ١٤٦١ إسبانيا، سير بهم إلى عاصمة الدولة.

أما جماعة المغطسين (من الكلمة الإسبانية موقاتاز) أي الأعراب الذين باعوا دينهم وذمتهم للإسبان، فإن الداي محمد بكداش أباح للعسكر نهبهم وسبيهم، فوقع فيهم البيع والشراء، إهانة لهم وانتقامًا منهم وإن كان ذلك مخالفًا لرأي الفقهاء.

بناء وتجديد مدينة وهران

رجع القائد الخزناجي أوزون حسن إلى مدينة الجزائر، مكللًا بتاج النصر بينما بقي الباي مصطفى بوشلاغم في مدينة وهران، يقيم خرائبها، ويعيد بناءها، ثم نقل إليها عاصمة كرسي البايليك، وأخذ الناس من أطراف الولاية يتوافدون على المدينة، ويبنون بها دورهم وينشئون حولها حدائقهم، حتى غدت بعد أمد وجيز مدينة عامرة، عاملة ومرسى زاخرًا بالحركة والعمران.

وأرسل الداي بكداش هدية إلى الخليفة العثماني السلطان أحمد بإستانبول مفاتيح وهران الذهبية الثلاثة، بشارة بالفتح، وتأكيدًا للاعتراف بمقام الخلافة.

وهكذا تطهرت على أيدي الباشا العالم الخطيب، الورع الداي محمد بكداش، وعلى أيدي المجاهدين الأبرار من رجال الشعب ومن الأبطال من العثمانيين أرض الجزائر المطهرة، من كل احتلال أجنبي، وخلصت بأجمعها لأهلها خاصة إلى أن قام الإسبان بصليبيتهم الثانية، كما سترى.

الشعر الجزائري يسجل نصر وهران

بما أننا قد أسلفنا ذكر الدور الذي قام به الشعر الجزائري من واجب الاستفزاز والتحريض على فتح وهران وإنقاذها - فإننا نرى من الواجب أن نذكر شيئًا مما قابل به الشعر الجزائري فتح وهران، وما صاغه الشعراء من مدائح لمنقذها، على أننا لا نأتي إلا بالشيء القليل من ذلك.

فمن قصيد للشيخ (أبو زيد عبد الرحمن التلمساني) طالعه:

تلت رسل البشائر يوم عيد ... علينا سورة الفتح السعيد
فأحيت من رسوم البشر رسما ... عفا بالشرك من زمن بعيد

...

وقل «وهران» يهنيك افتكاك ... وإنقاذ من الأسر الشديد
لك البشرى وللإسلام أخرى ... بمنعك من يد الكفر العنيد
أتذكر حيث كنت مناخ شرك ... فصرت مقام شكر للحميد
وكنت مقام تثليث فأضحى ... يقرر فيك توحيد المجيد
جزى جيش الجزائر كل خير ... إله الخلق ذو الملك العتيد
هم المستنقذوك وقد أحاطت ... بك الأعداء تطمع في المزيد

...

وقد ظنوا بأن لهم نجاة ... بمرسى الثغر من بعد الشرود
ولو أغنى التحصن عن قتيل ... وحال السور من قدر المريد
لما فتحت بروجهمو وهدت ... معاقلهم بصاعقة الرعود
ولو غفلوا لما لجئوا لشيء ... سوى دين التحية والسجود
وإن لم يسجدوا لله طوعا ... لقد سجدوا بمنصلت الهنود
وإن فروا ستدركهم قريبا ... بأندلس جنود من أسود

ومن قصيد للأديب أبي عبد الله محمد المعروف بابن يوسف الجزائري أحد عسكرها، مطلعها:

مولاي فضلك للكروب مفرج ... وبتاج عز الله أنت متوج

...

وعرجت معراج الكمال ففقت من ... فيه إلى يوم القيامة يعرج

سبقت لك الحسنى بما قدمت من ... فعل جميل نوره يتوهج

جهزت حقًّا للجهاد عساكرا ... كرب الورى بقدومهم يتفرج

من كل ضرغام بصير بالوغى ... نار الحروب بعزمهم تتأجج

...

كم قاتلوا الأبطال يوم الملتقى ... حتى محوا داجي الضلال وفرجوا

«حسن» خليفتك الهمام يقودهم ... والعيس ما بين الكرام تعجعج

حتى قضوا حقًّا لوهران التي ... أمواج بحر ضلالهم تتموج

...

فرت خيول المشركين أمامهم ... لما رأوا برق الهدى يتورج

...

دارت على أهل الضلال دوائر ... شتى وهم قط لا يتفرج

ضربت ببارقة السيوف رقابهم ... والرمح فيهم والأسنة تولج

...

عادت إلى الإسلام دارا مثلما ... كانت وصارت ريحها تتأرج

أضحى مؤذنها يحيعل تارة ... وبها يهلل تارة ويهزج

وقراءة القرآن في أرجائها ... منها نتائج الاستقامة تنتج

والدين أصبح قيما وكفى بها ... من نعمة عنا الكروب تفرج

ومن قصيد لأحد أدباء تلمسان:

سلام على الجند المؤيد بالنصر ... ضراغم خلق الله في البر والبحر

جيوش بها الإسلام عز مناله ... فأصبح دين الله مبتسم الثغر

همو منعوا الإسلام من كل صائل ... وهم قصموا الأعداء بالبيض والسمر

...

رعى الله أيام البشائر أنها مواسم للإسلام بالفتح والنصر
فيا سعد شخص كان للفتح حاضرًا لقد حاز حظًّا للسعادة ذا وفر
ولله من كانت مزيته على يديه فنال الأجر من مجزل الأجر
ونعم الفتى ما زال فيه مرابطًا ينزه عن زيد هناك وعن عمرو

ومن قصيد للعلامة الكبير الشيخ محمد بن محمد بن علي بن سيدي المهدي الجزائري، وهو من بديع شعر ذلك العصر، مطلعه:

عيون دهتني أم سيوف صوارم وسمر رمتني أم قدود نواعم
وتلك بروق في الحنادس أومضت فعم سناها أم ثغور بواسم
فكم ليلة وافت فمزقت الدجى شموس أكنتها الخدور العواصم
...
ولي نزعة قيسية عربية فها أنا منها الدهر نشوان هائم
دعاني لها داعي الصبا فتكلفت أجابته مني القوى والعزائم
ليقبض على الحسن ما كان قاضيًا سواه على ما جره الطرف نادم
وحبي على هضب اللوا متنظم إناف على الشطرنج منه التلاؤم
إذا هبت الأرياح منه تنظمت لها الروح أو مرت عليها النواسم
كأن بها الخلجان شكل سجنجل ترصعها زهر إذا الليل عاتم
وراق بها ورد الغزالة إذ حكى سبائك تبر موجها المتلاطم
تذكرته والليل مد رواقه فأصلى فؤادي حين ذكره حاجم
فأيقظت عين الحزم من سنة الكرى وشدت على نحري إليه الحيازم
ولبيت أمر الشوق بالسمع راضيًا كما حكمت تلك الشجايا اللوازم
لتعلم كيف الجود والفضل للذي تكلفه في سالف الدهر حاتم
تعود بسط البذل كهلا ويافعًا يواليه مذ شدت عليه التمائم
سطا سيفه بالكفر أفظع سطوة لقد أحجمت عنها الأسود الضراغم
إذا ذلك الجمع الخبيث مكسرا وجمع الهدى في حومة الحرب سالم

وهل طاوعت «وهران» قبل مملكا ... سواه فأضحى أنفها وهو راغم
فكم سامها من لا يناهضها وكم ... حوالي حماها حام بالزور حالم
تملكها حزب الشقاء ولم يكن ... زمانا لحزب الحق عنها مخاصم
بها يسمع الناقوس من نحو فرسخ ... ومن لغة الكفار عنه تراجم
وفي كل يوم صيحة من خيولها ... ينوح لها الإسلام، والشرك باسم
زهى واعتلى التثليث فيها ونكست ... لما دهم التوحيد منه الغمائم
وكل رئيس يرتجي لخطوبها ... تشاغل في لذاته وهو نائم
ورد «أمير أوزان» في السير نحوها ... فيرجع لما كاثرته الدراهم
رضوا بالرشا في الدين لما تخلفوا ... وقد رسخت في الأرض تلك الأراقم
تنادي الرعايا لم يجيبوا ملوكها ... وتصرخ لو لبى على الصوت راحم
وما أمهل الرحمن إلا لحكمة ... لها قلم التصريف في اللوح راقم
فقيض للفتح المبين مهندا رقيق ... الشبا، صلب الصفيحة، صارم
أمام سقى الكفار كأس منية ... لهم شبه بالنمل والسيف حاطم
لقد صال فيهم صولة هاشمية ... فأمرهم في الحرب حيران واجم
ومزقهم في الأرض كل ممزق ... فربعهم بعد العمارة طاسم
وعاد «لوهران» السنية ريها ... وحن إليها عهدها المتقادم
ليهن «أمير المؤمنين» افتتاحها ... فقد سجعت تثني عليه الحمائم

...

فدم للعلى وإلباس ترجى وتتقى ... وسيف المعاني في يمينك صارم
يمثلك تاج الملك راق جماله ... وقامت إلى رفع السرير للقوائم
فلا زلت محفوظ الجناب مؤيدا ... ولا برحت تثني عليك العوالم
و«أحمد»[1] من ولاك أمر عباده ... له الحمد إذ ولاك والشكر دائم

---

(١) الخليفة العثماني السلطان أحمد.

وأزكى صلاة بعده وتحية على المصطفى من هو للرسل خاتم

ولأديب آخر في وصف الباشا «محمد بكداش» وذكر فتح وهران:

خليلي يمم روضه فهو يانع نضير بهي نوره للنواظر
ورد حوضه فهو الفرات ولذ به تجده حمى من كل طاغ وجائر
وكيف يخاف الدهر من حط رحله بسلطان جند من أسود كواسر
إمام حوى علمًا وفضلًا وسؤددا فحق له تقديمه في المفاخر
سرى سرى سير البدور حديثه فحدث عن العلم الصحيح التواتر
شريف زكي أصلا وفرعًا ومحتدًا إلى هاشم ينمى كبير الأكابر
أتم له فتحًا جديدًا تطاولت له همم الأملاك ماض وغابر
فلم يحصلوا من نيله أي طائل وما رجعوا إلا بصفقة خاسر
إلى أن أراد الله نصرة دينه فنبهه في شبه يقضان جاسر
وجرد منه الحزم سيف قراعه يفت صميم الصخر يوم التشاجر
فجاش على وهران جيشين من ندى وآخر من رأى سديد مؤازر
وجر له الإسلام جندًا مؤيدًا بتأييد منصور من الله ناصر
فطهرها من رجسها وأعادها عروسا تجلت في مراقي المنابر
فلله ما قد كان منه وأجره عليه وخير الأجر نعمة شاكر

أرجوزة مختصرة في تاريخ وهران

وإننا لنختم هذا الفصل بهذه الأرجوزة الجزائرية المختصرة، التي لخص فيها ناظمها، وهو الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد التغيرلي، من مدينة الجزائر- فتح وهران، ورجوعها لحضيرة الوطن والإسلام، قال فيها رحمه الله:

الحمد لله الذي قد فتحا وهران من أيدي الرجال الصلحا

وقهر القوم اللئام الفجرة ... ورفع الإسلام فوق الكفرة

في مدة السلطان فخر الناس ... «أحمد» خاقان أبي العباس

من ملك البرين والبحرين ... ومصر والشام بدون مين

للحرمين خادم طول المدى ... دام انتصاره على جمع العدا

يا سائلا عما بوهران ظهر ... من أخذها وفتحها كما اشتهر

أخذها الكفار بالثبات ... مما رويناه عن الثقات

سنة أربع وعشرة مضت ... من بعد تسعمائة قد كملت

فمئتان مع خمسة سنين ... عدد مكثها بأيدي المشركين

ثم بعد العزم من الإله ... قد جاءنا الفتح بنصر الله

ففتحت سنة تسعة عشر ... ومائة من بعد ألف تعتبر

في سادس العشرين من شوال ... صبيحة الجمعة خذ مقالي

عن يد من قد صير الجزائر ... جنة كل قاطن وزائر

محمد بكداش فخر الدولة ... وحسن صهره عالي الصولة

زاد الإله لهما في النصر ... والظفر وافتتاح أرض الكفر

ما زال من عاداهما في الانتقام ... بالقهر والنهب على طول الدوام

ثم الصلاة على محمد الأمين ... وآله وصحبه والتابعين

ما جاهد الإسلام في الكفار ... بالقتل والأسر وأخذ الثار

الفصل السادس عشر

الصليبية الإسبانية الثانية

الاستعداد لاحتلال وهران من جديد

كان وقع هزيمة الإسبان في وهران والمرسى الكبير، واستيلاء الجزائريين على المدينتين- عظيمًا، قاسيًا، مؤلمًا، لا في إسبانيا وحدها، بل في البلاد المسيحية جمعاء، وإذا كان المسلمون قد اعتبروا ذلك الفتح نصرًا إسلاميًّا عامًّا، فأحرى بالنصارى أن يعتبروه نكبة مسيحية عامة، في وقت كانت الحروب فيه تكتسي صبغة دينية سافرة لا غبار عليها.

أخذ الإسبانيون منذ تلك الساعة يفكرون في الجولة الثانية، ويستعدون لها، ويستفزون شعور الإسبان والمسيحيين من أجل بذل النفس والمال، للأخذ بالثأر من المسلمين، وإرجاع وهران والمرسى الكبير، كنقطة انطلاق لإسبانيا، وللمسيحية جمعاء.

استعدت إسبانيا استعدادًا هائلًا لهذه المعركة الكبرى.

وقد أبقت لنا الوثائق التاريخية إحصاء مدققًا عن مدى هذا الاستعداد، ننقل منه الأرقام التالية.

عدد الجيش المهاجم ٣٠٠٠٠ رجل
عدد سفن الأسطول والنقل ٥٢٥ سفينة
عدد المدافع ٧٢٠ مدفعًا
عدد القنابل من أحجام مختلفة ١٦٤٢٠
عدد قنابل يدوية ٥٦٠٠٠
قذائف مختلفة ٨٠٦٩٣
قناطير البارود ١٢٤٢٧
صناديق رصاص البنادق ٨٠٠٠
بنادق ١٢٠٠٠
وجبات الطعام للجيش ٠٠٠ ٢٠٠٠
واستعد الأسطول للإقلاع

المنشور الملكي الصليبي

يوم ٦ جوان (١٧٣٢/ ١١٤٥هـ) أذاع ملك إسبانيا، فليب الخامس، وحفيد ملك فرنسا لويز الرابع عشر على البلاد الإسبانية، وعلى كامل البلاد النصرانية- هذا المنشور التي شاركت كل وسائل الإعلام في إذاعته:

إن إرادتنا الملكية قد اقتضت ألا نترك خارج دائرة كنيستنا المقدسة وديانتنا الكاثوليكية أي جزء من أجزاء الأرض التي كانت العناية الإلهية قد وضعتها تحت سلطاننا، عندما اقتضت وضعنا على عرش هذه المملكة، والتي تغلب عليها الأعداء بكثرة عددهم، وأخذوها ما وأخرجوها عن طاعتنا بواسطتي العنف والاحتيال، إننا لم نترك قط التفكير في استرجاع تلك الأجزاء المقتطعة، إنما حالت الأحداث المؤلمة بيننا وبين تحقيق أملنا في ذلك الاسترجاع، فلم نتمكن قبل اليوم من تجهيز القوى العظيمة التي وضعتها العناية الإلهية تحت تصرفنا.

واليوم، ورغم أننا لم نتخلص بصفة تامة من تلك الأحداث المؤلمة فقد صممت على أن أبادر باسترجاع مركز وهران ذي الأهمية العظيمة، والذي كان فيما مضى محط آمال ومظهر قيمة التقوى المسيحية والأمة الإسبانية.

ولقد رأيت أن بقاء وهران تحت سلطان المتوحشين الأفارقة إنما هو عائق عظيم يحول بيننا وبين نشر ديانتنا المقدسة، كما أنه باب مفتوح يواجه إسبانيا ويهدد سكانها الساحليين بالغزو والاسترقاق...

من أجل إدراك هذه الغاية السامية قد قررت بأن أجمع في مدينة الليكانت جيشًا يشمل ثلاثين ألفا من الرجال والفرسان، مع كل ما يلزمهم من الأسلحة والمؤن والمدفعية وكل الآلات والمعدات اللازمة لمثل هذه المعركة الحامية.

ولقد عينت على رأس هذا الجند قائدًا الكونت دي موتيمار، بمعية قادة وضباط آخرين، لهم من الخبرة ومن الهمة والشجاعة ما يجعلنا نرجو من وراء هذه العملية فوزًا مجيدًا.

إن عددًا عظيمًا من السفن المختلفة الأنواع والأشكال قد جُمعت بأمري في نفس المكان، تحرسها سفن الأسطول الكبيرة والصغيرة، ستحمل هذا الجيش العظيم حالًا، من أجل استرجاع مدينة وهران.

وبما أن مثل هذه الحملة لا يمكن أن تنجح ما لم تكن مؤيدة بعناية الله فقد أصدرت أوامري لجميع ممالكي بأن تقام في كل مكان صلوات عامة ابتهالًا إلى الله من أجل تحقيق النصر لجيشنا في هذه المهمة الصعبة. . .

أشبيلة ٦ جوان (١٧٣٢)

النزول إلى البر والمعارك الأولى

أقلع الأسطول الإسباني يوم ١٥ جوان (١٧٣٢)، قاصدًا الناحية الوهرانية، فوصلها بعد عشرة أيام، لكن رياحًا معاكسة لم تمكنه من الاقتراب من الساحل، فبقي ينا‌ور إلى يوم ٢٩ والجزائريون لا يعرفون النقطة التي اختارها لنزوله، فحشدوا قوتهم في وهران والمرسى الكبير.

وكانت الحملة الإسبانية كلها تحت قيادة الدوق مونتيمار، ولعله من أصل عربي؛ إذ كان يحمل لقب «البرنوس» عائليًّا.

وكان الباي الشيخ مصطفى بوشلاغم فاتح وهران وأميرها منذ سنة (١٧٠٧) يستعد للدفاع بما بين يديه من قوى، وتجمع حوله ما يزيد عن العشرين ألفا من المجاهدين من رجال الشعب مع نحو ٢٥٠٠ رجل من الجيش، وكانت وهران مسلحة بما يزيد عن ١٣٨ مدفعًا، منها ٨٧ مدفعًا من البرونز.

اختار الإسبان لنزولهم ساحة عين الترك (٥٠ ميلو مترًا غربي وهران) ويوم ٢٨ جوان أخذت القوارب الإسبانية وعددها نحو الخمسمائة، تنقل الجند من السفن إلى الأرض، وكانت القوة العربية القليلة العدد هنالك لا تستطيع شيئًا ضد هذا العدد الضخم، فأنزل الإسبان جيشهم وعتادهم، بينما كانت النيران متواصلة بين رجال الدفاع الإسلامي -على قلة عددهم- وبين المغيرين، وجاءت بعض الإمداد من وهران، مع شيء من المدفعية، فصارت تصلي الإسبان بنيران مقذوفاتها، فتصيب منهم خلقًا كثيرًا.

أرسل الإسبان فرقة تتصدى لهذه الكتائب الجزائرية فاشتبكت معها في القتال، وتقدمت شيئًا فشيئًا، إلى أن تمكنت من مشاهدة مركز التجمع الإسلامي، القليل العدد، الذي كان يمتد على طول الجبل المشرف على ميدان المعركة.

انقضت حينئذ على الميمنة الإسبانية كتيبة من المجاهدين تشمل نحو الألفي رجل، بين مشاة وفرسان، فتمكنت من احتلال مرتفع تقع تحته عين يستقي منها جند العدو، فحالت بينه وبين الماء.

لكن القائد الإسباني أصدر أمره على الساعة الرابعة من عشية ذلك اليوم إلى فرقة كبيرة من المشاة -ومعها أربعمائة فارس- بأن تتصدى لهذه الكتيبة العربية، وأن تقوم حولها بحركة التفاف تقطع عنها خط الرجعة، لكن الكتيبة العربية لم تقع في الكمين، وانسحبت إلى المرتفعات التي كانت مقرًّا لمجموع القوى الإسلامية.

المعركة الكبرى

وما كادت تشرق شمس يوم ٣٠ جوان حتى كانت ميسرة الجيش الإسباني قد التحمت في معركة هائلة مع المجاهدين، قتل في أثنائها القائد الإسباني الذي كان يقود هذه المعركة.

وعندما رأت قيادة الإسبانيين أن الضغط الجزائري قد اشتد ضد الميسرة أمرت بأن يتحرك الجيش كله ضد المراكز الإسلامية، وانطلق الإسبانيون في شدة وفي حماسة، وشملت المعركة كامل الواجهة، فدحروا الجيش الجزائري، الذي احتل مراكز أخرى، على جانبي فج عميق ينحدر من الجبل، وهو ممر الجيش الإسباني، وأخذوا يصلون هذا الجيش نيرانا حامية، أوقعت بهم خسائر كبيرة، لكنهم تمكنوا بعد من التغلب -نظرًا لوفرة عددهم- على المقاومة الجزائرية، فاعتصم المجاهدون بجبال أخرى من وراء مراكزهم الأولى، وأشرف الإسبان من فوق الجبل على مدينة المرسى الكبير.

تسليم المدينتين

قرر الباي مصطفى بوشلاغم ورجال الحرب الذين معه الانسحاب من المدينة، وإخلاءها من سكانها ومن المدافعين عنها؛ إذ رأى أن وسائل الدفاع التي بين يديه لا تمكنه مطلقًا من مجابهة هذا العدد الإسباني الضخم، وما لديه من معدات هائلة، ورأى أن يستمر على المقاومة من وراء المدينة، ريثما تمكنه الظروف، وتمكنه الأمداد الجزائرية من استرجاعها، وهكذا خرج الباي ورجال الإدارة حاملين على مائتي بعير أمتعتهم وأموال الحكومة، واقتدى بهم السكان، ولم يكن عددهم يومئذ كبيرًا، ودخل الإسبان عشية يوم أول جويلية المدينة، فكانت خالية من كل حياة.

كان الداي بابا عبدي باشا قد أرسل على وجه السرعة مددًا من الجزائر، يبلغ ألفي رجل، تحت قيادة ولده، لكنه وصل بعد أن كانت المدينة قد أخليت أمام الإسبان، فانضم الجيش إلى قوى الدفاع التي طوقت المدينة من كل جهاتها.

وما كاد نبأ سقوط المدينة بهذه الصفة المزرية الحقيرة يبلغ مدينة الجزائر حتى سادتها موجة من الحزن والهم، وآوى الداي عبدي باشا إلى بيته، وقد

بلغ من الكبر عتيا، وامتنع عن الأكل حزنًا وغمًّا، إلى أن فارق الحياة وكان قد بلغ من السن ٨٨ سنة.

استمرار المعركة

كان المسلمون عند انسحابهم من وهران قد تركوا بها كل مدافعهم، فلم يأخذوا معهم إلا الأسلحة الخفيفية، ورابطوا في الجبال المخيمة على المدينة مضيقين عليها الحصار فلم يستطع الإسبان التحرك إلى الداخل، وأرجعوا معظم قواهم إلى إسبانيا تاركين بالمدينتين ما يكفي للدفاع عنهما.

واستمرت المعركة حامية الوطيس مدة سنة تقريبًا، ففي يوم ٤ أكتوبر حال المجاهدون بين الإسبان وبين حصن سانتاكروز، فما استطاعوا تموينه إلا بعد معركة حامية وخسائر كبيرة.

ويوم ٤ نوفمبر هاجم المجاهدون المدينة، ووصل الباي مصطفى بوشلاغم على رأس فرقته إلى نفس الأبواب، والتحم مع الإسبان في معركة عنيفة، استشهد في أثنائها ولده.

ويوم ١٢ نوفمبر التحمت نيران معركة جديدة، انتقم فيها الباي بوشلاغم لاستشهاد ابنه بقتل المركيز دي سانتاكروز، وجمع كبير من الجيش الإسباني.

وفي سنة (١٧٣٣) وقعت مهاجمة المدينة بشدة وعنف وأصيب الإسبان بخسائر كبيرة، يوم ١٠ جوان، وقتل قائدهم المركيز دي ميروسنيل.

وفي سنة (١٧٣٤) هاجم بوشلاغم مركز العيون حول وهران بشدة وعنف، ووصل إلى أبواب المدينة، ولم يتمكن من احتلالها.

وهكذا بقيت وهران والمرسى الكبير تحت حصار ضيق، ومعارك تكاد تكون مستمرة متوالية، وما يزيد عن الخمسين سنة، إلى أن أنقذت نهائيًا سنة (١٧٩١) كما سيأتيك بذلك البيان.

الفصل السابع عشر

الصليبية الإسبانية الثانية

انتصار الجزائر الأكبر

الاستعداد للمعركة

لم تكن إسبانيا عابثة عندما جمعت قواها الضخمة وأرسلت بها إلى وهران، فاسترجعتها -على الصفة التي سبق بيانها- بل إن أعمال إسبانيا كانت هادفة، وكانت منطقية، وكانت تسير حسب خطة محكمة ومنهاج مدقق، ألا وهو العزم على تحطيم الدولة الجزائرية وضم هذا القطر إلى الممتلكات الإسبانية، أو احتلال سواحله وجعله منطقة نفوذ إسباني -على الأقل- فانتهت هذه الصفحة الجديدة باحتلال وهران كما رأيت، إنما إدراك الغاية لن يتأتى إلا بالضرب على الرأس، والرأس هو مدينة الجزائر.

لذلك أخذت إسبانيا تعد العدة، وتجمع الأسطول، لمنازلة مدينة الجزائر مرة أخرى إثر الخيبات المريرة السابقة، وكانت آمالها هذه المرة قوية، وقد جهز الملك الإسباني شارل الثالث خلاصة رجاله، ومهرة قادته، فكانت الحملة تشمل:

٢٢٦٠٠ رجل مقاتل، ومعهم مائة مدفع ضخم لحصار المدينة.

أما الأسطول فكان يتألف من **٤٤** سفينة حربية، و**٣٤٤** سفينة ناقلة للجند والسلاح، وكانت التقارير السرية لدى الإسبان قد جعلتهم يتوقعون انتصارا حاسما في هذه المعركة يفتح في وجههم أبواب الأمل، وينتقم لهم من الهزائم السالفة.

أما الجزائر، فقد كانت يومئذ تحت ولاية شيخ جليل، يجمع إلى التقوى والورع والصلاح حزم الشباب، وعزيمة الأبطال، وثبات الفدائيين، هو الداي محمد عثمان باشا، الذي أحيا سنة عمر بن عبد العزيز، وقد كنا أفردناه وأفردنا عصره بكتاب خاص[١].

---

(١) محمد عثمان باشا، داي الجزائر، طبع الجزائر سنة ١٩٣٩ .

كانت الجزائر قد علمت بأمر الاستعداد الإسباني، وعرفت أن نفس مدينة الجزائر كانت هدفا لهذه المعمعة الكبرى المنتظرة، فاستعدت لتلقي الصدمة أيما استعداد، وتهيأت لملاقاة هذا الجيش الغازي بما يرضى الشرف وبما يرضى الوطن والإسلام.

وإننا لا نملك عن أي معركة من معارك الجزائر العظيمة ما نملكه من وثائق عن هذه المعركة التي قادها من الناحية الإسبانية الكونت أوريلي، وقادها من الناحية الجزائرية الداي بنفسه بإعانة وزرائه، وبايات الولايات، وأهمهم بالنسبة لهذه المعركة باي قسنطينة صالح الأزميرلي.

ونظرًا لوفرة هذه الوثائق المختلفة فإننا سنورد عن كل جزئية من جزئيات هذه المعركة التي كان تأثيرها عالميا ما ورد عنه في مختلف التقارير الرسمية التي بين أيدينا:

التقرير الرسمي العثماني، وتقرير السيد محمد بن أحمد العنتري، المكتوب للباي صالح، وتقرير الأميرال مازارديو الإسباني، وعلى هذه الصفة سنكون قد أحطنا علمًا بتفاصيل هذه المعركة من كل جوانبها

الاستعداد الإسباني

يقول التقرير الرسمي الإسباني الذي حرره الأميرال مازادريدو: «كانت الحملة كلها قد تجمعت في خليج الجزائر يوم غرة يوليو، وقرر الكونت أوريلي قائد الحملة أن يحاول النزول إلى البر عند فجر يوم الثالث من جويلية، واختار لنزول جنده الساحل الواقع جنوب وادي الحراش، وطلب إلى قائد الأسطول أن يشد أزره برمي قنابل الأسطول على الساحل المعين، ثم أمر بأن ينزل إلى البر مباشرة مع الأفواج الأولى من الجيش ١٢ قطعة مدفعية من عيار ٤ وتنزل إثر ذلك على الفور ١٢ مدفعًا من عيار ٨ و٨ مدافع من عيار ١٢، واتفق مع قائد الأسطول على أن تقترب السفن أكثر ما يمكن من الساحل، وأن تعين مهمة كل سفينة حربية وما معها من الناقلات، لكن رأينا عدم إمكان تنفيذ كامل الخطة في هذا الأجل القصير، فاتفقنا على تحديد أجل النزول إلى البر ليوم ٤ جويلية...

ولقد هبت رياح قوية جدًا صبيحة يوم ٣ جويلية كانت تجعل النزول غير ممكن؛ لأن البحر كان من جراء ذلك كثير الاضطراب...

وفي عشية نفس اليوم جمع القائد الأعلى مجلسًا حربيًا، وقرر إنزال الجند في خليج مالا موجير mala munger الذي يقع غربي رأس كاكسين[1] وتقرر تنفيذًا لهذا الاتجاه الجديد تخصيص عدد من السفن (ذكر التقرير أنواعها) لنقل الجنود، ولقد نفذت البحرية جميع ما طلب منها، بل أضافت سفينتين إلى السفن المطلوبة، وألقى قائد الأسطول الأمر بأن تقلع تلك السفن في الليلة الموالية، وتكون الحملة تحت قيادة القائد العام، وتكون

(١) غربي الجزائر على نحو ٢٠ كيلو متر من المدينة.

وراءه السفن ناقلة الجيش تليها السفن ناقلة الفرسان وآلات الحرب والعتاد والمؤن...

وكان البرنامج يقضي أن يقع الرُسوُّ أقرب ما يكون إلى الساحل، حتى يتمكن الجيش من النزول بكل سرعة، والسير توًّا نحو المرتفع الذي تعلوه قلعة السلطان[1] وتحتل البطاريات الموجودة هنالك...

وكان هذا البرنامج جميلا جدًّا فوق الورق...

فعندما جن الليل، وفي الساعة المحددة لإعطاء الأوامر بالمسيرة- كانت الريح قد خفت واتجهت نحو الشرق، وكان البحر مضطربًا لا يسمح بالنزول المقرر...

فجمع القائد العام المجلس الحربي من جديد، وقرر أخيرًا العدول عن رأيه، وأن يقع إنزال الجيش في المكان المقرر أول مرة (جنوبي وادي الحراش) وأن تقع العملية يوم ٧ جويلية...

ويوم ٤ جويلية، عند نهاية النهار كلفت بأن أضع الخطة النهائية لنقل الجنود، وتعيين السفن التي تقوم بذلك على أن تنزل للبر ٧٧٠٠ رجل تقريبًا، وتنزل سفن أخرى بعيد ذلك بقليل ٧٠٠ رجل آخرين.

وهدأت حالة البحر ليلًا وعندما جاء صباح اليوم السابع من جويلية وزعنا على قادة الفرق الصغيرة السبعة قائمة السفن التي تمتطيها كل فرقة، وعينت ضباط البحرية الذين يقودون هذه الحركة باتفاق مع ضباط الوحدات، ثم ذهب القائد العام الكونت أوريلي بصحبتي إلى السفينة «الشرق» ومنها

---

(١) يقول مترجم التقرير: إن القلعة المذكورة يعني بها برج بو ليلة، لا قلعة السلطان التي تدعى فور لمبرور، المشرفة على الجزائر.

لاحظنا بكل دقة البطاريات (الجزائرية) الموضوعة فوق الساحل الذي تقرر النزول عليه، وقد تبين لنا وجود بطاريتين، فقرر القائد العام أن نضع سفينتين حربيتين في مواجهة كل منهما لقتالهما.

الاستعداد الجزائري

ويقول التقرير الرسمي العثماني عن الاستعداد من الجهة الجزائرية:

«وبعد يومين وليلتين من مغادرة هذا الأسطول لبلاده وصل إلى الخليج الجزائري واصطف على أشكال وخطوط مختلفة في خيلاء وتحدٍّ، وكانت مقدمات كل هذه السفن مواجهة لوادي الحراش، وعندما وصلوا على مقدار رمية مدفع من البر ألقوا بمراسيهم إلى البحر، وأرسوا متباهين بقوتهم وكثرة عددهم، ورأينا يومئذ رأي العين أهمية هذه القوة العظيمة التي جاء بها الكفار الملاعين.

وكان هذا المنظر الهائل جديرًا بأن يُدخل البلبلة في النفوس، ويثير الدهشة والعجب، لكننا رجعنا إلى مالك الملك، الواحد القهار، نستمد منه النصر والتأييد وتوسلنا إليه بآيات الذكر الحكيم، ربنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

وتلونا قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فاطمأنت النفوس لذكر الله، وأنزل الله السكينة على قلوب المؤمنين، وأصدر الوالي محمد باشا -أطال الله بقاءه وأمَّنه مما يخشاه- أوامره بما يدل على شدة حزمه وقوة شكيمته، وعدله ورحمته، واستعد لملاقاة العدو تحت حماية الله مصرف الأمور، فألهب الحماس في كل طبقات ومختلف الجنود، معتمدا على الله السميع البصير، ومما قرره أنه يجب على جميع الصبيان الذين يتجاوز سنهم السبعة أعوام أن يعملوا مع أهل المدينة ومع

الجيوش المختلفة في أعمال الدفاع والتحصين، وعمرت القلاع والحصون، ووضعت البطاريات في مكانها، ثم وقع تسجيل الجنود الذين يشاركون في «المحلة» فكانوا يعمرون أكثر من مائة خيمة، وكان توزيع الجيش كما يلي:

قسم انضم إلى محلة السيد حسن الخزناجي (وزير المالية) حفظه الله من كل سوء معززًا القوة التي لديه، وكان مركزه بعين الربط(١).

وقسم آخر عزز القوة التي يقودها آغا العرب، السيد القائد علي، المدرك الفهامة، وكان مركزه عند وادي خنيس(٢).

وقسم آخر عزز القوة الموضوعة تحت قيادة خوجة الخيل (وزير الحربية) حامل كتاب الله، وصاحب العقل الراجح والبأس الشديد وكانت محلته تحرس باب الوادي.

وجاء باي الشرق الهمام صالح باي على رأس جيوشه، فخيم على وادي الحراش وقدم باي تيطري مصطفى باي، وخيم بجيشه على جهة تاما نتفوس ومعه بعض القبائل وفرسان ناحية سباو.

أما خليفة الغرب (محمد عثمان) فقد جاء على رأس أربعة آلاف من فرسان العرب الدواير، وخيم على مقربة من معسكر الخزناجي.

وأما باي الغرب إبراهيم باي، فقد بقي على مقربة من مدينة مستغانم، كقوة رديف ونجدة.

وأخذ كل قائد ينظم جيشه ويرتبه في المنطقة المحددة له، ثم حفر كل جيش الخنادق وأنشأ المتارز، وكان العمل متواصلًا ليلًا ونهارًا، وكان

---

(١) الحي الذي يدعى اليوم «ساحة المناورات» بين مدينة الجزائر وحي بلكور.
(٢) آخر حي العناصر، حيث حديقة التجارب.

صوت بارود المسلمين يسمع كل ساعة وكأنه الرعد القاصف، مستمرًا دون انقطاع».

ويقول التقرير القسنطيني، الذي كتبه الشيخ العنتري، ما يكمل المعلومات السالفة(١):

«لقد اتخذ الباشا كل الحيطة التي يقتضيها المقام، وأخذ الجيش يقيم الاستحكامات للدفاع في كل جهة، أما رجال القبائل الذين يسكنون الجبال القريبة من مدينة الجزائر فما كادوا يسمعون نبأ قرب وصول النصارى الإسبانيين -دمرهم الله- حتى جاءوا من كل ناحية لكي يأخذوا نصيبهم في هذا الجهاد، وكانت الجموع العربية تتوارد في أعداد كبيرة يصعب معها إحصاء عددها، وعلى الأخص عرب بايلك قسنطينة، وكان بين هؤلاء العرب عدد كبير من الصالحين ومن العلماء ومن طلبة العلم، وكانت أول صفوفهم لا تكاد ترى آخرها، وضاقت بهم الأرض بما رحبت، وطلع نجم الإسلام مشرقًا عاليًا، وكان الإيمان يغمر القلوب، وكل رجل كان يتمنى في قرارة نفسه أن يكون مجاهدًا وأن يموت في سبيل الله شهيدًا...

أما أعداء الله الكفار، فقد اختاروا خمسًا من بين كبريات سفنهم، كانت تحمل كل واحدة منها ٨٠ مدفعًا، وتقذف بقذائف يتراوح وزنها بين ٣٦ و ٣٤ رطلًا...

فاثنتان من هذه السفن وقفتا في مواجهة برج الشرق (برج الكيفان) واثنتان وقفتا في مواجهة محلة الأغا، والأخيرة واجهت محلة الخزناجي...

وفي اليوم السابع من الشهر المذكور، أخذت هذه السفن تقصف بمدافعها البطاريات التي أقامها جيشنا، وأجابت المدافع الإسلامية على هذا القصف

---

(١) معرب عن الفرنسية.

بمثل الشدة والعنف، واستمر ضرب المدافع طوال الليل، ثم انسحبت السفن إلى عرض البحر بعيدة عن مرمى القنابل، وكانت تستطلع أحسن مكان للنزول على الأرض...

وفي الصباح ألقى المسلمون أبصارهم على أسطول العدو الكافر -دمره الله- فرأوا السفن والنقالات والقوارب تعمر بالجند، واستمر ذلك كامل النهار والليل الذي يليه».

نزول العدو والمعارك الأولى

يقول التقرير العثماني:

«وبعد سبعة ايام من ذلك أخذ الكفار الملاعين -محقهم الله- يلقون قذائف المدافع على بطاريات وحصون الحراش وخنيس، وابتدأت المعركة.

وبنعمة من الله وفضله انقلبنا ولم يمسسنا سوء، وعادت السفن العدوة إلى مراكزها الأولى، وقد أصبناها إصابات كثيرة.

وبعد يومين، وكان يوم السبت، عند مطلع الفجر- غادرت سفن الحرب وناقلات الجند مركز تجمع أسطول العدو، واقتربت من الساحل عند مصب وادي خنيس، وكانت تطلق على مراكز الإسلام نيران مدافعها ورصاص بنادقها، فكانت تتصاعد نحو السماء في أصوات كأنها الرعود القاصفة، وهكذا تمكنت سفن كثيرة من ناقلات الجنود من الرسوّ على الساحل، وأنزلت على الساحل نحو أربعة وعشرين ألف كافر(١) واستقروا بالمكان.

---

(١) العدد كما ترى مبالغ فيه كثيرًا، فمجموع الجيش كان ٢٢٦٠٠ جندي.

وعندما لاح نور الصباح كان جند الإسلام الظافر المقاتل في سبيل الله أبطال الجهاد المغاوير، الشجعان المنقادون- قد درسوا الموقف حق الدراسة، واستعدوا بحمية وإيمان لخوض المعركة، مصممين على أن يحرزوا الشهادة في سبيل الله، ابتغاء وجه الله وجنة الرضوان.

وبادر الكفار الملاعين بإيقاد نار المعركة فهاجموا متارزنا (استحكمات) المحروسة، وكانت موجات هجومهم المتوالية تتكسر فوق صخور استحكاماتنا، هذا مع أن المسلمين فوجئوا بنزول العدو الكافر! ثم وصل الأنجاس -دمرهم الله- إلى البساتين، حيث يقوم المبنى الجديد الذي هو مخزن بارود بطارية خنيس، وهنا قاتلهم المسلمون قتالًا عنيفًا، من وراء جدران البساتين والحدائق والديار».

ويقول تقرير العنتري:

«أما المسلمون فقد قضوا ليلهم في استحكاماتهم، وهم على استعداد لمقابلة النصارى الملاعين، وكان المسلمون يسمعون أصوات النصارى عالية مبلبلة، وكانوا ينزلون أحيانا في القوارب ثم يعودون منها للسفن، ثم يرجعون إليها، وكان المسلمون ينتظرون نزول النصارى -دمرهم الله- صبيحة السبت التاسع من جمادى الأولى (٨ جويلية) وينتظرون لقاءهم بعزيمة قوية، وكل من الجانبين يحمس جماعته.

وعندما لاح الفجر الصادق خرج المسلمون من استحكاماتهم، وتبعهم سائر الجند، فذهب بعضهم إلى ساحل البحر وذهب آخرون إلى وادي الحراش، فتوضئوا، واصطفوا جماعات لأداء صلاة الصبح، فمنهم من أنهى صلاته ومنهم من لا يزال في حالة الوضوء، عندما سمعوا ضربة المدفع الأولى من العدو، تبعتها ثلاث طلقات أخرى فخالوا عندئذ أن العدو يلقي تلك الطلقات حتى يستيقظ جنده من النوم -حسب العادة- لكنهم علموا حالًا أن تلك الطلقات

إنما هي بداية المعركة، واشتد رمي الأعداء وعم حتى شمل كامل الميدان من المحل الذي كان مربض باي قسنطينة (ما بين وادي الحميز والحراش) إلى محلة الخزناجي (ما بين وادي الحراش وعين الربط حيث محلة الآغا).

ولم يكن للمسلمين وهم على تلك الحالة من ملجأ يلجئون إليه تحت وابل من المقذوفات ورعود الطلقات، فرجعوا فورًا إلى مراكزهم، وأخذوا سلاحهم وعدتهم، وامتطوا صهوات جيادهم، واستعدوا للقاء العدو في أي نقطة يختارها للنزول إلى البر، وعندما لاحت أنوار الشمس أمكن للمسلمين رؤية ما يجري على سطح البحر من قِبل الأسطول، ورأوا حينئذ نحوا من ألف وخمسمائة سفينة وناقلة وفلك وقارب قد امتطاها الجند، وهي تسير قدمًا صوب محلة الآغا

وبسرعة خاطفة سار البايلار، وخوجة الخيل، وخليفة باي الغرب، والخزناجي، والآغا على رأس مختلف الجيوش الإسلامية إلى المكان الذي تبين أن الإسبان يريدون النزول فيه، وانتظروا العدو

ولقد كان الأعداء قد شحنوا فوق تلك الناقلات كل ما يلزم من الأدوات من أجل أعمال التركز والتحصن، كعدد لا يحصى من الأكياس -لتملأ ترابًا ورملًا ويوضع بعضها فوق بعض من أجل الوقاية- والفئوس، وغير ذلك، مع جماعة من المهندسين الذين يشرفون على عملية الاستحكام.

وكانوا يتقدمون وئيدا نحو الساحل، بينما كانت سفنهم الحربية تلقي بنيران مدافعها على معسكرات المسلمين في الشرق وعلى معسكر الخزناجي على الأخص بصفة عنيفة متوالية، ولقد قابلت بطاريات المسلمين تلك النيران بنيران مثلها، وبمثل شدتها وعنفها، واشتركت كل مدفعية المسلمين في تلك الحملة، ما عدا مدفعية مرسى وقلاع مدينة الجزائر؛ لأنها كانت بعيدة عن الميدان لا يمكن أن تصيب الهدف.

وصلت سفن العدو وألقت بمراسيها في البحر، وتقدمت القوارب تحمل الجنود، حتى وصلت على مقربة من الساحل، فوضعت ألواحًا من الخشب تصل بينها وبين البر، اجتازها الجند واستقر فوق الأرض اليابسة، وكانوا أشبه شيء بقطيع من الخنازير -دمرهم الله وشتت شملهم- وكان كل جندي من جنودهم يحمل بندقية ورمحًا برأسين من الحديد، لكي يغرسوها في الأرض حول معسكرهم فتعوق وصول فرسان المسلمين إليهم، وكذلك أنزلوا معهم أكوامًا من الأخشاب التي ارتبط بعضها ببعض من أجل وضع الاستحكامات، وما كادوا ينزلون البر حتى شرعوا توًّا فى أعمال التحصن ضمن معسكر منيع، ومن أجل ذلك حفروا في الرمال خندقًا ثم أوثقوا حوله الحبال ووضعوا وراءها أكياس الرمل وما بين أكياس الرمل غرسوا أعمدة من الخشب لكيلا تقع أو يختل نظامها...

ثم إن كل فريق من فرق جندهم شبك حوله على شكل دائري تلك الرماح ذات الرأسين الحديديتين التي أنزلوها معهم، فكانوا يستطيعون التنقل والسير وهم محتمون بتلك الدائرة التي تقيهم هجوم الأعداء.

ولقد تم إنشاء ذلك المركز الذي كان أشبه شيء بمدينة صغيرة- في مدة وجيزة من الوقت، وكان يتخلل ذلك المعسكر ١٤ طريقًا يتصل بعضها ببعض، وفي الوسط حفروا بئرًا يستسقون من مائها العذب.

هذا ما كان من جهة أعداء الله النصارى، محقهم الله وخيب آمالهم وبلبل رأيهم آمين.

وأما من جهة المسلمين، فإنهم ما كادوا ينظرون أعمال العدو وتشكيلاته وتحصنه، حتى استعدوا للمعركة، ورفعوا أصواتهم بذكر الله تعالى مهللين ومكبرين، وهجموا هجومًا صادقًا على معسكر العدو، وكأنهم البنيان يشد بعضه بعضًا، فقتلوا كل الجنود الذين كانوا خارج المعسكر وقطعوا رءوسهم

وأتوا بها أمراءهم، ثم سبحوا بحمد الله ولاحت على جباههم أنوار اليقين والإيمان، وأذهب الله من قلوبهم الخوف الذي يخوف الشيطان به أولياءه، فقويت العزائم واطمأنت النفوس، وقد استشهد من المسلمين خلال هذه المعركة الأولى جماعة، حملهم أهلهم وذووهم إلى ما وراء ميدان المعركة، كيلا تقع جثثهم الطاهرة بين أيدي الأعداء، ولم يتركوا في الميدان إلا الخيول النافقة.

أما جيف النصارى فقد بقيت ملقاة على الأرض دون رءوس بين جثث الخيل».

المعركة الحاسمة والنصر الأكبر

جاء في تقرير العنتري:

«ثم استؤنفت المعركة بقوة وشدة، وكانت القنابل والرصاص تتهاطل كوابل من المطر، وتحصن المسلمون وراء بطارياتهم وكثبان الرمل المحيطة بمعسكر الكفار، وكانت قذائف المسلمين ورصاص بنادقهم تصيب الكفار في الصميم داخل معسكرهم وهم لا يستطيعون الخروج منه مطلقًا، وكلما سقط منهم رجل أخذوه فورًا إلى القوارب التي تنقله للأسطول، فربطوا رجله إلى قذيفة وألقوا به إلى البحر حتى لا تطفو جثته فوق الماء، وكانوا أحيانا يجمعون الخمسة والستة من الجثث ويربطونها إلى قذائف ثم يلقون بها إلى البحر، وهكذا كانوا يفعلون بموتاهم داخل معسكرهم.

لكن هذه الأعمال لم تكن حاسمة، ولم يجد المسلمون حيلة لاقتحام مركز العدو نظرًا للعدد الجسيم من القنابل الذي كان يتساقط حول المعسكر لحمايته.

وهنا أشار السيد صالح باي قسنطينة برأي أخذ القوم به ونفذوه حالًا وذلك أنه أمر بجمع كل الإبل التي كانت بالمعسكرات، لم يستثن منها بعيرًا

واحدًا وجيء بها فجمعت أمام الرجال والفرسان كوقاء، ثم سيقت والمجاهدون من خلفها، نحو معسكر العدو، وكان صالح باي يدير المعركة بنفسه، ويحرض المؤمنين على القتال، وسيفه مشهور بيده، وحذا حذوه الخزناجي، والآغا، وخوجة والخيل، وباي تيطري، وخليفة باي الغرب، واقتحموا جميعًا على هذه الصفة معسكر العدو، لكنهم ما كادوا يصلون حتى اصطدموا بتلك الرماح المغروسة حول الاستحكامات فما استطاعوا لاقتحامها سبيلًا، وكان النصارى من داخل معسكرهم يمطرون المسلمين بنيران مدافعهم، ورصاص بنادقهم، واسود النهار حتى أصبح مثل الليل من كثرة دخان الطلقات المتصاعدة.

وقد اشتدت الهجيرة، وكاد الظمأ يذهب بالنفوس، حتى إن الفارس كان يسقط أحيانًا من فوق فرسه عطشًا وتعبًا، ثم رجع المسلمون إلى استحكاماتهم حاملين معهم جثث شهدائهم الأبرار رحمهم الله، وتولى أقاربهم ورجال معسكراتهم دفنهم[١]. . .

ثم اجتمع قادة الجيش المسلمون للمداولة من أجل ابتكار طريقة ترغم العدو على الخروج من معسكره المحصن، حتى يتمكنوا من قتاله. . .

وكان سيدنا الباشا -قواه الله- يتتبع من قصره (الجنية) سير المعركة، ويوالي الصلاة والابتهال إلى الله جل جلاله أن ينصر عباده المؤمنين، بينما كان علماء المسلمين وجماعة الطلبة ورجال الخير والصلاح وعامة الناس والجند المكلف بحراسة المدينة يواصلون الصلاة والابتهال، أما النسوة والأطفال فكانوا يتضرعون إلى الله ويستصرخونه ودموعهم تتهاطل يسألونه تأييد ونصر المسلمين. . .

---

(١) لم يعرف الجيش الجزائري في حرارة المعركة أن هجومهم هذا قد كبد الأعداء حسب اعترافهم أربعة آلاف قتيل، وأن هذا الهجوم كان حاسمًا فاصلًا.

ولما أذن المؤذن لصلاة العصر من ذلك اليوم ذهب الأمراء وجنودهم من أجل الوضوء وإقامة الصلاة، ثم أعطوا العلف للخيول، وأخذوا نصيبًا من الراحة، وبعد أداء صلاة المغرب ركب المؤمنون خيولهم، وشكل الأمراء صفوفهم، واستعدوا جميعًا لمصادمة العدو ضمن معسكره في جولة ثانية...

وفي هذه الليلة أرسل الله سحابا كثيفًا من جهة الجنوب، كان مصحوبًا برعود وبروق، وانسكب المطر رذاذا من جهة المسلمين، لكنه انهمر زوبعة عاصفة فوق معسكر النصارى، فأعماهم كامل الليلة[١].

وكان الأعداء خلال هذه الزوبعة يصرخون صراخًا عاليًا ويحملون جثث قتلاهم كما سلف[٢] والبقية الباقية منهم على قيد الحياة فرت من ميدان المعركة آخر الليل، وكانت المدفعية خلال كل ذلك تمطر أرض المعركة كامل الليلة.

وعندما ارتفع صوت المؤذن لصلاة الصبح -كأنه يسأل الله النصر للمسلمين- لم يسمع المسلمون صوتًا يرتفع في معسكر العدو، وانقطع إطلاق المدافع؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل نقمته على الأعداء ونظر إلى عباده المؤمنين نظرة رحمة ورضوان، واقترب أحد المسلمين من معسكر العدو الذي كان بالأمس زاخرًا كأنه أمواج البحر؛ فإذا به خاوٍ على عروشه، وشاهد البطارية المدفعية وقد تركها أصحابها، وحولها القنابل والقذائف، وشاهد فوق الأرض البنادق المختلفة الأنواع والآلات والأدوات التي لا تدخل في حصر، كل هذا وقع غنيمة في أيدينا نحن معشر المسلمين المجاهدين في سبيل الله، وكانت رءوس النصارى ملقاة فوق الأرض والدماء لا تزال تنزف منها.

---

(١) المؤرخون الإفرنج لا يذكرون أصلا هذه الزوبعة.

(٢) كان الإسبان ينسحبون أذاك إلى سفنهم خاسرين، ولم يشعر الجزائريون بذلك إلا الصباح.

وكان هذا اليوم هو الحادي عشر من شهر جمادى الأولى، أما الرائد الذي دخل معسكر النصارى مستطلعًا فقد حمل أقصى ما يستطيع حمله من مخلفات العدو، من بنادق وأشياء أخرى، ورجع يحمل البشرى إلى معسكر المسلمين وينبئهم بأن العدو الكافر الملعون[1] قد فر من الميدان وآب بالخيبة والخسران».

أما التقرير العثماني فيقول عن هذا النصر المبين:

«ثم وصل بكل سرعة من الحراش باي الشرق وباي تيطري، وكان معهم نحو خمسمائة بعير تستعمل وقاء للجيش.

وبإعانة الله سبحانه وتعالى، وبفضل سيوف المسلمين وحمية أبطال الجهاد باء الكفار بالخيبة والخسران، وكانت هزيمتهم منكرة، وحزت رءوسهم ونقلت إلى القصر حيث رصت أكوامًا، وأن ذكرى هذا النصر العظيم ستبقى خالدة مدى الزمان وسيتغنى بها المغنون في كل مكان.

فقد كان دخان المعركة يتصاعد نحو السماء سحابًا كثيفًا، وأصوات المدافع كهزيز الرعد، وهرب الكفار، وقد اختل نظامهم بصفة تامة، نحو سفنهم الراسية في المكان الذي نزلوا فيه، وقد قطع عليهم المجاهدون طريق النجاة عدة مرات، وكانت مراكزهم المحصنة تبلغ الستين عدًّا، وقد وضعوا بها آلات حربهم وطنبورهم وخيامهم، وفي تلك الليلة تركوا -أثناء فرارهم وتمزق شملهم وقد استولى عليهم الهلع والجزع- كل آلات حربهم وجميع بنادقهم و١٦ مدفعًا من النحاس، وقطعتين من راميات القذائف وجميع الآلات والأدوات، فكان كل ذلك غنيمة للمسلمين، وركبوا ناقلاتهم وسفنهم ولاذوا بالفرار...

---

(١) عبارات اللعن والشتم كانت -من الجهتين- لغة ذلك العصر في تدوين الوقائع وقد أثبتناها بنصوصها كما وردت على لسان هذا الكاتب وغيره حتى نعيش في جو تلك الأيام.

وكنا بعد هذا الانتصار بعدة أيام نطلع بحمد الله كل يوم على برهان جديد يُثبت لنا مدى الهزيمة التي لحقت الكفار وأسطوله أغرقه الله في لجج جهنم. . .

واستمر المسلمون يجمعون أياما متوالية القذائف التي ألقاها الأسطول على بساتينهم، فجمعوا منها ما يزيد عن الأربعين ألفا، وحسب الأنباء المتناقلة فإنه قد قتل من الأعداء نحو العشرة آلاف رجل ذهب الله بأرواحهم إلى النار(١) وقد فاز من المسلمين بالشهادة في سبيل الله مائتا رجل تقبلهم الله برحمته ورضوانه في جنان الخلد، بين الحور والغلمان، فاللهم أسبغ علينا النعمة بفضل شهادتهم بجاه رسولك وحبيبك صلى الله عليه وسلم، وانصرنا على القوم الكافرين، آمين».

وأما التقرير الإسباني الرسمي فلا ينفي هذه الأخبار المدققة، إلا من حيث عدد القتلى ويزيد عليها بيانًا. . .

وكان الميدان الذي نزل به الجند محددًا جدًّا وضيقًا، وكانت تتكدس فوقه جماعات الجند وكميات السلاح والذخيرة، فلم يكن يسمح بحرية العمليات، ولقد بادرتنا بالهجوم فرقة من فرسان العدو كانت مرابطة على الساحل، وكادت تقضي على ميمنتنا ثم تلحق بنا كارثة لولا تدخل السفن الجوالة التي أمطرت العدو بوابل مقذوفاتها فعطلت زحفه.

أما الجناح الشرقي، فقد تلقى هجوم فريق من الفرسان كثير العدد، مع عدد من الجمال، واعتقدنا أنه جند باي قسنطينة، واشتد هذا الهجوم وعنف

---

(١) عدد القتلى الذي يعترف به الإسبان هو ١٩١ ضابطًا و٢٠٨٨ جنديا بالنسبة لليوم الأول من المعركة -تقول روايات أخرى وإسبانية أن مجموع القتلى هو ٤٠٠٠ رجل، ولا يوجد تحقيق مدقق عن هذا العدد.

ضد جيوشنا، رغمًا عن تدخل مدفعية الفركاطات والأشباق، التي كانت نيرانها تتشابك مع نيران جندنا في البر.

أمام هذا الهجوم قاوم جندنا ببسالة خارقة للعادة، لكن العدو تمكن من تشتيت جيشنا، فأصبح كأنه قطيع من الأرانب.

عندئذ رأى الجيش ضرورة التحصن، فوقع بسرعة تحديد موقع لا يشمل إلا نحو ستمائة فاريس (الفاريس ٨٦٥ مليمترا) وبذلت لتحصين ذلك الموقع همة نادرة ودافع الجند عن نفسه دفاعًا مستميتًا ضمن هذه المنطقة الخطرة وكانوا يشاهدون إخوانهم يسقطون صرعى من كل جهة تحت ضربات لم يكونوا يعرفون مصدرها...

وعلى الساعة العاشرة صباحًا تم عمل الاستحكامات، ووضعت للدفاع عنها بطاريات مدفعية عديدة، لكن الموقع كان ضيقًا جدًّا، لدرجة أن كل رمية بندقية يقذف بها الأعداء كانت تصيب منا مقتلا...

هذا بينما كنا منذ الساعة الثامنة والنصف صباحًا هدفًا لضرب البطارية المعادية التي كانت السفينة «القديس شارل» مكلفة بتحطيمها، وقد أحدثت لنا هذه البطارية خسائر مؤلمة فادحة جدًّا (بطارية وادي خنيس) وقد حاولنا دون جدوى إخماد نيرانها، رغم تدخل مدفعية السفن في ذلك.

ولقد كانت القوارب مليئة بالجرحى تعود بهم إلى مركز الأسطول، وكانت عمليات التضميد الأولى تقع في السفن الحربية، ثم ينقل الجريح إلى إحدى السفن الثمانية التي جعلناها مستشفيات.

ومنذ فجر المعركة، وعند الطلقات الأولى جيء لنا بالمركيز دي رومانيا قتيلا.

وعند منتصف النهار أيقن القائد العام أن المقاومة أصبحت غير ممكنة.

وقرر الانسحاب، وألقى الأمر للسفن بأن تتجمع تحت حماية مدافع الأسطول، وأخذت بعض الفرق تنسحب حالًا مع بعض القطع المدفعية، وعندما جاء الليل أصبحت عملية الانسحاب عامة في كل نقطة، وبفضل العناية الإلهية تمت عمليات الانسحاب على الساعة الثالثة من صبيحة يوم ٩ جويلية، وكان الجيش حتى النهاية يحتل الموقع المحصن، وما انسحب آخر المدافعين إلا بعد أن تلقوا نداء إخوانهم الصارخ من السفن. . .

وما تركنا وراءنا على الساحل إلا أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار ١٨، و١٩ رطلا من رصاص البنادق، ورامي قذائف وبعض الأدوات. . .

وإن هذه الخسائر لا تعتبر شيئًا مذكورًا، بالنسبة لعدد الرجال الذين كنا نتركهم قتلى لو أننا انتظرنا الصباح، عندئذ كانت تحل بنا كارثة وكان العدو يحتل المركز المحصن ويستعمله ضدنا.

ولقد تلقت كل السفن الأمر بالابتعاد عن الساحل، وعندما لاح ضوء النهار كان العرب قد غمروا أرض المعركة وكنا نراهم يمزقون الجثث ويقطعون الأيدي والأرجل (بل الرءوس) ثم أحرقوا المعقل كله.

وخلال أيام ٩ و١٠ و١١ جويلية اشتغلنا بتنظيم المستشفيات في السفن العائدة فورًا إلى إسبانيا[١]. . .

ولقد قرر القائد العام رمي مدينة الجزائر بالقنابل يوم ١٣ جويلية، لكن مجلسًا حربيًا انعقد وحضره ضباط الجيش والبحرية (وذكر هنا أسماءهم) وقرر عدم جدوى ذلك العمل، فاضطر القائد العام لسحب قراره، وذلك لأن العدو كان يتفوق علينا كثيرًا لقوة بطارياته الساحلية، ونظرًا لحالة البحر».

---

(١) وكانت تحمل العلم الأسود حدادًا.

الخاتمة

هكذا كانت نهاية هذه المعركة التي توقع الإسبان منها تحطيم مدينة الجزائر وإذلالها، وبسط سلطانهم على أرضها، فإذا بها تنقلب إلى هزيمة منكرة تضاف إلى هزائمهم السالفة أمام مدينة الجزائر، فلم يتركوا فوق أرض المعركة قتلاهم وعتادهم فحسب، بل تركوا فوقها آخر آمالهم.

ولقد كان دفاع الجزائريين رائعًا، لا من حيث الحمية والشجاعة فقط، بل من حيث الفن العسكري أيضًا.

يقول المؤرخ الفرنسي بربروجير في تعليقه على هذه المعركة، بالمجلة الإفريقية التي قدمت لنا مجموعة هذه الوثائق الثرية:

إن الجزائريين لم يظهروا خلال هذه المعركة شجاعتهم فقط، بل أظهروا معها ذكاءهم الحربي، وسرعة حركتهم العظيمة.

وانتهى كل شيء ما بين يومي ١ و١١١ جويلية (١٧٧٥)، أي: خلال معركة لم تدم من أولها إلى آخرها أكثر من عشرة أيام.

ولقد لاحظ المؤرخون الأجانب أثناء هذه المعركة أنه لم يقع بالجزائر العاصمة أي حادث مهما كان أمره، ضد الأسرى المسيحيين، أو ضد قناصل الدول ومعاونيهم، أو ضد النصارى الذين كانوا بالمدينة رغمًا عن وجود ما يزيد عن المائة والخمسين ألفًا من المجاهدين الذين لبوا داعي الجهاد، من مختلف جهات البلاد، حتى جهات أقصى الجنوب (منهم ستة آلاف من الأتراك، وثلاثة آلاف بحري بالمرسى).

أما الباشا محمد بن عثمان، فكان يعامل الجرحى من الجزائريين ومن الإسبان المأسورين على قدم التساوي، وأمر بحسن معاملة الأسرى، لكن إسبانيا العنيدة ستحاول محاولة أخرى من نوع جديد أمام الجزائر كما سترى.

الفصل الثامن عشر

الصليبية الإسبانية الثانية
ضد العدوان الإسباني في البحر

تبادل الأسرى

ما كانت إسبانيا لتستطيع صبرًا على تلك الهزيمة المنكرة التي منيت بها أمام الجزائر، وكان عليها أن تعيد الكرة على مدينة الجزائر بصفة حاسمة قاصمة، لكي تذلها، ولكي ترغمها على قبول صلح يملى عليها إملاء، في حالة ما إذا بقيت الدولة بعد تحطيم مدينة الجزائر.

وقد حاولت إسبانيا بعد كارثة الحملة السالفة الذكر أن تفتح مع الجزائر مذكرات سياسية، لكن الديوان رفض رفضًا باتًّا الدخول في أي مفاوضات، أو مذاكرات ما دامت إسبانيا تحتل وهران والمرسى الكبير.

قصارى ما وقع بعد جهود طويلة مضنية أنه اتفق في شهر أكتوبر سنة (١٧٦٨) على تبادل الأسرى الموجودين عند الجانبين، واشترط الجزائريون أن تطلق إسبانيا جميع ما لديها من الأسرى، مقابل أنها تستطيع افتداء الأسرى الإسبان الذين بالجزائر، وهكذا أطلقت إسبانيا سراح ١٢٠٠ أسير مسلم كانوا مستعبدين في بؤر التجديف بالسفن، وأطلق الجزائريون سراح ٧١٢ أسير إسباني مقابل مال جزيل.

وأعيدت نفس الاتفاقية سنة (١٧٧٣) واشترطت الجزائر فك أغلال أسيرين مسلمين مقابل كل أسير إسباني، وهكذا أطلقت إسبانيا سراح ١١٠٦ من المسلمين -وهم كل من لديها- مقابل إطلاق الجزائريين سراح ٥٧٠ من الإسبان.

تهيئة الغزو البحري

رأت الدولة الإسبانية أنه قد آن الأوان لتحطيم مدينة الجزائر؛ إذ كانت الدولة الجزائرية في حالة حرب مع معظم الدول الأوربية، وكان أسطول الجزائر موجودًا في جهات عدة من البحر.

وكان البرنامج الإسباني محكمًا، ولربما كان يحرز على قسط كبير من النجاح، لولا ذلك العامل الأساسي الذي لم يقرأ له الإسبان حسابًا والذي كان عاملًا أساسيًا في هذه المعركة، وفي كل معركة: عزيمة الشعب وثباته.

كان المنهاج الإسباني يقتضي:

١- مهاجمة الجزائر بحرًا بواسطة عمارة بحرية قوية.

٢- تحطيم السفن الجزائرية الموجودة بالمرسى.

٣- تحطيم حصون وقلاع مدينة الجزائر.

٤- إملاء الإرادة بعد ذلك على الجزائر.

واجتمع الأسطول الإسباني في مدينة قرطجنة الإسبانية، وكان يشمل ٧٦ سفينة حربية، وعلى رأسه أحد أعلام البحر المشهود لهم بالقوة والمهارة الأميرال أنطونيو باركلو، ثم أبحر نحو الجزائر يوم أول أوت من سنة (١٧٧٣).

استعداد الجزائر

في شهر ماي من نفس تلك السنة (١١٨٧هـ) تلقى داي الجزائر الكبير محمد عثمان باشا من ملك المغرب السلطان محمد بن عبد الله[1] إشعارًا بأن الأسطول النصراني يتجمع لمهاجمة الجزائر، وأن هذا الهجوم وشيك الوقوع.

عندئذ أخذ الداي يستعد استعدادًا بريًا وبحريًا، لمقاومة وردع كل عدوان:

---

(١) وكان له الفضل الكبير في العمل على تبادل أسرى الجانبين.

١- الجنود الموجودون بداخل البلاد يتجمعون بمدينة الجزائر، فجاء من بايليك قسنطينة ٢٥ ألفًا، ومن بايليك معسكر ٢٠ ألفا ومن بايليك تيطري خمسة آلاف.

٢- السكان المدنيون في الجزائر يخرجون أمتعتهم وأنفَس ما لديهم إلى حدائق النزهة خارج المدينة.

٣- الإرسال بالأسرى المسيحيين حالا إلى مدينة المدية وعددهم ١٥٤٨.

٤- الشروع حالا في بناء سفينتين مدفعيتين، لتعزيز العمارة البحرية.

المعركة والنصر

بين أيدينا وثيقة من أغرب الوثائق، هي تقرير عن هذه المعركة، من بدايتها إلى نهايتها، مكتوب باللغة الإيطالية لشاهد عيان كان يرقب سير المعركة من دار قنصلية هولاند، ما بين بوزريعة والأبيار، وقد ترجمه إلى الفرنسية الأستاذ شاول فيرود، ونشره بالمجلة الإفريقية سنة ١٨٧٦، وعن هذا التقرير نأخذ شيئًا من التفاصيل:

كان الأسطول الجزائري مؤلفًا من ٢٥ سفينة مختلفة الأحجام والقوة (مقابل ٧٦ سفينة حربية إسبانية).

يوم ٢٩ جويلية وصل الأسطول الإسباني، واصطف للقتال مواجها مدينة الجزائر، وبمجرد وقوف الأسطول رفعت حصون الجزائر أعلامها وبادرت سفن العدو بإطلاق النار.

ويوم ٣٠ جويلية خرجت من مرسى الجزائر بعض السفن، وسارت متحدية الأسطول الإسباني، ولم يستطع هذا الأسطول إصابتها بسوء واستمر تبادل إطلاق النار بين الجانبين.

يوم ١ أوت أخذت مدافع الأسطول برمي القنابل على المرسى، وأجابتها بطاريات الحصون بنار قوية جدًّا.

خرجت عوامتان جزائريتان تجرهما القوارب، فاقتربتا من الأسطول، وألقتا عليه ما كانت تحمله من قنابل، ثم رجعتا إلى المرسى سالمتين ثم خرجتا مرة ثانية، ومعهما سفن أخرى، وهاجمت الأسطول الإسباني، ورجعت سالمة، وانتهى القصف الإسباني.

عدد القتلى والجرحى من الجزائريين (ومنهم وزير الحرب) بلغ ٨ أو ١٠ رجال.

يوم ٢ أوت صباحًا، فتحت حصون الجزائر النار، ولم يجبها الأسطول الإسباني إلا بعد نحو ساعتين، ثم خرجت العمارة الجزائرية لمهاجمة الأسطول الإسباني، فتبادلا إطلاق النار، بينما كانت مدفعية الحصون توالي الضرب باستمرار، وعلى الساعة الرابعة عشية كف الإسبان عن إطلاق النار، واستمرت حصون الجزائر على الرمي نحو ربع ساعة بعد ذلك.

أصابت قنابل الإسبان بعض ديار المدينة، كما أصابت قذيفة دار الحكومة (قصر الجنينة) وكان الداي قد استقر ببرج القصبة، وسمح للنساء والأطفال بمغادرة المدينة.

يوم ٤ أوت عادت المعركة وخرجت السفن الجزائرية لمهاجمة أسطول العدو، وأصلته نارًا حامية، وكان ضرب بطاريات الأرض قويًّا جدًّا، بينما كان قصف الأسطول الإسباني أشد مما مضى.

يوم ٥ أوت كانت الريح تهب شرقية عنيفة، وكان الضباب كثيفًا لم يسمح بوقوع عمليات كبيرة، وتبادل الفريقان إطلاق النار عشية، وعزز الجزائريون مراكزهم بوضع مدافع أخرى.

يوم ٦ أوت تقدمت السفن الإسبانية، وخرجت لها السفن الجزائرية ووقع تبادل إطلاق النار، ومدافع الحصون تعزز رمي الأسطول الجزائري، ورجعت السفن الإسبانية حوالي الساعة السادسة إلى مركز التجمع، بعد أن أصابت قنابله المدينة وهدمت بعض ديارها.

وأصابت قنبلة إسبانية سفينة الرايس القدوسي، فاحترقت وأنقذتها بقية السفن، وكان عدد القتلى والجرحى بها نحو الثلاثين رجلا، كما غرقت سفينة جوالة جزائرية ومات فيها قائدها.

يوم ٧ أوت اتخذت السفن الإسبانية مراكزها للقتال، وبرزت منها سفينتان للضرب، فخرج لها الأسطول الجزائري وتبودل إطلاق النار مدة ساعتين تقريبًا، ثم انسحبت السفينتان الإسبانيتان.

واستأنف القتال عشية، وسمعنا صوت انفجار عظيم؛ حيث إن البارجة الإسبانية التي كانت تحتل أقصى مكان في المعركة قد انفجرت، وعندما تقشعت سُحب الدخان لم نرَ لها من أثر، وبعد ذلك كف الإسبان عن الضرب، وبعد ربع ساعة كف الجزائريون أيضًا ورجعت سفن الجانبين إلى مركزيهما.

يوم ٨ أوت ألقى الإسبان قنابل عديدة على المرسى، لكننا كنا نراها تسقط في البحر بعيدًا.

يوم ٩ أوت استعد الأسطول الإسباني، وأخذ يشق طريقه نحو الشمال وانتهت المعركة.

أثناء الانسحاب مرت سفينة الأميرال الإسباني قريبًا جدًّا من الحصون الجزائرية.

فحيتها الحصون الجزائرية بطلتقي مدفع بالبارود، دون قذائف.

وهكذا انتهت المعركة بعد إخفاق ٩ هجومات إسبانية، تمكن الأسطول الجزائري وبطاريات الحصون من ردها كلها.

وقد أطلق الجزائريون على الإسبان نحو ١٥ ألفا من قذائف المدافع، وكان عدد الشهداء نحو مائة شهيد بالمرسى، ولم يذع الإسبانيون عدد قتلاهم، وخاصة ضحايا السفينة البارجة.

أما بالمدينة، فقد كان القتلى نحو الثلاثمائة، وتهدم نحو الثلاثمائة من ديار الجزائر، وكان الإسبانيون قد ألقوا على الأسطول الجزائري وعلى المدينة ما يزيد عن السبعة آلاف وخمسمائة قنبلة وقذيفة مختلفة.

الغزو البحري مرة أخرى

كان من المحقق الذي لا ريب فيه أن الإسبانيين لن يصبروا على هذه الهزيمة، وأنهم سوف يعودون قريبا لتنفيذ البرنامج، والأخذ بالثأر.

ولم يضيع الجزائريون وقتهم سدى، فقد اجتمع رجال الحرب، ورجال البحر، ودرسوا نتائج المعركة، وعرفوا نقط الضعف في دفاعهم، فعملوا على تدارك ذلك؛ سواء ببناء حصون جديدة، أو بإنشاء السفن المدفعية العوامة التي تخرج لقتال العدو، والتي كان لاثنين منها قسط عظيم في دحر أسطول الإسبان المرة السالفة، فما انقضى أمد وجيز حتى كان الاستعداد تامًّا، وعملت كل الترتيبات لإبقاء سفن الإسبان بعيدة جدًّا عن المدينة.

أما من الناحية الإسبانية، فقد درست أيضًا الوضعية، وقرر القوم إعادة الحملة على الجزائر بصفة أقوى، واعتقدوا أن هذه الغزوة الجديدة ستمكنهم من تحقيق الآمال.

جمع الأميرال أنطونيو دي بارلكو نفسه هذه المرة ١٣٠ سفينة حربية تحت رايته، وأقلع بعد سنة نحو الجزائر يحمل معه عواطف وآمال المسيحية كلها.

ذلك أن هذه الغزوة البحرية الثانية كانت -كما يقول المؤرخ دو قرامون الذي ذكرناه آنفًا- صليبية حقيقية، وقد نشر البابا يوم ١٨ جوان سنة (١٧٨٤) بلاغا باباويا BREF يعلن فيه أنه قد وهب الغفران والبركة السماوية لكل مسيحي يشارك في هذه الغزوة.

وجاءت من البرتغال عمارة بحرية لتأييد الأسطول المسيحي، ويوم ٩ جويلية (١٧٨٤) كان الأسطول النصراني يحتل مواقعه في وسط الخليج، على مرأى من مدينة الجزائر، وما كاد الأسطول يأخذ أهبته للقتال حتى خرجت له السفن العوامة الجزائرية حاملة المدافع الكبيرة، وأجبرته على البقاء بعيدًا على المدينة، بحيث لم تصبها قنابله.

ولدينا عن هذه المعركة الكبرى تقرير كتبه رهبان البعثة الكاثوليكية بمدينة الجزائر، نأخذ عنه ملخصًا للمعركة الكبرى الحاسمة التي جرت وقائعها يوم ١٢ جويلية، يقول التقرير:

«يوم ١٢ جويلية برزت سبعون من سفن الإسبان من نوع الشالوب من غير خيام ولا صواري، مما يدل على استعدادها للقتال، فبرزت لها ٦٣ تشالوبا جزائريًا، منها ١٣ تحمل قاذفات القذائف، و٤٣ منها تحمل المدافع الثقيلة.

وتقدمت السفن بعضها من بعض واتخذت مراكزها للقتال وكانت السفن الإسبانية معززة بالحراقات وبالسفن الضخمة، وأخذ الأسطولان المتعاديان يقومان بحركة التفاف على خط متواز، وعلى رمية مدفع، ولم يرد الجزائريون أن يكونوا البادئين بالقتال؛ لكن على الساعة الثامنة انطلقت رمية مدفع من الحصون أمرا للجزائريين بالبدء في القتال، فأخذ الجزائريون في رمي القنابل من طول الخط على السفن الإسبانية، وأجاب الإسبان على ذلك بالمثل وكان الجانبان على نصف رمية مدفع، وأحاط بالمتحاربين من جراء ذلك دخان كثيف، فلم نكن نرى إلا القذائف الإسبانية التي كانت تتخطى السفن

الجزائرية بمسافات بعيدة، (أي: أنها لم تكن مسددة الضرب، فبدل أن تصيب السفن كانت تذهب وراءها دون أن تصل المدينة).

واضطرت ثلاث شالوبات (إسبانية) للرجوع؛ لأنه قد أصابها عطب وعندما انقشعت السحب رأينا سفن الأسطول الجزائري محافظة على مركزها وعلى نظامها.

وعلى الساعة ١١ انسحبت السفن الإسبانية إلى مجمع أسطولها، وكانت السفن الكبيرة تحمي انسحابها، وبقي الأسطول الجزائري في ميدان المعركة بعد الانسحاب الإسباني إلى الساعة ١٢ .

المعارك الأخيرة والنصر النهائي

يقول تقرير البعثة المذكورة وهو لشاهدي عيان كانت كل عواطفهم وكل آمالهم مع الإسبان:

يوم ١٥ جويلية على الساعة الثالثة أطلق القائد طلقتين، فأخذت السفن مراكزها للقتال.

وعلى الساعة السادسة أطلقت السفن الجزائرية نيرانها؛ لكن خطها لم يكن حسن التكوين، وكان الأسطول الإسباني يشكل نصف دائرة تحميها سفن خفيفة على جانبيها، وابتدأ القتال على الساعة السادسة وربع وكان عنيفًا قاسيًا، واستمر حتى الساعة التاسعة والربع؛ حيث انسحبت السفن الإسبانية من نوع الشالوب، وبقيت الحراقات تضرب ضربًا عنيفًا، لكنها انسحبت هي أيضًا، وبقي الأسطول الجزائري بعد انسحاب الإسبان محافظًا على مركزه حتى الساعة العاشرة.

وانفجر مدفع في شالوب فغرق، ومات فيه ١٢ رجلًا وجرح ١٤ .

يوم ١٧ جويلية برزت شالوبات الأسطول الإسباني على الساعة الثامنة تشكل ثلاث فرق؛ منها فرقة للدفاع عن الأسطول وحمايته، وفرقة لمقاتلة السفن الجزائرية، أما الفرقة الثالثة فمهمتها الاقتراب من مدينة الجزائر وقصفها بالمدافع.

ابتدأ إطلاق النار على الساعة الثامنة والنصف، وانتهت المعركة على العاشرة والنصف.

وكانت طلقات الإسبان تتخطى السفن الجزائرية وتقع في البحر، وقد مات من الجزائريين رجلان وجرح خمسة.

وفي هذا اليوم ظهر هلال شهر رمضان، وابتدأ المسلمون صومهم يوم ١٨ جويلية، على الساعة السابعة تقدمت السفن الإسبانية واصطفت في مكان القتال، وبرزت لها السفن الجزائرية وبادرتها بإطلاق النار، في الوقت الذي بدأت فيه الحصون تطلق على الإسبان نيرانها.

وعلى الثامنة أخذ الإسبان في إطلاق النار، وكان دخان المدفعية يحجبهم عن أنظار الجزائريين، فتقدمت فرقة من سفنهم نحو المدينة وأصابت بمقذوفاتها جسر المرسى، فتصدت لها عندئذ بعض الشالوبات الجزائرية واضطرتها للانسحاب.

وعلى الساعة التاسعة والنصف أنهى الإسبان إطلاق النار.

ولم تلحق نيران الإسبان ومقذوفاتهم أدنى ضرر بالجزائريين.

ولقد انفجرت بين أيدي الجزائريين ستة مدافع، فمات من جراء ذلك ٥ رجال وجرح ثمانية.

يوم ١٩ جويلية على الساعة السادسة وثلاثة أرباع تقدمت السفن الإسبانية الشالوب، تحرسها بعض القطع الصغيرة وحراقتان، وبادرتها السفن

الجزائرية القتال على الساعة الثامنة، وأجابتها السفن الإسبانية بالضرب حتى الساعة التاسعة، ثم انسحبت راجعة إلى مركز الأسطول.

ثم تقدمت خمسة أو ست من الشالوبات الجزائرية نحو مركز الأسطول الإسباني مهاجمة، فقاومتها سفينة الأميرال والسفن التي حولها، وألقت عليها القنابل لكنها لم تحدث لها أدنى خسارة، ومات في هذه الوقعة رجلان وجرح خمسة رجال.

ويوم **٢٢** جويلية انسحب الأسطول الإسباني نهائيًّا مغادرًا مراكز القتال، ومن الغد **٢٣** جويلية أقلع منهزمًا نحو إسبانيا.

ولم يستشهد من الجزائريين خلال هذه المعارك إلا نحو الثلاثين رجلًا فقط من المدنيين؛ لأن رجال الأسطول الجزائري وكانوا كلهم من أبناء الوطن، وليس معهم -حسبما تثبته التقارير- إلا رجلان اثنان فقط من الأتراك، قد تمكنوا هذه المرة بواسطة السفن العوامة الكثيرة، وبواسطة رمي الحصون المسدد، من إبقاء أسطول المسيحيين بعيدًا عن المدينة لا تصيبها قنابله.

أما خسائر الجزائريين العسكرية، فقد كان معظمها من جراء انفجار المدافع التي يستعملونها، حيث إنهم لشدة حماسهم وإقبالهم على مقاومة العدو لم يكونوا يتركون للمدفع بعد استعماله وقتًا كافيًا لكي تبرد حرارته، وكانوا يبالغون في حشوه بالبارود؛ لكي يكون أكثر إصابة للهدف، لهذا كانت المدافع تنفجر أحيانًا، واستُشهد منهم نحو المائة رجل من جرَّاء هذه الانفجارات.

لم يعلن الإسبانيون أيضًا عن خسائرهم؛ إنما أعلنوا أنهم أطلقوا على مدينة الجزائر التي لم يصيبوها أكثر من **١٥١٥٠** قنبلة وقذيفة مختلفة.

وأخذ الإسبان يذيعون في كل جهات المسيحية أنهم يهيئون حملة بحرية ثالثة ضد الجزائر، ستكون أضخم وأكثر مفعولًا من كل ما سبقها.

واستعدت الجزائر أيما استعداد لتلقِّي هذه الصدمة الجديدة، فزادت في عدد السفن العوامة حاملة المدافع، وزادت في تحين القلاع وتزويدها بكل ما يلزم.

إنما فهمت إسبانيا الوضعية على حقيقتها، وأدركت -أخيرًا- أنها لن تنال من الجزائر منالًا.

وعلم الناس كافة في إسبانيا وأوربا أن الصليبية في الجزائر قد أخفقت نهائيًا، وأنه لا سبيل لإذكاء نارها من جديد تحت اللواء الإسباني.

فقررت إسبانيا يومئذ الإقدام على مفاوضة الجزائر وإرضائها، والاستجابة لمطالبها من أجل إقرار السلام.

الصلح وثمنه

حل بمدينة الجزائر مندوبان في قِبَل إسبانيا، هما الكونت داسبلي D'ESPILLY والأميرال مازارديو MAZZAREDO، وتوسط لهما قنصل فرنسا مسبو كرسي KERCY، وبعد مذاكرات طويلة انعقدت اتفاقية بين الجانبين في يوم ١٤ جوان (١٧٨٥) تلتزم إسبانيا بمقتضاها بتسليم وهران والمرسى الكبير للجزائريين، ودفع مقادير معينة من المال للجزائر مقابل حصولها على السلام، وعلى أن تعاملها الجزائر معاملة الدول المسالمة؛ لكن الاتفاقية التي صادقت عليها حكومة إسبانيا لم تُنفَّذ أصلا؛ وذلك من أجل عزم الإسبان على عدم إخلاء وهران، وتسويفهم في تنفيذ بقية البنود إلى أن يحصلوا على امتيازات اقتصادية.

فما لم تنجح السياسة في حله نجح فيه السيف والمدفع ودماء المجاهدين، كما سترى.

الفصل التاسع عشر

فصل الخطاب وتصفية الحساب

مهاجمة وهران

كان الباي مصطفى بوشلاغم قد فارق الحياة دون أن يحقق أمنيته في تحرير وهران نهائيًا، رغم أنه كان يضيق عليها الخناق بصفة عنيفة، وخلفه بعد حين على كرسي بايليك الغرب الحازم الجسور المجاهد الباي محمد بن عثمان الكردي، ويدعوه العرب محمد الأكحل؛ لشدة سمرته، وقد كان أبلى البلاء الحسن في الدفاع عن الجزائر إلى جانب بقية القوى الإسلامية أيام حملة أوريلي الخائبة[١].

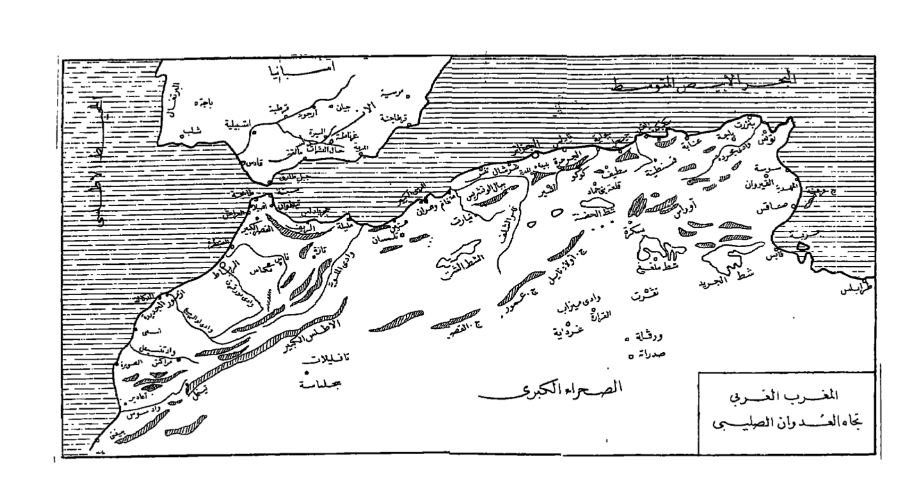
واستمر محمد بن عثمان محاصرًا لوهران، ومواليًا حملاته الصادقة ضدها على رأس المجاهدين بصفة لا تكاد تنقطع، وأرغمهم سنة (١٧٨٠) على قبول معركة خارج أسوار المدينة، نكبهم أثناءها نكبة عظيمة، ووالى أعماله بصفة مستمرة إلى يوم ١٤ سبتمبر (١٧٨٤)، حيث تمكّن من قطع مجرى الماء الذي يسقي المدينة.

ثم هاجم يوم ٢٦ سبتمبر (١٧٨٤) حصون المدينة هجومًا عنيفًا كانت شدته وصرامته مضربًا للأمثال، واحتل المجاهدون البرج الأحمر رغم دفاع الإسبان البطولي، واستمرت المعارك يتلو بعضها بعضًا.

أما العرب الذين كانوا خاضعين لإسبانيا حول وهران فإنهم قد امتنعوا منذ خيبة حملة أوريلي على الجزائر من دفع أي شيء من الجزية للإسبان، وتوقفت الأعمال حينًا ما أثناء مذاكرات الصلح السالفة الذكر، وأثناء عقد الاتفاقية؛ لكن المعارك رجعت بين الجانبين سيرتها الأولى، والباي محمد بن عثمان ورجال الشعب والجيش ينفخون في نارها بشدة وضراوة، وقد عزموا على تحقيق النصر النهائي مهما كانت التضحيات.

---

(١) انظر ترجمة حياته الحافلة بجلائل الأعمال في كتابنا «محمد عثمان باشا داي الجزائر».


المغرب العربي
تجاه العدوان الصليبي
الصحراء الكبرى
البحر الأبيض المتوسط
اسبانيا
البرتغال
باجة
شلب
اشبيلية
قرطبة
جيان
مرسية
قرطاجنة
غرناطة
قادس
تونس
بنزرت
عنابة
قسنطينة
سطيف
كوكو
الجزائر
وهران
تلمسان
تيهرت
تازة
فاس
مليلة
سبتة
طنجة
الرباط
مراكش
الصويرة
آسفي
تافيلالت
سجلماسة
سوسة
القيروان
المهدية
صفاقس
قابس
طرابلس
شط الجريد
شط ملغيغ
شط الحضنة
بسكرة
أوراس
تقرت
ورقلة
سدراتة
غرداية
القرارة
وادي ميزاب
قلعة بني حماد
الأطلس الكبير

زلزال وهران

وتدخل القَدَر مرة أخرى -كما تدخل قبل ذلك مرارًا- فوق أديم الأرض الجزائرية، فيسَّر نصر المجاهدين، وزاد في فداحة النكبة لأعدائهم.

ذلك أنه في الليلة ما بين ٨، ٩ أكتوبر سنة (١٧٩٠) على الساعة الواحدة صباحًا وقعت بمدينة وهران هزة أرضية عنيفة جدًّا دامت ٣ دقائق، حطَّمت كل منازل وهران تقريبًا، وألحقت بالحصون والقلاع والكنائس أضرارًا بالغة، ومات تحت الأنقاض ثلاثة آلاف نسمة من سكانها وجندها، ومن بينهم الحاكم العام الإسباني بالنيابة دون نيكولا غارسيا، والتهمت النيران بعض السفن وأماكن أخرى.

يقول قائد الجيش الإسباني في تقريره للملك عن الكارثة:

«إن بعض الرجال الذين لا خلاق لهم من أصحاب الحياة السافلة (من إسباني وهران) قد اغتنموا فرصة هذه الحادثة، فأمعنوا في نهب الديار الغنية بصفة أفظع مما لو كان العدو هو الناهب، ولم يبق للمستعمرين البائسين أي شيء مطلقًا، ورغم القسوة التي قابلنا بها هذه الأعمال اللصوصية، والعقاب الصارم الذي أنزلناه بمرتكبيها، فإن الأشقياء لم يرتدعوا أصلا، واستمروا على أعمال النهب والسلب»

واستمرت الهزات الأرضية تترى، إلى يوم ٢٢ نوفمبر (١٧٧٩)، واستؤنفت يوم ٦ جانفي (١٧٨٠).

الهجوم المتواصل والخلاص

استأنف المجاهدون هجومهم تحت قيادة محمد بن عثمان بصفة باسلة، وكانوا يزدادون عنفًا وضراوة، على مقدار ما كان الإسبان يزدادون ثباتًا في مواقعهم الخربة، ويقاتلون قتال المستميت دفاعًا عن كل شبر من التراب.

كان عدد مقاتلي الإسبان آخر الأمر ١٥٢٦ رجلًا وُزِّعوا على المراكز الخطرة، أما بقية الرجال والنساء فقد كانوا يقومون بأعمال الترميم، وإصلاح ما يفسده الهجوم الجزائري.

ثم تلقى الإسبانيون بعد ذلك مددًا عظيمًا من إسبانيا، قوامه سبعة آلاف رجل من المقاتلين، واستمرت الأعمال طويلة قاسية طوال ربيع وصيف سنة (١٧٩١)، واحتدمت معامع حامية أيام ٣، ٩ من شهر ماي، ويوم ٥ جويلية، وكان المجاهدون يتقدمون كل مرة شيئًا، رغم الدفاع الباسل.

تقدمت إسبانيا وقد ضاع كل أملها إلى الباي محمد عثمان باشا في أفريل سنة (١٧٩١)، أثناء هذه الأعمال تَطَلَّب تنفيذ الصلح المبرم فيما سبق؛ لكن الباشا -وقد كان يعاني سكرات الموت- استمر رافضًا كل مذاكرة ما دام الإسبان لم يستسلموا في وهران دون قيد أو شرط.

الصلح النهائي وشروطه

ويوم (١٠ ذي القعدة ١٢٠٥/ ١٢ جويلية ١٧٩١) توفى الداي العظيم محمد عثمان باشا رحمه الله، وخلفه على كرسي المملكة الداي حسان باشا، وكانت الأعمال الحربية حول وهران مستمرة، وكانت إسبانيا لا تزال تلح في عقد الصلح، مستجيبة لكل ما طلبته الجزائر منها، فقبل حسان باشا ورجال الديوان عقد الصلح مع إسبانيا على الشروط التالية:

١- تنسحب إسبانيا من وهران والمرسى الكبير، دون قيد أو شرط.

٢- تدفع إسبانيا لخزينة الجزائر سنويًا مقدار ١٢٠٠٠٠ فرنك (٢٤٠٠٠٠ دينار جزائري).

٣- تُرجع إسبانيا للجزائر كل القنابل والمدافع والذخيرة التي غنمتها عند استرجاعها لوهران والمرسى الكبير.

٤- تحمل سفينة إسبانية بصفة رسمية إلى استانبول مفتاحين ذهبيين رمز استسلام وهران والمرسى، مع جرتين من ماء عيون وهران، للخليفة السلطان العثماني كبشرى بالفتح، وتأكيدًا للرابطة مع دولة الخلافة.

وتقبل الجزائر مقابل ذلك:

١- أن يكون لإسبانيا مركز تجاري في بلدة «جامع الغزوات».

٢- وأن تبتاع من البلاد الجزائرية ثلاثة آلاف كيلة Charge من القمح سنويًا.

٣- وأن تباشر صيد المرجان على الساحل الغربي الجزائري.

وكان إبرام هذا الاتفاق يوم ٩ ديسمبر (١٧٩١).

وابتدأ انسحاب الإسبان من وهران يوم ١٧ ديسمبر من تلك السنة، وتم الانسحاب نهائيًا بعد ترك الأسلحة والعتاد المتفق عليه، وتسليم المدينة للباي محمد بن مصطفى، الذي دخلها على رأس المجاهدين الجزائريين دخول الفاتح المنتصر يوم ٢٤ فيفري (١٧٩٢).

وكان أول عمل قام به، بعد تحرير المدينة، هو بناؤه للمسجد الكبير «مسجد الباشا» من ماله الخاص، شكرًا لله على تتويج الجهاد الطويل بالفتح المبين، وقد منح حسان باشا لقب «الكبير» للباي محمد بن عثمان؛ اعترافًا بفضله وصدق كفاحه.

وبهذا الصلح، وبهذا الاستسلام ختمت آخر صفحة من صفحات العدوان الصليبي الإسباني على الأرض الجزائرية؛ أي: بعد حرب دامت قرابة الثلاثمائة عام، لم تترك في نفوس الجزائريين -وهم المقاتلون الأشراف- غلًّا ولا حقدًا ولا ضغينة، فالحروب بويلاتها وآثامها تمضي، ولا يبقى لها من ذكر إلا في بطون التاريخ، لكي يحل محلها السلام والمحبة والعمل المشترك والتعاون المثمر لخير الشعوب والإنسانية جمعاء، والحمد لله رب العالمين.

المراجع العربية

المراجع المخطوطة

حسين بن رجب شاوش ابن المفتي: «تاريخ باشوات وعلماء الجزائر» ترجمه للفرنسية مسيو دلفان، ونشره بالمجلة الآسيوية.

أبو راس محمد بن أحمد الناصري المعسكري: «نفيسة الجمان في فتح وهران» قصيدة من رديء الشعر.

أبو رأس محمد بن أحمد الناصري المعسكري: «عجائب الأسفار ولطائف الأخبار في وقائع وهران والأندلس بين المسلمين والكفار» ترجمه للفرنسية مسيو أرنود، ونشرته دار جوردان بالجزائر.

أبو راس محمد بن أحمد الناصري المعسكري: «الحلل السندسية في شان وهران والجزيرة الأندلسية» ترجمه للفرنسية الجنرال قوربيقي، وترجم قسما منه قورقوس سنة (١٨٦١).

محمد بن أحمد الحلفاوي مفتي تلمسان: أرجوزة (٧٢) بيتًا، من بديع النظم عن فتح وهران الأول.

أبو زيد عبد الرحمن: شرح الأرجوزة السالفة الذكر، بطلب المؤلف، مترجمة إلى اللغة الفرنسية.

عبد القادر المشرفي الإغريسي: «بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر» ترجم للفرنسية.

الحاج أحمد الشريف الزهاري نقيب الأشراف: «تاريخ الثمانين سنة الأخيرة للجزائر العثمانية» نسخة وحيدة بخط المؤلف سأقوم بنشرها قريبًا بحول الله.

المراجع المطبوعة

ابن أبي دينار: «المونس في أخبار إفريقيا وتونس»

ابن إياس (محمد بن أحمد): «بدائع الزهور في وقائع الدهور»

أحمد بن أبي الضياف: «إتحاف أهل الزمان»

أحمد بن خالد الناصري: «الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى»

أحمد توفيق المدني: «كتاب الجزائر»
أحمد توفيق المدني: «محمد عثمان باشا داي الجزائر»
أحمد توفيق المدني: «المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا»
دكتور حسين مؤنس: «فجر الأندلس» بحوث في مجلات مختلفة
شكيب أرسلان: «آخر بني سراج وملخص تاريخ الأندلس»
شكيب أرسلان: «الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية»
عبد الرحمن بن خلدون: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر»
عبد الرحمن الجيلالي: «تاريخ الجزائر العام»
فليب حتى: «تاريخ العرب المطول»
مبارك بن محمد الميلي: «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»
محمد فريد: «تاريخ الدولة العثمانية»
محمد عبد الله عنان: «الآثار الأندلسية الباقية»
يحيى ابن خلدون: «بغية الرواد في تاريخ بني عبد الواد»

المراجع الأجنبية

Berbrugger: Le penon d'Alger
Berbrugger: Epoques militaire de la Grande Kabylie
Bethier: L'Algerie et son passe
Boulifa S.A: Le Djurdjura a travers l'histoire
A).Braudel F.: Les Espagnols en Afrique du Nord (R
Charles andre julien: Histoire de l'Afrique du Nord
Charles andre julien: Histoire de l'Algerie
Claude Bernard: Attaque des batteries Algeriennes par Lord Exmouth.
Delphin: Histoire des Pachas d'Alger (R.as)
De grammont: Histoire d'Alger sous la domination Turque
(traduit du Turc) Devoulx: Tachrifat
Dozy (R): Histoire des musulmans en Espagne
provencal: L'Espagme musulmane au Xeme siecle-E. levy
E. Levy-provencal: Histoire de l'Espagme Musulmane
Elie de Primaudaie: Documents inedits sur l'histoire de l'occu pation Espagmole en Afrique (R.A)

Esquer ely: Les sources de l'histoire de i'Algerie (BSG.)
A). Feraud: Attaques des Espagnols contre Alger au XVIIIeme siecle (R
s la domination Espagnole,Fey (Henri leon): Histoire d'Oran avant pendant et apr
F.L.N.: L'Etat Algerien avant (1830).
G. authier E.F: Les siecles obscures du maghreb
G. Marcais: La berberie musulmane et l'Orient au Moyen age
G. Marcais: Les Arabes en Beberie
Garrot (H): Histoire generale de l'Algerie
Haedo: Epitame de los Reyes de argel (histoire des Rios d'Alger) traduit par De grammont
Motice sur un document arabe inedit relative a l'evacuation d'Oram par les : Houdas
Receuil de memoires orientaux)Espagnols en (1792
Les presides Espagnols de l'Afrique du Nord (R.A) : J. Casenove
J. Sauvaget: Introduction a l'histoire de l'Orient musulmane
J. lassus: Histoire de l'Algerie Contemporaine
L. Lacoste: La Marine Algerienne sous les Turcs
Marcel Egretaud: Realite de la Nation Algerienne
Marmol Carvajal: Description generale de l'africa traduit en francais par M. Perrot d'Alblaucourt suos le nom de: l'Afrique de Marmol
Monchicourt: L'ecpedition Espagnole de (1500) contre l'ile du Djerba
Pechot L: Histoire de l'Afrique du Nord
Piquet (Victor): Les Civilisations de l'Afrique du Nord
P. Dan: Histoire de la Barbarie et de ses Corsaires
Rene Basset: Documents musulmans sur le siege d'Alger en (1514)
S. Gsell, G. Marcais
G. Yver: Histoire de l'Algerie
Venture de Paradis: Alger au XVIIIeme siecle
Venture de Paradis: Autobiographie de Khereddine (publie par Sauder rang et Devis (sous le titre) foundation de la Regence d'Alger
Bougie place forte Espagnole 1510-1555. B. S. G. A : Wintzer (paul)
Sur la reprise d'Oran en (1732) : Xilmenes de Saudoval
Collection: Bulletin de la Societe de Geographie d' Alger et de l'Afrique du Nord (B.S.G)
Collection: L'Armee d'Afrique
Collection: La Revue Africaine (R.A)
Collection: La Grande Encyclopedie Francaise
Collection: L'Encyclopedie de l'Islam

فهرس

حرب الثلاثمائة سنه





عاصمة الثقافة العربية